

تراثنا

نهاية الأثر

في

فنيوه الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

٦٧٧ - ٧٢٣ هـ

السفر الأول

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراقات وفهارس جامعة

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبدٍ نطق بها لسانه وقلبه ،
وأنس بها ضميره ولبه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذي جعلت له الأرض مسجداً وتربتها طهوراً ،
وأُنزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ . صلى الله وسلّم عليه وعلى آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلى المراتب ،
وتسّموا من ذرّوة الشرف والثناء كاهل الكواكب ، وعلى أصحابه الذين أتطدت
بهم قواعد الشريعة وعلا منارها ، وهُدِمت معاقل الكفر وعفّت آثارها ، وأشفقوا من
قبل الفتح وقاتلوا ، وجالدوا في دين الله وجادلوا : صلاةً ترفع منار قائمها ، وتُرسل عليه
سحاب المغفرة بوابها !

- ١٠ . وبعد ، فمن أولى ماتحتج به الطروس والدفاتر ، ونطقت به السنة الأعلام عن
أنفاه المحابر ، وأصدرته ذوو الأذهان السليمة ، وأنسبت إليه ذوو الأنساب الكريمة ؛
وجعله الكاتب ذريعةً يتوصّل بها إلى بلوغ مقاصده ، ومحجّةً لا يضلّ سالكها
في مصادره وموارده : فنّ الأدب الذي ما حلّ الكاتب بؤاديه ، إلا وعمرت بؤاديه ؛
ولا وردّ مشارعه ، إلا وأستعدّب شرائعه ؛ ولا نزل بساحته إلا وأتسعت له رحابها ،
ولا تأمل مشكلاته إلا وتبيّنت له أسبابها .

١٥

وكنّت ممن عدل في مبادئه ، عن الإمام بناديه ؛ وجعل صناعة الكتابة فنّه
الذي يستظلّ بوارفه ، وفنّه الذي يجمع له فيه بين تليده وطارفه . فعرفت جليها ،
وكشفت خفيها ، وبسطت الخرائد^(١) ونظمت منها الأرتفاع ، وكنّت فيها كموقد نارٍ على

(١) لعلها : الخرائد . أي جرائد الحسابات التي يستخرج منها الأرتفاع أي مقدار الإيراد . وبقية

٢٠

الكلام يدل على ذلك لأنه أمتار اصطلاحات أهل الحساب .

يفاع . وأسترفعتُ القوانين ، ووضعتُ الموازين ؛ وعانيتُ المُقَرَّحات . وأعمدتُ على المقاييس ؛ وقدلكتُ على الأصل وما أضيف إليه ، وحررتُ ما بعد الفذلكة فكان العمل على ما أستقرتُ الجملة عليه . وأستخرجتُ وحصلتُ . وجملتُ من عرضه وخصلتُ ؛ وسقتُ الحواصل . وأوردتُ المحاسيب وقدلكتُ على الواصل ؛ وطردتُ ما أنساق إلى الباقي والموقوف ، ونضدتُ شواهد المصروف ؛ وشطبتُ شواهد الأرتفاع ، وقرنتُ أعمال المبيع بالمتاع ؛ وأستوفيتُ أعمال الاعتصار وتوال الغلات ، وتاملتُ سياق الأصناف والآلات ؛ ونظرتُ في سياقات العُلوفات والعوامل . وأجبتُ عن المخرج والمردود فأعجزتُ المناظر والمناضل ؛ وأتقنتُ مواد هذه الصناعة ، وتاجرتُ فيها بأنفس بضاعه .

ثم نبذتها وراء ظهري ، وعزمتُ على تركها في سري دون جهري ؛ وسالتُ الله تعالى الغنية عنها ، وتضرعتُ إليه فيما هو خيرٌ منها . ورغبتُ في صناعة الآداب وتعلقتُ بأهلها ، وأنظمتُ في سلك أربابها . فرأيتُ غرضي لا يتم بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاها . وموردى منها لا يصنعو مالم أُجرّد العزم سفاها .

فأمتطيتُ جواد المطالعه ، وركضتُ في ميدان المراجعة . وحيث ذل لي مركبها . وصفالي مشربها . آثرتُ أن أُجرّد منها كتابا أستأيس به وأرجعُ إليه . وأعولُ فيما يعرض لي من المهمات عليه . فاستخرتُ الله سبحانه وتعالى وأثبتُ منها خمسة فنون حسنة الترتيب . بينة التقسيم والتبويب : كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام .

الفرس الاوّل

في السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في السماء وما فيها .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — في مبدأ خلق السماء .

الباب الثاني — في هيئتها .

الباب الثالث — في الملائكة .

الباب الرابع — في الكواكب السبعة .

الباب الخامس — في الكواكب الثابتة .

القسم الثاني — في الآثار العلوية .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في السحاب ، وسبب حدوثه ، وفي الثلج ، والبرد .

الباب الثاني — في الصواعق ، والنيازك ، والرعد ، والبرق .

الباب الثالث — في أسطُقسّ الهواء .

الباب الرابع — في أسطُقسّ النار ، وأسمائها .

القسم الثالث — في الليالي ، والأيام ، والشهور ، والأعوام ، والفصول ،

والمواسم ، والأعياد .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في الليالي ، والأيام .

الباب الثاني - في الشهور، والأعوام.

الباب الثالث - في الفصول.

الباب الرابع - في المواسم، والأعياد.

القسم الرابع - في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون.

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول - في مبدأ خلق الأرض.

الباب الثاني - في تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث - في طول الأرض، ومساحتها.

الباب الرابع - في الأقاليم السبعة.

الباب الخامس - في الجبال.

الباب السادس - في البحار، والجزائر.

الباب السابع - في الأنهار، والغدران، والعيون.

القسم الخامس - في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني

القديمة، والمعقل، والقصور، والمنازل.

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول - في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها.

الباب الثاني - في خصائص البلاد.

الباب الثالث - في المباني القديمة.

الباب الرابع - فيما وُصِفَتْ به المعقل.

الباب الخامس - فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل.

ما قيل في الشكر، والثناء.

ما قيل في الوعد، والإنجاز.

ما قيل في الشفاعة.

ما قيل في الاعتذار، والاستعطاف.

الباب الثامن - في الهجاء.

وفيه أربعة عشر فصلاً:

ما قيل في الهجاء، ومن يستحقه.

ما قيل في الحسد.

ما قيل في السّماية والبقى.

ما قيل في الغيبة والنميمة.

ما قيل في البُخل واللُّؤم، وأخبار البخل،

وأحتجاجهم.

ما قيل في التطفّل. ويتصل به أخبار الأكلة

والمؤاكلة.

ما قيل في الجُبْن، والفرار.

ما قيل في الحُمق، والجُهل.

ما قيل في الكَذِب.

ما قيل في القدر، والحيانة.

ما قيل في الكِبَر، والمُجِب.

ما قيل في الحِرص، والطمع.

ما قيل في الوعد، والمَطْل.

ما قيل في العِي، والحَصْر.

الباب الثالث — في المُجون، والنوادر، والفكاهات، والمُلح .
 الباب الرابع — في الخمر، وتحرّيجها ، وآفاتِها ، وجناباتها ،
 وأسمائها . وأخبار من تترّه عنها في الجاهلية ،
 ومن حدّ فيها من الأشراف ، ومن أشتهر بها ،
 وليس نوب الخلاعة بسببها . وما قيل فيها
 من جيد الشعر ، وما قيل في وصف آلاتها ،
 وآنيّتها ، وما قيل في مبادرة اللذات ، وما
 وُصفت به المجالس ، وما يجري هذا المجرى .

الباب الخامس — في الندمان ، والسقاة .

الباب السادس — في الغناء ، والسّماع ، وما ورد في ذلك من الخطر
 والإباحة ، ومن سمع الغناء من الصحابة
 (رضوان الله عليهم) والتابعين ، والأئمة ،
 والعباد ، والزهاد ، ومن غنى عن الخلفاء ،
 وأبنائهم ، والأشراف ، والقواد ، والأكابر ،
 وأخبار المغنّين ممن نقل الغناء من الفارسية
 إلى العربية .

الباب السابع — فيما يحتاج إليه المغنّي ، ويضطرّ إلى معرفته ،
 وما قيل في الغناء ، وما وُصفت به القيّان ،
 وما وُصفت به آلات الطرب .

القسم الخامس — في المَلِكِ ، وما يُشترَطُ فيه ، وما يُحتاجُ إليه ؛ وما يجب له على الرعية ، وما يجب للرعية عليه . ويتصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، وولاية المناصب الدينية ، والكتّاب ، والبُلغاء .

وفيه أربعة عشر بابا :

الباب الأول — في شروط الإمامة : الشرعية ، والعرفية .

الباب الثاني — في صفات المَلِكِ وأخلاقه ، وما يفضّل به على غيره . وذكر ما تُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالة على علوّ همتهم ، وكرم شيمتهم .

الباب الثالث — فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة ، والنصيحة ، والتعظيم ، والتوقير .

الباب الرابع — في وصايا الملوك .

الباب الخامس — فيما يجب على المَلِكِ للرعايا .

الباب السادس — في حُسن السياسة ، وإقامة المملكة . ويتصل

به الحزم ، والعزم ، وأتهاز الفرصة ، والحلم ، والعفو ، والعقوبة ، والانتقام .

الباب السابع — في المشورة ، وإعمال الرأي ، والاستعداد ،

ومن يُعتمد على رأيه . ومن كره أن يستشير .

الباب الثامن — في حفظ الأسرار ، والإذن . والحجاب .

الباب التاسع — في الوزراء، وأصحاب الملك،

الباب العاشر — في قادة الجيوش، والجهاد، ومكائد الحروب؛

ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل

في أوصاف السلاح .

الباب الحادي عشر — في القضاة، والحكام .

الباب الثاني عشر — في ولاية المظالم، وهي نيابة دار العدل .

الباب الثالث عشر — في نظر الحسبة، وأحكامها .

الباب الرابع عشر — في ذكر الكتاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرع

عنها من الوظائف والكتابات، وهي: كتابة

الإشياء، وكتابة الديوان، والتصرف، وكتابة

الحكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة

التعليم .

الفن الثالث

في الحيوان الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول - في السباع، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول - في الأسد، والبيتر، والنمر.

الباب الثاني - في القهد، والكلب، والذئب، والضبع،

والنمس.

الباب الثالث - في السنجاب، والثعلب، والذئب، والمهر،

والخنزير.

القسم الثاني - في الوحوش، والظباء، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول - فيما قيل في القيل، والكركدب، والزرافة،

والمهاة، والإيل^(١).

الباب الثاني - في الحمر الوحشية، والوعل، والألمط.

الباب الثالث - فيما قيل في الظبي، والأرنب، والقرد، والنعام.

(١) ويقال أيضا: الأيل والأيل (فاموس).

القسم الثالث - وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول - في الخيل.

الباب الثاني - في البغال، والحمير.

الباب الثالث - في الإبل، والبقرة، والغنم.

القسم الرابع - وفيه بابان:

الباب الأول - في ذوات السموم القوائل.

الباب الثاني - فيما هو ليس بقاتل بفضله، من ذوات السموم.

القسم الخامس - وفيه سبعة أبواب: ستة منها في الطير، وباب في السمك.

(وذيلت عليه بباب ثامن، أوردت فيه ما قبل

في آلات صيد البر، والبحر).

الباب الأول - في سباع الطير، وهي: العقبان، والبوازي،

والصقور، والشواهين.

الباب الثاني - في كلاب الطير، وهي: النسر، والرَّخَم، والحِدَاة،

والقُرَاب.

الباب الثالث - في بهائم الطير، وهي: الدَّرَاج، والحَبَّارِي،

والطاووس، والدِّيك، والدَّجَاج، والإوز،

والبط، والنَّحَام، والأُنَيْس، والقَاوِنْد،

والخُطَّاف، والقَيْق، والزُّرُور، والسَّمَانِي^(١)،

والهُدَّهْد، والقَمَقَم، والمصافير.

(١) في الأصل السَّمان. وقال في الصحاح والسَّمانى ولا شدد الميم.

الباب الرابع — في بُغَاث الطَيْرِ، وهو : التُّمَيْرِي ، والدُّبَيْسِي ،
والوَرَشَاتُ ، والفَوَاخِثُ ، والشَّفِينِي ،
والعَبْطَبِطُ ، والنَّوَّاحُ ، والقَطَاةُ ، واليَمَامُ ،
وأصنافه ، والبيَّغَاءُ .

الباب الخامس — في الطَيْرِ اللَّيْلِيِّ ، وهو : الخُفَّاشُ ، والكِرْوَانُ ،
والبُومُ ، والصَّدَى .

الباب السادس — في الهمَّجِ ، وهو : النَّمْلُ ، والزُّنْبُورُ ، والعنكبوتُ ،
والجُرَادُ ، ودود القَرَزِ ، والدُّبَابُ ، والبَعُوضُ ،
والبراغيثُ ، والحُرْقُوصُ .

الباب السابع — في أنواع الأسماك .

الباب الثامن — يشتمل على ذكر شئ مما وُصِفَتْ به آلات الصيد
في البرِّ ، والبحرِ ، ووصف زُماة البُنْدُقِ ،
وما يجرى هذا المجرى .

الفن الرابع

في النبات

ويستعمل على خمسة أقسام :

(وذيلتُ على هذا الفن ، في القسم الخامس ، بشيء من أنواع الطيب ، والبُخُورات ، والغوالي ، والندود ، والمستطَرات ، وغير ذلك) .

القسم الأول — في أصل النبات ، وما تختصُّ به أرضٌ دون أرض .
(ويتصل به ذكر الأقوات ، والخضراوات ، والبقولات) .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في أصل النبات ، وترتيبه .

الباب الثاني — فيما تختصُّ به أرضٌ دون أرض ، وما يستأصل
شأفة النبات الهاغل للأرض عن الزراعة .

الباب الثالث — في الأقوات ، والخضراوات ، والبقولات .

القسم الثاني — في الأشجار .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — فيما لثمره قشر لا يؤكل .

الباب الثاني — فيما لثمره نوى لا يؤكل .

الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوى .

القسم الثالث - في الفواكه المشمومة .

وفيه بابان :

الباب الأول - فيما يُتَّمُّ رَطْبًا، وَيُسْتَقَطَّر .

ويشتمل على أربعة أنواع : وهي "الورد،

والنَّسِيرِينُ، والخِلافُ، والنَّيلُوفَرُ" .

الباب الثاني - فيما يُتَّمُّ رَطْبًا، وَلَا يُسْتَقَطَّر .

ويشتمل على ما قيل في البَنْفَسَجِ، والزرَجِسِ .

والياسمين، والآس، والزعفران، والحبَّق .

القسم الرابع - في الرياض، والأزهار .



(ويتصل به الصمَّوغُ، والأمانان، والمصائر) .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول - في الرياض، وما وُصِفَتْ به نظْمًا، وتَثْرًا .

الباب الثاني - في الأزهار، وما وُصِفَتْ به .

الباب الثالث - في الصمَّوغ .

وفيه ثمانية وعشرون صنفًا .

الباب الرابع - في الأمانان .

القسم الخامس - في أصناف الطيب، والبَحُورَاتِ، والغوالي، والندود،

والمُسْتَقَطَّرَاتِ، والأدهان، والنَّضُوحَاتِ، وأدوية

الباه، والخواص .

وفيه أحد عشر بابًا :

الباب الأول - في المسك، وأنواعه

١٠

١٥

٢٠

- الباب الثاني — في العنبر، وأنواعه، ومعادنه .
- الباب الثالث — في العُود، وأصنافه، وأنواعه، ومعادنه .
- الباب الرابع — في الصَّنْدَل، وأصنافه، ومعادنه .
- الباب الخامس — في السُّبُل الهندي، وأصنافه، والقَرَنُّفَل،
وجوهره .
- الباب السادس — في القُسْط، وأصنافه .
- الباب السابع — في عمل القَوَالِي، والنَّدُود .
- الباب الثامن — في عمل الرَامَك، والسُّك من الرَامَك والأدهان .
- الباب التاسع — في عمل النَّضُوحَات، والمياه المستَقْطَرَة، وغير
المستَقْطَرَة .
- الباب العاشر — في الأدوية التي تزيد في الباه، وتُلذِّذ الجماع،
وما يتصل بذلك .
- الباب الحادي عشر — فيما يفعل بالخاصية .
-

الفصل الخامس

في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول - في مبدأ خلق آدم (عليه السلام) وحواء ، وأخبارهما ،

ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرس .

وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأول - في مبدأ خلق آدم (عليه السلام) ، وموسى

(عليه السلام) ، وما كان من أخبارهما إلى

حين وفاتهما .

١٠ . الباب الثاني - في خبر شيث بن آدم (عليهما السلام) ، وأولاده .

الباب الثالث - في أخبار إدريس : النبي (عليه السلام) .

الباب الرابع - في قصة نوح (عليه السلام) ، وخبر الطوفان .

الباب الخامس - في قصة هود (عليه السلام) مع عاد ، وهلاكهم

بالريح العقيم .

١٥ . الباب السادس - في قصة صالح (عليه السلام) مع عاد ،

وعقرهم الناقة ، وهلاكهم .

الباب السابع - في أخبار أصحاب البئر المغطلة ، والقصر المشيد ،

وهلاكهم .

الباب الثامن - في أخبار أصحاب الرس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثاني - في قصة إبراهيم، الخليل (عليه السلام)، وخبره مع نمرود؛

وقصة لوط؛ وخبر إسحاق، ويعقوب؛ وقصة يوسف؛

وأيوب؛ وذى الكفل؛ وشُعيب (عليهم السلام).

وفيه سبعة أبواب :

⑧

الباب الأول - في قصة إبراهيم، الخليل (عليه الصلاة

والسلام)، وأخبار نمرود بن كنعان .

الباب الثاني - في خبر لوط (عليه السلام) مع قومه، وقلب

المدائن .

الباب الثالث - في خبر إسحاق، ويعقوب (عليهما السلام) .

الباب الرابع - في قصة يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) .

الباب الخامس - في قصة أيوب (عليه السلام)، وأبتلائه، وعافيته .

الباب السادس - في خبر ذى الكفل بن أيوب (عليهما السلام) .

الباب السابع - في خبر شُعيب (عليه السلام)، وقصته مع

مَدِين .

القسم الثالث - يشتمل على قصة موسى بن عمران (عليه السلام)،

وخبره مع فرعون؛ وخبر يوشع، ومن بعده؛ وحزقيل،

وإلياس، وأليسع، وعيلا، وأشمويل، وطالوت،

وجالوت، وداود، وسليمان بن داود، وشعيا،

وأرميا، وخبر بُحْتَنَصَّر، وخراب بيت المقدس،

وعمارته؛ وما يتصل بذلك من خبر عزير؛ وقصة

٥

١٠

١٥

٢٠

يونس بن متى ، وخبر بلقيس ، وزكريا ، ويحيى ،
وعمران ، ومريم ، وعيسى (عليهم السلام) ، وقصص
المواريث ، وما كان من أمرهم فيمن أرسلوا إليه ،
وخبر جرحيس .

وفيه ستة أبواب :

(وذلتُ على هذا القسم ذليلا يشمل على أربعة أبواب ، ذكرتُ فيها
ما قيل في المحدث التي ظهر قيل نزول عيسى - عليه السلام - إلى
الأرض ومئة بئنة بها ، ورواقه ، وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار
المشرق والمعاد) .

١٠. الباب الأول - في قصة موسى بن عمران ، وهرون ، وغرق
فرعون ، وأخبار بني إسرائيل ، وأخبار
قارون ، وخبر بلعم بن باعوراء ، والجبارين ،
وغير ذلك .

الباب الثاني - فيما كان بعد موسى بن عمران (عليه السلام)

١٥. من أخبار يوشع بن النون ، ومن بعده ، وخبر
حزقييل ، وإلياس ، وأليسع ، وجيلا ،
وأشمويل ، وطالوت ، وجالوت ، وداود ،
وسليمان .

الباب الثالث - في أخبار شعيا ، وأرميا ، وخبر بخت نصر ،

٢٠. وخراب بيت المقدس ، وعمارة ، وما يتصل
بذلك من خبر عزير .

الباب الرابع - في قصة ذي النون يؤنس بن متى (عليه السلام) ، وخبر بلوقيا .

الباب الخامس - في خبر زكريا ، ويحيى ، وعمران ، وصرم أبنته ، وعيسى بن مريم (عليهما السلام) .

الباب السادس - في أخبار الحواريين الذين أرسلهم عيسى (عليه السلام) ، وما كان من أمرهم بعد رفعه ، وخبر جرجيس .

التذييل على هذا القسم - ويشتمل على أربعة أبواب :

الباب الأول - في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم .

الباب الثاني - في خبر نزول عيسى إلى الأرض ؛ وقتل الدجال ؛ وخروج ياجوج ، وماجوج ، وهلاكهم ؛ ووفاة عيسى (عليه السلام) .

الباب الثالث - في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم إلى النفخة الأولى .

الباب الرابع - في أخبار يوم القيامة والحشر ، والمعاد ؛ والنفخة الثانية في الصور .

القسم الرابع - في أخبار ملوك الأَصْطِقَاعِ، وملوك الأَمَمِ، والطوائف؛

وخبر سبل العَرَمِ، ووقائع العرب في الجاهلية .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول - في أخبار ذى القرنين، المذكور في سورة الكهف .

الباب الثاني - في أخبار ملوك الأَصْطِقَاعِ، وهم : ملوك مصر،

والهند، والصين، وجبل القتح .

الباب الثالث - في أخبار ملوك الأَمَمِ من الأعاجم، وهم : ملوك

الْفُرسِ الأول، وملوك الطوائف منهم؛

والمملوك الساسانية؛ وملوك اليونان والسرمان؛

والكلدانيين؛ والصقالبة؛ والبوكرد؛

والإفريقية؛ والجلائقة؛ وطوائف السودان .

الباب الرابع - في أخبار ملوك العرب .

(ويتصل به خبر سبل العَرَمِ).

الباب الخامس - في أيام العرب، ووقائعها في الجاهلية .

القسم الخامس - في أخبار الملة الإسلامية؛ وذكر شيء من سيرة نبينا محمد

(صلى الله عليه وسلم)، وأخبار الخلفاء من بعده

(رضى الله عنهم)؛ وأخبار الدولة الأموية؛

والعباسية؛ والعلوية؛ ودول ملوك الإسلام،

وأخبارهم، وما فتح الله (سبحانه وتعالى) عليهم - على

ماسنيين ذلك - إن شاء الله (تعالى) .

وفيه اثنا عشر بابا :

الباب الأول — في سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

الباب الثاني — في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر، وعمر،

وعثمان، وعليّ، وآبائه : الحسن (رضى الله

عنهم أجمعين) .

الباب الثالث — في أخبار الدولة الأموية بالشام وغيره .

الباب الرابع — في أخبار الدولة العباسية بالعراق، ومصر .

الباب الخامس — في أخبار الدولة الأموية بالأندلس، وأخبار

الأندلس بعد انقراض الدولة الأموية .

الباب السادس — في أخبار إفريقية، وبلاد المغرب، ومن وليها

من العمال، ومن استقل منهم بالملك .

الباب السابع — في أخبار من نهض في طلب الخلافة من

الطالبين، في مدة الدولتين : الأموية،

والعباسية، فقتل دونها، بعد مقتل الحسين

أبن عليّ (رضى الله عنهما) .

الباب الثامن — في أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والحوارج

بالموصل .

الباب التاسع — في أخبار من استقل بالملك، والممالك، بالبلاد

الشرقية والشمالية، في خلال الدولة العباسية،

وهم : ملوك خراسان، وما وراء النهر،

والجبال، وطبرستان، وغزنة، والغور

وبلاد السند، والهند : كالدولة السامانية .
والصقارية، والنزوية، والغورية، والديلمية
الختلية .

الباب العاشر — في أخبار ملوك العراق . وما والاد ، وملوك

- ٥ . الموصل . والديار الجيرية، والبكرية، والبلاد
الشامية . والخلية : كالدولة الحمدانية .
والديلمية البويهية، والسلاجقية، والأتابكية .

الباب الحادى عشر — في أخبار الدولة الخوارزمية . والجنركخانية ،
وهى دولة التتار: وما تفرع منها .

- ١٠ . الباب الثانى عشر — في أخبار ملوك الديار المصرية الذين ملكوا

فى خلال الدولة العباسية ، نيابة عن خلفائها،
وهم : الملوك العبيديون الذين آنتسبوا إلى
على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وما كان
من أمرهم . وما ملكوه من بلاد المغرب .

- ١٥ . وكيف آستولوا على الديار المصرية، والبلاد
الشامية، والخلية، والثغور، والسواحل،
وغير ذلك إلى أن أقرضت دولتهم ، وقيام
الدولة الأيوبية، وأخبار ملوكها بمصر، والشام
إلى حين أقراضها، وقيام دولة الترك، ومن
ملك منهم من آبنائهم، وما حازوه من الأقاليم،
٢٠ . وما فتحوه من الممالك . وغير ذلك من

أخبارهم ، وما أستقر في ملك ملوك هذه الدولة
إلى حين وضعنا لهذا التأليف في سنة
وسبعمائة (في أيام مولانا السلطان السيد
الأجل المالك الملك الناصر ، ناصر الدنيا
والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ،
أبي الفتح محمد ، بن السلطان الشهيد ، الملك
المنصور ، سيف الدنيا والدين ، أبي المظفر
قلاون ، الصالحى . خلد الله ملكه على ميم
الزمان ، وسقى عهد والده صوب الرحمة
والرضوان ، بركة سيد ولد عدنان !)

١٠

هذا مجموع ما يشتمل عليه هذا الكتاب ، من فنون وأقسام وذبول وأبواب .
ثم ينطوى كل باب منها على فصول وأخبار ، ويحتوى على وقائع وآثار .
ولما آتته أبوابه وفصوله ، وأنحصرت جملته وتفصيله ، ترجمته :

بهاية الأرب في فنون الأدب

وأثبت فيه بالمقصود والغرض ، وأثبت الجوهر وشيئ العرض ، وطوقه بقلائد
من مقول ، ورصعته بفرائد من منقول . فكلامى فيه كالسارية تلتها السحاب ، أو السرية
ردفتها الكئاب . فما هو إلا مترجم عن فنونه ، وحاجب لعيونه .

١٥

وما أوردت فيه إلا ماغلب على ظنى أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل
عليه . ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنانى ، وغضضت طرفى ، ولو خبرت طريق

المعترض لعظمتُ عَنانِي ، وثبتتُ عِظني . لكنني تبعْتُ فيه آثارَ الفضلاءِ قَبلي ،
وسلكتُ منهمجهم فوصلتُ بجبالهم حَبلي . فإن يكنْ أعتراض ، فعليْ أعلام لا عليْ
العار . وقد علمتُ أنه من صَنفِ كتابا فقد أستهدف ، وأصمَّ الأسماع وإن كان
لبعضها قد شنف .

وخليق للواقف عليه أن يسُد ما يحد به من خَلل ، وأن يغفر ما يلمح فيه من زَلل .
فأسبِل عليها سِترَ معروفك الذي سترتْ به قِدماً علي عَواري . والذي أذى إليه
أجتهدى من تَأليفه فقد أصدرته ، والذي وَقَّمتْ عنده غايي فقد أوردته . قد
تبلَّغتُ فيه وسعى ، لكنْ ليس من عثرة الكِتابِ أمان . وبالله سبحانه المستعان !
وعليه أتوكل ، واليه أتضرع في التيسير وأتوسل ؛ ومن فضله أستمد الصواب ،
وباسمه أستفتح الكِتاب !

(١) ورد في النسخة الفوتوغرافية التي أعتمدنا الطبع عليها (وهي المحفوظة بكتبخانة الكوبر على بانقسططينية)
، انصه في هذا الموضع : " هذا آخر الفهرست هذا الكِتاب . ولينبتدئ إن شاء الله تبارك وتعالى بما بدأ به
مؤلفه عفا الله تعالى عنه وهو الفين الأول . ونرجو بعون الله وحوله وقوته الإجماع بسلام . وصلى الله
وسلم على أشرف الأنام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام " - وهي من زيادات الناسخ .



الفن الأول

في السماء والآثار العلوية، والأرض والمعالم السفلية

وقد أوردت في هذا الفن نبذة من وصف السماء، التي هي قبلة الدعاء، وباب
الرجاء؛ والكواكب السيارات ذوات السنن والسنن؛ والملائكة الذين هم أولو أجنحة،
مثنى، وثلاث، ورباع؛ والسحاب التي تجود بوبلها فتعدل في قسمها بين السهل
واليفاع؛ والرعد الذي إن وثت يحثها؛ والرياح الذي إن اجتمعت يثها؛ والبرق الذي
شبهه بنان الحاسب والكف الحضيبي؛ والتلج الذي خلج على الأرض رداء المشيب؛
وقوس السحاب الذي تنكبه الجو فأفرغ عليه مصبغات الحلل، ورمي الحذب بتنادق
البرد فتباشرت بالخصب أهل الحلل؛ والتيران وعبادها وعددها، والمياه وأمدادها
ومددها؛ والليالي والأيام، والشهور والأعوام؛ والسنة وفصولها ومباديها، والأعياد
والمواسم ومخذيها؛ والأرض والجبال، والبراري والرمال؛ والجزائر والبحار، والعيون
والأنهار؛ وطبائع البلاد، وأخلاق من سكنها من العباد؛ والمباني والمعاقل،
والقصور والمنازل.

وجعلته خمسة أقسام يُستدل بها عليه، ويتوصل من أبوابها إليه.

القسم الأول

في السماء وما فيها
وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في مبدأ خلق السماء

قال الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُمَا فَسَوَّاهَا وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صَحَّاحَهَا﴾ .

§ والسماء تُذَكَّرُ وتُؤنَّثُ .

١ . فشهد التذكير قول الله (عز وجل) : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ ﴾ ؛ وقول الشاعر :

فلورفع السماء إليه قوما ، * لحقنا بالسماء مع السحاب !

وشاهد التأنيث ، قوله (تبارك وتعالى) : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَقَتْ ﴾ ؛ وقول الشاعر :

* ياربِّ ، ربِّ الناس في سماته !^(١)

(١) هكذا في الأصول ، أى بالناء المثناة . ولو همزت ، لفات الشاهد .

٢ - ذكر ما قيل في أسماء السماء وخلقها

- قد نطقت العرب للسماء بأسماء .
 منها : الجَرماء . وسميت بذلك لكثرة النجوم بها .
 ومنها : الخلقاء . للاستها .
 وبرقع . والرقيق . ومنه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن معاذ :
 « لقد حكّت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة » . أي من فوق سبع سموات .
 ومنها : الطرائق . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ ﴾ .
 والسماء مخلوقة من دُخان .

٣ - حُكي في سبب حدوثه

- أن الله تعالى خلق جوهره، ووصف من طولها وعرضها عظاماً . ثم نظر إليها نظر
 هيبه، فأبغضت، وعلاها من شدة الخوف زبدٌ ودُخان . فخلق الله من الزبد الأرض،
 وفتحها سبعاً، ومن الدخان السماء، وفتحها سبعاً . ودليله قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى
 السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ . قال : ولما فتح الله تعالى السموات، أوحى في كل سماء أمرها .
 وأختلف المفسرون في الأمر، ماهو؟ فقال قوم : خلق فيها جبلا من برد وبحاراً،
 وقال قوم : جعل في كل سماء كوكبا، قدر عليه الطلوع والأفول، والسير والرجوع .
 وقال قوم : أبسكنها ملائكة يحرمون للعالم السفلى، فوكل طائفة بالسحاب وطائفة
 بالريح، وجعل منهم حَفَظَةَ لِنِي آدَمَ وَكَاتِبِينَ لِأَعْمَالِهِمْ وَمُسْتَفْزِرِينَ لِذُنُوبِهِمْ .

الباب الثاني

١ - في هيبتها

ذهب المفسرون لكتاب الله عز وجل أن السماء مسطوحة ، بدليل قوله تعالى :
﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ .
ويطلق على مجموعها فلكٌ ، لقوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

١٢

وذهب الحسن إلى أن الفلك غير السماوات ، وأنه الحامل بأمر الله تعالى للشمس
والقمر والنجوم .

١٠ قالوا : ولما فتق الله تعالى رتق السماوات ، جعل بين كل سماء وسماء مسيرة
خمسمائة عام .

وروى عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، قال : ” بينا رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) جالسٌ هو وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب . فقال النبي (صلى الله عليه وسلم)
هل تدرّون ما هذا؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا العنان ، هذه روابيا الأرض ،
يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه . ثم قال : أتدرّون ما فوقكم؟ قالوا :

١٥ الله ورسوله أعلم . قال : هذا الرقيع : سقف محفوظ ، وموج مكفوف . ثم قال : هل
تدرّون ما بينكم وبينها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينكم وبينها خمسمائة سنة .
ثم قال : هل تدرّون ما فوق ذلك؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : سماءٌ في بُعد ما بينهما

(١) العنان السحاب . واحده نباء . (قاموس)

خمسمائة سنة . قال ذلك حتى بلغ سبع سماوات ، ما بين كل سماءين ، ما بين السماء والأرض . ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إن فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين . ثم قال : هل تدرون ما تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إن تحتها الأرض . ثم قال : أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إن تحتها أرضاً أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة . حتى عدت سبع أرضين ، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة . أخرجه أبو عيسى الترمذى ، في "جامعه" .

ويروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان جالساً بالبطحاء ، بين أصحابه ، إذ مرّت عليهم سحابة . فنظروا إليها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ما أسم هذه ؟ قالوا : نعم . هذا السحاب . فقال (صلى الله عليه وسلم) : والمزن . قالوا : والمزن . قال : والعنان . قالوا : والعنان . فقال : هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندري . قال : خمسمائة عام . وبينها وبين السماء التي فوقها كذلك . (حتى عدت سبع سماوات) . ثم قال : وفوق السماء السابعة بحرٌ ، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء (وفي لفظ : كما بين السماء والأرض) . وفوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ظهورهم العرش ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض .

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي ، وقال : « ثم ما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام . ثم ما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام . والعرش فوق الماء . » ولم يذكر الأوعال .

(١) في الترمذى : أظلافهم وركبهم ظهورهم

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي ، وأن السماوات في ضمنه . وهي بالنسبة إليه كحلقمة مُلقاة في أرض فلاة ، والكرسي بالنسبة إلى العرش كدرة مُلقاة في أرض فلاة فيحاء . (وفي رواية كحلقمة) .

وروى أن أبا ذر (رضي الله عنه) قال : " يارسول الله : أى آية أنزلت عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسي . ثم قال : يا أبا ذر ! أتدرى ما الكرسي ؟ قلت : لا ، فعلمني يارسول الله ، بما علمك الله . فقال : ما السماوات والأرض وما فيهن في الكرسي ، إلا كحلقمة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وما الكرسي في العرش ، إلا كحلقمة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وما العرش في الماء ، إلا كحلقمة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وما الماء في الريح ، إلا كحلقمة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وجميع ذلك في قبضة الله كالحبة ، وأصغر من الحبة ، في كف أحدكم . تعالى الله سبحانه " . رواه أبو حاتم في كتاب العظمة .

والقول في هيئة السماء ، على مذاهب أصحاب علم الهيئة ، كثير . أغضينا عنه ، لأنه لا يقوم عليه دليل واضح . فلذلك أقتصرنا على ذكر المنقول دون المعقول . فلنذكر ما جاء في الأمثال التي فيها ذكر السماء ، وما وصفها الشعراء به وشبهوها .

٢ - أما الأمثال

فقولم : أرفع من السماء ، للبالغة .

وقول الشاعر :

مَنْ ذَا رَأْيٍ أَرْضًا بغير سماء ؟

إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجِي حِينَ تَحْتَجِبُ .

إِنَّ السَّمَاءَ ، إِذَا لَمْ تَبِكْ مُقْلَتَهَا ، * لَمْ تَضْحِكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ .

٣ - وأما الوصف والتشبيه

فنه قول عبد الله بن المعتز :

كَانَتْ سَمَاءٌ نَا ، لَمَّا تَجَلَّتْ * خِلَالَ مُجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ ،
رِيَاضٌ بِنَفْسِخِ خَضِيلٍ ، نَدَاهُ * تَفْتَحُ يَنَنَّهُ نَوْرُ الْأَقَاحِ .

وقال آخر :

كَانَ سَمَاءٌ نَا ، وَالشَّهْبُ فِيهَا ، * وَأَصْفَرُهَا لِأَكْبَرِهَا مُزَاحِمُ ،
بِسَاطِ زُمُرْدٍ تُبْرِثُ عَلَيْهِ * دَنَانِيرٌ تُخَالِطُهَا دَرَاهِمُ .

ونحوه قول الآخر :

كَانَ سَمَاءَ الْأَرْضِ نَطْعُ زُمُرْدٍ ، * وَقَدْفُ رُشْتٍ فِيهِ الدَّنَائِرُ لِلصَّرْفِ .

وقال آخر :

وَرَأَيْتُ السَّمَاءَ كَالْبَحْرِ إِلَّا * أَنْ مَرَسُوبَهُ مِنَ الدَّرَطَانِي .
فِيهِ مَا يَمَلَأُ الْعِيُونَ كَبِيرٌ * وَصَغِيرٌ مَا بَيْنَ ذَلِكَ خَافِي .

وقال التنوخي يصف ليلة :

كَأَنَّهَا مُجُومُهَا ، * نُضِبَ عِيُونَ الرَّمَقِ ،
دَرَاهِمٌ قَدْ تُبْرِثُ * عَلَى بَسَاطِ أَرْزَقِ .

وقال أبو طالب الرقي :

وَكَانَتْ أَجْرَامُ السَّمَاءِ ، لَوَامِعًا ، * دُرَرٌ تُبْرِثُ عَلَى بَسَاطِ أَرْزَقِ .

وقال ظافر الحداد :

كَانَ مُجُومُ اللَّيْلِ ، لَمَّا تَبَلَّجَتْ ، * تَوْقُودُ جَمْرِ فِي خِلَالِ رَمَادِ .
حِكِي ، فَوْقَ مِمْتَدِّ الْحَجَرَةِ شَكْلُهَا ، * فَوَاقِعَ تَطْفُو فَوْقَ جُحَّةِ وَاوِي .

وقال آخر:

كَانَ النُّجُومَ ، نَجُومَ السَّمَاءِ ، * وَقَدْ لُحِنَ لِلْعَيْنِ مِنْ فَرْطِ بُعْدِ ،
مَسَامِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ سُمِّرَتْ * عَلَى وَجْهِ لَوْحٍ مِنَ الْأَزْوَاجِ .

وقال محمد بن عاصم :

تُرَى صَفْحَةَ الْخَضْرَاءِ ، وَالنَّجْمُ فَوْقَهَا ، * كَكَفِّ سُدُوسِي بَدَأَ فِيهِ دِرْهَمُ .
تُرَى ، وَعَلَى الْآفَاقِ أَثْوَابٌ ظَلَمِيَّةٌ ، * وَأَزْرَارُهَا مِنْهَا شَمَالٌ وَمَرْزَمٌ ^(١) .

٤ - ومما قيل في الفلك

قال أبو العلاء المعرّي :

يَالَيْتَ شِعْرِي ! وَهَلْ لَيْتَ بِنَافِعَةٍ ؟ * مَاذَا وَرَاءَكَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَلَكَ ؟
تَمْ خَاصٌّ فِي إِثْرِكَ الْأَقْوَامُ وَأَخْتَلَفُوا * قَدَمًا ! فَمَا أَوْضَحُوا حَقًّا وَلَا تَرَكَوْا .
شَمْسٌ تَقِيبُ وَيَقْفُو إِثْرَهَا قَرًّا ، * وَنُورٌ صَبَحَ يُوَافِي بَعْدَهُ حَلَكُ .
طَحَنَتْ طَحْنِ الرَّحَى مِنْ قَبْلِنَا أُمَّمًا * شَيْءٌ ، وَلَمْ يَدْرِ خَلْقُ آيَةٍ سَلَكَوْا .
وَقَالَ ، إِنَّكَ طَبِعَ خَامِسٌ ، نَفَرٌ . * عَمْرِي ! لَقَدْ زَعَمُوا بَطْلًا وَقَدْ أَفْكَوْا !
رَامُوا سِرَائِرَ الرَّحْمَنِ حَجَبَهَا ، * مَا نَالَهُنَّ نَبِيٌّ ، لَا وَلَا مَلَكٌ .
وقال الرئيس أبو علي ^(٢) بن سينا :

يَرْبِكَ ! أَيُّهَا التَّمَلُّكُ الْمُدَارُ ، * أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرُ أَمْ أَضْطَرَارُ ؟
مَدَارُكَ ، قُلْ لَنَا ، فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ * فَفِي أَفْهَامِنَا مِنْكَ أَنْتَهَارُ !

(١) المرزم : الذئب القائم على الأرض .

(٢) فان صاحب غيون الأبناء ، (ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩) إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة

لأبي سينا ويستلزمه ، ونص عن أنها لأبي النسل البغدادي وقد أوردتها في خمسين بيتا .

وَعِنْدَكَ تُرْفَعُ الْأَرْوَاحُ؟ أَمْ هَلْ * مَعَ الْأَجْسَادِ يُدْرِكُهَا الْبَوَارُ؟
 وَفِيكَ الشَّمْسُ رَافِعَةٌ شُعَاعًا ، * بِأَجْنِحَةٍ قَوَادِمُهَا قِصَارُ؟
 قُطُوفٌ ، ذِي النُّجُومِ أَمْ اللَّالِي؟ * هَلَالٌ أَمْ يَدٌ فِيهَا سِوَارُ؟
 وَشَهْبٌ ، ذِي الْمَجْرَةِ أَمْ ذُبَالٌ * عَلَيْهَا الْمَرْخُ يُقَدِّحُ وَالْمَغَارُ؟^(١)
 وَتَرْصِيعٌ ، مُجُومٌ أَمْ حَبَابٌ * تُوَلِّفُ بَيْنَهَا اللَّجَجَ الْغِزَارُ؟
 تُمَدُّ رُقُومُهَا لَيْلًا وَتُطَوَّى * نَهَارًا ، مِثْلَ مَا طَوَّى الْإِزَارُ!
 فَكَمْ بِصِقَالِهَا صَدِيَّ الْبَرَايَا ! * وَمَا يَصْدَا لَهَا أَبَدًا غِرَارُ .
 وَتَبْدُو تُمْ تَحْنِسُ رَاجِعَاتٍ * وَتَكْنِسُ مِثْلَ مَا كَنَسَ الصُّوَارُ .^(٢)
 فَبَيْنَا الشَّرْقُ يُقَدِّمُهَا صُعُودًا * تَلْقَاهَا مِنَ الْغَرْبِ أَنْيَادُ .
 هِيَ الشَّوَاءُ ، مَا خَبَطَتْ هَشِيمٌ * هِيَ الْعَجْمَاءُ ، مَا جَرَحَتْ جُبَارُ .^(٣)

وقال أبو عبادة البحرى :

أَنَاةُ ! أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ ! * أَنْهَبُ مَا تُصَرِّفُ أَمْ خِيَارُ؟
 سَتَبِلُ مِثْلَ مَا نَبِلُ ، وَتَفْنِي * كَمَا تَفْنِي ، وَيُؤْخَذُ مِنْكَ تَارُ .

(١) الذبال : الفئائل .

(٢) المرخ : شجر مريع الورى كثيره . وقد وصفه المؤلف في ابجد (ص ٣٩) بأنه شجر تحتك بعض أغصانه
 ببعض فتورى نارا .

(٣) العفار : شجر يتخذ منه الزناد وهو من شجر النار .

(٤) الصوار كالصيار بكسر الصاد وضما : القطيع من البقر .

(٥) الجبار (بضم الجيم) الهدر .

الباب الثالث

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في ذكر الملائكة

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "أُطِّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْتَبِطَّ . مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعُ أَصَابِعَ ، إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ" .

والملائكة أولو أجنحة : مثنى ، وثلاث ، ورباع ، وأكثر من ذلك . فإنه قد ورد أن جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح . وهي الصورة التي رآه النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها مرتين :

إحداهما في الأرض ، وقد سدَّ ما بين الحافقين . ووصفه الله تعالى بالقوة ، فقال تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ . ومن قوته ، أنه أفتلح مدائن قوم لوط ، وكانت خمس مدائن ، من الماء الأسود ، وحملها على جناحه . ورفعها إلى السماء ، حتى إن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم . وأصوات دجاجهم ، ثم قلبها . والمزة الثانية ، رآه (صلى الله عليه وسلم) عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً آخَرَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ .

وكان هبوط جبريل (عليه السلام) على الأنبياء (صاوات الله عليهم) ورجوعه في أَوْحَى مِنْ رَجْعِ الطَّرْفِ .

وعظماة الملائكة أربعة ، وهم : إسرافيل ، وميكائيل ، وجبرائيل ، وعزرائيل .
وأقربهم من الله تعالى منزلةً ، إسرافيل .

فإذا أراد الله تعالى بوحي ، جاء اللوح المحفوظ حتى يقرع جبهة إسرافيل ، فيرفع رأسه . فينظر فيه . فإن كان إني السماء ، دفعه إلى ميكائيل ؛ وإن كان إلى الأرض ، دفعه إلى جبرائيل ؛ وإن كان بموت أحد ، أمر به عزرائيل . صلوات الله عليهم !

وقد روى في قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَسْرَارٌ ﴾ ، هم أربعة من الملائكة :
جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل . وعزرائيل . فجبريل على الجنود والرياح ،
وميكائيل على القنطرة والنبات ، وعزرائيل على قبض الأرواح ، وإسرافيل يبلغهم
ما يؤمرون به .

وجعل الله تعالى لهم أن يمتثلوا للبشر على ما شاءوا من الصور ، كما كان جبريل يمتثل
لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على صورة دحية الكلبي صرارا ، وفي صورة
غيره من الرجال ، وكما تمثل لمريم عليها السلام بشرا سويا . ونزلت الملائكة في غزوة
بدر على الخيول المسومة ، وقد سدلو ذوائب عمائمهم على مناكبهم . وهم مخلوقون من
نور . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

الباب الرابع

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في الكواكب السبعة المتحيرة

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِي الْكُنُوسِ﴾ . ذهب المفسرون إلى أنها هي الكواكب السبعة : زُحلُ ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر .

وقالوا : إن هذه الكواكب هي المعنية بقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَسْمَاءُ﴾ .

وسميت كُنُوسًا لأنها تجرى في البروج ثم تكُنُوس أي تستر كما تكُنُس الظباء ؛ وكُنُوسًا لاستقامتها ورجوعها . وقيل الخُنُوس والكنُوس منها خمسة ، دون الشمس والقمر .

وسميت كُنُوسًا لأن الخُنُوس في كلام العرب الاتقباض . وفي الحديث الشريف " الشيطان بُوسوس للبعد ، فإذا ذكر الله تعالى خُنُس " أي اتقبض ورجع . فيكون في الكوكب بمعنى الرجوع . وكُنُوسًا من قول العرب كُنُس الظبي إذا دخل الكناس ، وهو مقزّه ؛ ويكون في الكوكب اختفاءه تحت ضوء الشمس .

وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها .

§ فقالوا في زحل : زَحَلُ فلانٌ إذا أبطأ ، وبذلك سُمِّيَ هذا الكوكب لبطئه في السماء .
وقيل الزَّحَلُ والزَّحِيلُ الحقد وهو في طبعه . وهذا الكوكب عند المفسرين هو المعنى بقول الله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النُّجُومُ النَّاقِبُ﴾ .

(١) الحقل الذي بمعنى الحقد بالذال المعجمة ولم يذكره أحد من أئمة اللغة في الزاى . فهو اشتباه على الناقل .

والذي "في اللسان" أنه سمي بذلك لبعده .

§ وقالوا في المشتري : إنه إنما سُمِّيَ بذلك لحسنه ، كأنه اشترى الحسن لنفسه . وقيل لأنه نجم الثبراء والبيع ، ودليل الأموال ، والأرباح .

§ وقالوا في المريخ : إنه مأخوذ من المرخ (وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا) فسمي بذلك لأحمراره . وقال آخرون المريخ سهم لاريش له إذا رُمِيَ به لا يستمر في مزمه . وكذلك المريخ ، فيه آلتواء كثير في سيره وحكمه ، فشبه بذلك .

§ وقالوا في الشمس : إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية وثلاثة سفلية ، سميت بذلك لأن الواسطة التي في المختفة تسمى "شمسة" .

§ وقالوا في الزهرة : إنها مشتقة من الزاهر ، وهو الأبيض النير من كل شيء .

§ وقالوا في عطارد : إنه النافذ في الأمور ، ولهذا سُمِّيَ بالكاتب . وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع ما يلبسه ويقارنه .

§ وقالوا في القمر : إنه مأخوذ من القمرة ، وهي البياض ، والأقمر الأبيض .

§ والقمر سُمِّيَ هذه الكواكب بلختها "كيوان" ، ويعنون به زحل ؛ و"نير" ، ويعنون به المشتري (وبعضهم يسميه "البرجنيس") ؛ و"بهرام" ويعنون به المريخ ؛ و"مهر" ويعنون به الشمس ؛ و"أناهد" ويعنون به الزهرة (وبعضهم يسميها "بيدخت") ، و"هرمس" (ويعنون به عطارد) ، و"ماه" (ويعنون به القمر) .

§ وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال :

لازلت تبقى وترقى للعلا أبداً * مادام للسبعة الأفلاك أحكاماً !

مهر ، و ماه ، و كيوان ، و تير معاً * وهرمس ، و أناهد ، و بهرام !

وقال أبو إسحاق الصابي :

نَلِ الْمُنَى فِي يَوْمِكَ الْأَجُودِ ، * مُسْتَنْجِحًا بِالطَّالِعِ الْأَسْمَدِ !
وَأَرْقَ كَمَرْقَى زُحَلٍ صَاعِدًا * إِلَى الْمَعَالِي أَشْرَفِ الْمَقْصِدِ !
وِفِضْ كَفَيْضِ الْمُشْتَرَى بِالنَّدَى * إِذَا أَعْتَلَى فِي أَفْقِهِ الْأَبْعِدِ !
وَزِدْ عَلَى الْمِزِيخِ سَطْوًا بَمَنْ * عَادَاكَ مِنْ ذِي نُحُورِ الْأَصِيدِ !
وَأَطْلُعْ كَمَا تَطْلُعُ شَمْسُ الضُّحَى * كَأَسْفَهَةِ لِلْحِنْدِسِ الْأَسْوَدِ !
وَحُدْ مِنَ الزُّهْرَةِ أفعالَهَا * فِي عَيْشِكَ الْمُسْتَقْبَلِ الْأَرْغَدِ !
وَصَاهِ بِالْأَقْلَامِ فِي جَرِيهَا * عَطَارِدَ الْكَاتِبِ ذَا الشُّوَدِ !
وَبَاهِ بِالْمَنْظَرِ بَدْرَ الدُّجَى * وَأَفْضُلُهُ فِي بَهْجَتِهِ وَأَزْدِ !

١٠ وقد آخِضَ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ بِقَوْلِ . سنذكر من ذلك ما تقوم به
الجمعة ، وينهض به الدليل من الكتاب والسنة ، وما يُمَثِّلُ به مما فيه ذكرها ، وما ورد
في ذلك من الأوصاف والتشبيهات : نظما ونثرا مما وقفتُ عليه في أثناء مطالعتي لكتب
الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم . وعدلتُ عن أقوال المنجمين لما فيها من سوء الطوية
وقبح الاعتقاد : لأن منهم من يرى أن للنجوم في الوجود تأثيرات وأفعالا . أعاذنا الله
١٥ تعالى من ذلك !

٢ - ذكر ما قيل في الشمس

(والشمس هي النير الأعظم)

وقد ذهب بعض المفسرين لكتاب الله تعالى إلى أن نور الشمس والقمر في سائر
الساوات بدليل قول الله عز وجل ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ .

وجاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفاؤهما إلى الأرض" وفي حديث آخر "وجوههما إلى العرش وأقفاؤهما إلى الأرض". وفي حديث آخر "إن الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمن".

§ وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حَمِيَّة . ومعنى حَمِيَّة ذات حَمَاة .

وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي إلى موضع قرارها، لأنها تجرى إلى أبعاد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ "المستقر" لها أي هي دائبة السير ليلا ونهارا . وهي قراءة شاذة^(١) .

وقد قال الله تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبِينَ ﴾ وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها تجرى لمستقر لها تحت العرش، فتخت ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتى يُؤدَّن لها في الطلوع . ويوشك أن يقال لها: أرجعي من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها .

وذهب وهب بن منبه إلى أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة ملكٌ؛ يجتزونها في السماء ودونها البحر المسجور في موج مكفوف كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما على وجه الأرض من شيء حتى الجبال والصخور. وروى عن كعب أنه قال: "خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار".

(١) هذا الرأي هو الذي استقر عليه علماء الفلك أخيرا، بعد التحقيق والتدقيق . فإله در صاحبه ! فإنه ، وإن كان قد خالفه فيه الدهماء ، لكنه قد أقره الراحمون في العلم الآن .

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا سَيَّحَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةً ذَاتَ فَسَّادٍ مِّمَّا يَتَّبِعُونَ الْبَقَرَ إِذَا شَرِبُوا فَهُوَ عَلَيْكُمْ كَيْدٌ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ الْبَقَرَ عَلَى الْغَيِّ حَصِيرًا ﴾ .
 وجعل الشمس سراجاً . والسراج لا يكون إلا من نار . وهما مضيآن لأهل
 السماوات : كما يضيآن لأهل الأرض .
 وقد تقدم الدليل على ذلك .

٣ - ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الشمس

يقال : أشهر من الشمس . أحسن من الشمس . أدل على الصبح من الشمس .

ومن أنصاف الآيات :

- « وهل شمس تكون بلا شعاع » * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل *
 « ولو لم تغب شمس النهار، لملت » * الشمس تمامة والليل قواد *
 « الشمس طالعة إن غيب القمر » * وربما تنكف الشمس *
 « والشمس تحط في الحجرى وترتفع » * إذا الشمس لم تغرب ، فلا طلع البدر *
 ١٠

ومن الآيات قول الطائي :

فإني رأيت الشمس زِيدَتْ حَجَبَةً * إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بِسَرْمَدٍ .

وقال علي بن الجهم .

« والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظرِكَ لما أضاء الفرقد . »
 ١٥

وقال أبو تمام :

« وإن صريح الرأي والحزم لأمرى * إذا بلغت الشمس ، أن يتحوّلا . »

وقوله :

وكلُّ كُسُوفٍ في الدَّرَارِي شَيْعَةٌ، * وَكِنَّةٌ في الشَّمْسِ والبَدْرِ اشْتِعٌ.

وقوله أيضا :

عِنْدَكَ الشَّمْسُ تَجْرِي في مَنَازِلِهَا، * وَأَنْتَ مُشْتَدِّلُ الْإِلْحَاطِ بِالْقَمَرِ؟

وقال البُحْتَرِيُّ :

كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامِيَ، * وَيَدْنُو الضُّوءُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ.

وقال ابن الرومي :

وَرَأَيْتَهُ كَالشَّمْسِ : إِنْ هِيَ لَمْ تُتَلَّ * فَالْدَفْءُ مِنْهَا وَالضِّيَاءُ يُنَالُ.

وقال أيضا :

كَالشَّمْسِ لَا تَبْنُو فِضِيلَتِهَا * حَتَّى تُغْشَى الْأَرْضَ بِالظُّلَمِ.

وقال أيضا :

كَالشَّمْسِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ مَحَلُّهَا، * وَشُعَاعُهَا فِي سَائِرِ الْآفَاقِ.

وقال العباس بن الأحنف :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ، * فَعَزَّ الْقُوَادِمَ عَزَاءً جَمِيلاً!

وقال أبو عبيد البركي :

وَالشَّمْسُ يُسْتَفَى، إِذَا طَلَعَتْ، * أَنْ يَسْتَضَاءَ بَغْزَةَ البَدْرِ.

وقال أبو الطيب المتنبي :

كَالشَّمْسِ لَا تَبْتَنِي بِمَا صَنَعَتْ * مَنَعَةً عِنْدَهُمْ وَلَا جَاهًا.

وقال ابن نُنُك البصرى :

وهَبَكَ كَالشَّمْسِ فِي حُسْنِهَا أَلَمْ تَرَهَا * يُفَرُّ مِنْهَا إِذَا مَالَتْ إِلَى الضَّرَبِ؟

وقال ابن عَبَّاد :

قَلْتُ : وَشَمْسُ الضُّحَى تُنْحَمِي * إِذَا بَسَطَتْ فِي المَصِيفِ الأَدَى .

وقال ابن مسعويه الخالدي :

لَا يُعْجِبُنِيكَ حُسْنُ القَصْرِ تَنْزِلُهُ * فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي مَنَازِلِهَا .

وقال أبو الفتح البُستِي :

فَالْحَرُّ حَرُّ عَزِيزِ النَفْسِ حَيْثُ تَوَى ، * وَالشَّمْسُ فِي كُلِّ بُرْجٍ ذَاتُ أنوار .

٤ - ذكر ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها

§ من ذلك قول الوزير المهلبى :

الشَّمْسُ فِي مَشْرِقِهَا قَدْ بَدَتْ * مُنِيرَةً لَيْسَ لَهَا حَاجِبُ .

كَأَنَّهَا بَوَدَقَةٌ أُحْمِيَتْ ، * يُجُولُ فِيهَا ذَهَبٌ ذَائِبُ .

وقال ظافر الحداد :

أَنْظُرْ لِقَرْنِ الشَّمْسِ بِأَرْعَةٍ * فِي الشَّرْقِ تَبْدُو مِثْلَ تَرْفَعِ !

كَسَيِّكَةِ الرَّجَاجِ ذَائِبَةٍ * حَمْرَاءَ يَنْفُخُهَا فَتَسْبَعُ .

وقال أبو هلال المسكوى :

والشَّمْسُ وَاضِحَةٌ الجَيِّينِ كَأَنَّهَا * وَجْهُ المَلِيحَةِ فِي الخِمَارِ الأَزْرَقِ !

وكانها عند أنيساط شعاعها * تير يدوب على فروع المشرق!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي :

أوماترى شمس الأصيل عيلة * تزداد من بين المغارب مغربا؟

مالت لتحجب شخصها فكانها * مدت على الدنيا ملاء مذهباً!

§ وما وصفت به - وقد قابلت القمر - قول الشاعر :

أما ترى الشمس، وهي طالمة، * تمنع عنا إدامة النظر؟

حمراء صفراء في تلونها * كأنها تشتكي من السهر.

مثل عروس غداة ليلتها * تمسك من آتتها من القمر.

وقال مؤيد الدين الطفراني، عفا الله عنه ورحمه :

وكانت الشمس المنيرة إذ بدت * والبدر يجح للغييب وما غرب،

متحاربان : لدا يجن صاغه * من قصة، ولذا يجن من ذهب.

§ ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزوال والغروب قول أعرابي :

مُجَبَّاةُ : أما إذا الليل جنتها * فتخفي وأما في النهار فتنظرو.

إذا أنشق عنها ساطع الفجر وأنجلى * دجى الليل وأنجاب الحجاب المستر

والبس عرض الأفق لو أن كأنه * على الأفق الغربي ثوب معضنر

عليها دروع الرعفران، يشوبه * شعاع تلالاً فهو أبيض أصفر:

رى الظل يطوى حين تبدو وتارة * تراه إذا زالت عن الأرض ينشر.

فأنت قديونا، وهي في ذلك لم تزال * تموت وتحي كل يوم وتُنشرا!

وقال آخر:

وبدأ لنا تُرْسٌ من الذهب الذي * لم يُنتَرَعْ من معدن بتعمل.
مِرْآةٌ نُورٌ لم تُسَنِّ بِصِياغة * كَلَّا وَلَا جُلِيَتْ بِكَفِّ الصَّيْقَلِ.
تَسْمُوْا إِلَى الْكَيْدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهَُا * تَبْغِي هُنَاكَ دِفَاعَ أَمْرِ مُغْضِلِ.
حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ إِلَى حَيْثُ أَتَيْتِ * وَقَفْتَ كَوَقْفَةِ سَائِلٍ عَنِ مَنَزِلِ.
ثُمَّ أَتَيْتِ تَبْغِي الْحُدُورَ كَأَنَّهَُا * طَيْرٌ أَسْفَافَ حَفَاةٍ مِنْ أَجْدَلِ.

§ ومما وصفت به ، وقد قابلت الغيم ، قول ابن المعتز :

تَظَلُّ الشَّمْسُ تَرْمُقُنَا بِطَرْفِ * خَفِيٍّ لِحَظَّةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ.
تُحَاوِلُ فَتَقَّ غَيْمٌ وَهُوَ يَأْبَى * كَعَيْنِي يَحَاوِلُ نَيْلَ بَكْرِ.

وقال آخر:

وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَرْتُو مِنْ بَعِيدِ * رُؤُؤَ الْبِكْرِ مِنْ خَلْفِ السُّتُورِ.

وقال محمد بن رشيقي :

فَكَأَنَّ الشَّمْسَ بِكَرٍّ مَجِيَّتِ * وَكَأَنَّ الْغَيْمَ سِتْرًا قَدْ سَتَرَ^(١).

٥ — ذكر شيء مما وصفت به على طريق الظم

١٥ فن ذلك ما قاله عبد الملك بن عمير ، وقد سئل عنها فقال : مُظْهَرَةٌ لِلدَّاءِ ، مَثْقَلَةٌ لِلهَوَاءِ ، مَبْلَاةٌ لِلثَّوْبِ ، جَالِبَةٌ لِلهَبِّ .

وقال آخر : الشمس تشحب اللون ، وتغير العرق ، وترخي البدن ، وتثير المِزَّةَ .
إذا احتجمت فيها ، أمرضتك ؛ وإن أطلت النّوم فيها ، أفلجتك ؛ وإن قرّبت منها ،
صرت زنجيًّا ، وإن بعدت عنها ، صرت صقيًّا .

وقال ابن سنا الملك :

لا كانت الشمس! فكم أصدأت * صفحة خد كالحسام الصقيل!
 وتم وتم صدت بوادي الكرى * طيف خيال جاءني عن خليل!
 وأعدمتني من نجوم الدجى * ومنه رؤى بين ظل ظليل!
 تكذب في الوعد؛ وبرهانه * أن سراب القفر منها سليل.
 وهي إذا أبصرها مبصر * حديد طرف، راح عنها كيل.
 يا علة المهوم، يا جلدة المحموم، يا زفرة صب نجيل!
 يا قرحة المشرق عند الضحى * وسلحة المغرب عند الأصيل!
 أنت عجوز، لم تراجت لي * وقد بدأ منك لعاب ييل؟

وقال التيناشي . عفا الله تعالى عنه ورحمه :

في خلقه الشمس وأخلاقها * شتى عيوب ستة تذكر.
 رمداً، عتشاء، إذا أصبحت * عمياء عند الليل، لا تبصر.
 ويقتدي البدر لها كائناً * وجرمها من جرمه أكبر.
 حرورها في القيظ لا تنق * ودفوها في القرم مستحقر.
 وخلقها خلق المليك الذي * ينكث في العهد ولا يبصر.
 ليست بحسنا، وما حسن من * يحمر عنه اللط لا يبصر!

وقال أبو الطيب المتنبي :

تسود الشمس منا بيض أوجها * ولا تسود بيض العذر واللمع.
 وكان حالهما في الحكم واحدة * لو أخصمنا من الدنيا إلى حكم.

٦ - ذكر ما قيل في الكسوف

روى أن الشمس كُسفت في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووافق ذلك موت إبراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى يُخَوَّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَإِنَّمَا لَا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا رَأَيْتُمَا ذَلِكَ، فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا حَتَّى يَكْشِفَ مَا بَيْكُمْ".

وقال محمد بن هانئ في الكسوف .

هي الحوادثُ لا تُتَبَيُّ ولا تَدْرُ! * ما لِلْبَرِيَّةِ مِنْ مَحْتُومِهَا وَزُرُ!
لو كان يُنْجِي عُلوُّ من بَوَائِقِهَا، * لم تُكْسَفِ الشَّمْسُ بل لم يُخَسَفِ القَمَرُ!

٧ - ذكر أسماء الشمس اللغوية

وللشمس أسماء نطقت بها العرب . فمنها: دُكَّاءُ، والجارية، والجَوْنَةُ، والقَزَالَةُ،
واللَّاهَةُ، ^(١) والضُّحَى، والضُّحُّ، ويُوح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشرق، وحنَّاذ،
والعَيْن، والمؤوِّبة، والسَّراج .

(١) الذي في كتب اللغة أن الالهة أسم هيئة . وأما الشمس فأسمها إلهة مثله . ألبية . فطل ما هنا

تصنيف من النسخ .

٨ - ذكر عبادة الشمس

قال الشهرستاني في كتابه المترجم "بالمثل والنحل": إن عبادة الشمس طائفة من الهنود يسمون الدييكتينية أي عبادة الشمس، ومنهم مذهب الصابئة. وتوجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبية عليها. ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة، وأن لها نفسا وعقلا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكون الموجودات السفلية. وهي ملك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء. ومن ستمهم أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاص بنوه بأسمه ووقفوا عليه ضياعا. وله سدة وقوام. فأتى هذه الطائفة إلى البيت، ويصلون فيه ثلاث كرات. ويأتي أصحاب العلل والأمراض فيصومون له، ويصلون، ويدعون، ويستشفون به.

٩ - ذكر ما قيل في القمر

(وهو النير الثاني)

ذهب وهب بن منبه أن القمر موضوع على عجلة في فلك، والملك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجرها ثلثمائة وستون ملكا إلى ناحية المشرق، وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم، وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة. ويقال: إن القمر كان كالشمس في الضياء. فلم يكن يعرف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يتر عليه بجناحه، فتر عليه، فحاه. فهو ما ترى فيه من السواد.

(١) الذي في الشهرستاني طبع لودرة: "الديكتينية". وهو الأقرب للصواب ويقول مترجمه الألماني العلامة هاربردكرانه ولعله من "ديكتوت" ومعناه «صانع النهار».

وبهذا القول فسر قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ .

قالوا: ولا يستمى قمرًا إلا بعد مضي ثلاث ليالٍ من استهلاله . والأقمر هو الأبيض .

١٠ - ذكر ما قيل في القمر

(من استهلاله إلى انقضاء الشهر وأسماء لياليه)

قالوا : وللقمر من أول الشهر إلى آخره خمس حالات ؛ ولياليه عشرة أسماء

§ أما حالاته الخمس :

فالأولى : الهلالية ، وهي خروجه من تحت شعاع الشمس وظهوره في الغرب في أول الشهر .

الثانية : أن يفضل فيه النور على الظلمة ، وذلك في الليلة السابعة من الشهر .

الثالثة : الأستقبال ، وهو كونه في البرج السابع من بروج الشمس ، ويسمى الأمتلاء لأمتلاء القمر فيه نورا ، وذلك في الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، ويسمى القمر فيها بدرًا لكماله ، ويسمى بذلك لأمتلائه ، وقبل لمبادرته الشمس بالطلوع ، وتسمى الليلة التي قبلها (وهي الثالثة عشرة) ليلة السواء لأستواء القمر فيها ، وقيل : لأستواء لياليها ونهارها في الضياء ، وهي ليلة التمام .

الرابعة : أن تفضل الظلمة فيه على النور ، وذلك في الليلة الثانية والعشرين من الشهر .

الخامسة: المحاكية، وهي مدة أستتاره بضعاع الشمس، ويسمى ذلك أيضا سرارا، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث ليال لا يرى ويهبل في اليوم الرابع، ويسمى حينئذ قرا لاهلألا، والشمس تعطيه من نورها كل ليلة ما يستضيء به نصف سبع قرصه حتى يكمل، ثم يسلبه من الليلة الخامسة عشرة، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر.

وَأما أسماء لياليه، فإنه يقال لأول ثلاثة منها غرر، والثانية شهب، والثالثة زهر، والرابعة بهر، والخامسة بيض، والسادسة دُرْع، والسابعة حنادس^(١)، والثامنة ظلم، والتاسعة دآد، والعاشر ليلتان منها محاق وليلة سرار، ويسمى الليلة الثامنة والعشرين الدنجاء، والليلة التاسعة والعشرين الدهماء، والليلة الموفية ثلاثين الليلاء، ويسمونها ليلة البراء لتبصر القمر من الشمس.

١١ - ذكر أسماء القمر اللغوية

وللقمر أسماء نطقت بها العرب. فمنها: القمر، والباهر، والبدر، والطوس، والظلم، والغاسق، والوباص، والزبرقان، والمنشق^(٢)، والواضح، والباحور، والأبرص، والزمهير. ومنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ وقول بعض العرب:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطمتها والزمهير ما ظهر.

(١) الذي في اللسان والقاموس: ان الظلم، ثلاث ليال يلين الدرْع. والحنادس، ثلاث ليال بعد الظلم. ويؤيده ما في الصحاح: ان الحنادس الليل الشديد الظلمة. وقد ذكر ابن سيدة هذه الأسماء في المخصص (ج ٩ ص ٣٠ - ٣١) وأوردتها على هذا الترتيب. وعليه فصواب العبارة هكذا: (والسادسة دوع، والسابعة ظلم، والثامنة حنادس الخ) اهـ.

(٢) الذي في كتب اللغة: ان الواضح القمر، فقله تحريف من الواضح.

ومن أسمائه : السَّنَامُ، والسَّاهُورُ .
 وَالنَّخْتُ ضَوْؤُهُ، وَالْأَخْذُ مَنَزَلُهُ . وَكَذَلِكَ الْوَكْسُ، وَهِيَ الْمَنَزَلَةُ الَّتِي يُكْسَفُ فِيهَا .
 وَالْمَهَالَةُ دَارَتُهُ .

١٢ - ذكر ما يمثّل به مما فيه ذكر القمر

يقال في أمثالهم :

- أَضِيحُ مِنْ قَمَرِ الشِّتَاءِ ! قِيلَ لِأَنَّهُ لَا يُجَلِّسُ فِيهِ .
- إِنْ يَبِيحُ عَلَيْكَ قَوْمُكَ، لَا يَبِيحُ عَلَيْكَ الْقَمَرُ .
- وَيُقَالُ : أَضَوُا مِنَ الْقَمَرِ ؛ وَأَتَمُّ مِنَ الْبَدْرِ .

ومن أنصاف الآيات :

- ١٠ • أَرِيهَا السَّمَا وَتَرِيهِ الْقَمَرَ • لَا تَخْرُجُ الْأَمَارُ مِنْ هَالَاتِهَا •
- هَكَذَا الْبَدْرُ فِي الظَّلَامِ يُوَافِي • كَذَلِكَ كُسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ •

ومن الآيات قول الطائي :

إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتُ نُومَهُ • أَيْقَنْتُ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا .

وقال ابن أبي البقل، والبيت الثاني لابن بحر :

- ١٥ • الْمَرْءُ مِثْلُ هَلَالٍ حِينَ تُبْصِرُهُ • يَبْدُو ضَعِيفًا ضَعِيفًا ثُمَّ يَنْسِقُ .
- «يَرْدَادُ حَتَّى إِذَا مَاتَ أَعْقَبَهُ • كَرَّ الْجَدِيدِينَ تَقْصَابًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ» .

وقال أبو الفرج البياض :

سَخَّخُلُصٌ مِنْ هَذَا السَّرَارِ وَأَيْمًا • هَلَالٌ تَوَارَى فِي السَّرَارِ فَمَا خَلَصَ !

(١) عبارة اللسان في مادة (اخ ذ) : ويجوز الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها .

١٣ - ذكر ما قيل في وصفه وتشيبيه

من ذلك قول عبد الله بن المعتز في الهلال:

وَأَنْظُرْ إِلَيْهِ كَرُورِيٍّ مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ أَقْلَبْتَهُ حُمُولَهُ مِنْ عَنَبٍ!

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلّي:

وَرُبَّ صُبْحٍ رَقَبَانُهُ، وَقَدْ طَلَعَتْ * بَقِيَّةُ الْبَدْرِ فِي أَوْلَى بَشَائِرِهِ!

كَأَنَّمَا أَذْهَمُ الْإِظْلَامِ حِينَ نَجَمَا * مِنْ أَشْهَبِ الصُّبْحِ، أَلَى نَعْلِ حَافِرِهِ!

وقال آخر:

قَدْ أَتَقَضَّتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ * بَشَّرُ سُقْمِ الْهِلَالِ بِالْعَيْدِ!

يَتَهَلُّو الثَّرِيًّا كِفَاغِيرِ شَرِيهِ * يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلِ عُنُقُودِ!

وقال أبو هلال العسكري:

فِي هِلَالٍ كَأَنَّهُ حَيَّةُ الرَّمْلِ أَصَابَتْ عَلَى الْبِقَاعِ مَقِيلًا .

بَاتَ فِي مِعْصَمِ الظَّلَامِ سَوَارًا * وَعَلَى مَفْرَقِ الدُّجَى إِكْلِيلًا .

وقال آخر:

وَالْجَوْصَايِفِ وَالْهِلَالُ مُشَنَّفٌ * بِالزُّهْرَةِ الزُّهْرَاءِ نَحْوَ الْمَغْرَبِ .

كَصَحِيْفَةٍ زَرْقَاءَ فِيهَا نُقْطَةٌ * مِنْ فِضَّةٍ مِنْ تَحْتِ نُونِ مُذْهَبِ .

وقال آخر:

قُلْتُ لَمَّا دَنَتْ لِمَغْرِبِهَا الشَّمْسُ وَوَلَّاحَ الْهِلَالُ لِلنَّظَارِ :

أَقْرَضَ الشَّرْقُ صِنْوَهُ الْغَرْبَ دِينًا * زَا فَاعْطَاهُ الرَّهْنَ نِصْفَ سِوَارِ .



وقال أبو العلاء المعري :

ولاح هلالٌ مثلُ نونٍ أجادها * بدؤب النضار الكاتبُ ابنُ هلال .

وقال آخر :

وكانَ الهلالُ نُونٌ بلحِينِ * غرقتُ في صحيفَةِ زرقاء .

وقال أبو عاصم البصريّ من شعراء اليتيمة :

رأيتُ الهلالَ، وقد أهدتُ * نُجومُ الثريا لى نسيقه .
فسميته وهو في إثرها * وبينهما الزهرةُ المشرقه ،
بقوسٍ لرامٍ رمى طائرا * فأتبع في إثره بُندقه .

وقال آخر :

ولاح لنا الهلالُ كشطِ طوقٍ * على لباتِ زرقاءِ اللباس .

وقال الواو الدمشقيّ رحمه الله :

وكانَ الهلالُ تحتَ الثريا * ملكٌ فوقَ رأسه إكليلُ !

وقال إبراهيم بن محمد المراديّ، من شعراء الأئمة، ملغزا فيه :

دعْذا! وقلْ للناس: ما طارِقُ، * يطرُقُكمُ جهرا ولا يَتَّقِي ؟

ليس له رُوحٌ على أَنه * يركبُ ظهَرَ الأدهمِ الأبلقي .

شَيْخٌ رأى آدَمَ في عَصْرِهِ * وهو إلى الآنَ بحدِّ نقي .

ومدَّ وَسَطَ السَّجْنِ مع قَوْمِهِ * لا يَنْبَرِي من نَهْجِهِ الضِّيقِ .

هذا وَيَمْنِي الأَرْضَ في لَيْلَةٍ * أُعْجِبُ به من مُوتِي مُطْلَقِ .

- فتارة يَنْزِلُ تحتَ الثَّرى * وتارة وَسَطَ السَّما يَرْتَقِي .
 وتارة يُوجَدُ في مَغْرِبِ * وتارة يُوجَدُ في المَشْرِقِ .
 وتارة تَحْسَبُهُ سائِحًا * يَسْرِي بِسَاطِي البَحْرِ كالزُّورِقِ .
 وتارة تَحْسَبُهُ وَهَوِي * أَسْتارِهِ والبعضُ مِنْهُ بَقِي ،
 دُبَابَةً مِنْ صَارِمٍ مُرْهِفِ * بارِزَةً مِنْ جَفْنِهِ المُنْطَبِقِ .
 يَدْنُو إِلَى عِرْسِ لَه حُسْنُهَا * يَحْتَطِفُ الأَبْصارَ بِالرُّوقِ .
 حَتَّى إِذَا جَا مَعَهَا يَرْتَدِي * بَحْلَةً سَوْدَاءَ كَالْمُحْرَقِ .
 وَهُوَ عَلَى عَادَتِهِ دائِمًا * يُجَامِعُ الأَثْيَ وَلَا يَتَّقِي .
 ثُمَّ يَجُوبُ القَفْرَ مِنْ أَجْلِهَا * مُشْتَمِلًا فِي مُطْرِفِ أَرْزِقِ .
 حَتَّى إِذَا قَابَلَهَا نَائِبًا * تَشْكُهُ بِالرَّخِ فِي المَفْرِقِ .
 وَبَعْدَ ذَا تُنَلِّسُهُ حُلَّةً * يَا حُسْنَهَا فِي لَوْنِهَا المُوْتِقِ !
 بِخَسْمِهِ مِنْ ذَهَبٍ جامِدِ * وَجِلْدُهُ صِينِجٍ مِنَ الزُّبَيْقِ .
 وَهُوَ إِذَا أَبْصَرْتَهُ هَكُنَّا * أَمْلَحُ مِنْ صَاحِبَةِ القُرْطُقِ .

وقال ابن المعتز :

- نَظَرْتُ فِي يَوْمٍ لَذَّةً عَجَبًا * وَافِي بِهِ لِلسُّعُودِ مِقْدَارُ .
 يَقَابِلُ الشَّمْسَ فِيهِ بَدْرٌ دُجِي * يَأْخُذُ مِنْ نُورِهَا وَيَمْتَارُ .
 كَصَيْقِيَّ يَرُوحُ مَبْتَدَاً * فِي كَفِّهِ دِرْهَمٌ وَدِينَارُ .

وقال عبد الله بن علي الكاتب :

كَشَفَ البَدْرُ وَجْهَهُ تَمَامًا ، * فُوجُوهُ النُّجُومَ مَسْتَرَاتًا .
وَكَانَ البَدْرَ التَّمَامَ عَرُوسًا ، * وَكَانَ النُّجُومَ مُسْتَنْقَبَاتًا .

١٤ - ذكر شيء مما قيل فيه على طريق النديم

- حكى أن أعرابيا رأى رجلا يُرَقِبُ الهلال . فقال له : ما ترقب فيه ، وفيه عيوب لو كانت في الحمار لردَّ بها ؟ قال : وما هي ؟ فقال : إنه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ، ويُحِلُّ الدِّينَ ، وَيَقْرِضُ الكَنَانَ ، وَيَشْجِبُ اللونَ ، وَيُفْسِدُ اللحمَ ، وَيَفْضَحُ الطَّارِقَ ، وَيُدُلُّ السَّارِقَ .

ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام في ضوءه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء

- ١٠ . والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصداع ، وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة في ضوءه ، تغيرت طعومها وروائحها .

وقال ابن الرومي :

- رَبِّ عَرِيضٍ مُنَزَّهِ عَنِ قَبِيحٍ * دَسَّسَتْهُ مُعْرِضَاتُ الهِجَاءِ .
لَوْ أَرَادَ الأَدِيبُ أَنْ يَهْجُوَ البَدَّ * رَمَاهُ بِالْحِطَّةِ الشَّنْعَاءِ .
قال : يَا بَدْرُ أَنْتَ تَغْدِرُ بَالِسًا * رِي وَتُرِي بِزُورَةِ الحَسَنَاءِ .
كَلَّفَ فِي شُحُوبٍ وَجْهَكَ يَمْحَى * نَكَّأَ فَوْقَ وَجْنَةٍ بَرَصَاءِ .
بَسْتَرِكَ الحِقَاقُ ثُمَّ يَحْلِيكَ شَيْبَةَ القَلَامَةِ المَجْنَاءِ .

وَيْلِكَ النَّقْصَانُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ فَيَمُحُوكَ مِنْ أَدِيمِ السَّمَاءِ .
فَإِذَا الْبَدْرُ نَبَلَ بِالْمَجْجِ، هَلْ يَا * مِنْ دُوَالْفَضْلِ أَلْسُنَ الشُّعْرَاءِ ؟
لَا لِأَجْلِ الْمَدِيحِ ، بَلْ خِيفَةَ الْمَعْجِزِ وَأَخْذَنَا جَوَائِزَ الْخُلَفَاءِ !

هذا ما أمكن إيرادَه في القمر، فلنذكر خبر عباد القمر .

١٥ - ذِكرُ عِبَادِ الْقَمَرِ

قال الشهرستاني: عِبَادُ الْقَمَرِ طَائِفَةٌ مِنَ الْهِنُودِ يَسْمَوْنَ الْهِنْدُرَ بِكَيْتِيَّةٍ، أَيْ عِبَادَ الْقَمَرِ . يَزْعَمُونَ أَنَّ الْقَمَرَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ وَالْعِبَادَةَ، وَإِلَيْهِ تَدْبِيرُ هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ، وَمِنْهُ نُضِجُ الْأَشْيَاءِ الْمَتَكُونَةِ وَأَتَصَالُهَا إِلَى كِبَالِهَا، وَبِزِيَادَتِهِ وَقِصَانِهِ تَعْرِفُ الْأَزْمَانَ وَالسَّاعَاتِ، وَهُوَ تَلُو الشَّمْسِ وَقَرِينُهَا، وَمِنْهَا نُورُهُ، وَبِالنَّظَرِ إِلَيْهَا زِيَادَتُهُ وَقِصَانُهُ، وَمَنْ سُنَّتَهُمْ أَنَّهُمْ آتَمَّخُوا صِنًا عَلَى عَجَلَةٍ تَجْرَهُ أَرْبَعَةً، وَبِيَدِهِ جَوْهَرَةٌ، وَمَنْ دِينُهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ وَيَعْبُدُوهُ، وَأَنْ يَصُومُوا النِّصْفَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَلَا يَفْطُرُوا حَتَّى يَطَّلِعَ الْقَمَرُ، ثُمَّ يَأْتُونَ الصَّنَمَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللَّبَنِ، ثُمَّ يَرِغُونَ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْقَمَرِ، وَيَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ، فَإِذَا آسْتَهَلَ الشَّهْرَ عَلَوْا السُّطُوحَ، وَأَوْقَدُوا الدُّخَانَ، وَدَعَوْا عِنْدَ رُؤْيَيْهِ، وَرَغَبُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ نَزَلُوا عَنِ السُّطُوحِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْفَرَحِ وَالسَّرُورِ، وَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى وَجْهِهِ حَسِنَةً . وَفِي نِصْفِ الشَّهْرِ إِذَا فَرَّغُوا مِنَ الْإِفْطَارِ، أَخَذُوا فِي الرِّقْصِ وَاللَّعْبِ بِالْمَعَازِفِ بَيْنَ يَدَيْ الصَّنَمِ وَالْقَمَرِ .

(١) في الشهرستاني طبع لوندرة : "الهندريكية" . وأفادنا مترجمه إلى الألمانية أن "هندراكا"

معناه القمر في لغتهم .

(٢) الذي في الشهرستاني : صما على صورة عجل وبيد الصم الخ .

١٦ - ذكر ما قيل في الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمى المتحيرة. ثلاثة منها علوية
تعلو أفلاكها فلك الشمس، وهي: زحل، والمشتري، والمريخ؛ وأثنان سفلية
فلكهما تحت فلك الشمس، وهي: الزهرة، وعطارد.

- وسميت هذه الكواكب المتحيرة لأنها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة
الشرقية، وتنبع الغربية. فهذا الارتداد فيها شبه التحير.

١٧ - ذكر عباد الروحانيات

(وما أحتجوا به في سبب عبادتهم لها^(١))

وعباد الروحانيات هم الصابئة. يقال: صبا الرجل إذا مال وزاغ.

- ومذهب هؤلاء أن للعالم صناعا فاطرا حكما مقدسا عن سمات الحديثان.

وكانت الصابئة تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره
وأحكامه، إلى متوسط؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لاجسمانيا.
وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب؛ والجسماني بشر مثلنا
يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في الصورة والمادة.

- قالوا: **زَوَلْتِنِ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ أَنْتُمْ إِذَا نَحَا سِرُونِ** .

وقالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه
بالتوسطات المقتربين لديه، وهم الروحانيون المقدسون المطهرون، جوهر اوفعلا وحالة.

(١) نقل المؤلف هنا بعض عبارات الشهرستاني في الملل والنحل مع تقديم وتأخير (أنظر ص ٢٠٣ من
طبعة الأب كرتون الانكليزي في لندرة سنة ١٨٤٢ - ١٨٤٦).

أما الجوهر فهم المقتسون عن المواد الحسائية ، المبرؤون عن القوى الحسدانية ، أي منزهون عن الحركات المكانية ، والتغيرات الزمانية ؛ قد جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح (لَا يَمُصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

وإنما أرشدنا إلى هذا معامنا الأول ، عاذيمون ، وهرمس . فنحن نتقرب إليهم ، ونتوكل عليهم ، وهم أربابنا ، وآلهتنا ، ووسائلنا ، وشفعاؤنا عند رب الأرباب ، وإله الآلهة . فالواجب علينا أن نظهر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية ، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والفضبية ، حتى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات . فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم ، ونعرض أحوالنا عليهم ، ونصبأ في جميع أمورنا إليهم . فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ، ورازقنا ورازقهم . وهذا التطهير والتهديب ليس إلا بآكتسابنا ، ورياضتنا ، وفظامنا لأنفسنا عن دنيآت الشهوات ، باستمداد من جهة الروحانيات ؛ والاستمداد هو التضرع والابتهاج بالدعوات ، وإقامة الصلوات ، وبذل الزكوات ، والصيام عن المَطعومات والمشروبات ، وتقريب القرابين والذبايح ، وتبخير البخورات ، وتعزيم العزائم . فيحصل لنفوسنا أستعداد أو أستمداد من غير واسطة ، بل يكون حكمتنا وحكم من يدعى الوحي واحدا .

قالوا : والأنبيا أمثالنا في النوع ، وأشكالنا في الصورة ، ومشاركونا في المادة .
يا كلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، ويساهموننا في الصورة . أناس بشر مثلا ، فن أين لنا طاعتهم ، وبأية مزية لهم لزم مشايعتهم ؟ ﴿ وَإِنِّ أَطْعَمُ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا نَحَلْتُمْ سُرُونَ ﴾ .

قال . وإنما الفعل ، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع ، والإيجاد ،

وتصرف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال، يستمتون القوة من الحضرة القدسية، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية.

§ فنها - مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، وهي هياكلها، فلكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك. ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي أختص به نسبة الروح إلى الجسد. فهو ربه ومديره ومدبره.

وكانوا يسمون للمياكل أربابا (وربما يسمونها آباء)، والعناصر أمهات.

فعمل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها أفعال في الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات وأمترجات في المركبات فتتبعها قوى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان. ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي. فمع جنس المطر ملك، ومع كل قطرة ملك.

§ ومنها - مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجو مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والتلوج والبرد والرياح، وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب، وما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب وقوس قزح وذوات الأذنان والهالة والمجزة؛ وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبجزة إلى غير ذلك.

§ ومنها - متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات، ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات، حتى لا ترى موجودا ما خاليا عن قوة وهداية، إذا كان قابلا لها. قالوا: وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الروح، والريحان، والنعمة، واللذة، والراحة، والبهجة، والسرور في جوار رب العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد ؛ وأنسهم بذكر الله وطاعته ، فمن قائم وراكع وساجد ، ومن قاعد لا يريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة ، ومن خاشع بصره لا يرفع ، ومن ناظر لا يغمض ، ومن ساكن لا يتحرك ، ومتحرك لا يسكن ، وكروبي في عالم القبض ، وروحاني في عالم البسط ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ .

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحاني المحض والبشرية النبوية ، ليس هذا موضع إيرادها .

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل ، ولو ما ذكرناه من عباد الروحانيات ومحتاجتهم !

١٨ - ذكر بيوت الهياكل

(وأما كنها ونسبتها إلى الكواكب)

١٠

قالوا : ثم لم تقتصر الصابئة على التقرب إلى الروحانيات بأعيانها ، والتلقى بذواتها حتى آخذوا أصناما على هيئة الكواكب السبعة . وجعلوا لها بيوتا ، وسموا البيوت بالهياكل ، وجعلوا الهياكل الأفلاك للكواكب . وعظموا هذه الأصنام التي صنموها ، وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ما يريدون .

وحكى المسعودي في كتابه المترجم "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زحل . وإنما طلل بقاء هذا البيت على مرور الدهور ، معظما في سائر العصور ، لأن زحل تولاه : إذ من شأنه الثبوت .

(١) الكروبيون سادة الملائكة المقربون .

(٢) راجع الشيرازي طبعه كرتن (ص ٤٣٠ - ٤٣١) .

ومن البيوت المشهورة ^(١) :

§ بيت على رأس جبل أصفهان، يسمى مارس ^(٢)، ثم أخذه بعض ملوك الهجوس
بيت نار؛

§ وبيت ببلاد الهند،

• § وبيت ببلخ، بناه منو شهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدائه يسمونه برمك،
وإليه تنسب البرامكة؛

§ وبيت عُمدان باليمن، بناه الضحاك على اسم الزهرة؛

§ وبيت بقرغانة ^(٣)، على اسم الشمس، يعرف بكاسات ^(٤)، بناه كاس أحد ملوك
الفرس، ونحبه المعتضد بالله ^(٥)؛

١٠ § وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل ^(٦) بن يافت، وقيل بناه بعض
ملوك الترك ^(٧).

§ وحقى غير المسعودى أن البيت الأوّل الكعبة. ويذكرون أن إدريس (عليه
السلام) أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل؛ والبيت

(١) وراجع الشهرستاني (ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٢) في الشهرستاني: فارس.

(٣) من مدن خراسان.

(٤) في الأصل: مكاس [وهو خطأ من النسخ]. والتصويب عن المسعودى وعن الشهرستاني [.

(٥) في الشهرستاني أنه المنتم.

(٦) في بعض نسخ المسعودى: سويل (بالسين المهملة).

٢٠ (٧) انظر الباب الرابع والستين من مروج الذهب، فيه تفصيل لما أورده التورى هنا بفاية التخصيص.

الثاني وهو بيت المترنج، يزعمون انه كان بصور من الساحل الشامي؛ والبيت الثالث وهو بيت المشتري، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموي؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية الى وقتنا هذا؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمنبج وخریب؛ والبيت السادس بيت عطارد، وكان بصيدا من الساحل الشامي وخریب؛ والبيت السابع وهو بيت القمر، كان بحزان؛ وهو بيت الصابئة الأعظم .

الباب الخامس

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم في ذلك أن هذه الكواكب معلقة في سماء الدنيا كالتناديل، وأنها مخلوقة من نور .

وقال آخرون: إنها معلقة بأيدي ملائكة . وفسر بهذا القول قوله تعالى (وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) . يقال آنتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة .

وهذه الكواكب في سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز، لقول الله عز وجل : ولقد

زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ .

(١) زالت هذه الآثار الآن .

وقال قتادة : خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة : جعلها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر . فمن تأول غير هذا فقد أخطأ .
 قالوا : وإنما سميت بالثوابت ، وإن كانت معحركة لأنها ثابتة الابداع على الأبد ، لا يقرب أحدها من الآخر ، ولا يبعد عنه ، ولا يزيد ، ولا ينقص ، ولا تتغير عن جهاتها . لأنها تتحرك بحركتها الطبيعية حول قطبي العلم . ولهذا سميت ثابتة . وهي في فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة . ودليل ذلك أن للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه .

٢ - ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الكواكب

يقال : أنأى من كوكب ؛ أبعد من مناط النجم ؛ أهدى من النجم .

ومن أضاف الأبيات :

* وَأَيُّ نَزِيلِ الْأَرْضِ عِنْدَ الْكَوَاكِبِ ؟ * * وَأَيُّ الثَّرْيَاءِ مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ ؟ *
 * وَالْكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقِي الْأَرْضَ أَحْيَانًا * .

ومن الأبيات قول أبي تمام عفا الله عنه :

كَالنَّجْمِ إِنْ سَافَرْتَ كَانَتْ مَوَاجِبًا * وَإِذَا حَطَّطَ الرَّحْلَ كَانَ جَلِيسًا .

وقال أبو نؤاس :

أَيُّ النَّجُومِ الثَّابِتَا * تٌ مِنْ الْأَهْلَةِ وَالِدُورِ ؟

وقال آخر :

وَكُنَّا فِي أَجْتِمَاعٍ كَالثَّرْيَاءِ ، * فَصِرْنَا مَرْفَعَةَ كَبَنَاتِ نَعْمِشِ !

وقال آخر:

كالفرقدين إذا تأمل ناظرًا، * لم يعل موضع فرقد من فرقد.

وقال الوزير أبو الفتح البستي:

والنجم من بعد الرجوع استقامة * وللشمس من بعد الغروب طلوع.

وقال بحظة:

مثل الذي يرجو البلو * غ إلى الكواكب وهو مقعد.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلا، * عمرك الله! كيف يلتقيان؟

هي شامية إذا ما استهلّت، * وسهيل إذا استهلّ يمانى.

وقال آخر:

وكل أبح مفارقة أخوه، * لعمر أبك، إلا الفرقدان!

٣ - ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ابن حجاج في المجرة:

يا صاحبي استيقظا من رعدة * تزي على عقل الليب الأكيس!

هذي المجرة والنجوم كأنها * نهر تدفق في حديقة ترجيس!

وقال آخر:

وكانت المجرة جدول ماء، * نور الأخوان في جانبيه.

وقال المهذب بن الزبير فيها :

وَتَرَى الْمَجْرَةَ وَالنُّجُومَ كَأَنَّهَا * تَسْقَى الرِّيَاضَ بِمَدْوِلِ مَلَانِ .
لَوْلَمْ يَكُنْ نَهْرًا، لَمَاعَمَتْ بِهِ * أَبَدًا نُجُومُ الْحُوتِ وَالسَّرَطَانِ .

وقال أبو هلالٍ المسكري :

تَبْدُو الْمَجْرَةَ مُنْجَرًا ذَوَائِبُهَا * كَلَمَاءٍ يَنْسَاحُ أَوْ كَالْأَيْمِ يَنْسَابُ .

وقال هشام بن إلياس في الجوزاء :

فَكَأَنَّما جَوْزَاوَهُ فِي غَرْبِهَا * يَبْضَاءُ سَابِجَةً بِبِرْكَاتِ زَيْتِقِ .
وَكَأَنَّما أَوْمَتْ ثَلَاثُ أَنْمِيلِ * مِنْهَا تَقُولُ : إِلَى ثَلَاثِ نَلْتَقِ !

وقال آخر :

وَكَأَنَّ الْجَوْزَاءَ لَمَّا اسْتَقَلَّتْ * وَتَدَلَّتْ، سُرَادِقُ مَمْدُودُ .

وقال العلوي فيها أيضا :

هَا إِنَّهَا الْجَوْزَاءُ فِي أَفْقِهَا * وَاهِيَةٌ نَاعَسَةٌ تُسْحَبُ .
نَطَأُهَا وَاهٍ لَدَى أَفْقِهَا * يَنْسَلُّ مِنْهَا كَوْكَبٌ كَوْكَبُ .

وقال ابن وكيع فيها :

قُمْ فَاسْقِنِي صَافِيَةً * تَهْتِكُ جُنْحَ النَّسَقِ !
أَمَّا تَرَى الصُّبْحَ بَدَا * فِي ثُوبِ لَيْلِ خَلْقِ ؟

(١) الأيم، والأين : ضرب من الحيات . (عن النوادر في اللغة) .

أَمَا تَرَى جَوَازَاءَهُ * كَأَنَّهَا فِي الْأُفُقِ،

مِنْطَقَةً مِنْ ذَهَبٍ * فَوْقَ قَبَائِ أَرْزِقِ؟

وقال كعب الغنوي :

وقد مَالَتِ الْجَوَازَاءُ حَتَّى كَانَتْهَا * فَسَاطِطُ رَكَبٍ بِالْفَلَاةِ تُزُولُ.

وقال امرؤ القيس في الثريا :

إِذَا مَا الثَّرِيَاءُ فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ * تَعَرَّضَ أَشْنَاءُ الْوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ.

وقال ابن الطَّيْرِيَّةِ :

إِذَا مَا الثَّرِيَاءُ فِي السَّمَاءِ كَانَتْهَا * جُحَّانٌ وَهِيَ مِنْ سِلْكِهِ، تَسْبَدْدَا.

وقال المبرد :

إِذَا مَا الثَّرِيَاءُ فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ، * يَرَاهَا حَدِيدُ الْعَيْنِ سِتَّةَ أَنْجُمِ.

عَلَى كَيْدِ الْجَرَبَاءِ وَهِيَ كَانَتْهَا * جَبِيْرَةٌ دُرٌّ رُكِبَتْ فَوْقَ مِعْصَمِ.

وقال عبد الله بن المعتز :

فَنَآوَلْتِيهَا، وَالثَّرِيَاءُ كَانَتْهَا * جَنَى نَرْجِسٍ حَيًّا النَّدَامَى بِهَا السَّاقِي.

وقال أيضا :

كَأَنَّ الثَّرِيَاءُ فِي أَوَاخِرِ لَيَالِيهَا * تَفْتَحُ نُورِ أَوْ لِحَامِ مَفْضُضِ.

وقال السلامي، شاعر اليتيمة فيها :

فَسَمَّوْنَا، وَالفَجْرُ يَضْحَكُ فِي الشَّرِّ * قِ إِيْنَا مُبَشِّرًا بِالصَّبَاحِ.

والثُرَيَّا كَرَايَةَ أَوْ لِحَامٍ * أَوْ بَنَانٍ أَوْ طَائِرٍ أَوْ وِشَاحٍ،
وَكَأَنَّ النُّجُومَ فِي يَدِ سَاقٍ * يَتَهَادَى تَهَادَى الْأَقْدَاحِ.

وقال ابن المعتز:

وَلَا حَتَّ لِسَارِيهَا الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا * عَلَى الْأَفُقِ الْغَرْبِيِّ قُرْطٌ مُسَلَّسٌ.

وقال أبو نضلة:

وَتَأَمَّلْتُ الثُّرَيَّا * فِي طُلُوعِ وَمَغِيبِ،
فَتَخَيَّرْتُ لَهَا التَّشْبِيهَ فِي الْمَعْنَى الْمَصِيبِ،
وَهِيَ كَأْسٌ فِي شُرُوبٍ * وَهِيَ قُرْطٌ فِي غُرُوبِ.

وقال آخر:

٢٥

كَانَ الثُّرَيَّا هَوْدَجٌ فَوْقَ نَاقَةٍ * يَسِيرُ بِهَا حَادٍ مَعَ اللَّيْلِ مُزَجَّجٌ،
وَقَدْ لَمَعَتْ بَيْنَ النُّجُومِ كَأَنَّهَا * قَوَارِيرُ فِيهَا زَيْبِقٌ يَتَرَجَّجُ.

وقال ابن سكرة الهاشمي:

تَرَى الثُّرَيَّا، وَالْغَرْبُ يَجْدِبُهَا * وَالْبَدْرُ يَهْوَى وَالْفَجْرُ يَنْفَجِرُ،
كَفَّ عَرُوسٍ لَاحَتْ خَوَائِمُهَا * أَوْ عِقْدَ دُرٍّ فِي الْبَحْرِ يَنْتَثِرُ.

وقال محمد بن الحسن الحاتمي:

وَحَلَّتْ الثُّرَيَّا كَفَّ عَدْرَاءَ طِفْلَةٍ * مُحْتَمَّةٍ بِالذَّرِّ مِنْهَا الْأَمَلِ،
تَحَيَّنَتْ فِي الْجَوِّ طَوْرَةَ جَعْبَةٍ * مُلَوَّكِيَّةٍ لَمْ تَعْتَلِقْهَا حَمَائِلُ،
كَأَنَّ نَيْلًا سِتَّةَ مَنْ لَالِي * يُوَالِي بِهَا فِي قُبَّةِ الْأَفُقِ نَائِلُ.

وقال أحمد بن إبراهيم الضبي: شاعر اليتيمة:

خَلَّتْ الثَّرِيَا إِذْ بَدَتْ * طَالِعَةً فِي الْحِنْدَسِ:

مُرْسَلَةً مِنْ لُؤْلُؤٍ * أَوْ بَاقَةً مِنْ تَرْجِسِ

وقال أبو العلاء المعري في سهيل:

وَسَهِيلٌ كَوْجَنَةُ الْحَبِّ فِي أَلْو * نَ وَقَلْبُ الْمُحِبِّ فِي الْخَفَقَانِ.

مُسْتَبِدًّا كَأَنَّهُ الْفَارِسُ الْمُعْلَمُ يُبْدُو مُعَارِضَ الْفُرْسَانِ.

وقال عبد الله بن المعتز:

وَقَدْ لَاحَ لِلسَّارِي سَهِيلٌ كَأَنَّهُ * عَلَى كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ رَقِيبٌ!

وقال الشريف بن طباطبا:

وَسَهِيلٌ كَأَنَّهُ قَلْبٌ صَبَّ * فَاجَانَتْهُ بِالْخَوْفِ عَيْنُ الرَّقِيبِ.

وقال أبو عبادة البُحْتَرِي:

كَأَنَّ سَهِيلًا شَخْصُ ظَمَانَ جَانِحٌ * مِنْ اللَّيْلِ فِي نَهْرٍ مِنَ الْمَاءِ يَكْرَعُ.

وقال ابن طباطبا:

كَأَنَّ سَهِيلًا، وَالنُّجُومُ أَمَامَهُ * يُعَارِضُهَا، رَاجِعَ أَمَامَ قَطِيعِ.

وقال الشريف الرضي في الفرقدين:

وَهَبَّتْ لَصَوِّهِ الْفَرْقَدَيْنِ نَوَاطِرِي * إِلَى أَنْ بَدَأَ ضَوْءٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ.

كَأَنَّهُمَا إِذَا قَالَ كِلَاهُمَا * لِشَخْصِ أَخِيهِ: قُلْ فَإِنِّي سَامِعُ!

وقال آخر:

قُلْتُ لِلْفَرَقَدَيْنِ وَاللَّيْلِ مُرِيحٍ * سِتْرَ ظَلْمَائِهِ عَلَى الْآفَاقِ:
إِقْبَا مَا بَقِيَتْمَا سَوْفَ يُرْمَى * بَيْنَ شَخَصِيكُمَا بَسْمُ الْفِرَاقِ!

وقال القاضي التنوخي:

وأشقر الجوق قد لاجت كواكبُه * فيه كدرٌ على الياقوت منثور.

وقال القاضي الفاضل، عبد الرحيم من رسالة:

”سِرْنَا، وروضة السماء فيها من الزهر زهر، ومن الحجرة نهر، والليل كالبنتسج تخله
من النجوم أقاح، أو كالزنج شعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب
لأمعزس لها دون الصباح، وسهيل كالظمان تدلّ إلى الأرض ليشرب، أو الكريم
أنف من المقام بدار الدل فتغرب. فكأنه قبس تتلاعب به الرياح، أو زينة قدمها
بين يدي الصباح، أو ناظر يقضه الغيظ ويفتحه، أو معنى يغمضه الحسن ثم يشرحه؛
أو صديق جماعة الكواكب مغاضب، أو رقيب على المواكب مواكب؛ أو فارس
يجي الأعقاب، أو داع به إليها وقد شردت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق
المضروب، أو الهودج المنسوب، أو الشجرة المنورة، أو الخبر المصورة. والثريا قدم
عقودها أن يتدلّ، وجيش الليل قدم أن يتولّى“.

القسم الثاني

من الفن الأول في الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب



الباب الأول

من القسم الثاني من الفن الأول

١ - في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج والبرد

والسحاب من الآثار العلوية .

روى أبو الفرج بن الجوزي بإسناد يرفعه إلى عمير ابن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتقوم الأرض ، ثم يبعث الميثرة فتثير السحاب ، وذلك أنها تحمل الماء فتمجّه في السحاب ، ثم يمرّيه فيدرّ كما تدرّ اللقحة .

وقد روى في الأثر أن الرياح أربع : ريح تقيّم ، وريح تُثير ، فتجعله كسفاً ؛ وريح تؤلّف ، فتجعله ركاماً ؛ وريح تُمطر .

وروى عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : إن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحابا ، وينزل عليه المطر فتتمخض به الرياح كما يتمخض التّوج بولدها . وروى عن عكرمة (رضي الله عنه) أنه قال : يُنزل الله الماء من السماء السابعة

فتقع القطرة على السحاب مثل البعير ، والسحاب للطركالغربال ينزل منه بقدر .
ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض .

وقال الزخشرى فى تفسيره : السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كرم
من يزعم أنه يأخذ من البحر . ويؤيد ذلك قوله عز وجل ﴿ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ .

٢ - ذكر ما قيل فى ترتيب السحاب

(وأسمائه اللغوية وأصنافه)

قال أبو منصور ، عبد الملك بن محمد الثعالبي فى فقه اللغة ، ينقله عن أئمتها :
أول ما ينشأ السحاب ، فهو نشء .

فإذا انسحب فى الهواء ، فهو السحاب .

فإذا تغيرت وتغصمت له السماء ، فهو الغمام .

فإذا كان غيم ينشأ فى عرض السماء فلا تبصره ، وإنما تسمع رعدده ، فهو العقر .

فإذا أطل وأطلت السماء ، فهو العارض .

فإذا كان ذا رعد و برق ، فهو العراض .

فإذا كانت السحابة قطعاً صغاراً متدانياً بعضها من بعض ، فهى النمرة .

فإذا كانت متفرقة ، فهى القزع .

فإذا كانت قطعاً متراكمة ، فهى الكرفى (واحدتها كرفنة) .

فإذا كانت قطعاً كأنها قطع الجبال ، فهى قلع ، وكنهور (واحدتها كنهورة) .

فإذا كانت قطعاً رفاقاً ، فهى الطخارير (واحدتها طخور) .

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلَةٌ .
 فإذا كانت سوداء، فهي طَحْيَاءُ، ومُتَطَخِطَخَةٌ .
 فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُجَمَّلَةٌ .
 فإذا غَلُظَ السحاب وركب بعضه بعضا، فهو المُكْفَهَزُ .
 فإذا آرتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ .
 فإذا تقطع في أقطار السماء وتلبَّدَ بعضه فوق بعض، فهو القَرْدُ .
 فإذا آرتفع وحمل الماء وكثف وأطبق، فهو العَمَاءُ، والعَمَايَةُ، والطَّخَاءُ، والطَّخَافُ،
 والطَّهَاءُ .

فإذا آعترض آعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحَيُّثُ .
 فإذا عَنَ، فهو العَنَانُ .

فإذا أظل الأرض، فهو الدَّجَنُ .
 فإذا آسودت وتراكب، فهو المُحْمُومِيُّ .

فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الرَّبَابُ .
 فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغِفَارَةُ .

فإذا تدلَّى ودنا من الأرض مثل هُدْبِ القَطِيفَةِ، فهو الهَيْدَبُ .
 فإذا كان ذا ماء كثير، فهو القَيْنِفُ .

فإذا كان أبيض، فهو المَزْنُ، والصَّيِيرُ .
 فإذا كان لرعده صوتٌ، فهو الهَزِيمُ .

(١) اسم فاعل من آحومي الشيء. إذا آسودت . يوصف به نحو السحاب والليل .

- فإذا أشتد صوت رعدِه، فهو الأَجَشُّ .
 فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصَّرَادُ^(١) .
 فإذا كان ذا صوت شديد. فهو الصَّيْبُ .
 فإذا أهرق ماءه، فهو الجَهَامُ (وقيل بل الجَهَامُ الذي لا ماء فيه) .

٣ - ذكر ما قيل في ترتيب المطر

قال النعالبي رحمه الله: أحنف المطر وأضعفه الطلُّ، ثم الرِّذاذُ، ثم البَغْشُ والذُّثُّ ومثله الرِّكُّ، ثم الرَّهْمَةُ .

ويقال أيضا: أوله رَشٌّ وطَشٌّ، ثم طَلٌّ ورِذاذٌ، ثم نَضْحٌ ونَضْحٌ، وهو قَطْرَيْنِ قَطْرَيْنِ، ثم هَطْلٌ وتَهَانٌ، ثم وَايِلٌ وجَوْدٌ .

٢٧

٤ - ذكر ما قيل في فعل السحاب والمطر

- يقال إذا أتت السماء بالمطر اليسير الخفيف^(٢) : حَفَشَتْ، وَحَشَكَتْ .
 فإذا استمر قَطْرُهَا، قيل : هَطَلَتْ، وَهَمَّتَتْ .
 فإذا صبَّت الماءَ، قيل : هَمَعَتْ، وَهَضَبَتْ .
 فإذا ارتفع صوتُ وَقْعِهَا، قيل : أَنَهَتْ، وَاسْتَهَتَّتْ .

١٥ (١) في فقه اللغة بعده : فإذا كان خفيفا تسفره الريح فهو الزَّبْرِجُ، وبعده فإذا كان ذا صوت الخ .
 (٢) كذا في فقه النعالبي وعبارة لسان : حَفَشَتْ السماءَ تُحَفِّشُ حَفْشًا : جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت .
 ومثله حَشَكَتْ وأغْبَتْ فَاحْفَشَةُ وَالْحَشَكَةُ وَالْقَيْبَةُ بمعنى واحد .

فإذا سال المطرُ بكثرة، قيل: **أَسْكَبَ**، وأنبَقَ.
 فإذا سال يركب بعضه بعضا، قيل: **أَتَعْتَجَرَ**، وأتَعَجَجَ.
 فإذا دام أياما لا يُقْلِعُ، قيل: **أُنْجِمَ**، وأغْبَطَ، وأدْجَنَ.
 فإذا أقلع، قيل: **أُنْجِمَ**، وأفصَمَ، وأفصَى.

٥ - ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب: أول ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء، فأسمه **الْحَرِيفُ**، ثم يليه **الْوَسْمِيُّ**،
 ثم **الرَّبِيعُ**، ثم **الصَّيْفُ**، ثم **الْحَمِيمُ**.
 وقيل المطر الأول هو **الْوَسْمِيُّ**، ثم يليه **الْوَتِيُّ**، ثم **الرَّبِيعُ**، ثم **الصَّيْفُ**، ثم **الْحَمِيمُ**.

٦ - ذكر أسماء المطر اللغوية

قال الثعالبي:
 إذا أجيا الأرض بعد موتها، فهو **الْحَيَا**.
 فإذا جاء عقيبَ المَحَلِّ أو عند الحاجة إليه، فهو **النَيْثُ**.
 فإذا دام مع سكون، فهو **الدَّيْمَةُ**. والضرب فوق ذلك قليلا، والهُطْلُ فوقه.
 فإذا زاد، فهو **الهُتْلَانُ**، والهُتَّانُ، والهُتَّانُ.
 فإذا كان القطر صغارا كأنه شَدْرٌ، فهو **القِطْقِطُ**.
 فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي **الرَّهْمَةُ**.
 فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهي **الغَبِيَّةُ**، والْحَفْشَةُ، والْحَشْكَةُ.

فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهي الذَّهَابُ، والمِمْيَمَةُ^(١).

فإذا كان المطر مستمرا، فهو الودق.

فإذا كان صخما القطر شديد الوقع، فهو الوايل.

فإذا أتبع بالماء، فهو البعاق.

فإذا كان يروى كل شيء، فهو الجود.

فإذا كان عاما، فهو الحداء.

فإذا دام أياما لا يقلع، فهو العين.

فإذا كان مسترسلا سائلا، فهو المرثين.

فإذا كان كثير القطر، فهو الغدق.

فإذا كان شديد الوقع كثير الصوب، فهو السحيفة^(٢).

فإذا كان شديدا كثيرا، فهو العز، والعباب.

فإذا جرف ما مر به، فهو السحيفة^(٢).

فإذا قشرت وجه الأرض، فهي الساجية.

فإذا أثرت في الأرض من شدة وقعها، فهي الحريصة.

فإذا أصابت القطعة من الأرض وأخطت الأخرى، فهي النفضة.

فإذا جاءت المطرة لما يأتي بعدها، فهي الرصدة، والعهاد نحو منها.

(١) في فقه التتالي: الميمية. بإسقاط الميم الأولى وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس.

(٢) نقل صاحب اللسان في مادة (س ح ف) عن الأصمى: (ان السحيفة بالفاء، المطرة الحديدية التي

تجرف كل شيء. والسحيفة بالفاء، المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض) وهو

عكس ما نقله النويري عن التتالي.

فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الوَلِيُّ.

فإذا رجح وتكرر، فهو الرَّجْعُ.

فإذا تتابع، فهو اليَعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعَاتٍ، فهي الشَّائِبُ.

٧ - ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبرد من غبِّ المطر. أرقُّ من دَمَعِ الغمام. أسرع من السيل إلى الحدُّور. أظنى من السيل. أغشَمُ من السيل. أمضى من السيل. يذهب يومُ الغيم ولا يُشعر به. قد بلغ السيل الزُّبى. اضطره السيل إلى معطشه. أرنيها تمره، أريكمها مطره. سبق سيله مطره. قبل السحاب أصابني الوَكْفُ.

ومن أوصاف الأبيات:

* هل يرنجى مطرٌ بغيرِ سحابٍ * * وأولُ الغيثِ طلٌّ ثم ينسكبُ *
 * سحابُهُ صيفٌ عن قريبٍ تقشعُ * * فدركا دَرَّ السحابِ على الرعدِ *
 * أسرعُ السحبِ في المسيرِ الجَهَامُ * * ومن يسدُّ طريقَ العارضِ الهطيلِ؟ *
 * سحابٌ عداني فيضه وهو صيبٌ * * يحسبُ الممطرُ أن كُـلُّ مُطرٍ *

* سأل به السيلُ وما يدري به *

ومن الأبيات قول الطائي:

وكذا السحابُ، فلما تدعو إلى * معروفيها الرُّوَادِ ما لم تبرقِ.

وقال البحرى عفى عنه :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ * مَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ فِي إِبَانِهِ .

٢٨

وقال أبو الطيب :

لَيْتَ النَّعَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ * يُزِيلُهُنَّ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدِّمِيمُ !

وقال كثير :

كَمَا أَبْرَقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا عَمَامَةً . * فَلَمَّا رَجَّوْهَا، أَفْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ .

وقال آخر :

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَطْلَأُ ! * إِنَّ هَذَا لَوْصِمَةٌ فِي السَّحَابِ !

وقال آخر :

وَاللَّهِ يُنْشِئُ سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفْسُ * فَمَوْسُ مِنْ قَبْلِ بَلِّ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ .

١٠

٨ - ذكر شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر

قال أبو تمام الطائي :

سَحَابَةٌ صَادِقَةٌ الْأَنْوَاءِ * تَجْرُ أهدَابًا عَلَى الْبَطْحَاءِ .

تَجْمَعُ بَيْنَ الضُّحْكِ وَالْبُكَاءِ : * بَدَّتْ بِنَارٍ وَتَنَّتْ بِمَاءِ .

وقال أبو عبادَةَ البُحَيْرِيُّ عفا الله تعالى عنه :

١٥

ذَاتِ آرْتِجَاسٍ بِحَنِينِ الرَّعْدِ * مَجْرُورَةَ الذَّيْلِ صَدُوقِ الْوَعْدِ ،

مَسْفُوحَةِ الدَّمْعِ بغيرِ وَجْدٍ * لَهَا نَسِيمٌ كَنَسِيمِ الْوَرْدِ ،

ورنةٌ مثل زئير الأسد * ولمعُ بريقُ كسيوف الهند.
جاءت بهاريجُ الصبا من نجد * فانتثرت مثل أنتثار العنقد.
وراحت الأرضُ بعيشِ رغد * من وشي أنوار الثرى في برد.
كانما عُذرانها في الوهد * يلعبنَ ترحاباً بها بالرنيد.

وقال أبو الحسن علي بن القاسم القاشاني من شعراء اليتيمة عفى عنه :

إذا النُيومُ أَرَجَمَنَ بِاسِقِهَا * وَحَفَّ أَرْجَاءَهَا بِوَارِقِهَا،
وَعَبَّيْتُ لِلثَّرَى كِتَابُهَا * وَأَنْتَصَبْتُ وَسَطَهَا عَقَائِمُهَا،
وَجَلَّجَلَّ الرَّعْدُ بَيْنَهَا فَحِكِي * خَفَقَ طُبوْلُ أَحْ خَاقِهَا،
وَأَبْتَسَمْتُ فَرَحَةً لَوَامِعُهَا * وَأَخْتَلَفْتُ عِبْرَةً حَمَالِقِهَا،
وَقِيلَ: طُوبَى لِبَلَدَةٍ تُجَبَّتْ * بِجَوِّ أَكْثَافِهَا بِوَارِقِهَا.
أَيُّ نَمَاءٍ لَا تَحْمَلُ بِهَا؟ * وَأَيُّ بَأْسَاءٍ لَا تُفَارِقُهَا؟

وقال القاضي التُّنُوخِيُّ :

سَحَابٌ أَنَى كَالْأَمْنِ بَعْدَ تَخَوُّفٍ * لَهُ فِي الثَّرَى فِعْلُ الشِّفَاءِ بِمُدَنَفٍ.
أَكْبَ عَلَى الْآفَاقِ إِجْبَابٌ مُطْرِقٌ * يُفَكِّرُ أَوْ كَالنَّادِمِ الْمُتَلَهِّفِ.
وَمَدَّ جَنَاحِيهِ عَلَى الْأَرْضِ جَانِحًا * فَرَّاحَ عَلَيْهَا كَالْفَرَّابِ الْمُزْفَرِفِ.
غَدَا الْبَرْجُ بِحَرَا زَانِحًا وَالثَّنَى الضُّحَى * بِظُلْمَتِهِ فِي تَوْبِ لَيْلٍ مُسَجِّفِ.
فَعَبَّسَ عَنِ بَرَقِ بِهِ مُتَبَسِّمٍ * عُبُوسٌ بِجَيْلٍ فِي تَبَسِّمِ مُعْتَفِ.
تُحَاوِلُ مِنْهُ الشَّمْسُ فِي الْجَوِّ مَحْرَجًا * كَمَا حَاوَلَ الْمَغْلُوبُ تَجْرِيدَ مَرْهَفِ.

وقال ابن الرومي :

سَحَابٌ قَيْسَتْ بِالْبِلَادِ فَأُلْفِيَتْ * غِطَاءٌ عَلَى أَعْوَارِهَا وَجُودِهَا .
حَدَّثَهَا النُّعَامَى مُقْبِلَاتٍ فَأَقْبَلَتْ * تَهَادَى رُويْدَا سَيْلَهَا كَرُودِهَا .

وقال أبو هلال العسكري :

وَبَرَقَ سَرَى، وَاللَّيْلُ نَحَى سَوَادَهُ * قَقَلْتُ : سِوَارُ فِي مَعَاصِمِ أَشْمَرَا !
وَقَدْ سَدَّ عُرْضَ الْأَفْقِ غَيْمٌ نَحَالَهُ * يَزُرُّ عَلَى الدُّنْيَا قَيْصًا مُعْنَبَرَا .
تَهَادَى عَلَى أَيْدِي الْحَبَائِبِ وَالصَّبَا * تَحْرِقُ مِنَ الْفِتْيَانِ نَازِعَ مُسْكَرَا .
نَحَالُ بِهِ مِسْكًَا وَبِالْقَطْرِ لَوْلَا * وَبِالرَّوْضِ بِأَقْوَاتٍ وَبِالْوَحْلِ عُنْبَرَا .
سَوَادٌ نَحَامٍ يَبْعَثُ الْمَاءَ أَيْضًا * وَغُرَّةُ أَرْضٍ تُنْبِتُ الزَّهَرَ أَصْفَرَا .
أَتَنَّكَ بِهِ أَنْفَاسُ رِيحِ مَرِيضَةٍ * كَمُفْطَعَةِ رَعْنَاءٍ تَسْتَأْتِي عَسْكَرَا .
فَالْقَى عَلَى الْغُدْرَانِ دَرْعًا مُسَرَّدَا * وَأَهْدَى إِلَى الْقَيْعَانِ بُرْدًا مُحْبَرَا .
نَحَالُ الْحَيَا فِي الْحَوْدِ دُرًّا مَنْظَمًا * وَفِي وَجَنَاتِ الرَّوْضِ دُرًّا مَنْثَرَا .
وَأَقْبَلُ نَشْرُ الْأَرْضِ فِي نَفْسِ الصَّبَا * فَبَاتَ بِهِ تَوْبُ الْمَسْوَءِ مُعْطَرَا .
إِذَا مَادَعَتْ فِيهِ الرَّعُودُ فَاسْمَعْتُ * أَجَابَ حُدَاةً وَأَسْتَهَلَ فَأَغْرَزَا .
وَيَبْكِي إِذَا مَا أَحْمَكَ الْبَرْقُ سَنَهُ * فَيَجْعَلُ نَارَ الْبَرْقِ مَاءً مُفْجَرَا .
كَأَنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّبَابِ خَرِيدَةً * قَدْ أَحْتَذَتْ نَحْيَ السَّحَابَةِ مِعْجَرَا .
فَنَفْرُ يُرِينَا مِنْ بَعِيدٍ تَبَاجُجًا * وَدَمْعٌ يُرِينَا مِنْ بَعِيدٍ تَحْدَرَا .

وقال مؤيد الدين الطغراني :

سَارِيَةٌ ذَاتُ جُبُوسٍ بَرَقَهَا * يَضْحَكُ وَالْأَجْفَانُ مِنْهَا تَهَيَّلُ .
تُكَلِّمُ دُكَّاءَ فِي حَاشِيَةِ * فِيهَا طِرَارٌ مَذْهَبٌ مُسَلَّلُ .
إِذَا دَنَّتْ عِشَارُهَا، صَاحَ بِهَا * قَاصِفٌ رَعْدٌ وَحَدَّثَهَا الشَّمَالُ .

وقال عبد الله بن المعتز :

وَمُزْنَةٌ جَادٌ مِنْ أَجْفَانِهَا الْمَطْرُ : * فَالرَّوْضُ مُسْتَطِمٌ وَالْقَطْرُ مُسْتَثَرُ .
تَرَى مَوَاقِعَهُ فِي الْأَرْضِ لِأُحْتَاءِ * مِثْلَ الدَّرَاهِمِ تَبْدُو ثُمَّ تَسْتَثَرُ .

وقال أيضا :

مَا تَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ * ضِيقُ شُكْرِ الرِّبَاضِ لِلْأَمْطَارِ ؟
وَكَأَنَّ الرِّبْعَ يَمِيلُ عَرُوسًا * وَكَأَنَّ مِنَ قَطْرِهِ فِي نَيْتَارِ !

وقال ابن عوف الكاتب في إطباق الغيم وقربه :

فِي مُزْنَةٍ أَطْبَقَتْ فَكَادَتْ * تُصَالِحُ التُّرْبَ بِالْغَمَامِ .

وقال آخر :

تَبَسَّمَتِ الرِّيحُ ، رِيحُ الْجَنُودِ * بِ فِيهَا هَوَى غَالِبًا وَأَدَّكَارًا .
وَسَاقَتْ سَحَابًا كَشَلِّ الْجِبَالِ * إِذَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ فِيهِ ، أَنَارًا .
إِذَا الرَّعْدُ جَلَجَلَ فِي جَانِبَيْهِ * رَوَى النَّبَاتَ وَأَرَوَى الصَّحَارَى .
تَطَالِعْنَا الشَّمْسُ مِنْ دُونِهِ * طِلَاعَ فِتَاةٍ تَخَافُ أَشْتِهَارًا ،
تَخَافُ الرِّقِيبَ عَلَى نَفْسِهَا * وَتَحْذَرُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَغَارًا .
فَتَسْتُرُ عُرَّتَهَا بِالْحِمَا * رِطُونًا ، وَطَوْرًا تُزِيلُ الْحِمَارًا .

فَلَمَّا رَأَهُ هُبُوبُ الْجَنُوبِ * بِ وَأَنْهَمَرَ الْمَاءُ فِيهِ أَنْهَمَارًا،
تَبَسَّمتِ الْأَرْضُ لَمَّا بَكَتْ * عَلَيْهَا السَّمَاءُ دُمُوعًا غَيْرَ آرَا!

وقال الأسعد بن بليطة من شعراء الذخيرة :

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَنَا عَشِيَّةَ أَمْسِنَا، * وَالْمَرْزُ تَبَكِّينَا بَعِيَّ مُدْنِي،
وَالشَّمْسُ قَدْ مَدَّتْ أَدِيمَ شُعَاعِهَا * فِي الْأَرْضِ تَجْتَمِعُ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَذْهَبِ،
خِلْتَ الرِّذَاذَ بُرَادَةً مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ غُرِبَتْ مِنْ فَوْقِ نَظْمِ مُذْهَبِ!

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها :

رَاحَتْ تُذَكِّرُ بِالنِّسِيمِ الرَّاحَا * وَطَفَاءُ تَكْخِيسِ الْجُنُوحِ جَنَاحَا.
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظُّلَامُ فَأَوْقَدَتْ * مِنْ بَرَقِهَا، كِي تَهْتَدِي، مِصْبَاحَا.
وَكَانَ صَوْتُ الرَّعْدِ خَلْفَ سَهَابِهَا * حَادٍ إِذَا وَنَتْ السَّحَابُ، صَاحَا.
جَادَتْ عَلَى التَّلْعَاتِ فَكَتَسَتْ الرُّبَا * حُلًّا أَقَامَ لَهَا الرَّيْسُ وَشَاحَا.

وقال ابن برد الأصغر الأندلسي من شعرائها :

وَمَا زِلْتُ أَحْسَبُ فِيهِ السَّحَابَ، * وَنَارُ بَوَارِقِهَا تَلْتَمِبُ :
بِحَقَائِقِ تَوْضِعُ فِي سَيْرِهَا * وَقَدْ قُرِعَتْ بِسِبَاطِ الذَّهَبِ.

ومما ورد في وصفها ثرا

قال بعض الأندلسيين من رسالة :

ثم أرسل الله الرياح من مكانها ، وأخرجها من خزائنها ، فجرت ذبولها ، وأجرت
خيولها ، خافقة بنودها ، متلاحقة جنودها ، فأثارت النمام ، وقادته بغير زمام ،
وأنشأت بحرية من السحاب ، ذات أتراب وأصحاب ، كثيرا عددها ، غزيرا مددها ،

فبشّرت بالقطر كلّ شائم ، وأندرت بالورد كل حائم ، والريح تبتّها ، والبرق يمحّنها ،
 كأنه قضيب من ذهب ، أو لسان من لهب ؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد ، ومن
 صوت الرعد حاد ؛ والريح توسع بلحمتها سداها ، وتسرّع في حياكتها يداها . فلما
 ألحمت فتقها ، وألتأم رتقها ؛ وأمتدت أسطانها ، وأتسعت أعطانها ؛ وأنفسحت
 أجنابها ، وأنسدلت أطناها ؛ وتهتل نملها ، وتمخض حملها ؛ ومدت على آفاق
 السماء نطاقها ، وزرت على أعناق الجبال أطواقها ، كأنها بناء على الجو مقبوب ،
 أو طبّق على الأرض مكبوب ؛ تمشّي من الثقل هونا ، وتستدعي من الريح عوناً ؛
 ومخايلها تقوى ، وعارضها أحوى . فلما أذن الله لها بالانحدار ، وأنزل منه الودق
 بمقدار ، أرسلت الريح خيوط القطر من رُود السحاب ، وأسببت لها إسبال
 الذوايب . فدرّت من خليف مضرور ، وثرت ظلها نثر الدرور . ثم أنخرق جيها ،
 وأنبتق سيها ؛ وصار الخيط جبلا ، والطلّ وبلا . فالسحاب يتعلّق ، والبرق يتألّق ؛
 والرعد يرتجس ، والقطر ينبجس ؛ والنقطة تترامى طبافا ، ونقبارى آتسافا ؛ فيردف
 السابق المصلي ، ويتصل التابع بالمولي ؛ كما يقع من المنخل البر ، وينثر من النظام الدر ،
 بغيوب السماء تسقطه ، وأكف الندران تلقطه ؛ والأرض قد فتحت ألواها ،
 وجرعت أمواها . حتّى أخذت ريها من المطر ، وبلغت منه غاية الوطر ، ولحى من
 الرعد تسبيحه ، وطفئت من البرق مصابحه ، وحسرت السماء نقابها ، وولّت المطر
 أعقابها ؛ وحكت في ردها طلق السابق ، وهرب الآبق .

§ ومن رسالة محمد بن شرف القيرواني :

برئ عليل البرئ ، وأثرئ فقير الثري ، وتاريخ ذلك أنصرام ناجر ، وقد بلغت القلوب^(١)

(١) رجب أو صفر . وكل شهر من شهور الصيف (فاموس) .

الحناجر، عجازةً آحمرت لها خضرة السماء، وأغرت مرآة الماء، حتى أنهل طالع وشي،
وتلاه تابع ولي، ذنا فاسف، ووكف فاكف. فماقى مسكوبا قطر، محجوبا شمسه
وبدره، وجلبت عروس الشمس، معتذرة عن مغيها بالأمس. فعندها مرق عن
الدعاء صحيح إهابها، وأخترن دز البر في أصداف ترابها. فما مرت أيام إلا والقيعان
مسنده، والآكام مطوسه.

ومن رسالة لأبي القاسم، محمد بن عبد الله بن أبي الجدي وصف مطر بعد حَقَط:

قال: لله تعالى في عباده أسرار، لا تدركها الأفكار، وأحكام، لا تناهها الأوهام.
تختلف والعدل متيق، وتفرق والفضل مجتمع مُتسق. ففى مَنَحها نفائس المأمول،
وفى مَحْنا مَدَاس العقول. ^(١) وفى أثناء فوائدها حدائق الإنعام راتقه، وبين أرجاء سرائرها
بوارق الإعذار والإندار خاققه. وربما فتحت كرائم النوايب، عن زهرات المواهب.
وأنسكت غمام الرزايا، بنفحات العطايا. وصدع ليل اليأس صبح الرجاء، وخلع
عامل اليأس وإلى الرخاء. فلك تقدير اللطيف الخبير، وتدير العزيز القدير!

ولما سامت بتببط الغيث الظنون، وأنقبض من تبسط الشك اليقين، وأستربت
حياض الوهاد، بجهود العهاد، وتأهبت رياض التجاد، لبرود الحداد، وأكتحلت
أجفان الأزهار، بإئتمد النقع المثار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حُلّ الديمة المذرار،
أرسل الله بين يدي رحمة ريحاً بليلة الجناح، مَحِيلَةَ النَّجَاح، سريرة الإلتحاق. فنظمت
عقود السحاب، نظم السحاب، وأحكمت برود النعام، راتقة الأعلام. وحين ضربت
تلك المَحِيلَةُ فى الأفق قبابها، ومدت على الأرض أطنابها، لم تلبث أن أنهت رواقها،

(١) جمع مَدَوس [أى مصائل العقول]:

وَأَنْبَتِكَ وَشَيْكَا نِطَاقِهَا، وَأَنْبَرْتَ مَدَامِعُهَا تَبْكِي بِأَجْفَانِ الْمُشْتَقِ، غَدَاةَ الْفِرَاقِ، وَتَحْكِي
 بَنَانَ الْكِرَامِ، عِنْدَ أُرْيَحِيَّةِ الْمُدَامِ، فَاسْتَفْرَبْتَ الرِّيَاضَ مَضْحَكًا بِبُكَائِهَا، وَأَهْتَرُ رُقَاتِ النَّبَاتِ
 طَرَبًا لِتَفْرِيدِ مَكَّائِهَا، وَأَكْتَسْتَ ظُهُورَ الْأَرْضِ مِنْ بَيْضِ إِيَانِهَا، خُضَرَ مُلَائِهَا. فَكَانَ
 صِنْعَاءُ قَدْ نَشَرْتَ عَلَى بَسِيطِهَا بِسَاطًا مُفَوِّفًا، وَأَهْدَتِ إِلَيْهَا مِنْ زَخَارِفِ بَرِّهَا وَمَطَارِفِ
 وَشِيهَا الطَّافَا وَتَحْفَا. وَخَيْلٌ لِلْعَيْونِ أَنْ زَوَاهِرِ النُّجُومِ، قَدْ طَلَعْتَ مِنْ مَوَاقِعِ التُّخُومِ،
 وَمِبَاسِمِ الْحَسَانِ، قَدْ وَصَلْتَ بِأَقْتَرَارِ الْغَيْطَانِ . فَيَا بَرْدَ مَوْجِعِهَا عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَبْجَادِ !
 وَيَا خُلُوصَ رِيهَا إِلَى غُلَلِ النُّفُوسِ الصَّوَادِ ! كَأَنَّمَا اسْتَعَارَتْ أَنْفَاسَ الْأَحْبَابِ، أَوْ تَرَشَّفَتْ
 شَنْبَ الثَّنَائِيَا الْعِذَابِ، أَوْ تَحَمَّلَتْ مَاءَ الْوِصَالِ، إِلَى نَارِ الْبَلْبَالِ . أَوْ سَرَتْ عَلَى أَنْدَاءِ
 الْأَسْحَارِ وَرِيحَانِ الْآصَالِ . لَقَدْ تَيَّنَ لِلصَّنْعِ الْجَلِيلِ، مِنْ خِلَالِ دِيمِهَا تَنْفَسَ وَنِصُولِ،
 وَتَمَكَّنَ لِلشُّكْرِ الْجَمِيلِ، مِنْ ظِلَالِ نَعْمِهَا مَعْرَسَ وَمَقِيلِ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا أَنْسَكِبَ
 قَطْرًا، وَأَنْصَدِعَ فَجْرًا؛ وَتَوَقَّدَ قَبَسًا، وَتَرَدَّدَ نَفْسًا؛ وَهُوَ الْكَفِيلُ تَعَالَى بِإِتْمَامِ النِّعْمِ،
 وَصَلَّةِ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَالْحَيَاةِ بِعِزَّتِهِ !

§ وقال الوزير أبو عمرو الباجي في مثل ذلك :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَايَا وَأَقَعَةً بِالْعَدْلِ، وَعَطَايَا جَامِعَةً لِلْفَضْلِ؛ وَنِعْمًا يَبْسُطُهَا إِذَا شَاءَ
 إِنْعَامًا وَتَرْفِيهَا، وَيَقْبِضُهَا مَتَى أَرَادَ إِلْهَامًا وَتَنْبِيهَا؛ وَيَعْمَلُهَا لِقَوْمِ صَلَاحًا وَخَيْرًا،
 وَلَا تَحْرِيحِينَ فِسَادًا وَضَيْرًا . ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ
 وَهُوَ الْوَلِيُّ الْجَمِيدُ ﴾ . وَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَمْتَسَاكِ السُّقْيَا، وَتَوَقَّفِ الْحَيَاةِ؛ مَا رِيَعَ بِهِ
 الْآمِنَ، وَأَسْتُطِيرَ لَهُ السَّاكِنَ؛ وَرَجَعَتْ الْأَبْجَادُ فِرْعَا، وَذَهَبَتْ الْأَلْبَابُ جِرْعَا؛
 وَأَذَكْتَ ذُكَاةً حَرًّا، وَمَنْعْتَ السَّمَاءُ دَرَّهَا؛ وَأَكْتَسْتَ الْأَرْضُ غُبْرَةً بَعْدَ خُضْرَةٍ،
 وَلَبِسْتَ تُخُوبًا بَعْدَ نَضْرَةٍ؛ وَكَادَتْ بُرُودُ الرِّيَاضِ تُطْوِي، وَمُدُودُ نِعْمِ اللَّهِ تُرْوِي؛

ثم نشر الله تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح ميثته ، وأزاح محنته . فبعث الرياح
لواقح ، وأرسل الغمام سوافح ؛ بما يتدقق ، وروء غدق ، من سماء طبق . أستهل جفنها
فدمع ، وسمح دمعها فهمع ، وصاب وبلها فنقع . فاستوفت الأرض رياً ، وأستكلت
من نباتها أثاراً ورياً ؛ فزينت الأرض مشهوره ، وحلّت الزهر منشوره ، ومينة الرب
موفوره ؛ والقلوب ناعمة بعد بوسها ، والوجوه ضاحكة إثر عبوسها ؛ وآثار الجزع
محوه ، وسور الشكر متلوه ؛ ونحن نستريد الواهب نعمة التوفيق ، ونستهديه في قضاء
الحقوق إلى سواء الطريق ؛ ونستعيد به من المنة أن تعود فتنه . والمنحة أن تصير
محنه ! والحمد لله رب العالمين !

٩ - ذكر شيء مما وصف به الثلج والبرد

قال أبو الفتح كشاجم :

الثلج يسقط أم بلين يسبك ، * أم ذا حصي الكافور ظل يفرك ؟
راحت به الأرض القضاء كأنها * في كل ناحية بغير تضحك !
شابت ذوائبها قبين محكمها * طرباً وعهدى بالمشيب ينسك !
وتردت الأشجار منه ملاءة * عما قليل بالرياح تهتك !

وقال أيضا :

تلج وشمس وصوب غادية * فالأرض من كل جانب غره !
باتت . وقبعائها زبرجدة . * فأصبحت قد تحولت دزه !
كانها والثلوج تضحكها * تعار من أجه ثغره !
شابت فسرت بذلك وأتهجت * وكان عهدى بالمشيب يستكره !

وقال الصاحب بن عباد :

أقبلَ التلُّجُ في غلائلِ نورٍ * تتهادى بلؤلؤٍ مَثُورِ !
فَكَانَ السَّمَاءُ صَاهِرَتِ الأَر * ضَ فِصَارِ النَّارِ من كَأُفُورِ !

وقال الفهمي :

أهدى لنا بردًا يُلُوحُ كأنه * في الجوحِبِ لِأَيِّ لم يُثَقِّبِ ،
أو فَعْرُ حَوَاءِ اللَّسَاتِ تَبَسَّمَتْ * عن واضحٍ مثلِ الأَفَاحِ أَشْنَبِ !

الباب الثاني

من القسم الثاني من الفن الأول

في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قزح

(١) فأما النيازك، فهو ما يرى من الذوائب المتصلة بالشهب والكواكب .
روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لجماعة من الأنصار : «ما كنتم
تقولون في هذا النجم الذي يرمى به؟ قالوا: يا رسول الله، كما نقول إذا رأيناها يرمى
بها: مات ملك، ولد مولود. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ليس ذلك
كذلك، ولكن الله تعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه الملائكة فيسبحون،
فيسبح من تحتهم لتسبيحهم، فيسبح من تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا
فيسبحون، ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم ثم يسبحون، فيقولون قضى الله في خلقه
كذا وكذا، للأمر الذي كان. فيهبط به الخبر من السماء إلى السماء حتى ينتهي إلى
السماء الدنيا فيتحدثون به، فتستره الشياطين بالسمع على توهم واختلاف. ثم يأتون

به الكهان، فيصيبون بعضا، ويخطئون بعضا . ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقدِّفون بها، فانقطعت الكهانة، فلا كهانة اليوم“.

والشهب التي يُقدِّف بها الشياطين غير النجوم الثواب التي منها البروج والمنازل لقول الله تعالى ((وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)).

وقال بعض الشعراء :

وَكوكِبٍ نَظَرَ العَفْرِيتَ مُسْتَرِقًا * لِلسَّمْعِ فَأَنقَضَ يَدُكِي إِثْرَهُ لَهَبِهِ
كِفَارِيْسٍ حَلٍّ مِنْ تَيْسِهِ عَمَامَتِ * وَجَرَّهَا كُلَّهَا مِنْ خَلْفِهِ عَذْبِهِ

وكتب ابن الحرون إلى صديق له، وقد كثرت أنفواض الكواكب، وذلك في أيام

المتوكل على الله :

١٠ أما بعد . فإن الفلك قد تفرى عن شهب ثواقب ، كثيران الحباب ، متقدمة كشر الزود ، وشعل زبر الحديد ؛ مازجها عرض حمرة البهرمان ، وصفرة العقيان .^(١) فهي كأرسال جرادٍ منتشر ، وهشيم ددرته ريجٌ صرصر ، في سرعة الكف ، ووحى لحيط الطرف .

(ب) وأما الصواعق ، فهي ماقاله الزمخشري في تفسيره : الصاعقة قصفة

١٥ من رعد يتقش معها شقة من نار .

وقالوا : إنها تتقدح من السحاب إذا أصطكت أجرامه . وهي نار لطيفة حديدة

لا تتربشء إلا أت عليه ، إلا أنها مع حنتها سريعة الخمود . على أنها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليها .

وقال صاحب كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر" في كتابه :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكيس ، ولا تحرق الكيس ؛ وإن احترق
فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال . قال : وهي إذا سقطت على جبل أو حجر
كلسته ونفذته ، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقبت من جوانبه .
وربما عرض لها عند أنظفائها في الأرض برد ويس ، فتكون منها أجرام حجرية ،
أو حديدية ، أو نحاسية . وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شيء .

③

(ج) وأما الرعد وما قيل فيه . قال الله تبارك وتعالى : ((وَيَسْبُحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ)) .
قال المفسرون : الرعد ملك موكل بالسحاب ، معه كُرٌّ من حديد ، يسوقه من بلد إلى
بلد كما يسوق الراعي إبله . فكما خالف سحاب ؛ صاح به فزجره . فالذي يسمع هو
صوت الملك .

وقال الزمخشري من تفسيره : الرعد الذي يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب
تضطرب وتتفض إذا حبتها الريح فتصوت عند ذلك .

وأما صوت الرعد ، تقول العرب : رعدت السماء .

فإذا ازداد صوتها ، قيل : أرْتَجَسَتْ .

فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ووقعمت^(١) .

فإذا بلغت النهاية ، قيل : جالجت ، وهدهدت .

(١) عبارة فقه اللغة : (فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ودوت . فإذا زاد واشتد ، قيل : قصفت ،

ووقعمت . فإذا بلغ النهاية الخ) ٨١ .

المثل

رُبَّ صَلَفٍ نَحَتْ الرَّاعِدَةَ . (البخيل المتكبر) .

(د) وأما البرق وما قيل فيه ، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى إلى أنه

ضَرْبُ الْمَلَكِ الَّذِي هُوَ الرَّعْدُ لِلسَّحَابِ بِمُخْرَاقٍ مِنْ حديد . وروى عن مجاهد : إن الله عز وجل وكل بالسحاب ملكاً . فالرعد قَمَقَمَةٌ صوته ، والبرق سَوُوطُهُ .^(١)
 .^(٢)

وأما ترتيبه في لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسم ، وذلك بقدر ما يريك سواد النّيم من بياضه :
 أَنْكَلُ أَنْكَلًا .

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير ، قيل : أَوْشَمَتِ السَّمَاءُ . ومنه قيل : أَوْشَمَ النَّهْشُ إِذَا
 أَبْصَرَتْ أَوَّلَهُ .

فإذا برق برقا ضعيفا ، قيل : خَفَا .

فإذا لمع لمعا خفيفا ، قيل : لَمَحَ ، وَأَوْمَضَ .

فإذا تسقق ، قيل : أَنْقَقَ أَنْعَاقًا .

فإذا ملا السماء وتكشفت وأضطرب ، قيل : تَبَوَّجَ .

فإذا كثرت وتابع ، قيل : أَرْتَمَجَ .

فإذا لمع وأطمع ثم عدل ، قيل له : خَلَبَ .

(١) في الأصل فنتنة : . وهو محزوف عن قمعقة بالقاف كما يقتضيه السياق .

(٢) في الأصل صوته . وهو محزوف عن سوطه وهو مخراق الحديد الذي ذكر في السطر الذي قبله .

المثل :

” ليس في البرق الألاميع مُسْتَمْتَعٌ “ .

ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكري ، عفا الله عنه :

والرعدُ في أرجائه مُتَرَنِّمٌ * والبرقُ في حافاته منلَهَبٌ .

كألبلق تَرَجحُ ، والصَّوارمُ تُنْتَضِي * والجو يَبْسُمُ ، والأناهل تُحْسَبُ .

وقال آخر :

إذا وَنَتِ السُّحْبُ الثَّقَالُ وَحَثْمَا * من الرعد حادٍ ليس يُبْصِرُ أَمْكُهُ ،

أحاديثه مُسْتَمَوِلَاتٌ وَصَوْتُهُ * إذا أَنْخَفَضَتْ أَصْوَاتُهُنَّ مَقَهْقَهُ ،

إذا صاح في آثارهن حِسْبَتُهُ * يجاوبُهُ من خَلْفِهِ صاحِبٌ لَهُ .

وقال ابن الدقاق الأندلسي :

أرى بارقًا بالأبلق الفَرْدُ يَوْمِضُ * يَذْهَبُ أَكْثافُ الدُّجَى وَيُقَضِّضُ .

كأنَّ سُلَيْمِيٍّ من أَعَالِيهِ أَشْرَفَتْ * تَمَدَّنَا كَفَا خَضِيبًا وَتَقِيضُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

ويوم جَى بَرْقُهُ أَشَقْرًا * يُطَارِدُ من مُرْنِهِ أَشْمَبَا :

تَرَى الأَرْضَ فِيهِ وَقَدْ قُضِّضَتْ * وَوَجَهَ السَّمَاءِ وَقَدْ ذُهِبَا !

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي ، شاعر الذخيرة :

ولما تَجَلَّى اللَّيْلُ وَالبَرْقُ لا مِيعُ * كما سَلَّ زَنْجِيٌّ حُسامًا من التِّبْرِ .

ويَتُّ سَمِيرَ النِّجْمِ وَهُوَ كِانَهُ * على مِعْصَمِ الدُّنْيَا جِباؤُ من دُرِّ .

وقال محمد بن عاصم، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أضَاءَ بِوَادِي الْأَنْثِلِ وَاللَّيْلِ مُظْلِمٌ * بَرِيقٌ كَحَدِّ السَّيْفِ ضَرَجَهُ الدَّمُ.
إِذَا الْبَرِيقُ أَجْرَى طَرْفَهُ فَصِيلُهُ * إِذَا مَا تَفْرَى رَعْدُهُ الْمُتَرَنَّمُ.
فَشَبَّهَتْهُ إِذْ لَاحَ فِي غَسَقِ الدُّجَى * بِأَسْنَانِ زَيْجِي بَدَتْ تَبَسُّمُ.

(٢٤)

وقال أيضا :

وَالْبَرِيقُ يَضْحَكُ كَالْحَبِيبِ وَعِنْدَهُ * رَعْدٌ يُحَشُّ كَالرَّقِيبِ مَقَالُهُ!

وقال آخر :

أَرِقْتُ لِبَرِيقِ غَدَا مَوْهِنًا * خَفِي كَفَمَزِكَ بِالْحَاجِبِ.
كَأَنَّ تَأَلَّفَهُ فِي السَّمَاءِ * يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ.

وقال عبد الله بن المعتز، يشير إلى سخابة :

رَأَيْتُ فِيهَا بَرَقَهَا مُنْذُ بَدَتْ * كَمَثَلِ طَرْفِ الْعَيْنِ أَوْ قَلْبِ يُحِبِّ.
ثُمَّ حَدَّثَتْ بِهَا الصَّبَا حَتَّى بَدَا * فِيهَا إِلَى الْبَرِقِ كَأَمْثَالِ الشُّهْبِ.
تَحْسَبُهُ فِيهَا إِذَا مَلَأَتْ نَصْدَعَتْ * أَحْشَاؤُهَا عَنْهُ شُجَاعًا يَضْطَرِبُ.
وَتَارَةً تُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ * أَبْلَقُ مَالِ جُلْهُ حِينَ وَثَبُ.
حَتَّى إِذَا مَا رَفَعَ الْيَوْمَ الضُّحَى * حَسِبْتَهُ سَلَسَلًا مِنَ الذَّهَبِ.

قوله شجاع يضطرب مأخوذ من قول دجيل :

أَرِقْتُ لِبَرِيقِ آخِرِ اللَّيْلِ مُنْصَبِ * خَفِي كَبَطْنِ الْحَيَةِ الْمُتَقَلِّبِ.

وقال أيضا :

مَا زِلْتُ أَكَلًّا بَرَقًا فِي جَوَانِسِهِ * كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ تَحْبُو ثُمَّ تَحْتَطِفُ.
بَرِيقٌ تَجَاسَّرَ مِنْ حَفَّانٍ لَامِعُهُ * يَقْضِي اللَّبَانَةَ مِنْ قَلْبِي وَيَتَصْرِفُ.

(هـ) . وأما قوس قزح وما قيل فيه . قالوا : وإنما سمي بذلك لتلونه .

وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) يكره أن يسميه قوس قزح، ويسميه قوس الله، ويقول: قزح أسم الشيطان .

وزعم القدماء في علة تلونه وتكوينه، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب أنصبغ ذلك الجزء، وأنظف منه الضوء إلى ما يليه من الهواء، كالحمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نورها، وأنظف منه ألوان مختلفة إلى ما يقرب منها. وحمرة وصهرته من قبل الرطوبة واليبس .

قالوا : وقياس ذلك النار، فإنها إذا كانت من حطب رطب، كان لونها أحمر كدراً، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافياً .

وقال آخرون : القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته، حتى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما ترسم الأشباح في المرايا، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار الرطب فيتولد، فيكون منها تلك الألوان . وإنما توجد دائرة على الناظر، لأن الشمس أبداً تكون في قفاها، ولذلك ترى في مقابلة الجهة التي تكون فيها الشمس، ترى في المغرب إذا كانت الشمس في المشرق، وترى في المشرق إذا كانت في المغرب .

وزعم بعض القدماء أن أثر القوس غير حقيقي، وإنما هو تخيل لا وجود له في نفسه . وقال إن إدراكه على نحو إدراك صورة الإنسان في المرآة من غير أن تكون منطبعة على الحقيقة فيها ولا قائمة بها . وذلك بحسب غلظ الحس الباصر، وهو لا يرى إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذلك يكون كالمرآة مؤدياً للبصر على نحو تادية البلور، إذا جعل وراءه شيء غير مشفّف، ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البلور وحده، ولا عن هير المشفّف وحده . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الواواء، عفا الله تعالى عنه ورحمه . . . :

سَقِيًّا لِيَوْمِ بَدَا قَوْسُ النَّمَامِ بِهِ * وَالشَّمْسُ طَالِمَةٌ وَالْبَرْقُ خَلَّاسُ !
كَمَا هِ قَوْسُ رَايِمٍ وَالْبُرُوقُ لَهُ * رَشَقُ السَّهَامِ وَعَيْنُ الشَّمْسِ بُرْجَاسُ .

٢٥

وقال سعيد بن حميد القيرواني، رحمة الله عليه :

أَمَا تَرَى الْقَوْسَ فِي النَّعَامِ وَقَدْ * تَمَّقَ فِيهِ الْمَوَاءُ نُورًا؟
حَكَى الطَّوَارِيسَ وَهِيَ جَاعِلَةٌ * أَذْنَابَهَا لِيَلِيَّهِ أَسْتَارًا .
أَخْضَرَ فِي أَحْمِرٍ عَلَى يَقِينِ * عَلَى وَشَاحِ السَّحَابِ قَدَ دَارًا .
كَلَّمَ الْمَزْنَ وَهِيَ رَاهِبَةٌ * شَدَّتْ عَلَى الْأَفْقِ مِنْهُ زُنَارًا .

وقال ظاهر الدين الحريري . شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أَلَسْتَ تَرَى الْجَوْ مُسْتَعِيرًا * يُضَاحِكُهُ بَرْقُهُ الْخُلْبُ؟
وَقَدْ بَاتَ مِنْ فُرْجِ قَوْسِهِ * بَعِيدًا وَتَحَسُّهُ يَقْرُبُ؟
كَلَطَاقِي عَقِيْقٍ وَفَيْرُوزِجِ * وَبَيْنَهُمَا آخِرُ مَذْهَبُ .

وقال سيف الدولة بن حمدان، من أبيات :

وَلَقَدْ نَشَرْتَ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارِقًا * عَلَى الْجَوْ دُكَّاءَ وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ .
يَطْرَرُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَصْفَرٍ * عَلَى أَحْمِرٍ فِي أَخْضَرٍ وَسَطَ مُبَيِّضٍ .
كَمَا أَذْيَالِ خَوْدِ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلِ * مُصَبَّغَةٍ، وَبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ .

وقال عبد المحسن الصوري، عفا الله تعالى عنه :

تَأْمَلِ الْجَوْ تَرَى وَالِيَا * قَدْ ولى الْعَهْدَ عَلَى السَّحْبِ !
سَارَ، وَقَوْسُ اللَّهِ تَاجٌ لَهُ ، * رَكْضًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ !

٢٠

الباب الثالث

من القسم الثاني من الفن الأول

١ - في أسطقس الهواء ^(١)

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "الريح من رُوح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب . فلا تسبونها، وأسألوا الله خيرها، وأستهيذوا بالله من شرّها". أخرجه البيهقي في سننه .

وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده أن الريح تنقسم إلى قسمين : رحمة وعذاب؛ وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام. ولكل قسم اسم . فاسماء أقسام قسم الرحمة : المبشرات، والنشُر، والمرسلات، والرُخاء . واسماء أقسام قسم العذاب : العاصف، والقاصف (وهما في البحر)، والعقيم، والصرصر (وهما في البر) .

وقد جاء القرءان بكل هذه الأسماء .

٢ - ذكر ما قيل في حدّ الهواء

قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في حدّه : الهواء حرم بسيط ، طباعه أن يكون حارًا رطبًا مشفا متحرّكا إلى المكان الذي تحت كرة النار التي فوق كرة الأرض والماء .

(١) كلمة معربة عن اليونانية معناها : المنصر .

وقال إِبْرَاهِيمُ: إنَّ تغيّر حالات الهواء هو الذى يغيّر حالات الناس مرة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهم والسرور، وغير ذلك . وإذا آستوت حالات الهواء، آستوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف الهواء، إذا برد مرة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلا، ومرة كثيرا، ومرة حارًا، ومرة باردا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم . وإذا آستوى وأعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلا، فأعتدلت بذلك الصور والمزاجات . قال : والعلّة فى تشابه التّرك ، هو أنه لما آستوى هواء بلادهم فى البرد آستوت صورهم وتشابهوا .

١٠ وقال : إنّ الرياح تقلب الحيوان حالا إلى حال، وتصرفه من حرّ إلى برد، ومن يسّ إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن، وإنها تغيّر ما فى البيوت من أصناف المأكّل كالتمر، والعسل، والسمن، والشراب، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلبها مرة، وتيسبها مرة . وعلة ذلك أنّ الشمس والكواكب تغيّر الهواء بحركاتها، وإذا تغيّر الهواء، تغيّر بتغيّره كل شيء .

١٤ وقال : إنّ الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّده، وسخنت البحار والأنهار . فكل شيء فى رطوبة تغيّر لونه وحالاته . وهى ترخى الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثقلا فى الأسماع، وغشاوة فى الأبصار. وأما الشّمال فإنها تصلب الأبدان، وتصحح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفى الحواس، وتقوى الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر .

وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء : أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق ، تغير الورد ، وتناثر الورق . وقشقق القنبيط ، وسخن الماء ، وأسترخت الأبدان ، وتكدر الهواء .

وزعم آخرون من القدماء : ان الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمي ريح الصبا .

قيل : سميت ريح الصبا ، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها . والصبوة الميل . وجاء في بعض الآثار : ما بعث نبي إلا والصبأ معه ، وهي الريح التي سُخِّرَت لسليمان (عليه السلام) غدوؤها شهره ، أي من أول النهار إلى الزوال ، ورواحها شهره ، أي من الزوال إلى المغرب . كان يغدو من تدمر من بلاد الشام فيقيل في إصطخر من بلاد فارس . ويبعث بكابل من بلاد الهند .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال ” نُصِرْتُ بالصَّبَا . وَأَهْلِكَتُ عَادٌ بِالذُّبُورِ ” .

وإذا تموج من الجنوب إلى الشمال ، سمي ريح الجنوب ، وهي الريح التي أهلك الله عز وجل بها عاداً .

وسياتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في الفن الخامس من كتابنا هذا .

وإنما تموج من الشمال إلى الجنوب ، سمي ريح الشمال .

وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شمالية أخذت إلى الجنوب ، وغربية أخذت إلى المشرق للطف الهواء في هاتين الجهتين .

والعرب تُحِبُّ الصَّبَا لرقتها . ولأنها تجيء بالسحاب . والمطر فيها والحضن . وهي عندهم اليمانية .

٣ - ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبي في فقه اللغة :

- إذا وقعت الرياح بين ريحين ، فهي النكباء .
 فإذا وقعت بين الجنوب والصبأ ، فهي الحربياء .
 فإذا هبت من جهات مختلفة ، فهي المتناوحة .
 فإذا كانت لينة ، فهي الريدانة .
 فإذا جاءت بنفس ضعيف وروح ، فهي النسيم .
 فإذا كان لها حين تحين الإبل ، فهي الحنون .
 فإذا ابتدأت بشدة ^(١) ، فهي العاصف ، والسيهوج .
 ١٠ فإذا كانت شديدة ولها زفرة وهي الصوت ، فهي الزفافة .
 فإذا اشتدت حتى تقلع الخيام ، فهي المعجوم .
 فإذا حركت الأعصاب تحريكا شديدا أو قلعت الأشجار ، فهي الزعزاع ، والززعان ،
 والززعع .
 فإذا جاءت بالحصباء ، فهي الحاصبة .
 ١٥ فإذا درجت حتى ترى لها ذبلا كالرأس في الرمل ، فهي الدرّوج .
 فإذا كانت شديدة المرور ، فهي التّووج .
 فإذا كانت سريعة ، فهي المُجفّل ، والجافلة .
 فإذا هبت من الأرض كالعُمود نحو السماء ، فهي الإعصار .
 فإذا هبت بالعبرة ، فهي الهبوة .

(١) عبارة الثعالبي . فإذا ابتدأت بشدة . فهي النابغة . فإذا كانت شديدة . فهي العاصف الخ .

- فإذا حَمَلَتِ المُوَرَّ وَجَرَّتِ الذَّيْلَ، فهي المَهْجَاءُ .
 فإذا كانت باردةً، فهي الحَرْجَفُ، والصَّرَصْرُ، والعَرِيَّةُ .
 فإذا كان مع بَرْدِهَا نَدَى، فهي اللَّيْلُ .
 فإذا كانت حارَّةً، فهي الحُرُورُ، والسُّمُومُ .
 فإذا كانت حارَّةً وأنت من قِبَلِ اليَمَنِ، فهي الهَيْفُ .
 فإذا كانت باردةً شديدةً تَحْرِقُ البيوتَ، فهي الحَرِيقُ ^(١) .
 فإذا ضَعُفَتْ وَجَرَّتِ فُويقُ الأرضِ، فهي المَسْفِيفَةُ .
 فإذا لم تُنْقِعْ شَجَرًا ولم تَحْمِلْ مطراً، فهي العَقِيمُ . (وقد نطق بها القرآن) .

٤ - فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

- يقال : الرياح الحواشك : المختلفة الشديدة . البوارح : الشمال الحارَّة في الصيف .
 الأعاصير : التي تهيج بالغبار . المَعِصِرَاتُ : التي تأتي بالأقطار . المَبَشِّرَاتُ : التي تهبُّ
 بالسحاب والغيث . السَّوَانِي : التي تسفي التراب .

٥ - ذكر ما يُمَثَّلُ به مما فيه ذكر الهواء

- يقال :
 أخَفُّ من النَّسيمِ . أسرع من الرِّيحِ . ريحهما جنوب (يضرب للتصانيف) . هو ساكن
 الرِّيح (إذا كان علياً) . قد هبَّتْ ريحه (إذا قامت دولته) .
 ومن أضاف الأبيات .

- * إن كنتَ رِيحاً فقد لاقيتَ إعصاراً * * وبعضُ القولِ يذهبُ بالرياح *
 * تجرى الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ * * لو كنتَ رِيحاً كانتِ الدُّبُورُ *

(١) في اللسان أنها الريح الباردة الشديدة المهبوب كأنها تحرقت . أماتوا الفاعل بها .

بين الأبيات :

إذا هبَّت رياحك، فأغتنمها. * فإن لكل خافضة سُكُونُ !

وقال آخر :

وكلُّ ریح لها هُبُوبٌ * يوماً فلا بدُّ من رُكُودِ.

وقال آخر :

والريحُ ترجعُ عاصفاً * من بعد ما آبتدأت نسيما.

وقال أبو تمام، عفا الله عنه :

إن الرياح إذا ما أعصفت، قصفت * عيدان تجيد ولم يعبان بالريم.

وقال ابن الرومي، رحمة الله عليه :

لا تظننَّ جوى بلوِّمٍ إنه * كالريح تُغري النارَ بالإحراق.

٦ - ذكر ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتز، رحمة الله عليه :

وتسمٍ يبشُرُ الأرضَ بالقَطْرِ كذيلِ الغلالةِ المبلولِ.

ووجوهُ البلادِ تنتظرُ الغيثَ أنتظارَ المحبِّ ردَّ الرسولِ.

وقال ابن الرومي :

حينك عنا تسمأل طاف طائها * تحيةً، بفرت رَوْحاً وريحاناً.

هبَّت شجيراً فباحى الغصنُ صاحبه * سراً بها، وتادى الطيرُ إعلاناً.

ورقٌ تقى على خضيرٍ مهدلة * تسمو بها وتشمُّ الأرضُ أحياناً.

يُحال طائها تشوان من طريب * والغصنُ من هزّه عطفيه تشواناً.

وقال أيضا :

كَأَنَّ نَسِيمَهَا أَرْجُ الحُرَامِي * وَلَاهَا بَعْدَ وَشَمِي وُلِي .
 هَدِيَّةٌ شِمَالِ هَبَّتْ بِلِيلِ * لِأَفْنَانِ العُصُونِ بِهَانِي .
 إِذَا أَنْفَاسُهَا نَسَمَتْ مُحَيَّرَا * تَنْفَسَ كَالشَّجِيِّ لَهَا انْحَلِي .

وقال آخر :

وَأَنْفَاسٌ كَأَنْفَاسِ الحُرَامِي * قُبَيْلَ الصُّبْحِ بَلَّتْهَا السَّمَاءُ .
 تَنْفَسَ نَشْرُهَا سَحْرًا بِغَاثِ * بِهِ سَحْرِيَّةُ الْمَسْرَى رُخَاءُ .

وقال إسحاق الموصلي :

يَاجِذَا رِيحُ الحُنُوبِ إِذَا جَرَّتْ * فِي الصُّبْحِ وَهِيَ ضَعِيفَةُ الأَنْفَاسِ !
 قَدْ حَمَلَتْ بَرْدَ النَّدَى وَتَحَمَّلَتْ * عَبَقًا مِنَ الحَنْجَاتِ وَالبَسَاسِ !^(١)^(٢)

(١) في الأصل بالإهمال وهو من إهمال الناصح . فقد ورد في مادة (ج ث ث) من لسان العرب :
 « الحنجات شجر أصفر مُرٌ طيب الريح نستطيع العرب وتكثر ذكره في أشعارها » . وقال أبو حنيفة
 الدينوري إنه من أحمر الشجر وهو أخضر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء . كأنها زهرة العرطفة طيبة
 الريح . وقال ابن الطيار : أول ما رأيته بساحل نيل مصر في أعلاه في صحاره بمقربة من ضفة
 هناك ، تسمى شاور ، وهي على طريق الطرانة . وقال داود في تذكرته إنه يسمى باليونانية
 زرديسون .

(٢) في اللسان : « البساس نبات طيب الريح » . وهو المعروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي « الرازابنج »
 وبهذا الاسم كان يعرف في الأندلس والمغرب ولا يزال معروفا به إلى اليوم في قطر الجزائر واسم
 الديراني « برهليا » ويعرف في معرب والشام باسم « الشبار » ومنه نوع برى ينبت بالقيروان ويسمى

وقال آخر:

إذا خلا الجَوُّ من هَوَاءٍ ، * فعيْشهم عُمَّةٌ وبُوسُ .
فَهو حَيَاةٌ لِكُلِّ حَيٍّ ، * كَأَنَّ أُنْفَاسَهُ نُفُوسُ .

وقال ابن سعيد الأندلسي :

الرِّيحُ أَقْوَدُ مَا يَكُونُ لِأَنَّهَا * تُبْدِي حَقَايَا الرِّدْفِ وَالْأَعْكَانِ ^(١) .
وَتُمِيلُ الْأَغْصَانَ بَعْدَ عُلُوقِهَا * حَتَّى تُقْبَلَ أَوْجَهُ الْفُؤَادَانِ .
وَكذَلِكَ الْعُشَّاقُ يَتَّخِذُونَهَا * رُسُلًا إِلَى الْأَحْبَابِ وَالْأَوْطَانِ .

وقال آخر:

أَيَا جَبَلِي نَعْمَانَ بِاللَّهِ خَلِيًّا * سَبِيلَ الصَّبَا يَخْلُضُ إِلَى تَسِيمِهَا .
أَجِدُ بَرْدَهَا أَوْ تَشْفِي مَنِّي حَرَارَةً * عَلَى كَيْدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صِيمِهَا .
إِنِّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَفَّسْتُ * عَلَى كَيْدٍ حَرَاءٍ، قَلَّتْ هُمُومُهَا .

وقال ابن هتيميل البني :

هَبَّتْ لَنَا سَحْرًا ، وَالصَّبْحُ مَلْتَمِيمٌ ، * وَاللَّيْلُ قَدْ غَابَ فِيهِ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ .
سَقِيمَةٌ مِنْ بَنَاتِ الشَّرِقِ أضعفَهَا * عَنْ قُوَّةِ السَّيْرِ، لَمَّا هَبَّتْ ، السَّقَمُ .
فَبَلَّغْتُ بِلِسَانِ الْحَالِ قَائِلَةً * مَا لَمْ يُبَلِّغْهُ يَوْمًا إِلَى فَمٍ ،
سِرًّا لِفَانِيَةِ تَسْرِي إِلَى يَدِي * مِنَ النَّسِيمِ رَسُولٌ لَيْسَ يَتَمُّ .
أَصَافِحُ الرِّيحَ إِجْلَالًا لِمَا حَمَلَتْ * إِلَى مَنْ رِيحُ بَرْدِيهَا وَأَسْتَلِمُ .

(١) واحده عكنة بالضم ، وهي ما تبقى من لحم البطن يتنا .

الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الأول

١ - في أسطقس النار وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران^(١)

٢٨

حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض ووجع، نزل جبل أبي قُبَيْس. فأنزل الله إليه مَرَّحَتَيْنِ من السماء، فحكَّ إحداهما بالأخرى فَأَوْرِيَا نارا. فلهذا سمي الجبل بأبي قُبَيْس .

ويدل على أن النار من الشجر، قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ .

والعرب تقول: "في كل شجر نار، وأستمجد المرخ والعقار". لأنهما أسرع اقتداحا . قال الله عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ . وقال أصحاب الكلام في الطبائع : إن الله عز وجل جمع في النار الحركة، والحرارة، واليبوسة، واللطافة، والنور . وهي تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى .

فبالحركة تعلى الأجسام؛ وبالحرارة تسخن؛ وباليبوسة تجفف؛ وباللطافة تنفذ؛ وبالنور تضيء ما حولها .

(١) أنظر في كتاب الحيوان للمباحث تفصيلات ومعلومات عن النار . وهي مما يجب الوقوف عليه والاحاطة به من الوجهة العلمية والفلسفية . أما من حيث اللغة والأدب فيراجع ما ورد في كتاب « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » للنفائس باختصار صاحب لسان العرب ، وهو موجود بالمتوغرافية في « دار الكتب المصرية » ومحل الشاهد هو الباب الثامن من ص ٣٩١ إلى ص ٤٢٣

ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان . فلا يحتاج إليها شيء سواه ،
 وليس به عنها غنى في حال من الأحوال .
 ولهذا عظمتها المجوس ، وقالوا : ^(١) إذ أفردتنا بنفعها ، فنفردها بتعظيمها . على أنهم
 يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد ، فلا يدفنون موتاهم في الأرض ، ولا
 يستنجون في الأنهار .

٢ - ذكر أسماء النار

(وأحوالها في معالجتها وترتيبها)

أما أسماءها ، فمنها :

النار ، والصَّلَاة ، والسَّكَن ، والضَّرْمَةُ ، والحَرَق ، والمَحْدَةُ (وهو صوتُ آلتهاها) ،
 والحَدْمَةُ . والجَحِيم ، والسَّمِير ، والوَحَى .

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها ، فقد قال الثعالبي في فقه اللغة :

إذا لم يُخرج الزُّندُ النارَ عند القَدْح ، قيل : كَبَّابُكُوبُ .

فإذا صوت ولم يخرج ، قيل : صَلَدَ يَصَلِدُ .

فإذا أخرج النار ، قيل : وَرَى يَرَى .

فإذا ألقى الإنسان عليها ما يحفظها ويُدْكِيها ، تقول : شَيْعْتَهَا وَأَقْبَعْتَهَا .

فإذا عالجها لتتَهَب ، قال : حَصَّأْتُهَا وَأَرْتَمْتُهَا ^(٢) .

فإذا جعل لها مَذْهَبًا تَحْتِ القِدْرِ ، قال : سَخَّوْتُهَا .

(١) guébres, mages. عند الفرنسيين . والمجوس لفظ مشتق من "مورغ" و "مُغ" ومعناه النور
 في اللغة الطورانية .

(٢) في فقه الثعالبي : وَأَرْتَمْتُهَا بالسين وعبارة القاموس في مادة (ارث) وتاريخ النار تاريخها .

فإذا زاد في إيقادها وإشعالها، قال : **أَجْتَمَّهَا** .

فإذا اشتدَّ تاجُّجها، فهي **جَاحَةٌ** ^(١) .

فإذا طَفِئَت البتَّة، فهي **هَامِدَةٌ** .

فإذا صارت رَمَادًا، فهي **هَائِيَةٌ** .

والله تعالى أعلم .

٣ - ذكر عباد النار

(وسبب عبادتها وبيوت النيران)

§ أول من عبد النار قابيلُ بنُ آدم .

وذلك أنه لما قتل أخاه هابيلَ هرب من أبيه إلى اليمن ، فلبَّاه إبليس لعنه الله ،

وقال له : **إِنَّمَا قِيلَ قُرْبَانَ هَابِيلَ** وأكلته النارُ لأنه كان يخدمها ويعبدها .

فأنصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار .

فهو أول من نصب النار وعبدها .

§ وأول من عظَّمها من ملوك الفرس ، جم . وهو أحد ملوك الفرس الأول ، عظَّمها

ودعا الناس إلى تعظيمها ، وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب ، لأن النور

عنده أفضل من الظلمة .

§ ثم عبَدت النار بالعراق ، وأرض فارس ، وكرمان ، وبيجستان ، وخراسان ،

وطبرستان ، والجبال ، وأذربيجان ، وأران ، وفي بلاد الهند ، والسند ، والصين .

(١) عبارة فقه اللغة بعده : (فاذا سكن لها ولم يطفأ حرها فهي خادمة) وبعده فاذا طفت البتة الخ

§ ونبئ في جميع هذه الأماكن بيوت للتيان ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى .

§ ثم أقطعت عبادة التيران من أكثر هذه الأماكن إلا الهند . فإنهم يعبدونها إلى يومنا هذا . وهم طائفة تدعى الإكنوآطرية . زعموا أن النار أعظم العناصر حرما ، وأوسعها حيزا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرًا ، وأنورها ضياء ، وإشراقا ، وألطفها جسما ، ويكافا ؛ وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع ؛ ولأن نور في العالم إلا بها ، ولا نمو ولا انعقاد إلا بمجازجتها .

وعبادتهم لها أن يحفروا أخدودا مريها في الأرض ويحشوا النار فيه ، ثم لا يدعون طعاما لذيذا ، ولا شرابا لطيفا ، ولا ثوبا فاخرا ، ولا عطرا فائحا ، ولا جوهرًا نفيسا ، إلا طرحوه فيها : تقربا إليها ، وتبركا بها . وحزموا إلقاء النفوس فيها ، وإحراق الأبدان بها ، خلافا لجماعة أخرى من زهاد الهند .

§ وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظماؤها . يعظمون النار لجوهرها تعظيما بالغا ، ويقدمونها على الموجودات كلها .

§ ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صاغين ، يستدون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس صدر عن صدر مجرم . وستتهم الحث على الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضرارها ، وهي : الكذب ، والحسد ، والحقد ، والكفاح ، والحرص ، والبغى ، والبطر . فإذا تجرد الإنسان عنها ، تقرب من النار .

(١) أفادنا المترجم الألماني لكتاب الملل والنحل أن هذه الكلمة مأخوذة من "أجنيترا" وهي نار

المفلاة (أي التي تتأجج إكراما للإله أجنو .)

٤ — وأما بيوت النيران
(ومن رسمها من ملوك الفرس)

قال المسعودي :

§ أول من حكي ذلك عنه أفريدون الملك . وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، ^(١) وهم معتكفون على عبادتها . [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها . فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها] وأنها واسطة بين الله تعالى وبين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها له . وجعلوا للنور مراتب وقوانين [وفرقوا بين طبع النار والنور] ^(٢) وزعموا أن الحيوان يبتذبه النور ، فيحرق نفسه : كالفراش الطائر بالليل فما لطف جسمه ، يطرح نفسه في السراج فيحرقها . وغير ذلك مما يقع في صيد الليل من الغزلان ، والوحش ، والطيور ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج في الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة في الليل ، فإنهم يجعلون السراج حوالى المركب ، فيثب السمك من الماء إليها ؛ وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك .

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جرة منها إلى نراسان ، فعملت . فأتخذ لها بيتا بطوس . [وأتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة] ^(٣) . وبيتا آخر بسجستان كواكر ، كان ^(٣) أتخذه بهمن بن إسفنديار بن يُستاسف بن يهراسف .

(١) الزيادة عن المسعودي .

(٢) سماه الشهرستاني : "قبازان" (ص ١٩٧) .

(٣) سماه الشهرستاني : "كوكرا" (ص ١٩٧) .

§ وبيت آخربيلاد الشير والآن ، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان ، وقيل إنه صادف هذا البيت ، وفيه نار معظمة فتقلها إلى الموضع المعروف بالبركة .

§ وبيت آخربلنار يقال له كوسجة^(١) : بناه كيخسرو الملك .

§ وقد كان بقومس بيت نار معظم لا يُدرى من بناه ، يقال له حريش^(٢) . ويقال إن الإسكندر لما غلب عليها ، تركها ولم يطفئها .

§ وبيت نار آخريسمى كَنَكَبَز ، بناه سياوش بن كاوس الجبار ، وذلك في زمن لُبَّه بشرق الصين مما يلي البركة .

§ وبيت نار بمدينة أَرَجَان من أرض فارس ، بناه قمار .

§ وبيت بأرض فارس آتخذ في أيام يهراسف^(٣) .

§ فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت .

§ ثم آتخذ زرادشت بعد ذلك بيوتا لليران . فكان مما آتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، وبيت بمدينة نسا والبيضاء من أرض فارس . وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك بطلب نار كان يعظمها جَم فطلبت^(٤) ، فوجدت بمدينة خوارزم .

فتقلها يستاسف إلى مدينة دَارَ آبِجُرد من أرض فارس والمجوس تعظم

هذه النار ما لا تعظم غيرها من اليران والبيوت وللفرس بيت نار

(١) سماه الشهرستاني : "كوسجة" (ص ١٩٧) .

(٢) سماه الشهرستاني : "حريش" (ص ١٩٧) .

(٣) هو فراسب .

(٤) في الشهرستاني : كشتاسف .

(٥) هو الملك جمشيد .

بإصطخر فارس، يعظمه المجوس . كان في قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن آسپنديار وجعلته بيت نار . ثم نقلت عنه النار فحرب وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم آخذه دارا بن دارا . وفي مدينة جور من أرض فارس بيت بناه أردشير بن بابك وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس . وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود ابن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية . ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهدي . وكان سابور اشتراط على الروم بقاء هذا البيت وبأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام . بنته بوران بنت كسرى أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأستينا . وبيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس . والذي ذكرناه هو المشهور منها .

٥ - ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا .

١ - نار المزدلفة . توقد حتى يراها من دفع من عرفه . وأول من أوقدها قصى بن كلاب .

٢ - نار الأستسقاء . كانت الجاهلية الأولى، إذا نتابت عليهم الأزمات ، وأشتد الجذب، واحتاجوا إلى الأمطار . يجمعون لها بقراً، معلقة في أذناها وعراقبها

(١) في الشهرستاني : توران .

(٢) في المسعودي : استينا . وفي الشهرستاني : إسفينا .

(٣) هذا الباب كله منقول عن مروج الذهب (أنظر طبعة باريس ج ٤ ص ٧٢ - ٨٦) .

السُّلْعُ وَالْعُشْرُ، وَيَصْعَدُونَ بِهَا إِلَى جَبَلٍ وَعَمْرٍ، وَيَسْعَلُونَ فِيهَا النَّارَ، وَيَضْجُونَ بِالدَّعَاءِ
وَالْتَضَرُّعِ. وَكَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُتَوَصَّلِ بِهَا إِلَى نَزُولِ الْغَيْثِ. وَفِي ذَلِكَ
يَقُولُ الْوَدِيِّكَ الطَّائِي :

لَا دَرَّ دَرَّ رَجَالٍ خَابَ سَعْمُهُمْ * يَسْتَمَطْرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ بِالْعُشْرِ!
أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيِّقُورًا مُسْلَعَةً * ذَرِيعَةً لَكَ يَبْنَ اللهُ وَالْمَطَّرُ؟

وقال أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :

وَيَسُوقُونَ بِأَقْرَبِ السَّهْلِ لِلطَّوْرِ * دِمَهَازِيلَ خَشِيَّةً أَنْ تَبُورًا.
عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي بُكْرِ الْأَذَى * نَابٍ مِنْهَا، لِكَيْ تَبِيحَ النَّحُورًا.
سَلْعٌ مَا وَمِثْلُهُ عُشْرٌ مَا * عَائِلٌ مَا وَعَالَتِ الْبَيْقُورًا.

- ٣ - نار الزائر والمسافر . ويسمونها نار الطرد . وذلك أنهم كانوا إذا لم يجبوا
رجوع شخص . أوقدوا خلفه نارا ودعوا عليه . ويقولون في الدعاء : أبعده الله وأحمقه !
وأوقدوا نارا إثره . قال الشاعر :

وَحِمَّةٌ قَوْمٌ قَدْ أَتَوْكَ وَلَمْ تَكُنْ * لِتُوقِدَ نَارًا خَلْفَهَا لِتَنْتَدِمَ .

- (١) قال العلامة الدكتور أرغست هفتز الألماني والأب المحقق الفاضل لويس شيخو اليسوعي في حاشية
صفحة ٣٦ من كتاب النبات والشجر للأصمعي الذي عينا بتحقيقه وطبعه في بيروت سنة ١٩٠٨ ، مانصه :
السُّلْعُ نبات . وقيل شجر مرمر . وقيل أنه سم . له ورقة صغيرة شاكّة كان شوكتها زغب . وهو بقلة تنفرض
كأنها راحة الكلب .

- (٢) قال الفاضلان المذكوران في ذلك الموضع أيضا مانصه : "قيل إن العشر من كبار شجر العضاء وهو
ذو صمغ حلو وحرّاق مثل القطن . يتفتح به . وهو عريض الورق . يخرج من شعبه ومواضع زهره سكر
فيه شي . من المرارة يقال له سكر العشر . ويخرج له قفاح كشقاق الجمال . وله نور كالديقل ، مشرق حسن
النظر . وله ثمرة : *Asclepias gigantea* . *Le. Asclépiade* : Forsk. *Calotropis procera* .

(٣) أما الأفرغ والأمر . فكان في هذا العصر فانهم يستزلون الغيث باطلاق المدافع لاحداث الدوى والضحيج
والالتهاب في الجو .

والجمَّة : الجماعة يمشون في الدم، وفي الصلح . ومعنى هذا البيت : لم تندم على ما أعطيت في الجمالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارا كي لا يعودوا .

٤ - نار التحاليف . كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عليها، فيذكرون منافعها، ويدعون الله بالحرمات والمنع من منافعها على الذي يتقضى العهد، ويطرحون فيها الكبريت والملح . فإذا فرغت هؤل على الحالف . قال الكيِّت :
هُوَ خَوْفُونِي بِالْعَمَى هُوَ الرَّدَى * كَمَا شَبَّ نَارَ الْحَالِفِينَ الْمُهْوَلُ .
وقال أوس بن حجر :

إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ ، صَدَّ بِوَجْهِهِ * كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمُهْوَلِ حَالِفُ .

٥ - نار الغدر . كانت العرب إذا غدر الرجل بجماره، أوقدوا له نارا بمنى ، أيام الحج على الأخشب (وهو الجبل المطل على منى) . ثم صاحوا : هذه غدره فلان .
قالت امرأة من هاشم :

فَإِنَّ نَهْلِكَ فَلَمْ نَعْرِفْ عُقُوقًا * وَلَمْ نُوقَدْ لِنَا بِالغَدْرِ نَارُ .

٦ - نار السلامة . وهي نار توقد للقادم من سفره ، إذا قدم بالسلامة والغنيمة . قال الشاعر :

يَا سُلَيْمِي أَوْقِدِي النَّارَا * إِنَّ مَنْ تَهَوَّنَ قَدْ زَارَا .

٧ - نار الحرب . وتسمى نار الأهبة والإنذار . توقد على يقاع، فتكون إعلاما لمن بعد . قال ابن الرومي :

لَهُ نَارَانِ : نَارُ قَرِيٍّ وَحَرْبٍ * تَرَى كَلْتَيْهِمَا ذَاتَ النَّهَابِ .

٨ - نار الصيد . يوقدون لها لصبد الطباء، لتُمشى أبصارها .

٩ - نار الأسد . كانت العرب توقدها إذا خافوه ، فإن الأسد إذا عين النار حرق إليها وأقلها .

١٠ - نار السليم . توقد للذوق ، والمجروح ، ومن عضه الكلب الكلب حتى لا يناموا فيشتد بهم الألم . قال النابغة :

يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ النَّوْمِ سَلِيمُهَا * لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاغِ .

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حلّي النساء ويتركونه سبعة أيام .

١١ - نار الفداء . وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبوا قبيلة وخرجت إليهم

السادات في الفداء وفي الأستيهاب ، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن .

وأما في الظلمة فيخفي قدر ما يحبسون من الصبى لأنفسهم ، وقدر ما يجودون به ،

وما يأخذون عليه الفداء . فيوقدون لذلك النار . قيل الشاعر :

نِسَاءُ بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أَوَارَةٍ * عَلَى النَّارِ إِذْ تُجَالِي لَهَ قَتِيَاتُهَا .

١٢ - نار الوشم . كانوا يقولون للرجل : ما نارك ؟ (في الاستخبار عن الإبل)

أو ما سَمْتُكَ ؟ [فيقول] : حياط ، أو علاط ، أو حلقة ، أو كدا ، أو كدا .

حكى أن بعض اللصوص قرب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتى إلى

بعض الأسواق ، فقال له بعض التجار : ما نارك ؟ وإنما سأل عن ذلك ، لأنهم كانوا

يعرفون يسم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها ، فقال :

تَسْأَلُنِي الْبَاعَةَ : مَا نِجَارُهَا ، * إِذْ زَعَزَعُوها فَسَمَتَ أَبْصَارُهَا ؟

وَكُلُّ دَارٍ لِأَناسٍ دَارُهَا ! * وَكُلُّ نَارِ الْعَالَمِينَ نَارُهَا !^(١)

(١) يقول العرب في أمثالهم : " كل نجار إبل نجارها " وشرطه الثاني " ونار إبل العالمين نارها " يضر بون

المثل للصلط الذي فيه كل لون من الأخلاق وليس له رأى يثبت عليه .

١٣ - نار القري . وهي من أعظم مفاخر العرب . كانوا يوقدون في ليالي الشتاء ، ويرفعونها لمن يلتمس القري . فكما كانت أضخم وموضعها أرفع ، كان أنفخ . وهم يتمادحون بها ، قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بِكُلِّ وادٍ * إذا النَّيرانُ أَلْبَسَتِ القِنَاعا .

وقال إبراهيم بن هرمة :

إذا ضلَّ عنهم ضيفهم ، رَفَعُوا له * من النار في الظلماء أَلويةٌ حُمرا .

١٤ - وكانت للعرب نار عظمى تسمى نار الحرتين . وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسي . وكانت حرة ببلاد عبس ، تسمى حرة الحدثان .

٤١ روى عن ابن الكلبي أنه قال : كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، لا تمر بشيء إلا أحرقتة . وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً فخرج بهم نحوها ، ومعه درة حتى انتهى إلى طرفها ، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير فأحاط بهم ، فقالوا : هلكت والله أشياخ بني عبس آحر الدهر ! فقال خالد كلاً ! وجعل يضرب ذلك العنق بالدرّة ويقول : ” بدأ بدأ ، كل هدي الله يؤدّي ! أنا عبد الله خالد بن سنان ! ” فما زال يضربه حتى رجع ، وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبانٌ يملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قلب ، فأنساب فيه وتقدم عليه ، فكث طويلاً . فقال ابن عم لخالد ، يقال له عروة بن شب : لا أرى خالداً يخرج إليكم أبداً ! فخرج ينطف عرقاً ، وهو يقول : زعم ابن راعية المعزى أني لا أنخرج . فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن .

وفي هذه النار يقول الشاعر :

نكار الحرتين لها زفيرٌ * تُصمُّ مَسامِعَ الرجل السَّميع .

٦ - ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لاحقيقية . فمنها :

§ نار البرق . وقد وصفها بعض الأعراب فقال :

نارٌ تُجَدِّدُ لِلْعِيدَانِ نَضْرَتَهَا * والنارُ تُشْعِلُ عِيدَانَنَا فَتَحْتَرِقُ

إشارة إلى أن النار تُحرق العيدان ، إلا نار البرق فإنها تحيى بالغيث .

§ نار المعدة . وهى التى تهضم الطعام . وهى كخار الحياة ، ونار الغريزة . وقوتها مادة

للصحة ، كما أن ضعفها سبب للعدة .

§ نار الحمى . وقد قيل : النيران ثلاثة : نار لا تأكل ولا تشرب ، وهى نار الآخرة ؛

ونار تأكل وتشرب . وهى نار الحمى ، تأكل اللحم وتشرب الدم ، ونار تأكل ولا تشرب ،

وهى نار الدنيا .

ومن النيران المجازية :

§ نار الشوق ، نار الشَّره ، نار الشباب ، نار الشراب .

قال شاعر يمدح بعض الملوك :

وُقِيَتَ نارَ الْجَحِيمِ يامَلِكُ ، * أربَعُ نيرانِهِ لَهُ نَسَقُ !

نارُ شَبابٍ تَرُوقُ نَضْرَتُها ، * ونارُ رَاجٍ كَأَنَّهُ شَفَقُ ،

ونارُ سُلطانِهِ ، تقارِنُها * نارُ قَرىِّ لا تَزالُ تَأْتَلُقُ ،

٧ - ذكر النيران التي يضرب المثل بها

يُضْرَبُ الْمَثَلُ :

﴿ نَارُ الْحُبَابِ . وهي نار لبخيل كان يوقدها . فإذا استضاء بها إنسان ، أطفأها .

وقيل : إنها النار التي تُورِيها الخيل بسنابكها من الحجارة . قال الله تعالى :
﴿ فَأَلْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ . وقال النابغة :

﴿ وَيُوقِدْنَ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ ﴾

وهذا المثل يضرب لما لا منفعة فيه ولا حاصل له .

﴿ نَارُ الْغَضَى . يضرب بها المثل في الحرارة . وهي جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود .

﴿ نَارُ الْعَرْفَجِ . هي نار تتقد سريعاً . قال قتيبة بن مسلم لعمر بن عبد بن الحصين :
«لَلسَّوْدُ أَسْرَعُ إِلَيْكَ مِنَ النَّارِ فِي يَسْرِ الْعَرَجِ» . إذا ألتهمت فيه النار أنتشرت

وتسمى نار الزحفتين . لأن العرج إذا أنتشرت فيه النار عظمت وأستفاضت .
فمن كان بالقرب منها زحف عنها ، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها . فيحتاج الذي
زحف عنها أن يزحف إليها . فلا يزال المصطلى بها كذلك ، فلذلك سميت نار الزحفتين .

﴿ نَارُ الْحَلْفَاءِ . يضرب بها المثل في سرعة الانتقاد ، كما قيل :

﴿ فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَلْفَاءِ ﴾ ، أدنيت له نارا .

وفي سرعة الانطفاء ، كما قيل : نار الحلفاء ، سريعة الانطفاء .

٨ - ذكر ما جاء منها على لفظ أفعل

يقال :

أكل من النار؛ أحر من النار؛ أحر من الجمر؛ أحسن من النار؛ أسرع من شرارة في قصاب .

ويقال :

فلان وارى الزناد؛ ورئت بك زنادى؛ فلان ناقب الزند؛ فلان كابي الزناد؛ صدت زناده؛ فلان ما يسطل يناره؛ هو التائب العجلان؛ هما زندان في وعاء .

ومن أضاف الأبيات :

والنار قد يُجْمَدُهَا النَّاعُ ﴿١﴾ كَلْتَمِيسٍ إِطْفَاءَ نَارٍ بِنَاعٍ ﴿٢﴾
 والجمر يوضع في الرماد فيخمد ﴿٣﴾ كذا كل نار رُوحت تنوح ﴿٤﴾
 هيات تكتم في الضلام مشاعل ﴿٥﴾

ومن الأبيات قول علي بن الجهم :

والنار في أحجارها مكنونة ﴿٦﴾ لا تضطلي إن لم تُثرها الأزند

وقال آخر :

والنار بالماء الذي هو ضدّها ﴿٧﴾ تعضى النَّصَّاجِ، وَطَبِعُهَا الإِحْرَاقُ .

وقال آخر :

والكاتبُ الأمرُ ليس يحفى ﴿٨﴾ كالْمَوْقِدِ النَّارِ بِالْيَفَاعِ .

وقال آخر :

لا تبتغ كل دُخان ترى، ﴿٩﴾ فالنار قد تُوقدُ للكي .

وقال أبو تمام :

لولا أشتعال النار فيما جاورت ، * ما كان يعرف طيبُ عرف العود .

وقال آخر :

وفتيلةُ المصباح تُحرقُ نفسها * وتُضيءُ للسرائي ، وأنت كذا كا .

٩ - ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتز ، غفر الله له :

كانت الشرار على نارها * وقد راق منظرها كل عين .

سحالةٌ تسير إذا ماعلا ، * فإما هوى ففتاتُ الجين .

أخذه العسكري فقال :

أوقدت بعد الهدو نارا * لها على الطارقين عين .

شرارها إن علا نضار ، * لكنه إن هوى لجين .

وقال السري الرفاء :

والتهبت نارنا ، فنظرها * يُغنيك عن كل منظر عجيب .

إذا رمت بالشرار فاطردت * على ذراها مطاردُ اللهب ،

رأيت يا قوتة مشبكة * تطيرُ عنها قرأضة الذهب .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

حراء نازعت الرياح رداءها * وهنأ وزاحمت السماء بمنكب .

ضربت سماء من دخان فوقها ، * لم تدر منها شعلة من كوكب .

وتفححت عن كل نفحة جمرة * باتت لها ريح الشمال بمرقب .

قد ألهبت فذهبت فكأنها * شقراء تمرح في عجاج كهب^(١) .

(١) الكهبة لون ليس بخالص في الحمرة . وهو في الحمرة خاصة (صحاح الجوهري) .

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ :

كأنا النارُ والرَّمَادُ وقد كاد يُوارِي من نُورِهَا النُّورَا :
وَرَدُّ جَنِّي القِطَافِ أَحْمَرُ قد ذَرَّتْ عليه الأَكُفُ كَأَفُورَا .

وقال تاج الملوك بن أيوب :

أما ترى النارَ وهي تُضَرَّمُ في أحشاءِ كَانُونِهَا وتاتِهَبُ ؟
كأنا الفعمُ فوقها فُضِبُ من عَنَبٍ وهي تحته دَهَبُ .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

لأبنة الزَّئِدِ في الكوانين جَمْرٌ كالدراري في دُجَى الظلَماءِ .
خبروني عنها ولا تكتموني . أَلَدِيهَا صِنَاعَةُ الكِيميَاءِ ؟
سَبَكَتْ حَمَمَهَا صَفَاحَ نِيرٍ رَصَعَتْهَا بِالفِضَّةِ البِيضاءِ .
كَلَّمَا رَفُوفَ النَّسِيمِ عَلَيْهَا رَقَصَتْ في غِلَالَةِ حَمراءِ .

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجي :

وكانها والريحُ عابثةٌ بها تُرْهِى قَرَقُصٌ في قَمِيصِ أَحْمِرٍ .

وقال أبو هلال العسكري :

نارٌ تَلَعَبُ بِالسُّفُوفِ كأنها حُلٌّ مُشَقَّقَةٌ على حُبَّشانِ .
رَدَّتْ عليها الرِّيحُ فَضَلَ دُخَانِهَا فَاتَتْ به سُبُجًا على عَقِيانِ .
فألحوا يَضْحَكُ في أبيضاضِ شَرائِرِ مِنْهَا وَيَعِيسُ في أسودادِ دُخَانِ .

وقال ابن أبي الحِصَال :

وَعُوجُوا عَلَى يَاقوتَةَ ذَهَبِيَّةٍ * يَمِيمٌ بِهَا المَقْرورُ بالسَّرَاتِ (١)
إِذَا مَا أَرْتَمْتَ مِنْ حَمِيمِهَا بَشَرَارِهَا * رَأَيْتَ نُجُومَ اللَّيْلِ مُنْكَدِرَاتِ .

وقال سيف الدولة بن حمدان :

كَأَنَّمَا النُّورُ وَالرَّمَادُ مَعَا * وَضَوْءُهَا فِي ظَلَامِهِ يُحِجِّبُ :
وَجَنَّةٌ عِذْرَاءٌ مَسْمَا تَجَمَّلُ * فَاسْتَرَّتْ تَحْتَ عَنَبِ أَسْهَبِ .

وقال آخر :

فَحَمٌّ كَيَوْمِ الفِرَاقِ تُسْعِلُهُ * نَارُ كَارِ الفِرَاقِ فِي الكَيْدِ .
أَسْوَدُ قَدْ صَارَتْ تَحْتَ حُمُرَتِهَا * مِثْلَ العُيُونِ أَكْتَحَنَ بِالرَّمَدِ .

وقال أبو طالب المأموني :

مَا تَرَى النَّارَ كَيْفَ أَسْقَمَهَا القُرُفُ فَاضْجَتْ تَحْبُو وَطَوْرًا تَسْعُرُ ؟
وَغَدَا الجَمْرُ وَالرَّمَادُ عَلَيْهِ * فِي قَيْصِ مُدْهَبٍ وَمُعْشَبِ ؟

وقال أبو فراس الحمداني :

لِللَّهِ بَرْدٌ مَا أَشَدُّ وَمَنْظَرُ مَا كَانَ أَنَجِبُ !
جَاءَ العِصْلَامُ بِنَارِهِ * هَوَجَاءَ فِي حَمِّ تَلْهَبِ .
فَكَأَنَّمَا جَمَعَ الحُلِيَّ فَمُحْرَقٌ مِنْهُ وَمُدْهَبِ .
ثُمَّ أَنْطَفَتْ فَكَأَنَّمَا * مَا بَيْنَنَا نَدْمُ عَشْبِ .

(١) سيرة : الغداة الباردة .

١٠ - ذكر شئ مما قيل في الشمعة والشمعدان

(١) والسراج والقنديل
(٢)

١ - أما الشمعة، فنجد ما قيل فيها قول الأرجاني :

- نمت بأسرار ليل كان يُخفيها * وأطلعت قلبها للناس من فيها.
 قلب لها لم يرعنا وهو مكنن * إلا برقيقة نار من تراقبها. ٥
 سقيمة لم يزل طول اللسان لها * في الحى ينجني عليها ضرب هاديا.
 غريقة في دموع، وهي تُحرقها * أنفاسها بدوام من تظنها.
 تنفست نفس المهجور إذ ذكرت * عهد الخليل فبات الوجد يبيها.
 يُخشى عليها الردى مهما ألم بها * نسيم ريح إذا وافي يجيها.
 بدت كنجم هوى في إثر غفيرة * في الأرض فاشتعلت منه نواصيا. ١٠
 نجم رأى الأرض أولى أن يبوأها * من السماء، فأمسى طوع أهلها.
 كأنها غرة قد سال شادخها * في وجه دهماء يزهبها تجليها.
 أوضرة خلقت للشمس حاسدة * فكلما حجبت، قامت تُحاكيها.
 وحيدة كشابة الریح هازمة * عساكر الليل إن حلت بواديا.
 ما طنبت قط في أرض محيمة * إلا وأقر للأبصار داجيا. ١٥

(١) مما يجب التنبيه إليه ان "سورج" و"سرج" معناهما الشمس في اللغة الهندية عن السنسكريتية (أنظر

القاموس الهندى الانكليزى تأليف فوربس).

(٢) فى اللغة اللاتينية Candella وفى الفرنسية Chandelle بمعنى الشمعة وعنها Candélabre .

ويقول علماء الافرنج ان اختراع الشمع للاستضاءة مما توصل اليه العالمون وعلى ذلك يكون الأصل

افرنجيا ثم قلته العرب لغنى المصباح المحرف بالقنديل .

لَهَا غَرَابٌ تَبْدُو مِنْ مَحَاسِنِهَا، * إِذَا تَفَكَّرْتَ يَوْمًا فِي مَعَانِيهَا.
 كَصَعْدَةٍ فِي حَشَا الظُّلَمَاءِ طَاعِنَةٍ * تَسْقِي أَسَافِلَهَا رِيًّا أَعَالِيهَا.
 فَالْوَجْنَةُ الْوَرْدُ إِلَّا فِي تَنَاوُلِهَا * وَالقَامَةُ الْفُضْنُ إِلَّا فِي تَنَدِّيهَا.
 صَفْرَاءُ هِنْدِيَّةٌ فِي اللَّوْنِ إِنْ نُعِتَتْ، * وَالقَدُّ وَاللِّينُ إِنْ أُتِمَّتْ تَسْبِيهَا.
 فَالْهِنْدُ تَقْتُلُ بِالنَّيْرَانِ أَنْفُسَهَا * وَعِنْدَهَا أَنْ ذَاكَ الْقَتْلَ يُحْيِيهَا.
 قَدْ أُنْمِرَتْ وَرَدَّةٌ حَمْرَاءُ طَالِعَةٌ * تَحْجِي عَلَى الْكَفِّ إِنْ أَهْوَيْتَ تَحْجِيهَا.
 وَرَدُّتُ سَاكِبَهُ الْأَيْدِي إِذَا قُطِفَتْ، * وَمَا عَلَى غُضْبِهَا شَوْكٌ يُوقِيهَا.
 مَا إِنْ تَرَأَى تَيْبَتُ اللَّيْلُ سَاهِرَةٌ * وَمَا بِهَا غُلَّةٌ فِي الصَّدْرِ تُطْفِيهَا.
 صَفْرَاءُ غَلَاثُلُهَا، حُمْرٌ عَمَائِمُهَا، * سَوْدٌ ذَوَائِبُهَا، بَيْضٌ لِيَالِيهَا.
 تُحْجِي اللَّيَالِي نُورًا، وَهِيَ تَقْتُلُهَا، * بِسْرِ الْجَزَاءِ لَعَمْرُ اللَّهِ تَحْجِيهَا!
 قَدَّتْ عَلَى قَدِّ نَوْبٍ قَدْ تَبَطَّنَا * وَلَمْ يُقَدِّرْ عَلَيْهَا الثَّوْبَ كَاسِيهَا.
 غَرَاءُ فِرْعَاءُ مَا تَنْفِكُ قَالِيَّةٌ * تَقْضُ لِمَتَّهَا طَوْرًا وَتَقْلِيهَا.
 شَبَاءُ شَعْنَاءُ لَا تُكْمِي غَدَائِرُهَا * لَوْنُ الشَّيْبَةِ إِلَّا حِينَ تُنْلِيهَا.
 قَنَاءُ ظَلَمَاءَ لَا تَنْفِكُ يَأْكُلُهَا * سِنَانُهَا طَوَّلَ طَعْنٍ أَوْ يُسْظِيهَا.
 مَفْتُوحَةُ الْعَيْنِ تُفْنِي لَيْلَهَا سَهْرًا، * نَعَمٌ، وَأَفْنَأُهَا إِيَّاهُ يُفْنِيهَا.
 وَرُبَّمَا نَالَ مِنْ أَطْرَافِهَا مَرَضٌ * لَمْ يُسْفِ مِنْهُ بَغِيرَ الْقَطْعِ مُشْفِيهَا.

وقال آخر:

بَيْضَاءُ أَضْحَكِ الظُّلَامِ فَرَاعَهَا * فَبَكَتْ وَأَسْبَلَتِ الدَّمُوعَ بَوَادِرَا.
 جَفَّتْ دُمُوعٌ جُفُونَهَا فَكَأَمَّا * كُسِيَتْ مِنَ الطَّلَعِ النَّضِيدِ صَفَاثِرَا.

وقال أبو القاسم المطرّز من أبيات :

وللشُمُوعِ عِيُونٌ كَمَا نَظَرَتْ * تَطَأَتْ مِنْ يَدَيْهَا أَنْجُمَ الْفَسَقِ .
 مِنْ كُلِّ مَرْهَفَةِ الْأَعْطَافِ كَالْفُصْنِ السَّمِيَادِ لَكِنَّهُ عَارٍ مِنَ الْوَرَقِ .
 إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْهَا وَهِيَ وَادِعَةٌ * تَبْلَى ، وَعَيْشَتُهَا مِنْ ضَرْبَةِ الْعُنُقِ !

وقال آخر :

جَاءَتْ بِحَيْمٍ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ * تَبْيِي وَتَشْكِي الْهَوَى وَتَلْتَهِبُ .
 كَأَنَّهَا فِي أَكْفٍ حَامِلِيهَا * رُحٌ لِحَيْنِ سِنَانِهِ ذَهَبُ .

وقال محمد بن أبي الثبات، شاعر اليتيمة :

وَبَجْدَوْلَةٍ مِثْلَ صَدْرِ الْقَنَاةِ * تَعَزَّتْ ، وَبَاطِنُهَا مَكْتَسِبِي .
 لَهَا مُقَلَّةٌ هِيَ رُوحٌ لَهَا ، * وَتَأَجَّ عَلَى الرَّأْسِ كَالْبُرْنِيسِ .
 إِذَا غَازَلَتْهَا الصَّبَا حَرَّكَتْ * لِسَانًا مِنَ الذَّهَبِ الْأَمْلَسِ .
 وَتُنَجُّ مِنْ حَيْثُ مَا أَلْفَحَتْ * ضِيَاءٌ يُجَلِّي دُجَى الْحِنْدِسِ .
 فَتَحْنُ مِنَ الثُّورِ فِي أَسْعُدٍ ، * وَتِلْكَ مِنَ النَّارِ فِي أُنْحُسِ !

وقال آخر :

وَرَشِيقَةٌ بِيضَاءٌ تُطْلَعُ فِي الدُّجَى * صُبْحًا وَتَشْفِي النَّاطِرِينَ بِدَائِمَا .
 شَابَتْ ذَوَائِبُهَا أَوَانَ شَبَابِهَا ، * وَأَسْوَدَ مَفْرِقُهَا أَوَانَ فَنَائِمَا .
 كَالْعَيْنِ : فِي طَبَقَاتِهَا وَدُمُوعِهَا * وَبَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا وَضِيَائِمَا .

وقال الصاحب بن عباد :

وتشمعة قُدِّمَتْ إِلَيْنَا * تَجْمَعُ أوصافَ كُلِّ صَبِّ :
صُفْرَةٌ لَوْنٍ ، وَذَوْبُ جِسْمٍ ، * وَفَيْضُ دَمْعٍ ، وَحَرُّ قَلْبٍ .

وقال السري الرفاء :

مَفْتُولَةٌ مَجْدُولَةٌ * تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسَلِ .
كَأَنَّهَا عُمَرُ الْفَتَى * وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ .

ومما ورد في وصفها ثرا .

من رسالة لابن الأنثير الجزري ج. منها :

وكان بين يدي شمعةٌ تعمُّ مجلسي بالإيناس ، وتغني بوجودها عن كثرة الجلَّاس ؛
وكانت الريح تتلعبُ بسُعبها ، وتدور على قُطبِ لَهَبها ؛ فَطَوْرًا تقيمه فيصير أُمَّئله ،
وطورا تُمِيله فيصير سِلْسِله ؛ وتارة تُجَوِّفه فيصير مُدْمِنه . وتارة تجعله ذا ورقات فيمثل
سَوَسِنه ؛ وآونة تنشره فيسط منديلا ، وآونة تُلْفه على رأسها فيستدير إكليلًا .

ومن رسالة أخرى له :

وكانت الريح تتلعبُ بلَهَبها لدى الخادم فتشكله أشكالًا . فتارة تُبرزه نجما ، وتارة
تُبرزه هلالًا ؛ ولربما سطع طورا كالجَلْنارة في تضاعيف أوراقها ، وطورا كالأصابع
في أنضمامها وأفراقها .

§ وقال سيف الدين المشد في الفانوس :

وكأَنَّما الْفَانُوسُ فِي غَسَقِ الدُّجَى * دَنَفٌ بَرَاهُ سَقَمُهُ وَسَهَادُهُ .
حُنَيْتٌ أَضَالِعُهُ وَرَقٌّ أَدِيمُهُ * وَجَرَّتْ مَدَامِعُهُ وَذَابَ فُؤَادُهُ .

٢ - ومما قيل في السراج .

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال ، جاء منها :

- عذرا إليك أيُّدك الله ! فإني خططت والنوم مُفازِل ، والقرُّ نازل ؛ والريح تلعب
بالسراج ، وتصول عليه صَوْلَة المَجَّاح ؛ فطورا تبرزه سنانا ، وتحرَّكه لسانا ؛ وآوِنَة
تَطْوِيه جُنَابِه ، وأخرى تنشره دُؤَابِه ؛ وتارة تقيمه إبرة لُهب ، وتعطفه بُرَّة ذهب ؛
وحينا تقوسه حاجب فئات ، ذات غمزات ؛ وتسليطه على سليطه ، وتديله على
خليطه ؛ وربما نصبته أُذُنَ جَوَاد ، ومسخته حَاقَ جَرَاد ؛ ومشقته حروف برق ،
بكَفٍ وَدُق ؛ وكثمت بسناه قِنْدِيلِه ، وألقت على أعطافه مِندِيلِه ؛ فلاحظ منه للعين ،
ولا هداية في الطُّرس سيدين .

٣ - رسالة القنديل والشمعدان .

من إنشاء المولى الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقي بن عبد الحميد اليماني ،
سمعتها من لفظه ، وقرأتها عليه ، وأجاز لي روايتها عنه . وهي الموسومة "زهرة الجنان ،
في المفاخرة بين القنديل والشمعدان" .

ابتدأها بأن قال :

- الحمد لله الذي أثار حالك الظلماء ، بأنوار بَدْر السماء ؛ وحلَّى جيدها ، بعقود النجوم ،
وحرس مَشِيدها ، بسهام الرجوم ؛ وجعلها عبرة للاستبصار ، ونزهة للأبصار ؛ غشاؤها
لأزورد مكلل بنضار ، أو أفاحي نخيلة فتفتحت فيها أزوار الأزهار ؛ تهدي الساري
بسوارها ، وتزري بالدرر أنوار دراريها ؛ كرع في نهر مجزتها النسران ، ورتع في مراعي
رياضها الفرقدان .

أحمدته على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان، ولا يؤدي واجب حقها إنسان؛ حمدا
يجلب إلى الحامد أنواع الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان.

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظلمة الوجود، وأظهر
بظهوره أفعال الركوع والسجود؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله الوافين باليهود،
وعلى أصحابه أهل الإفضال والجلود، صلاة وسلاما دائمين إلى اليوم الموعود!

وبعد فإن فنون الآداب كثيرة الشعوب، متباينة الأسلوب؛ طالما تلاعب
الأديب بفنونها بين جدٍّ ومُجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون. وكنت بجد الله
من هو قادر على إبراز مُلج الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب؛ فتمثّل في خاطري
المفاخرة بن الشمعدان والقنديل، ولا بد من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل؛
لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مرّقا جلاب الدجى بأضوائهما، وحسما مادة
الظلمة بأنوارهما؛ وطلعا في سماء المجالس بدورا، وأنجلا نور الرياض لما أصدرتا من
جواهرهما نورا. سماكل واحد منهما إلى أنه الأصل، وأن بمدحه يحسن الفصل
والوصل؛ وأنه الجوهرة اليتيمة، والبدرّة التي ليست لها قيمة؛ سارت بحاسنه ركائب
الركبان، ونظمت في جيد مجده قلائد العقيان.

فأحببت أن أنظّمهما في ميدان المناظرة ليبرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة،
ويظهر نقائص صاحبه الفاضحة؛ وليتسم غارب الاستحقاق بالفضيلة، ويؤكد في تقرير
فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لا تقبل الدعاوى إلا بالبرهان، ولعمري لقد قيل قديما:
من تحلّى بفسير ما هو فيه * فضحتّه شواهدُ الإمتحان.

فأتلع الشمعدان جيدَه للطاوله، وعَرَضَ سَمَّهْرِيَهَ الجينيِّ لناضله. وقال :

* اِسْتَنْتَ الفِصَالُ حَتَّى القَرَعَى *

لستَ بنديم الملوک في المجالس، کَلَّا ولا الروضه العنَّاءِ للمجالس ! طالما أهدقتُ
بي عساكرَ النظار، ووقفت في استحسان هياکلي رؤيه الأَبصار، ومَحَلَّتْ علي الرؤوس
إذا عَلَّقَتْ بأذناک، وجَلِيَتْ بِكَلَاءِ المرهفات إذا أسودَ وجهک من دُخانک .

فنضض لسانَ القنديل نضضة الصَّلِّ، وأرتفع أرتفاع البازي المِطَلِّ. وقال :

إن كان نَحْرُک بِجالسه السلاطين . فأنْتَخاري بِجالسه أهل الدين ! طالما طلعتُ
في أفقِ المحراب نجا أزدادُ علا . وأزدات الأماکن المقدسه بشمس أنوارى حُلاب
جمع شکلي مجموع العناصر، فعلى مثلي تُعَقِّدُ الخناصر؛ يحسبني الرأى جوهرة العقد
الثمين، إذا رأى أصفرار لونک کصفرة الحزين؛ ولقد علوتک في المجالس زمانا، ومن
صبر على حرِّ المشقة أرتفع مکانا .

فنظر إليه الشمعدان مُغْضَبًا . وهمَّ بأن يكون عن جوابه منجبا . وقال :

أين ثمنک من ثمنی . ومسکنک من مسکنی ؟ صفائحی صَفَاحَاتِ الإبريزه . فلذا سموت
عليک بالتَّبْرِيزه؛ تنزهَ العيونُ في حائل الذهبيه، وتسر النفوسُ بيزوغ أنوارى الشمسيه ؛
ولا يملکنی إلا من أوطنته السعاده مهادها، وقربت له الرياسه جياها . ولقد نفعتُ
في الصحه والسقم، وأزدادت قيمتي إذا نقصت في التميم . إن أنقصت عُراک
فلا تُشعَبُ، ولا تعاد إلى سبکِ نار فتصب وتُقلَّبُ ؛ لست من فُرسانِ مناظرقي،
ولا من قُرناءِ مفاخرقي .

فالتفت القنديل ألتفات الصَّرغام، وفَوَّقَ إلى قرينه سهام الملام . وقال :

أنت عندي كئُماله ، لآماله بطالك العنقود ، فأبرزت أنواع الحقود ، وأين الثريا من يد المتناول ؟ أم أين السها من كف المتناول ؟ تالله إنك في صرفك بصُفرك مغلوط ! لقد خُصِصْتُ بالعلو وخُصِصْتَ بالهُبُوط . ترى باطنى من ظاهرى مشرقا ، وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا ، فحديث سيادتي مُسَلَّس ، وتاج فضائلي بجواهر العلو مَكَلَّل .

فاحظه الشمعدان بطرف طرفه ، وأرسل في ميدان المناظرة عنان طرفه . وقال :

إن أفتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية اختصاصك به ليس له أبهة مزيد ، طالما علا القَتَامُ وأنحطت الفُرسان ، ومكث الجر وسمى الدخان ، ولقد صيرتكَ كنظر المشنوق حاله ، وكضوء السها دُبَاله ، وأنت الخليق بما قيل :

* وقلبٌ بلا لبِّ ، وأذنٌ بلا سَمْعِ *

وسلاسلك تشعر بعقلك ، وعيونك بنيء عن غلو إسقاط كمثلك ، عادلت التبر كِفَّةً بكِفَّةً ، ووزنته إذ كان فيه خفته ، وأصبح لمفاخرى الجليله ، وأستمع مناقبي الجميله . أطارِدُ جيوش الظلْماء برمحي ، وأمزق أنوب الديجور بصبحي ، جمع عاملي بين طلع النخل . وحلاوة النحل ، يتلو سورة النور نسائي . ويقوى في مصادمة عساكر الليل البهيم جنائي ، أسامر المليك خَلْوه ، ويستجلي من محاسني أحسن جَلْوه .

ولله درّ القائل :

أنظر إلى شمعدانٍ شكَّه عَجَبٌ * كروضة رَوْضتُ أزهارها السُّحْبُ .
يُطارِدُ الليلَ رُحٌّ فيه من ورقٍ * سَنَانُه لَهَبٌ من دونه الذَّهَبُ .
فمثل هذه المناقب تتلى ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجَلَّى .

فأضرم نار تبيينه ، في أحشاء قرينه . فعندها قال القنديل :

لقد أطلت الافتخار بحاسن غيرك ، لما وقفت في المناظرة ركائب سيرك ؛ فأشكر
اليد البيضاء من شمك ، وأحرص على معرفة قيمتك ووضعك ؛ وأما افتخارك بتلاوة
سورة النور ، فأنا أحق بها منك إذ محلى الجوامع ، والفرقان فارق بيني وبينك مع أنه
ليس بيننا جامع ، بفضيلتي فيه بينه ، وآية نورى في سورة النور مبيته ؛ فأقطع مواد
البحاجة ، وأقرأ الآية المشتملة على الزجاجاة ؛ يظهر لك من هو الأعلى ؛ ومن بالافتخار
الأولى ؛ بتخالتي دُرَّةً علقت في الهواء . أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء .

ولله در القائل :

قنديلاً فاق بأنواره * نور رياض لم تزل مُزهره .
ذباله فيه إذا أوقدت * حكّت بحسن الوضع نيلوفره .

لا يجهل الأقداء خاطرى . ولا يغتم مشاهدى وناظرى ؛ فأنا خلاصة السبك ، والنبر
الذى لا يفتقر إلى الحك ؛ اشتقاق أسمك من النحوس ، ومن حرملك تقام هياكل
الفلوس ؛ لقد عرضت نفسك للنبيه . وأنعكست عليك مواد الأمانة ؛ مع أن الحق
أوضح من لبّة الصباح . وأسطع من ضوء المصباح ؛ والآن غصصت بريقك ، وخفيت
لوامع برُوقك ؛ فهذه الشبهاء والحلّبه ، وهذه ميادين المناضلة رُحبه .

(٤٧)

فأر الشمعدان في الجواب . وجعل ما أبداه أولاً فصل الخطاب

فقال القنديل :

لا بد من الإقرار بأن قدحى المعلى ، وأنى عليك بالتقديم الأولى ؛ وأن مقامى العالى ،

ونورى المتوالى .

قال الشمعدان :

لامنازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك ، وكونك الكوكب الدرّي الذي قصر
عن بلوغك بأع مثيلك .

بفتح الشمعدان للسلّم ، وترفع عن أستيطان مواطن الإنم ؛ وشرع يُبدي شعائر
الخصوع ، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ؛ وقال :

لولا حية النفوس ، ما تجمّت بمناخرنا صفحات الطروس ؛ ولولا القال والقيل ،
ما صمنا معرض التمثيل ؛ ولكن أين صفاؤك من كدرى ، وأين نظرك من نظرى ؛
خصبك الله بنوره ، وذكرك في فرقانه وزبوره .

فعلها تهللت أسارير القنديل ، وتبسم فرحا بالتعظيم والتبجيل . وقال :

حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف ، وإظهار محاسن الأوصاف ؛ بفضلك لا يبارى ،
ووصفك لا يجارى ؛ بحسبك الرائي نعمة نور تفتحت أزهارها ، وحديقة زرجس أطردت
أنهارها ؛ تُسرّ بك النفوس ، وتدار على نضارتك الكؤوس ؛ وإن اللائق بحالنا طي
بساط المنافسة ، وإنحداد شرر المقابسه ؛ والاستغفار فيما فرط من كلامنا ، والرجوع
إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا .

وتقول :

الأصل فيما نقلناه عدمه ، فقد حفي كل واحد منا في إبراز معاييه قلمه . ونسأل الله
أن تدوم لنا نعمه ، ويتعاهدنا في المساء والصباح كرمه ! بمنه وجوده وكرمه ! آمين !

القسم الثالث من الفن الأول

في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

١ - في الليالي والأيام

رُوي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : خلق الله الخلق في ظلمة .
(وروي : في عماء) ثم رش عليهم من نوره .

وهذا يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور .

١٠ وروي أن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) سئل عن الليل ، أكان قبل
أو النهار؟ قال : رأيتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا ، هل كان بينهما إلا
ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار .

والذي ورد في القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله (عز وجل)
بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور .

١٥ ويروي أن الله (عز وجل) لما خلق السماء والأرض ، وقع ظل السماء على الأرض
فاظلمت ، فجعل الشمس ضياء والقمع نورا .

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين : ليلا، ونهارا . فجعل حصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس . فكأننا يتعاقبان بالطلوع فيهما ، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة .

فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنساني - وعلم أنه لا يخفى له عن حركته للعاش نهارا وسكونه للراحة ليلا - أمر جبريل فأمره جناحه على القمر فحيا نوره . فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلمًا، والنهار مبصرًا .

وروي أيضا أن الله (عز وجل) خلق حجابا من ظلمة مما يلي المشرق، ووكل به ملكا يقال له سراهيل . فإذا آنقضت مدة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة وأستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلال أصابعه وهو يراعى الشفق . فإذا غاب الشفق، بسط كفه فطبق الدنيا ظلمة . فإذا آنقضت مدة الليل، قبض كفه على الظلمة، إصبعًا بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام، حتى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب . وذلك من أشرط الساعة . والله أعلم !

٢ - ذكر ما قيل في الليل وأقسامه

الليل طبيعي، وشرعي .

أما الطبيعي، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها .

وأما الشرعي، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ .

§ والليل يتقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعتها العرب، وهي :

الشاهد، ثم الفسق، ثم العتمة، ثم الفحمة، ثم الموهن، ثم القطع، ثم الجوشن
ثم العبكة^(١)، ثم التبشير، ثم الفجر الأول، ثم الفجر الثاني، ثم المعترض.

هذا ما ذكره ابن النحاس في وصف صناعة الكتاب.

وحكى الثعالبي في فقه اللغة — عن حمزة الأصفهاني، قال: وعليه عهده — أسماء

غير هذه، وهي:

الجهمة، والشفق، والفسق، والعتمة، والسدف، والزلة، والزلفة، والبهرة،
والسحر، والفجر، والصبح، والصبح.

فصل

وقد عبر بالليالي عن الأيام، كقول الله عز وجل: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾
وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشِيرٍ﴾. فعبر عن الأيام بالليالي، لأن كل ليلة تتضمن يوماً.

٣ — ذكر الليالي المشهورة

من الليالي المشهورة:

§ ليلة البراءة. وهي ليلة النصف من شعبان، قيل سميت بذلك لأنها براءة لمن يحييها؛

§ وليلة القدر. والصحيح أنها في مفردات العشر الأخير من شهر رمضان؛

§ وليلة الغدير. وهي ليلة الثامن عشر من ذي الحجة؛

(١) كذا بالأصل والذي في كتب اللغة بهذا المعنى "العتكة"، فلعل ما هنا تحريف من التامع.

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى لا في اللسان ولا في القاموس ولا في مستدرک شارحه. وهذا هو

الذي دعا الثعالبي لجعل العهدة على حمزة الأصفهاني.

§ وليلة الهَرِير. وهي ليلة من ليالي صَفَيْنَ، قُتِلَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ مَعَاوِيَةَ (رضى الله عنه) ؛

§ وليلة الخُلَعَاء. وهي ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحَانِ القَيْنِيُّ عند دَيْرَانِيَّة، فَأَكَلَ طَفِيئِهَا^(١) بِلَحْمِ الخُفْزِيرِ، وَشَرِبَ نَحْمَهَا، وَزَنَى بِهَا، وَسَرَقَ كِسَاءَهَا؛

§ وليلة النابغة. يُضْرَبُ بِهَا المِثْلُ فِي الخَوْفِ؛

§ وليلة المتوكل. تَضْرَبُ مِثْلًا فِي مَوْتِ نَتِجٍ مِنْ سُرُورٍ، لِأَنَّهُ قُتِلَ فِي مَجْلِسِ أُنْسِهِ، عَلَى مَا نَذَرَهُ فِي أَخْبَارِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

٤ — ذَكَرَ مَا يَتِمُّثَلُ بِهِ مِمَّا فِيهِ ذَكَرَ اللَّيْلَ

يقال :

١٠ . أَطْفَى مِنَ اللَّيْلِ . أَطْفَلَ مِنْ لَيْلٍ عَلَى نَهَارٍ . أَحْيَرُ مِنَ اللَّيْلِ . أَسْتَرُّ مِنَ اللَّيْلِ . أَظْلَمُ مِنَ اللَّيْلِ . أُنْدَى مِنْ لَيْلَةٍ مَاطِرَةٌ .

ويقال :

الليْلِ أَخْفَى لِلوَيْلِ . اللَّيْلُ نَهَارُ الأَرِيْبِ . اللَّيْلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقَمَّرٌ . اللَّيْلُ وَأَهْضَامُ الوَادِي . اللَّيْلُ أَعُورٌ (لأنه لَا يُبْصِرُ فِيهِ) .

ويقال :

١٥ . آتَخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا . شَمَّرَ ذَيْلًا ، وَأَدْرَعَ لَيْلًا . أَمْرٌ نَهَارٍ قِضَى بِلَيْلٍ .

(١) نوع من المرق (فاموس) . وقال ابن الخشاب في تفسير ألقاظ الكتاب المنصوري للرازي مانعه :

طَفِيئِلٌ (هَذَا الضَّبُّ) طَعَامٌ يَتَّخَذُ مِنَ الحَبِيبِ كَالْبَاقِلِ وَالْحَصِّ وَنَحْوَهُمَا (عَنْ تَكَلُّمِ المَعْجَمَاتِ العَرَبِيَّةِ

لدوزي) .

ومن أوصاف الأبيات :

- * الليل حُبْلٌ ليس تَدْرِي ما تَدِي * ما أَقْصَرَ اللَّيْلُ على الرَّاقدِ ! *
- * ما أَشَبَّهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ! * وِلَيْلُ الْمُحِبِّ بلا آخِرِ *
- * إِحْدَى لِيَالِكَ فِهَيْسَى هَيْسَى ! * فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذْرِكِي *

ومن الأبيات :

إِن اللَّيْلَ لَمْ تُحْسِنِ إِلَى أَحَدٍ * إِلا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ .

وَاللَّيَالِي كَمَا عَاهَدَتْ حَبَالِي * مُقَرَّبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ .

أَمَّا تَرَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * جَارَيْنِ لَا يُتَقَيَّانِ جَارًا ؟

وقال حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلِيْتَ الْمَصْرَانَ يَوْمَ لَيْلَةٍ * إِذَا طَلَبْنَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَمَنَّا !

وقال أبو حبة الثميري :

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمَ لَيْلَةٍ ، * تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا .

٥ - ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه

قد أكثر الشعراء في وصف الليل بالطول والقصر . وذكروا سبب الطول المهموم

وسبب القصر السرور .

ولهذا أشار بعض الشعراء في قوله :

إِنَّ اللَّيْلَ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ * تُطْوَى وَتُنَشَّرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ .

فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْمُهْمُومِ طَوِيلَةٌ ، * وَطَوَاهُنَّ مَعَ السَّرُورِ قِصَارٌ .

وقال آخر :

إِنَّ التَّوَّاصِلَ فِي أَيَّامِهِ قَصْرٌ * كَمَا التَّهَابُرُ فِي أَيَّامِهِ طَوْلٌ .
فليس يَعْرِفُ تَسْهِدًا وَلَا رَمْدًا * جَفْنُ بَرُؤِيَةِ مَنْ يَهْوَاهُ مَشْغُولٌ .

وقال ابن بسام :

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي * أَنْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَفُوزُ .
لَيْلٌ كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَزُرْ ، * طَالَ ، وَإِنْ زَارَتْ ، فَلَيْلٌ قَصِيرٌ .

أصله من قول علي بن الخليل :

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي * أَنْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَعُودُ .
لَيْلٌ كَمَا شَاءَتْ قَصِيرٌ إِذَا * جَادَتْ ، وَإِنْ صَدَّتْ ، فَلَيْلٌ طَوِيلٌ .

وقال آخر :

أَخُو الْهَوَىٰ يُسْتَطِيلُ اللَّيْلَ مِنْ سَهْرٍ ، * وَاللَّيْلُ فِي طَوْلِهِ جَارٍ عَلَى قَدْرِهِ .
لَيْلُ الْهَوَىٰ سَنَةٌ فِي الْهَجْرِ مَدْتُهُ ، * لَكِنَّهُ سَنَةٌ فِي الْوَصْلِ مِنْ قِصْرِهِ .

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

لَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَغْيِيرًا لِمَا صَنَعْتُ : * نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنِي عَيْنَاهَا .
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقَدُهَا * وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا .

٦ - وَأَمَّا مَا وَصِفَ بِهِ مِنَ الطَّوْلِ

قال الخباز :

وَلَيْلٌ كَوَاكِبُهُ لَا تَسِيرُ * وَلَا هُوَ مِنْهَا يُطِيقُ الْبَرَّاحَا .
كَيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي طَوْلِهِ * عَلَى مَنْ يُرَاقِبُ فِيهِ الصَّبَّاحَا .

وقال ابن المعتز:

مالي أرى الليل مُسَيْلاً شَعْرًا * عن غُزَّةِ الصُّبْحِ غيرَ مَفْرُوقِ.

وقال بشار:

حَلِيلِي! ما بال الدُّجَى لا يُزْحَرُحُ، * وما بال ضَوْءِ الصُّبْحِ لا يَتَوَصَّحُ؟

أضَلَّ النَّهَارُ المَسْتَنِيرُ طَرِيقَهُ؟ * أمِ الذَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرُحُ؟

وقال الرِّفَاءُ:

الأرب لَيْلِي بِتِ أَرعى نُجُومَهُ * فلم أَعْتَمِضْ فِيهِ ولا اللَّيْلُ أَعْمَضَا.

كَأَنَّ الرُّثْيَا راحَةٌ تُسَبِّرُ الدُّجَى * لتَعْلَمَ طَالَ اللَّيْلُ لِي أم تَعَرَّضَا.

عَجِبْتُ لَيْلِي بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ * يَفَاسُ بِشَيْرِ كَيْفِ يُرْحَى لَهُ أُنْقِضَا؟

وقال محمد بن عاصم:

أقول، واللَّيْلُ دُجَى مُسَبَّلِ * والأَنْجُمُ الزُّهْرُ بِهِ مُنَلُّ:

يَاطُولُ لَيْلِي ما لَهُ آخِرُ * مِنْكَ، وَصُحَّ ما لَهُ أَوَّلُ!

وقال التنوخي:

وَلَيْلَةٌ كَأَنَّهَا قُرْبُ أَمَلِ * ظَلَامُهَا كَالذَّهْرِ ما فِيهِ خَلَلِ.

كَأَنَّما الإِصْبَاحُ فِيها باطِلٌ * أَزْهَقَهُ اللهُ بِحَقِّ، فَبَطَلِ.

ساعاتُها أَطْوَلُ من يَوْمِ النَّوَى * وَلَيْلَةُ المَهْجَرِ وساعاتُ العَدَلِ.

مؤَصَّدَةٌ على الوَرَى أبوابِها * كالنَّارِ لا يَخْرُجُ مِنْها مَن دَخَلَ.

وقال أبو محمد، عبد الله بن السيِّدِ البَطْلِيُّوسِي:

تَرى لَيْلَنَا شابَتْ نواصِيهِ كِبَرَةٌ * كما شَبَّ، أو في الجَوَرِ وَضُ نَهَارِ؟

كَأَنَّ اللَّيالي السَّبْعَ في الأَفقِ جُمِعَتْ * ولا فَصَلَ فِيا بَيْنَها بِنهارِ.

وقال الشريف البياضى :

أقول لَصْحِي والنجومُ كأنها، * وقد ركدت في بحرِ حنْدِ سِها غمرقأ :
أرى نوبَ هذا اللَّيْلِ لا يَعْرِفُ اللَّيْلُ ! * فهل آرِين للصُّبْحِ في ذَيْلِه فَتَقَا؟

وقال أيضا :

أقول وللذَّبْحِ عُمَرُ مَدِيدٌ * وآخره يُرَدُّ إلى مَعَادِ .
وقد ضَلَّتْ كواكِبُه ، فَظَلَّتْ * حَيَارَى ما لها في الأَفْقِ هَادِي :
لعلَّ اللَّيْلَ ماتَ الصُّبْحُ فيه ، * فلازِمَ بعده لبَسَ الحِدادِ .

وقال آخر :

أما لِظَلَامِ لَيْلِي من صَبَاحٍ؟ * أما لِلنَّجْمِ فيه من بَرَّاحٍ؟
كَأَنَّ الأَفْقَ سُدًّا ، فليس يُرْجَى * به نَهَجٌ إلى كُلِّ النواحِي .
كَأَنَّ الشَّمْسَ قد مُسِخَتْ نُجُومًا * تَسِيرُ مَسِيرَ رُؤَادِ طِلاجِ .
كَأَنَّ الصُّبْحَ مَهْجُورٌ طَرِيدٌ ، * كَأَنَّ اللَّيْلَ ماتَ صَرِيحَ راجِ .
كَأَنَّ بِناتِ نَعِيشٍ مُتَنِّ حُرْنًا ، * كَأَنَّ النَّسْرَ مَنكُورَ الجَنَاحِ .

وقال آخر :

يا لَيْلَةَ طالَتْ على عاشِقِي ، * مُتَظَرِّبًا للصُّبْحِ مِيعادًا !
كَادَتْ تَكُونُ الحَوْلَ في طُولِها ، * إذا مَضَى أوْلُها ، عاذا .

وقال ابن الرومى :

رُبَّ لَيْلٍ كانَهُ الدَّهْرُ طُولًا * قد تَناهِى فليس فيه مَزِيدُ .
ذِي نُجُومٍ كأنَّهِنَّ نُجُومِ الشَّيْبِ لَيْسَتْ تَرُولُ ، لكن تَرِيدُ .

وقال أبو الأحنف :

حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثًا * أَوْ صِفُوهُ، فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا.

وقال بشار :

طَالَ هَذَا اللَّيْلُ بَلَّ طَالَ السَّهْرُ ! * وَلَقَدْ أَعْرِفُ لَيْلِي بِالْقِصَرِ.

لَمْ يَطُلْ حَتَّى دَهَانِي فِي الْهَوَى * نَاعِمُ الْأَطْرَافِ فَنَأَنُ النَّظْرِ.

فَكَانَتْ الْهَجْرَ شَخْصٌ مَائِلٌ * كَلَّمَا أَبْصَرَهُ التَّوْمُ نَقَسِرُ.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

يَا لَيْلَ وَجِدِ نَجْدٍ * أَمَا لَطِيفِكَ مَسْرَى ؟

وَمَا لِدَمْعِي طَلِيقٌ * وَأَنْجَمُ الْجَوِّ أَسْرَى ؟

وَقَدْ طَمَأَ بَجْرَ لَيْلٍ * لَمْ يُعْقِبِ الْمَدَّ جَزْرَا .

لَا يَعْبرُ الطَّرْفُ فِيهِ * غَيْرَ الْمَجْرَةِ جَسْرَا .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَلَيْلٍ كَانَتْ الدَّهْرَ أَفْضَى بَعْضُهُ * جَمِيعًا إِلَيْهِ، فَاتَّهَى فِي آيَاتِهِ .

يُحَدِّثُ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا بِطَوْلِهِ، * وَلَمْ يَمِضْ مِنْهُ غَيْرُ وَقْتِ عِشَائِهِ .

وقال إبراهيم ولد ابن لنكك البصري، شاعر اليتيمة :

وَلَيْلَةٌ أَرْقَنِي طَوْلَهَا * فَيْتَهَا فِي حَيْرَةِ الدَّاهِلِ .

كَأَنَّكَ أَشْتَقَّتْ لِإِفْرَاطِهَا * فِي طَوْلِهَا مِنْ أَمَلِ الْجَاهِلِ .

وقال امرؤ القيس :

وَلَيْلٍ كَتَوَّجَ الْبَحْرِ مَرْخِ سُدُولِهِ * عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي .

قُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ * وَأَرْدَفَ عَجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّكَلِي :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ، أَلَا أَنْجِلِي * بَصِيحًا! وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَثَلِ!
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ * بِأَمْرَاسٍ تَكَّانُ إِلَى صَمِّ جَنْدَلِ.

وقال آخر:

أُرَاقِبُ فِي السَّمَاءِ بِنَاتِ نَعِيشٍ؛ * وَلَوْ أَسْطِيعُ، كُنْتُ لَهْنًا حَادِي.
كَأَنَّ اللَّيْلَ أُوتِيَ جَانِبَاهُ * وَأَوْسَطُهُ بِأَمْرَاسٍ شِدَادِ.

وقال أنعم بن حميد:

وَلَيْلٍ طَوِيلٍ الْجَانِبَيْنِ قَطْعَتُهُ * عَلَى كَدِّهِ، وَالذَّمْعُ تَجْرِي سَوَا كِبُهُ.
كَوَا كِبُهُ حَسْرَى عَلَيْهِ كَأَنَّهَا * مُقَيَّدَةٌ دُونَ الْمَسِيرِ كَوَا كِبُهُ.

وقال ابن الرقاع:

وَكَأَنَّ لَيْلِي حِينَ تَغْرُبُ شَمْسُهُ * لِسَوَادِ آخِرِ مِثْلِهِ مَوْضُولُ.
أَرَعَى النُّجُومَ، إِذَا تَغَيَّبَ كَوْكَبُ. * أَبْصَرْتُ آخِرَ كَالسَّرَاجِ يَحْوُلُ.

وقال آخر:

مَا لِنُجُومِ اللَّيْلِ لَا تَغْرُبُ؟ * كَأَنَّهَا مِنْ خَلْفِهَا تُجَدَّبُ!
رَوَا كِدُّ مَا غَارَ فِي غَرْبِهَا * وَلَا بَدَأَ مِنْ شَرْقِهَا كَوْكَبُ.

وقال سعيد بن حميد:

يَا لَيْلُ، بَلْ يَا أَبَدُ! * أَنَا نَائِمٌ عَنْكَ غَدُ؟
يَا لَيْلُ لَوْ تَلَقَى الَّذِي * أَلْقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ،
قَصَّرَ مِنْ طَوْلِكَ أَوْ * ضَعَّفَ مِنْكَ الْجَلْدُ!

وقال سيف الدين المشد :

مات الصَّباحُ بِلَيْلٍ * أَحْيَيْتُهُ حِينَ عَسَسَنِ .
لو كانَ في الذَّهرِ صُبْحٌ * يَعِيشُ ، كانَ تَنَفَّسُ .

٧ - أما ما وصف به من القصر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس :

وَلَيْلَةٌ إِحْدَى اللَّيَالِي الرَّهْرِ ، * قَابَلْتُ فِيهَا بَدْرَهَا بِبَدْرِي .
لَمْ تَكْ غَيْرَ شَفِيقٍ وَفَجْرٍ ، * حَتَّى تَوَلَّتْ وَهِيَ بِكُرِّ الدَّهْرِ .

وقال الشريف الرضي :

يَا لَيْلَةَ كَادَ مِنْ تَقَاصُرِهَا * يَعْتُرُ فِيهَا الْعِشَاءُ بِالسَّحْرِ .

وقال آخر :

يَا لَيْلَةَ جَمَعْتَنَا بَعْدَ فُرْقَتِنَا * فَبِتُّ مِنْ صُبْحِهَا لَمَّا بَدَأَ ، فَرَقَا .
لَمَّا خَلَوْتُ بِأَمَالِي بِهَا ، قَصُرْتُ * وَكَادَ يَسْبِقُ فِيهَا جَفْرُهَا النَّسَقَا .

وقال آخر :

يَا رَبِّ لَيْلٍ سُورٍ خَلْتَهُ قِصْرًا * يُعَارِضُ الْبَرْقَ فِي أَفْقِ الدُّجَى بَرَقًا .
قَدْ كَادَ يَعْتُرُ أَوْلَادَهُ بِأَخْرِهِ * وَكَادَ يَسْبِقُ مِنْهُ جَفْرُهُ الشَّفَقَا .

وقال القاضي السعيد بن سناء الملك :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ ، بَلْ يَا لَيْلَةَ الْعُمْرِ ! * أَحْسَنْتِ ، إِلا إِلَى الْمَشْتَقِ ، فِي الْقِصْرِ .
يَا لَيْتَ زَيْدٍ بِحُكْمِ الْوَصْلِ فِيكَ لَنَا * مَا طَوَّلَ الْمَهْجُرُ مِنْ أَيَّامِكَ الْآخِرِ .

أوليتَ نَجْمِكَ لم تَقِفْ لِمَ رَكَبْتَهُ ، * أوليتَ صُبْحَكَ لم يَقْدَمْ من السَّفَرِ .
 أوليتَ لم يَصْفُ فَيَكِ الشَّرْقُ من عَبَسَ ، * فذلِكَ الصَّفْوُ عِنْدِي غَايَةُ الكَدْرِ .
 أوليتَ كُلاً من الشَّرْقَيْنِ ما آبَتْنَاهَا ، * أوليتَ كُلاً من النُّسْرَيْنِ لم يَطْرِبِ .
 أوليتَ كُنْتِ كما قد قال بعضهم : * "لَيْلَ الضَّرِيرِ فُصِّحِي غيرَ مُتَنَطِّرِ" .
 أوليتَ بَحْرَكَ لم يَنْفِرْ به رَشِي ، * أوليتَ شَمْسِكَ ما جَارَتْ على قَرِي .
 أوليتَ قَلْبِي وطَرْفِي تحتَ مِلْكِ يَدِي * فزِدْتُ فيه سِوَادَ القَلْبِ والبَصْرِ .
 أوليتَ أَلْقَى حَبِيبِي نَحَرَ مُقْلَتِهِ * على العِشَاءِ فأبْقَاهَا بلا سَحْرِ .
 أوليتَ كُنْتِ سَأَلْتِهِ مُسَاعِدَةً * فكانَ يَجُوبُكَ بالتَّكْجِيلِ والشَّعْرِ .
 كَأَنَّهَا حِينَ وَلَّتْ قَمْتُ أَجْذِبُهَا * فَأَتَقَدَّ في الشَّرْقِ مِنْهَا التُّوبُ من دُبُرِ .
 لا مَرَحِبًا بِصَبَاحِ جَاءَني بَدَلًا * من غُرَّةِ النِّجْمِ أو من طَاعَةِ القَمَرِ !

وقال عبد الله بن المعتز :

يا لَيْلَةً ما كانَ أَطْيَبَها سِوَى قِصْرِ البَقَاءِ !
 أَحْيَيْتَهَا فَأَمَّتْهَا * وَطَوَّيْتُهَا طَى الرِّدَاءِ .
 حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَتَلَوُّ البَدْرَ في أَفْقِ السَّمَاءِ .
 فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا * قَدَحَانِ مِنْ نَحْرِ وَمَاءِ .

وقال المهلبى :

فَدَقُّرَ اللَّيْلُ عِنْدَ أَفْتِنَا * كَأَنَّ حَادِي الصَّبَاحِ صَاحَ بِهِ .

وقال آخر :

كَأَنَّما اللَّيْلُ رَاكِبٌ فَرَسًا * مِنْهَزِمًا وَالصَّبَاحُ في طَلَبِهِ .

٨ - أما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسي :

رُبَّ لَيْلٍ عَمَّرَتْهُ * فَيْكَ خَالٍ مِنَ الْفِكْرِ .
كَثُرَتْ حَوْلَهُ الْجُجُوجُ * لُ وَسَارَتْ بِهِ الْغُرُورُ .

وقال أبو بكر الصنوبري :

يَا لَيْلَةً طَلَمْتُ بِأَسْمَعِدِ طَالِعِ * تَاهَتْ عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ السَّاطِعِ .
بِحَاسِنِ مَقْرُونَةٍ بِحَاسِنِ * وَبِدَائِعِ مَوْصُولَةٍ بِدَائِعِ .
ضَوْءُ الشُّمُوعِ وَضَوْءُ وَجْهِكَ مَازَجًا * ضَوْءُ الْعُقَارِ وَضَوْءُ بَرَقِ لَامِعِ .
فَكَأَنَّمَا أَلْقَى الدُّجَى جَلْبَابَهُ * وَأَرَاكَ جَلْبَابَ النَّهَارِ السَّاطِعِ .

٩ - أما ما وصف به من الظلمة

قال الله عز وجل : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ . فهذه أتم أوصاف الظلمة .

وقال مضر بن ربيعي :

وَلَيْلٍ يَقُولُ النَّاسُ فِي ظُلُمَاتِهِ : * سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْعُيُونِ وَعُورُهَا
كَأَنَّ لَنَا مِنْ بِيوتَا حَصِينَةٍ * مَسُوحٌ أَعَالِيهَا وَسَاحٌ كَسُورُهَا

وقال أبو تمام :

إِلَيْكَ هَتَّكَ جُنَحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا * قَدَا كَتَحَلَّتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِ

(١) جمع منج بكسر فسكون وهو الكساء . يتخذ من الشعر .

وقال أبو نواس :

أَبْنَى : كَيْفَ صِرْتَ إِلَى حَرِيمِي ، * وَجَفْنُ اللَّيْلِ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

وقال العلوِي الأصفهاني :

وَرَبُّ إِبِلٍ بَاتَتْ عَسَاكِرُهُ * تَحْمَلُ فِي الْجَوْسُودِ رَايَاتِ

لامعة فوقها أسننها * مثل الأزهير وسط روضات

ومن رسالة لابي عبدالله بن ابي الخصال . جاء منها :

والليل زنجي الأديم ، تبري النجوم ، قد جللنا ساجه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال

للحظ ، ولا تعارف إلا باللفظ ؛ ولو نظرت فيه الزرقاء لا كتحت ، ولو خضبت به
الشبية ما نصلت .

١٠ - وما قيل في تبشير الصباح

قال أبو محمد العلوِي :

كَأَنَّ أَحْضِرَارَ الْجَوْ صَرَحَ مُمَرَّدٌ * وَفِيهِ لَآلٍ لَمْ تُسَنَّ بِثُقُوبِ .

كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ صُبْحِهِ * سَوَادُ شَبَابٍ فِي بَيَاضِ مَشْيَبِ .

وقال أبو علي بن لؤي ، الكاتب :

رُبَّ بَغْرِ كَطْلَعَةِ الْبَدْرِ جَلَّى * جُنْحَ لَيْلٍ كَطْلَعَةِ الْمِجْرَانِ ،

زَارَ فِي حُلَّةِ السَّرَاةِ فَوَلَّى اللَّسِيلُ عَنْهُ فِي حُلَّةِ الْغِرْبَانِ .

وقال الخالديان :

وَكَأَنَّمَا الصُّبْحُ الْمُنِيرُ وَقَدْ بَدَأَ * بَارِئُ أَطَارٍ مِنَ الظَّلَامِ غُرَابًا .

(١) البازلة في البازي . (عن الجوهرى) ، واختارنا ذلك لأنه منقول عن كلمة فارسية هي "باز" . وتركبة "طوغان" وهو نوع من الصقور وأشد الجوارح تكبرا وأرضيتها خلقا . يوجد بارض الترك و يؤخذ للصيد .

وقال النظام البلخي، من شعراء الخريدة :

فَلَاحَ الصَّبْحِ مَبْتِمِ النَّسَايَا * وَطَارَ اللَّيْلُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ .
يَطِيرُ غُرَابٌ أَوْ كَارِ الذِّيَاجِي * إِذَا مَاحَلَ بَارِئُ الصَّبَاحِ .

وقال تميم بن المعز :

وَكَأَنَّ الصَّبَاحَ فِي الْأَثْقِ بَارٌ * وَالذُّجَى بَيْنَ مَخْلَبِهِ غُرَابٌ .

وقال ابن وكيع :

غَرَدَ الطَّيْرُ فَنَبَهُ مِنْ نَعَسٍ . * وَأَدْرَ كَأَسَكَ فَالْعَيْشُ خُلَسٌ !
سُلَّ سَيْفُ الْفَجْرِ مِنْ غَمْدِ الذُّجَى * وَتَعَزَّى الصَّبْحُ مِنْ ثُوبِ الْغَلَسِ .
وَأَنْجَلُ فِي حِلَّةِ فَضَيَّةٍ * مَا بَهَا مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ دَنَسٌ .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْغَرْبَ قَدْ غُصَّ بِالذُّجَى * وَفِي الشَّرْقِ مِنْ ثُوبِ الصَّبَاحِ دَلَائِلُ ،
تَوَهَّمْتُ أَنَّ الْغَرْبَ بَحْرٌ أَخْوَضُهُ * وَأَنَّ الَّذِي يَبْدُو مِنَ الشَّرْقِ سَاحِلُ .

وقال أسعد بن بليطة الأندلسي :

بَحَرْتُ بِمَسْكَ الذُّجَى كَأَوْفُورَةِ السَّحَرِ * فَنَابَ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْهُ فِي الطَّرَرِ ،
صَبَحٌ يُفِيضُ وَجُنْحُ اللَّيْلِ مُنْفَسٌ * فِيهِ كَمَا غَرِقَ الزُّنْبُجِيُّ فِي نَهَرِ .
قَدْ حَارَ بَيْنَهُمَا فِي بَرْزَخٍ قَمَرٌ * يُلُوحُ كَالشَّنْفِ بَيْنَ الْخَلْدِ وَالشَّعَرِ .

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي :

بِتْنَا كَأَنَّ حِدَادَ اللَّيْلِ شَمَلْنَا * حَتَّى بَدَا الصَّبْحُ فِي ثُوبِ سَحُولِي .
كَأَنَّ لَيْلَتَنَا ، وَالصَّبْحُ يَتَّبِعُهَا ، * زَنْجِيَّةٌ هَرَبَتْ قُدَامَ رُومِي .

وقال أبو نُوَاس :

فَقُمْتُ وَاللَّيْلُ يَحْلُوهُ الصَّبَاحُ، كَمَا * جَلَا التَّبَسُّمُ عَنْ غَمِّ الثَّنِيَاتِ .

وقال عبد الله بن المعتز :

قَدْ أَغْتَدِي وَاللَّيْلُ فِي جِلْبَابِهِ * كَالْحَبَشِيِّ قَرَّ مِنْ أَحْصَابِهِ .
وَالصَّبْحُ قَدْ كَثَّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ * كَأَنَّمَا يَضْحَكُ مِنْ ذَهَابِهِ .

وقال السري :

وَشَرَّدَ الصَّبْحُ عَنَّا اللَّيْلَ فَاتَّضَحْتُ * سَطُورُهُ الْبَيْضُ فِي آيَاتِهِ السُّودِ .

وقال أبو فراس :

مَدَدْنَا عَلَيْنَا اللَّيْلَ، وَاللَّيْلُ رَاضِعٌ * إِلَى أَنْ تَرَدَّى رَأْسُهُ بِمَشِيبِ .
بِحَالِ تَرْدِ الحَاسِدِينَ بَغِيظِهِمْ * وَتَطْرُفِ عَنَّا عَيْنَ كُلِّ رَقِيبِ .
إِلَى أَنْ بَدَأَ ضَوْؤُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ * مَبَادِي نُصُولِ فِي عِدَارِ خَضِيبِ .

وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة :

وَأَسْتَهَلَّتْ لِمَصْرَعِ اللَّيْلِ وَرُقٌ * نَا كَلَاتٌ، حَدَادُهَا التَّطْوِيقُ .
فَتَضَاكَمَتْ شَامِتًا وَكَأَنَّ الصَّبْحَ جِيبٌ عَلَى الدَّجَى مَشْقُوقُ .

وقال أبو بكر الصنوبري :

وَلَيْسَ كَارْفَرِيفِ الْمُعَلِّمِ * مَخْضُوفَةِ الظُّلَمَاءِ بِالْأَنْجِمِ .
تَعَلَّقَ النَّجْرُ بِأَرْجَائِهَا، * تَعَلَّقَ الْأَشْقَرُ بِالْأَدْهِمِ .

وقال السلامي، شاعر اليتيمة :

وَقَدْ خَالَطَ النَّجْرُ الظُّلَامَ كَمَا أَلْتَقَى * عَلَى رَوْضَةِ خَضْرَاءَ وَرَدٌ وَأَدْهِمُ .

وعَهْدِي بِهَا، وَاللَّيْلُ سَاقٍ وَوَصَلْنَا * عَقَّارٌ، وَقُوَهَا الْكَأْسُ أَوْ كَأْسُهَا الْفَمُ .
إِلَى أَنْ بَدَرْنَا بِالنَّجُومِ ، وَغَرِبُهَا * يَفُضُّ عَقُودَ الدَّرِّ وَالشَّرْقُ يَنْظُمُ .
وَنَبَتْ فِتْيَانُ الصَّبُوحِ لِلذَّةِ * تَلُوحُ كَدِينَارٍ يُغَطِّيهِ دِرْهُمُ .



ومن رسالة للفاضل عبد الرحيم البيهقي ، عفا الله عنه . جاء منها :

”فلما قضى الليل نخبه ، وأرسل الصباح على دُهمه شهبه ؛ شمر الليل إزاره ، ووضع
النجم أوزاره ؛ ونزح بالطيف طارداً ، وظل وراء الصبح ناشداً ؛ وجر العجر نهر
النهار ، وأسترد البنفسج وأهدى البهار ؛ فواكب الكواكب منهزمه ، وغرّة العجر
كغرة مولاي مبتسمه“ .



ومما يدخل في هذا الباب ، ما حكي أن بعض الأعراب تزوج بربع نسوة . فأراد
أن يختبر عقولهن .

فقال لإحدهن : إذا دنا الصبح فأيقظيني . فلما دنا الصبح ، قالت له : قم ،
فقد دنا الصبح ! فقال : وما يدريك ؟ قالت : غارت صفار النجوم وبقى أحسنها
وأضوؤها وأكبرها ، وبرد الحلى على جسدي ، وأستلذت بأستنشاق النسيم . فقال
لها : إن في ذلك دليلاً .

ثم بات عند الثانية ، فقال لها مثل مقالته للأولى . فلما دنا الصبح ، أيقظته .
فقال لها : وما يدريك ؟ قالت : سخكت السماء من جوانبها ، ولم تبق ثابتة إلا فاحت
روائحها ، وعيني تطالبي بإغفاءة الصباح . فقال لها : إن في ذلك دليلاً .

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، أيقظته . فقال لها :
وما يدريك ؟ فقالت : لم يبق طائر إلا غرد، ولا ملبوس إلا برد، وقد صار للطرف
في الليل مجال، وليس ذلك إلا من دتو الصباح . فقال لها : إن في ذلك لدليلا .

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا
الصبح ! فقال لها : وما يدريك ؟ قالت : أبت نسي النوم، وطلبتني فني بالسواك
وأحتجت إلى الوضوء . فقال لها : أنت طالتي، فإنك أقبحتن وصفا .

١١ - ذكر ما قيل في النهار

والنهار طبعي، وشرعي .

فالطبعي زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه
في المغرب . والشرعي ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس .

والفجر فجران : الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل، والفجر الصادق بياض
مستطير .

§ وقد وضعت العرب لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهي :
الذُرُورُ، ثم البُرُوعُ، ثم الضُّحَى، ثم الغَزَالَةُ، ثم الهاجِرة، ثم الزَّوَالُ، ثم التَّلُوكُ،
ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصُّبُوبُ، ثم الحَلُورُ، ثم الغُرُوبُ .
ويقال أيضا : البُكُورُ، ثم الشُّرُوقُ، ثم الإِشْرَاقُ، ثم الرَّادُّ، ثم الضُّحَى، ثم المُتَوَعُّ .
والهاجِرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْرُ، ثم الطُّفْلُ، ثم العِشَى، ثم الغُرُوبُ .

ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس .

وحكى الثعالبي في كتاب فقه اللغة - عن حمزة بن الحسن - قال: وعليه عهدتها :
 الشروق، ثم البكور، ثم القدوة، ثم الضحى، ثم الهجرة، ثم الظهر، ثم الرواح،
 ثم العصر، ثم القصر، ثم الأصيل، ثم العشي، ثم الغروب .
 § وكانت العرب العاربة تُسمّى أيام الأسبوع بأسماء غير هذه التي نتداولها الناس
 في وقتنا هذا، وهى :

”أوّل“ وهو الأحد ”أهون“ وهو الاثنان ”جبار“ وهو الثلاثاء ”دبار“
 وهو الأربعاء ”مؤنس“ وهو الخميس ”عروبة“ وهو الجمعة ”شيار“ وهو السبت .
 نظم ذلك شاعرٌ فقال :

أؤمّل أن أعيش وأنّ يومى * لأوّل أو لأهون أو جبار،
 أو التالى دبار وإن أفته * فمؤنس أو عروبة أو شيار.

١٢ - ذكر الأيام التي خصّصت بالذكر

منها :

§ الأيام المعلومات . وهى عشر ذى الحجة، وفيها يوم التروية . وهو اليوم الثامن
 سمى بذلك لأنهم يرتون من الماء لما بعده ، لأن منى لا ماء بها .

١٥ § الأيام المعدودات . هى أيام التشريق . وعدتها ثلاثة بعد يوم النحر . سميت
 بذلك لأنهم كانوا يشترقون فيها لحوم الأضاحى فى الشمس والهواء ، لئلا تفسد .

§ أيام العجوز . ويقال فيها الأيام الأعجاز . وهى سبعة : أولها السادس والعشرون
 من شباط من شهر الروم ، والخامس من برمهات من شهر القبط . وهى لا تخلو
 من رياح وبرد . وسميت بالعجوز : لأنها فى عجز الشتاء .

§ يوم عبيد ، مَثَلٌ لليوم المنحوس . كان عبيد بن الأبرص قد تصدَّى للنعمان في يوم يؤسه الذي لا يُفْلِحُ مَنْ لقيه فيه ، كما لا ينجِبُ مَنْ لقيه في يوم نعيمه ، قال أبو تمام :

مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّهُ سَيَكُونُ لِي يَوْمٌ كَيَوْمِ عَبِيدِ .

§ يوم المطر . يضرب مثلاً في كفر النعمة . وذلك أنه حكى عن المعتمد على الله ابن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجه الرميكية في مجلس أنس ، والزمان فيه قيظ . فتمنَّتْ عليه غيماً ومطراً . فأمر بجامر العنبر والعود والنَّد ، حتى أنعد الدخان كالضباب ، ثم أمر برشَّ صحن المجلس بماء الورد من أعلاه . وحصل بينهما بعد ذلك نبوءة ، فقالت له : مارأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قَطُّ ! فقال لها : ولا يومِ المصْر^(١) صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله : إِيْمَنٌ يَكْفُرُنَّ الْعَشِيرَ .

§ يوم عاشوراء . وهو اليوم العاشر من المحرم . ورد في فضله أحاديث كثيرة . ويقال إن نوحاً (عليه السلام) ركب السفينة فيه فصامه وأمر من معه بصومه .

وصحَّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هاجر ، رأى اليهود في المدينة صيَّاماً في هذا اليوم . فسألهم عنه ، فقالوا : هذا اليوم الذي نجيَّ الله تعالى فيه موسى وبنى إسرائيل ، وأغرق فرعون وقومه . فتحنَّ نصومه شكراً لله تعالى . فقال (عليه الصلاة والسلام) : أنا أحقُّ بأخي موسى . ثم أمر منادياً فنادى : مَنْ أَكَلَ فَلْيُمْسِكْ ، وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ فَلْيُصُمْ !

وفيه قُتِلَ الحسين بن عليّ (رضى الله عنهما) .

(١) راجع رواية أوفى في فتح الطيب له . . . سمع "يوم الطين" . (ص ٢٨٧ ج ١ طبعة ليدن) .

١٣ - ذكر أيام أصحاب المثلث

§ يوم الجمعة، للمسلمين . وسبب اتخاذهم له أنه اليوم الذي أتم الله فيه خلق العالم، وأوجد فيه أبا البشر آدم (عليه السلام) وفيه قِيَصُ ، وفيه يكون النْفَخُ في الصور، وفيه الصَّعْقُ، وفيه الساعة التي لا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا فضاها له .

§ يوم السبت، لليهود . ومُحْتَمَمٌ على اتخاذهم له أن الله تعالى ابتداء خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يومُ فراغٍ ودَعَا . ولهم في ذلك أقوال كثيرة .

§ يوم الأحد، للنصارى . ذكر في سبب اتخاذهم له أن الله (سبحانه وتعالى) ابتداء فيه بخلق الأشياء .

١٤ - ذكر ما يُمَثَّلُ به مما فيه ذكر النهار

يقال :

أطول من يوم الفراق . أضوأ من نهار . أنور من وضح النهار .

ويقال :

يذهب يوم الهم ولا يُسْعَرُ به . ما يوم حليمة بيسر . من ير يومًا ير به . يوم السرور قصير . اليوم نحر وغدا أمر . اليوم عيش وغدا خيش . اليوم فعل وغدا ثواب . يوم لنا ويوم علينا . لكل قوم يوم .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يخفى على الناس النهارُ * وفي الليال والأيام مُعْتَبَرٌ *

ومن الأبيات :

وَأَلَّهُ مَا أَمَكْنَ يَوْمٌ صَالِحٌ * إِنَّ يَوْمَ الشَّرِّ لَا كَانَ عَيْدًا !

وقال آخر :

أَمَامَ ! لَا أَدْرِي ، وَإِنْ سَأَلْتِ : * مَا نُسِكُ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ سَبْتِ .

وقال آخر :

وَأَيَّامُ ! الشَّرُّورِ مُقْصَصَاتُ * وَأَيَّامُ الشَّرُّورِ تَطِيرُ طَيْرًا .

وقال آخر :

لَا تَحْمَلْنَ مُهُومَ أَيَّامِ عَلِيٍّ * يَوْمَ ، لَمَّا لَكَ أَنْ تُقْصِرَ عَنْ غَدِهِ .

١٥ - ذكر شبيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر ، يصفه بالقصر :

ويوم سُرُورٍ قَدْ تَكَامَلَ وَصَفُهُ * سِوَى قِصْرِ ، لِأَعْيَبَ فِيهِ سِوَاهُ !
وَعَهْدِي بِهِ كَالرَّمْحِ طُولًا ، فَمَنْدَمًا * هَزَزْنَاهُ لِلْهُوَ أَلْتَقَى طَرْفَاهُ .

٥٥

وقال آخر :

بِأَبِي مَنْ نَعِمْتُ مِنْهُ بِيَوْمٍ ، * لَمْ يَزَلْ لِلسُّرُورِ فِيهِ مُهُومٌ !
يَوْمٌ لَهُوَ ، قَدْ أَلْتَقَى طَرْفَاهُ * فَكَأَنَّ الْعَشِيَّ فِيهِ عُذُومٌ .

وقال آخر :

لَمْ يَنْتَشِرْ فَلَقَ الْإِصْبَاحَ مِنْ مِيرٍ * فِيهِ إِلَى أَنْ طَوَاهُ فَيَلْقَى الْفَسَقَ .
وَلَمْ يَكُنْ مَاتِقِي جَفَنِي أَنْحَى رَمِدٍ * كَلْتَقَى طَرْفِيهِ : الصُّبْحِ وَالشَّفَقِ .
وَمَا تَنَاوَلْتُ فِيهِ الرُّطْلَ مُصْطَبِحًا * إِلَّا أَعَادَتْهُ مِنِّي كَفُّ مُغْتَبِقِ .

وقال آخر :

فِي يَوْمٍ مَسْرِيَةٍ • أَضْوَأَ وَأَقْصَرَ مِنْ ذُبَابَةٍ !
لَمَّا نَصَبْنَا لِلنِّسَاءِ • فِيهِ بِأَشْرَاكِ حِبَالَهُ ،
طَارَ النَّهَارُ مَرُّوَعًا • فِيهِ وَأَجْفَلَتِ الْفَرَازَةَ !

وقال آخر :

حُكَّ الْكُؤُوسِ ! فَمَا يَوْمٌ بِهِ قِصْرٌ ، • وَمَا بِهِ مِنْ تَمَامِ الْحُسْنِ تَقْصِيرُ .
مَحْمُودٌ وَغَيْمٌ ، يَرُوقُ الطَّرْفَ حُسْنُهُمَا : • فَالْبُحُورُ قَيْرُوزِجٌ ، وَالنِّسِيمُ بَلُّورُ .

وقال آخر :

وَيَوْمٌ كَتَلَى الْغَايَاتِ سَلْبَتُهُ • حُلِي الرُّبَا حَتَّى آتَنَتِي وَهُوَ عَاطِلُ .
سَبَقَتْ إِلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَالشَّمْسُ غَضَّةٌ • وَصَيَّغُ الدَّجْنِ مِنْ مَفْرِقِ الْفَجْرِ نَاصِلُ .



ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسي :

الْيَوْمُ يَوْمٌ بَكَتْ أَمْطَارُهُ ، وَصَحِيكَتْ أَزْهَارُهُ ، وَتَمَنَعَتْ شَمْسُهُ ، وَتَمَطَّرَ نَسِيمُهُ ؛
وَعِنْدَنَا بُلْبُلٌ هَزِجٌ ، وَسَائِقٌ غَنِجٌ ، وَسُلَافَتَانِ : سُلَافَةٌ إِخْوَانِ ، وَسُلَافَةٌ دِيَانِ ؛ قَدْ
تَشَاكَلْنَا فِي الطَّبَاعِ ، وَأَزْدَوْجَنَا فِي إِثَارَةِ السَّرُورِ . فَانْحَرِقْ إِلَيْنَا سُرَادِقَ الدَّجْنِ تَجْدِ
مَرَّأَى لَمْ يَحْسَنْ إِلَّا لَكَ ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِكَ .

ومن كلامه أيضا :

لَمْ نَلْتَقِ مِنْذَ عَرِينَا مَرَكَبَ اللَّهِوْءِ ، وَأَخْلَيْنَا رَجَّحَ الْأَنْسِ ، وَقَصَصْنَا جَنَاحَ الطَّرَبِ ،
وَعَبَسْنَا فِي وَجْهِهِ اللَّذَاتِ . فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَخْفَى إِلَى مَجْلِسٍ قَدْ نُسِخَتْ فِيهِ الرِّيحُ ،

بالدواوين، والمجامر بالمهاير، والأطباق، بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛
وآستماع الأوتار، بآستماع الأخبار؛ وجمع البلابل، بسجع الرسائل؛ كآب أمخذ
لذهنك، وأرشد رأيك .

١٦ - ذكر شيء مما وصفت به الآلات

الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهل هذا الفن لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلون بها
على معرفة ماضى من ذلك وما يقي، ولتحرير المواقيت: كالأصطرلاب، والطرجهارة
والبنكام .

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما وقف
عليه .

١ - فأما الأصطرلاب وما قيل فيه .

فقال أبو طالب، عبد السلام المأموني :

وشبيه بالشمس يسترق الأنشوار من نور حرمها في خفاء .

فترأه أدرى وأعلم منها ، * وهو في الأرض، بالذى في السماء .

وقال أيضاً :

وعالم بالغيب من غير ما * سمع، ولا قلب، ولا ناظر!

يقابل الشمس فيأتى بما * صممتها من خير حاضر .

كانها ناجسه لما بدا * لعينها بالفكر والخاطر .

وألمته علم ما يحوى * عليه صدر الفلك الدائر .

وقال أبو إسحاق الصابي ، وقد أهداه في مهرجان إلى مخدومه :

أهدى إليك بنو الآمال وأجهدوا * في مهرجانٍ جديدٍ أنت تُبليه .
لكنَّ عبدك إبراهيم ، حين رأى * سموَّ قدرِكَ عن شيءٍ يُساميه .
لم يرضَ بالأرضِ يهديها إليك فقد * أهدى لك الفلكَ الأعلى بما فيه !

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز :

أفضلُ ما استصحبَ النبيلُ فلا * يُعدلُ به في المقامِ والسفيرِ ،
حِرمٌ إذا ما أتممتَ قيمته * جلَّ عن التبر وهو من صُفْرِ .
مُختَصِرٌ وهو إذ تُفتِّشه * عن مُلجِ العلمِ غيرِ مُختَصِرِ .
ذو مُقليةٍ تَسْتَنيرُ ما رَمَت * عن صائبِ اللحظِ صادقِ النظرِ .
تَمِيزُهُ وهو حاملٌ فلَكَا * لو لم يُدرَ بالبنانِ لم يُدرِ .
مَسْكَنُهُ الأَرْضُ وهو يُبِنُنَا * عن جُلِّ ما في السماءِ من خَبَرِ .
أبدعه رَبُّ فِكْرَةٍ بَعْدَتْ * في اللطيفِ عن أن تُقاسَ بِالمَكْرِ .
فاستَوَجِبَ الشُّكْرَ والثناءَ به * من كلِّ ذى فطنةٍ من البَشَرِ .
فهو لذي اللَّبِّ شَاهِدٌ عَجَبٌ * على اختلافِ العقولِ والفِطْرِ .

وكتب أبو الفرج البغاء يصف أصرطرا لبا أهداه فقال :

آثرتك - أيلك الله - ببرهان الحكمة ونسبها ، ومدار الفلسفة وقطبها ، ومُرشد الفكر
ومناره ، وميزان الحسن ومِياره ، ونافى الشك ومُزِيله ، وشاهد الأثير ودليله ، ومصوِّر
الحكمة ومُتمثلها ، ومقسم البروج وممتلئها ، وموقف النجوم ومسيرها ، وجامع الأقاليم
ومدبرها ، ومرآة الحلبك ، وصوره الفلك ، وأمين الكواكب ، وحدَّ المشارق والمغارب ،
بما اخترعت العقولُ تسطيعه ، وأتمنَّ الحسابُ تصحيحه ، وتمارت القطرُ

في ترتيبه، وأصطلحت الحكباءُ على تركيبه، فأوضحت بالنقش تقسيمه، وأبانت بالكتابة رُسومَه، إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته، وحصر متفرق الأمور في تحرقى عضادته؛ وأحتوى على قُطْرِي الشَّمالِ والحُنُوبِ، وأطلع باللطف على خَفِيَّاتِ الغيوبِ؛ الملقب بالأصطرلاب، الفاصل بين الخطأ والصواب .

وقال أبو نصر الكاتب فيه :

قطبُ الزمن ومدارُه، وميزانُ الفلك ومعيارُه، وأساسُ الحكمة وموضوعها، وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها؛ الناطقُ في صمته، الموقنُ على نفعه؛ مظهرُ السرِّ المكنون، الخبيرُ بما كان وما يكون؛ ذو شكلٍ مقررٍ مستديرٍ، ولونٍ مشمسٍ مستديرٍ؛ ومنطقةٌ محيطةٌ بأجزائه، وخطوطٌ معدلةٌ على أعضائه؛ وكتابةٌ مطبقةٌ بتدويره، ورموزٌ بأحدهُ بضميره؛ متقابلُ الأهدافِ، متكاملُ الأوصافِ؛ بحجرةٍ مسكونه، وصفائحٍ مصنونه؛ وقد موموق، وبابٍ مطروق؛ للعلمِ فتحه ورتاجه، وعليه طريقه ومنهاجه؛ إذا أنتصب قال حميد، وإذا أضطجع عي فلم يُفقد؛ صفرى الانتساب، ذهى الإهاب؛ يخترق الأنوار من نقابه، ويستخدم الشمس في حسابِه؛ يجمع الشرق والغرب في صفحته، ويستتره الحامل في راحته؛ رافعه ينظر من تحته، وأخباره تسند عن نحرته .

٢ - ومما قيل في طَرْجَهارة .

قال أبو الفتح كُشَّاجِمُ يصفها :^(١)

رُوحٌ من الماءِ في جِسْمٍ من الصُّفْرِيرِ * مؤلَّفٌ بلطيفِ الحِسِّ والفِكرِ .

(١) هي من الآلات التي تعرف بها الساعات . ولهم آلات أخرى في هذا المعنى مثل صندوق الساعات،

دبَّة الساعات، الرخلة، المكلمة، اللوح (أنظر مفاتيح العلوم للحرارزمي طبع ليدن ص ٢٣٥) .

له على الظهر أجفانٌ مَحَجَّرَةٌ * ومثَلَةٌ دَمَعُها جارٍ على قَدَرٍ .
 تُنشِله حَرَكَاتٌ في أسافِله * كأنها حَرَكَاتُ المِاءِ في الشَّجَرِ .
 وفي أعاليه حُسابٌ مُفَصَّلَةٌ * للناظِرِينَ بلا ذَهْنٍ ولا نَظَرٍ .
 إذا بكى ، دارَ في أحشائه فَلَكُ * خَافِي المِسيرِ ؛ وإن ، لم يَبِكْ لم يَدِرِ .
 ومُخْرَجٌ لك بالأجزاء أَلْفَها * من النِهارِ ، وقوسُ اللَّيلِ في السَّحَرِ .
 مُتَرَجِّمٌ عن مواقيتِ يُحَبِّرُنَا * عنها فيوجدُ فيها صادِقُ الخِبرِ .
 تُقَضِّي به الخِمسُ في وقتِ الوجوبِ وإن * غُطِّي على الشمسِ أو غُطِّي على القمرِ .
 وإن سَهَرْتُ لأسبابِ تُؤرِّقُنِي * عَرَفْتُ مقدارَ ما أَلقَى من السَّهَرِ .
 حَدَّدْتُ كلَّ مِيقَاتٍ ، تَحَيَّرُهُ * ذَوُّ التَّخَيُّرِ للأسبابِ والسَّفَرِ .

الباب الثاني

من القسم الثالث من الفن الأول

في الشهور والأعوام

نذكر في هذا الباب الشهور العربية ، وأشتاقها ، والشهور العجمية ، ودخول بعضها
 في بعض ، والسنين القمرية ، والشمسية ، والنسيء ، ومعناه ، وما يجرى هذا الجرى ، مما
 ليجناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته . وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومته ! .

١ - ذكر الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعي ، وإما أصطلاحي .

فالتطبيعي هو مدة سير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى .

وقال آخرون : هو عود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأول .

وأما الاصطلاحى ، فهو مَدَّة قطع الشمس مقدارَ برج من بروج الفلك . وذلك ثلاثون يوماً ، وثلاثُ عَشْرَ يومٍ بالتقريب . وهذا مذهب الروم ، والسريان ، والقُرس والقطب . والله (سبحانه وتعالى) أعلم !

٢ - ذكر الأشهر العربية

(وما يختص بها من القول)

والأشهر العربية قسمان : قسم غير مستعمل ، وهو الذى وضعته العرب العاربة ؛ وقسم مستعمل ، وهو الذى وضعته العرب المستعربة . وكلا القسمين موضوع على الأشهر القمرية .

§ فإما القسم غير المستعمل ، فهو أسماء كانت العرب العاربة أصطلحوا عليها ، وهى :
مؤتمر ، ناجر ، حَوَّان ، صوان (ويقال فيه : بُصَان) ، رُئى ، أَيْدَة ، الأَصْمُ ، عَادِل ،
ناطِلُّ ، واغَلُّ ، وَرَنَةٌ ، بُرَك .

وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة . والذى ذكرناه منها هو المشهور ، ويدل عليه قول الشاعر :

بمؤتمِرٍ وناجرٍ أبتدأنا * وبالحوَّانِ يتَّبِعُه البُصَانُ
ورُئىُّ ثمَّ أَيْدَةٌ تليهِ * تَعُودُ أَصْمٌ صَمٌّ به السَّانُ
وعادله وناطله جميعاً * وواغله فهم غُررُ حِسانُ
وورنَةٌ بعدها بُرَكٌ فتمت * شهورُ الحولِ يعقدها البَنَانُ .

§ وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة :

المحرم، صفر، الربيعان، الجُمَادَيان، رَجَبٌ، شعبان، رمضان، شَوَّالٌ، ذو القعدة،
ذو الحجة .

قيل : وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لأنفاق حالات وقعت في كل

- شهر، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرم محزما : لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحزمو القتال فيه، فسموه محزما . وسموا صفرًا : لِصَفَرِ بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات . وقيل : لأنهم كانوا يُغيرون على الصُفْرِيَّةِ، وهي بلاد .
- وشهر ربيع : لأنهم كانوا يُتْحِصِنون فيهما بما أصابوا في صفر، والربيع الخصب . والجُمَادَيان : من جمد الماء، لأن الوقت الذي سما فيه بهذه التسمية كان الماء جامدا فيه لبرده . ورجب : لتعظيمهم له . والترجيب التعظيم . وقيل : لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب، وهي أنامل الأصبع الوسطى . وقيل : إن العود رجب النبات فيه أي أنجره، فسمى بذلك . وكذلك تشعب العود في الشهر الذي يليه، فسمى شعبان . وقيل : سمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمى رمضان ، أي شهر الحرم . مشتق من الرمضاء . وشَوَّالٌ، من شالت الإبل أذناها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع . وذو القعدة : لتعودم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم . وذو الحجة، لأن الحج أُنْفِقَ فيه، فسمى به .

ويقال إن أول من سماها بهذه الأسماء، كلاب بن مُرَّة .

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْدٌ، وهي : ذو القعدة، وذو الحجة،

والحرم، وواحد فرد، وهو رجب .

هذا ما رواه الأصمعي عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم. وأختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة أشهر في سنة واحدة. وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهي: شهر ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان^(١).

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها.

٣ - وأما شهور اليهود

فأسمائها:

تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

٤ - وأما الشهور العجمية

فإنها شمسية. وهي أقسام، بحسب الأمم التي تنسب إليهم.

§ فمنها الشهور القطبية، وتنسب لدقطنانوس. وكل شهر منها ثلاثون يوما.

وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبسًا في آخر شهر منها، وهي:

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمها، برمودة، بشنس، بؤونه، أييب، مسرى.

وأول توت يكون النوروز. وفي أول يوم من كيهك تدخل الأرمينيات، وهي

أربعون يوما باردة تؤذن بالشتاء. وفي الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهي

أيام حارة تؤذن بالصيف.

(١) أى لا يقال: ربيع الأتول، ربيع الثاني، رجب، رمضان. بل يضيفون إلى كل منها لفظة "شهر".

§ ومنها شهور السريان والروم . وهما متفقان في العدد والدخول . والسريانيون ينسبون شهرهم لأغسطس^(١) ، وهو قيصر . وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين ، ومنها ما يوفيها ، ومنها ما يزيد عليها . وفيها يقول الكيزاني :

شهورُ الرومِ ألوانُ : * زياداتٌ وقصانُ .
فقتسرينهم الثاني ، * وأيلولٌ ونيسانُ .
ثلاثون ، ثلاثون ، * مسوَاءٌ ، وحزيرانُ .
وأشباطُ ثمانٌ بعد عشرين له شأنُ .

والسبعة التي تركها ، كل شهر منها يزيد يوما .

ووضع لها بعض المغاربة ضابطا ، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها في أربع كلمات ، وهي : "فأز رجلٌ ختم بحج" . وجمعها آخر في مثل ذلك فقال : "غاب عنك زيدٌ فحج" . فما كان معجبا فهو أحد وثلاثون يوما ، وما كان مهملًا فهو ثلاثون ، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون .

وأول سنة السريان تشرين الأول . ودخوله رابع بابه ، ويوافق أكتوبر من شهور الروم ، وهو أحد وثلاثون يوما ؛ ثم تشرين الثاني ، ودخوله في الخامس من هاتور ، ويوافق^(٢)ه نومبر من شهور الروم ، وهو ثلاثون يوما ؛ ثم كانون الأول ، ودخوله في الخامس من كيهك ، ويوافق^(٣)ه دجنبر من شهور الروم ، وهو أحد وثلاثون يوما ؛

(١) هو القيصر الروماني المشهور ، قُلا عن اللاتينية Augustus . ولكن العرب حينما عرفوا الشهر المعروف باسمه آكضوا بقولهم أغشت (August) للتمييز بين القطين . وأما نحن في هذه الأيام فقد تركنا هذا الفارق ونقول في تسمية هذا الشهر "أغسطس" أيضا .

(٢) Novembre . وقول في مصر الآن نومبر .

(٣) Décembre . وقول في مصر الآن ديسمبر .

ثم كانون الثاني، ودخوله في السادس من طوبه، ويوافقهِ ^(١) يَنير من شهر الروم، وهو أول سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوماً، ثم شباط، ودخوله في السابع من أمشير ويوافقهِ فبراير من شهر الروم، وهو ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم، ثم آذار، ودخوله في الخامس من برمهاث، ويوافقهِ مارس من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم نيسان، ودخوله في السادس من برمودة، ويوافقهِ أبريل من شهر الروم، وهو ثلاثون يوماً، ثم أيار، ودخوله في السادس من بشنس، ويوافقهِ مايه من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم حزيران، ودخوله في السابع من بؤونة، ويوافقهِ يونيو من شهر الروم، وهو ثلاثون يوماً، ثم تموز، ودخوله في السابع من أيبب، ويوافقهِ يوليو من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم آب، ودخوله في الثامن من مسرى، ويوافقهِ أغسطس من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم أيلول، ودخوله في الرابع من توت، ويوافقهِ ستنبر من شهر الروم، وهو ثلاثون يوماً.



§ ونظم بعض الشعراء أرجوزة في مداخلة الشهور، فقال :

وإن حَفِظْتَ أَشْهُرَ السُّرْيَانِ * وَكُنْتَ مِنْ ذَاكَ عَلَى بَيَانِ .
وَوُزِمَتْ مِنْهَا عَمَلُ الْمَنَازِلِ * فَإِنَّهَا مَعْلُومَةٌ التَّدَاخِلِ .

(١) Janvier . وقول في مصر الآن يناير . (وقد كان عربيه المرحوم رفاعه بك بقوله : "ينوبه")

غير ان هذا الاصطلاح لم يُسَلِّمْ بِهِ .

(٢) Février . وقول في مصر الآن فبراير (مع الإشباع) .

(٣) أنظر حاشية رقم (١) من صفحة ١٦٠

(٤) قول الآن في مصر "سبتمبر" مجازاة للتلفظ الفرنسي الحديث Septembre . على انهم يقنونون

"ست" عند ما يريدون السبعة Sept بإهمال حرف الباء، فاذا أرادوا السبعين لفظوا بالباء .

- أبلول يبدو رابعاً من توت * هذا بحكم النظر المثبوت .
وهكذا تشرين وهو الأول * من بابة أربعة تكمل .
أول تشرين الأخير يدخل * ومن هتور خمسة يارجل .
أول كانون وأعنى الأول * وخامس من كيهك تعديلاً .
أول كانون الأخير سادس * من طوبة فيها يقيس القانس .
ومن شباط أول يوافي * سابع أمشير بلا خلاف .
أول آذار حساب صادق * من برمهاث خامساً يوافق .
برمودة سادسه وأول * نيسان وفق ليس عنه معدل .
أول آيار بغير ليس * يوافق السادس من بشنس .
بؤونة وافق منه سابعه * أول حزيران لما يتابعه .
أول تموز على الترتيب * يدخل في السابع من أيب .
أول آب ثامن من مسرى * العلم بالمرء اللبيب أحرى .

وقال بعض الشعراء في مثل ذلك :

- متى تشأ معرفة التداخل * من أول الشهور في المنازل .
فعد من توت بلا تطويل * أربعة فهي آبتدا أبلول .
وبابة كذلك من تشرين * الأول السابق في السنين .
والخامس المعدود من هاتور * أول تشرينهم الأخير .
أول كانون بغير دلسه * إذا نقصت من كيهك خمسة .
وطوبة إن مرة منه ستة * أذاك كانون الأخير بقتة .

- ومن شباط أول يوافق * سابع أمشير، حساب صادق .
 أول آذار إذا جعلته * لبرمهاث خامسا وجدته .
 أول نيسان لدى التجريد * السادس المعدود من برمود .
 ومثله أيار مع بشنس * واحدة مقرونة بنجس .
 أما حزيران فيحسبونه * من أول السابع من يؤونه .
 كذلك السابع من أبيب * أول تموز بلا تكذيب .
 أول آب عند من يحصل * ثامن مسرى ذاك الما ليجهل .



§ وأما شهور الفرس، فهي موافقة لشهور القبط في العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون يوما، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء، ويسمونها الاندركاه . ولكل يوم من أيام الشهر أسم خاص، يزعمون أنه أسم ملك من الملائكة موكل به . فأسماء المشهور منها : أفريدون ماه (وهو رأس سنتهم)، أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، بر ماه، مهر ماه، أبان ماه، ادر ماه، دي ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه . ويعنون بقولهم "ماه" القمر .



المثل - قول بعض الشعراء :

شهورٌ ينقضين وما شعرنا * بأنصافٍ لمن ولا سرار

٥ - ذكر ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من اختلاف الأمم في ابتدائها وأتمائها، والفرق بين السنة والعام

§ أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون "سنة جذب" و"عام خصب". قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَأْسًا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْصِرُونَ﴾.

والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمى واحد. قال الله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا﴾.

§ والسنة طبيعية، وأصطلاحية.

فالطبيعية قرية، وأولها استهلال القمر في غرة المحرم، وأنسلخها بسراره

- ١٠ في ذى الحجة. وهي اثنا عشر شهرا، وعدد أيامها ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم تقريبا، ويتم من هذا الخمس والسدس في ثلاث سنين يوم، فتصير السنة في الثالثة ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوما. ويبقى شيء يتم منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف في السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة. وتسمى تلك السنين بكأثر العرب.

- ١٥ وأما السنة الاصطلاحية فإنها شمسية، وعدد أيامها عند سائر الأمم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربيع يوم. فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربيع يوم وثمان يوم ونحسا من خمس يوم.

ويقال: إنهم كانوا في صدر الإسلام يسقطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة عربية سنة، ويسمونها الأزدلاف. لأن كل ثلاث وثلاثين سنة قرية آثنتان

وثلاثون سنة شمسية تقريبا . وذلك لتحزهم من الوقوع في النسيء الذي أخبر الله عز وجل أنه زيادة في الكفر . وهذا الأزدلاف هو الذي نسميه في عصرنا هذا بين كتاب التصرف " التحويل " . لأننا نحول السنة الخراجية إلى الهلالية ، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان .



§ وسنة العالم — على ما أتفق عليه المتجمون — هي من حين حلول الشمس رأس الحمل ، وهو الاعتدال الربيعي . ومنهم من يجعل أولها من حين حلول الشمس رأس الميزان ، وهو الاعتدال الخريفي .

§ وأبتداء سنة القبط قطع الشمس اثنتي عشرة درجة من السنبلة ، وأبتدؤا بفعل ذلك في زمن أغسطس ، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الريحيات .

§ وأما الفرس ، فأول سنتهم عند حلول الشمس أول نقطة من الحمل ^(١) .

§ وأما السريانيون ، فأول سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ست عشرة درجة .

٦ — ذكر النسيء ومذهب العرب فيه

يقال إن عمرو بن لُحَيٍّ ، وهو نخزاعة — ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعي — هو أول من نَسَأَ الشهور ، وبحر البعيرة ، وسَيَّب السائبة ، وجعل الوصيلة ، والحاظي . وهو أول من دعا الناس إلى عبادة هُبَل ، قدم به معه من هيت .

ومعنى النسيء أنهم يُنَسِّئُونَ المحرم إلى صَفَر ، ورجب إلى شعبان .

(١) وهذا اليوم هو عيد نير وزم إلى الآن .

وكان جملة ما يعتقدونه من الذين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبجحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهرا من أشهر الحِلِّ، ويقولون نُبِيَّ الشهر.

وحكى ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أول من نَسَا الشهور على العرب، وأحلَّ منها ما أحلَّ، وحرم ما حرم، القامِسُ . وهو حذيفة بن قُقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة .

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أمية، ثم قام بعد أمية ابنه عوف، ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جبل، وقال بأعلى صوته: «اللهم إني لا أخاف ولا أعاف^(١)، ولا مرء لما قضيتُ! اللهم إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم، رفع أفعالهم على شئ الغارات فيه) وأنسأته إلى العام القابل (أي أخرت تحريمه) وحرمتُ مكانه شهر كذا من الأشهر النبواقي!» وكانوا يحلون ما أحلَّ، ويحزمون ما حرم .

وفي ذلك يقول عمرو بن قيس بن جندل الطَّمان، من أبيات يفتخر:

١٥ أَلَسْنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعَدٍّ « شُهُورَ الْحِلِّ، نَجْعَلُهَا حَرَامًا؟

وحكى السهيلي في كتابه المترجم "بالروض الأنف" أن نسيء العرب كان على ضربين: أحدهما تأخير المحرم إلى صفر لحاجاتهم إلى شئ الغارات وطلب النار، والثاني تأخير الحج عن وقته تحريما منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه في كل عام

(١) في اللسان: "أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء".

أحد عشر يوماً حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فوافق حجه في ذى القعدة، ثم حج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في العام القابل فوافق عود الحج إلى وقته في ذى الحجة كما وضع أولاً . فلما قضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حجه، خطب فكان مما قال في خطبته (صلى الله عليه وسلم) : "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض". يعني أن الحج قد عاد في ذى الحجة .

٧ - ذكر السنين التي يضرب بها المثل

يُضْرَبُ المثل :

§ بعام الجراد . كان سنة ثمان من الهجرة :

١٠ § عام الحزن . وهي السنة التي مات فيها أبو طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وخديجة (رضى الله عنها) وهي سنة عشر من الهجرة ، وكان موتها بعده بثلاثة أيام وقيل بسبعة .

١٥ § عام الرمادة . كان سنة ثمان عشرة من الهجرة . في خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . أصاب الناس فيه حَقْطٌ حتى صارت وجوههم في لون الرماد من الجوع . وقيل : كانت الريح تَسْفِي تراباً كالرماد لشدة بُسْ الأَرْض . على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في "التاريخ" .

§ عام الرعاف . كان سنة أربع وعشرين من الهجرة ، سمي بذلك لكثرة ما أصاب الناس فيه من الرعاف .

و عام الجماعة . كان سنة أربعين من الهجرة . فيه سلم الحسن بن علي (رضي الله
عنهما) الخلافة لماوية ، فاجتمعت الكلمة فيه .

و عام الجحاف . كان سنة ثمانين من الهجرة ، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل
وعليها الحمول .

و عام الفقهاء . وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة . فيها مات علي بن الحسين
زين العابدين ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنهم)
وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعطاء بن يسار ، وسعيد بن زيد بن ثابت .
وفيه قتل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيد بن جبير .

و سنين خالد . يضربُ بها المثلُ في الجذب . وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث

المعروف بابي مطير . كان قد تولى هشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى
القحط فيها حتى أجل أهل البوادي .

و سنة عشر ومائة . مات فيها قرينان في الزهد : الحسن البصري ومحمد بن سيرين ،

وقرينان في الشعر : جرير والفرزدق .

و سنة ست وخمسين وثلثمائة . مات فيها جماعة من الملوك ، وهم : شمكير بن زياد

صاحب طبرستان وجرجان ، ومعر الدولة بن بويه ، وكانور الأخشيدي صاحب
مصر ، ويقفور ملك الروم ، وأبو علي محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدولة
أبن حمدان محمود المتني ، والحسن بن فيرزان صاحب أذربيجان .

الباب الثالث

من القسم الثالث من القرن الأول

١ - في الفصول وأزممتها

وفصول السنة أربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . ولكل فصل

• منها ثلاثة بروج ، وثلاثة أشهر ، وسبع منازل ، ومواقفة من الطبائع الأربع .

١ - فأما فصل الربيع ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حار رطب .

ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل ، والثور ، والجوزاء . وهذه البروج عندهم تدل

على الحركة . وله من السن الطفولية والحدائث ، ومن الرياح الجنوب ، ومن الساعات

الأولى والثانية والثالثة ، ومن القوى القوة الحاذبة ، ومن الأخلاط الدم ، ومن الكواكب

القمر والزهرة ، ومن المنازل بعض الفرج المقدم والفرغ المؤخر ، والرشاء ، والسرطان ،

والبطين ، والثريا ، والدبران ، وبعض الحقعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوماً .

وحلول الشمس في الثاني عشر من آذار ، ويواقفه مارس من شهور الروم ،

وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط ، وفي العشرين من آسفندار ماه من

شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل ، اعتدل الليل والنهار ، وصار كل

واحد منهما اثنتي عشرة ساعة . ثم يأخذ النهار في الزيادة ، والليل في النقصان .

وفي هذا الفصل تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء . فيطلع النبات

وتزهّر الأشجار وتورق ، ويهيج الحيوان لاسفاد ، وتذوب الثلوج ، وتنبع العيون ،

وتسيل الأودية .

(١) أي برج الحمل الذي هو أول فصل الربيع .

ذكر ما قبل في وصف فصل الربيع وتشبيهه نظارته.

فمن ذلك ما قاله الصنوبري:

ما الدهرُ إلا الربيعُ المُستَئِيرُ إذا * جاء الربيعُ، أُنَاكَ النورُ والنورُ.
فالأرضُ بِأَقْوَمِهِ، والجوُّ لؤلؤةٌ، * والنبتُ فيروزجٌ، والماءُ بلورُ.

وقال آخر:

أشربُ هنيئاً قد أُنَاكَ زَمَانُ * متعطرٌ، مُهَلَّلٌ، تَسْوَانُ!
فالأرضُ وَشِيٌّ، والنسيمُ معبرٌ، * والماءُ رَاحٌ، والطُيورُ قِيَانُ.

وقال التعالبي:

أظنُّ الربيعَ العَامَ قد جَاءَ زَائِراً * ففى الشمسِ بَرَّازاً، وفى الرِّيحِ عَطَّاراً.
وما العيشُ إلا أن تُوَاجِهَ وَجْهَهُ * وَتَقْضَى بَيْنَ الوَشِيِّ والمِسْكِ أَوْطَاراً.

وقال آخر:

وفصلُ فصلُ الربيعِ الرياضُ * عقوداً ورضع منها حلياً.
وقاخرَ بالأرضِ أفقَ السماءِ * فحلى الثرى بنجوم الثرىا.

وقال الحسن بن وهب:

طلعت أوائل للربيع فبشرت * نورَ الرياضِ بِجِدَّةٍ وشبابِ!
وغداً السحابُ يكادُ يَسْحَبُ فى الثرى * أذْيَالَ أَسْمَحَ حَالِكِ الجِلْبَابِ.
فترى السماءَ إذا أجدرَ ربابها * فكأَنَّما ألتحفَت جَنَاحَ غُرَابِ.
وترى الغُصونَ إذا الرياحُ تتأوحت * ملقفةً ككتائف الأجاب.

وقال بعض فضلاء أصفهان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها المهاد

الأصفهاني في الحريرة:

أما بعد . فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحُه ، وسِرُّ حِكْمَةِ إلهِيَةِ وبه كَسَفُهُ
ووضُوحُه ؛ وعمرُ مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنه لُجْمٌ وهو تَمِيرُه وصَافِيَه ؛ ودَوَّحَةٌ
خَصْرَةٌ وهو يَنْعُها وجَنَّاها ، وألفاظُ مجموعة وهو نَتِيجَتُها ومعناها ؛ فمن لم يَسْتَهوَ طِبَاعَه
نَسِيمٌ هوأته ، ولم يُدْرِكْ شِفَاءَ دَائِه في صَفَاءِ دَوَائِه ؛ لم يَدُقْ لِطْعَمِ حَيَاتِه تَعْمًا ، ولم يَجِدْ
لِخَفْضِ حَظِّه من أَيامه رَفْعًا .

٢ - وأما فصل الصيف ، فإن طبيعته الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول
الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السن الشباب ؛ ومن الرياح الصبا ؛
ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القُوَّة الماسكة ؛ ومن
الأخلاق المِرَّة الصفراء ؛ ومن الكواكب المِترِيح ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض
الهُقْعَة ، والهُنْعَة ، والذراع ، والنُّثْرَة والطَّرْف والِبْهَة (وهي أربعة عشر يوماً) والخِرَاتَانِ
وبعض الصُّرْفَة . وتزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد
أيامه ثلاثة وتسعون يوماً ، ويوافقُه يَنير من شهر الروم ؛ وفي العشرين من بؤونه ، وإذا
حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في النقصان . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظماً ونثراً

فمن ذلك ما قاله ذو الرمة :

وَهَاحِرَةٌ حَرَّهَا وَأَقِيدُ * نَصَبْتُ لِعَاجِبِهَا حَاجِي .
تَلُوذُ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَأَذَ الْعَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ .
وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حَرَبًاؤُهَا * كَمَا يَسْجُدُ الْقَسُّ لِلرَّاهِبِ .

وقال مسكين الدارمي .

وهَاجِرَةٌ ظَلَّتْ كَانَتْ ظَبَاءَهَا * إِذَا مَا أَنْقَتَهَا بِالْقَرُونِ مُجُودُ .
تَلَوْدُ لِسُؤْبُوبٍ مِنَ الشَّمْسِ فَوْقَهَا * كَمَا لَأَذَّ مِنْ حَرِّ السَّانِ طَرِيدُ .

وقال ابن الفقيسي :

فِي زَمَانِ نَسْوَى الْوُجُوهِ بِحَرِّ ، * وَيُذِيبُ الْجَسْمَ لَوْ كُنَّ مَحْفَرَا .
لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَّتْ شَمْسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرَا .
وَيُودُ النَّصْنُ النَّضِيرُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى .

وقال أيضا :

بِالْيَلَةِ بِتُّ بِهَا سَاهِدًا * مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَقَرِطِ الْأَوَارِ .
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِمٌ * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي اسْتِنَارُ .
وَكَيْفَ لَا أَحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاؤُهَا بِالشَّهْبِ تَرَى الْهَمَارَ ؟

وقال آخر :

وَبِوَجْهِ سُمُومٍ خَلْتُ أَنَّ نَسِيمَهُ * ذَوَاتُ سُمُومٍ لِلْقُلُوبِ لَوَادِعُ ،
ظَلَمْتُ بِهِ أَشْكَوْ مُكَابِدَةَ الْمَوَى * فَكُوْزَى مَلَانٌ وَمَا فِي قَارِعُ .

وقال محمد بن أبي الثياب ، شاعر اليتيمة :

وَهَاجِرَةٌ نَسْوَى الْوُجُوهَ كَأَنَّهَا * إِذَا لَفَعَتْ خَدَيَّ نَارٌ تَوَجُّعُ .
وَمَاءُ كَلُونِ الزَّيْتِ مِلْحٌ كَأَنَّهُ * يُوْجِدِي بَقْلِي أَوْ يَهْجِرُكَ يُمْرُجُ .

وقال النعالي :

رُبَّ يَوْمٍ هَوَاؤُهُ يَتَلَطَّى * فَيُحَاكِي فُؤَادَ صَبِّ مُتَمِّمُ .
قُلْتُ إِذْ صَكَ حَرُّهُ وَوَجْهِي * "رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ" !

وبما رصف به من النثر قول بعضهم :

أوقدت الظهيرة ناراها ، وأذكت أوارها ؛ فأذابت دماغ الضب ، وأهبت قلب
الصب ؛ هاجرة كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت بنيران الفراق ؛ حر تهرب له
الهرباء من الشمس ، وتستجير بتمراكب الرمس ؛ لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع معه
سرج ولا خيش ؛ فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور .

٣ - وأما فصل الخريف - فإن طبعه بارد يابس ؛ ودخوله عند حلول
الشمس برأس الميزان والمقرب والقوس .

وهذه البروج تدل على الحركة ؛ وله من السن الكهولة ؛ ومن الرياح الشمال ؛
ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ؛ ومن القوى القوة الماخضة ؛ ومن الأخلاط
المرة السوداء ؛ ومن الكواكب زحل ؛ ومن المنازل بعض الصرفة والعرواء والسماك
والعقر والزبائين والقلب وبعض الشولة ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما ؛ ويكون
حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول ، ويوافقه ستمبر من شهور الروم ،
وفي الثامن عشر من توت .

وفي هذا الفصل يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتضرم الثمار ، ويفتر وجه الأرض ،
ويصفتر ورق الشجر . وتهزل البهائم ، وتموت الهوام ، وتنجحر الحشرات ، وتطلب الطير
المواضع الدفنة ، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة .

ويقال : فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين .

وأنته أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الخريف وتشبيهه نظارته .

فمن ذلك ما قاله الصنوبري ، عفا الله عنه :

ما قَضَى في الربيع حَقَّ المَسْرَا * تِ مُضِيعَ زَمَانَهُ في الخريف .
نَحْنُ مِنْهُ عَلَي تَلَقَّى شِتَاءِ * يُوجِبُ القَصْفَ أَوْ دَاعِ مِصْنِفِ .
في قَبِيصٍ مِنَ الزمانِ رَقِيقِي * وِرْدَاءِ مِنَ المَوَاءِ خَفِيفِ .
يَرْعُدُ المَاءُ مِنْهُ خَوْفًا إِذَا مَا * لَمَسَتْهُ يَدُ النِّسِيمِ الضَّعِيفِ .

وقال عبد الله بن المعتز :

طَابَ شُرْبُ الصَّبُوحِ في أيلولِ ! * بَرَدَ الظِّلُّ في الضُّحَى والأَصِيلِ !
وَجَبَتْ جَمْرَةُ المَوَاحِرِ عَنَّا ، * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النِّهَارِ الطَّوِيلِ .
وَتَرَجْنَا مِنَ السُّمُومِ إِلى بَرِّ * دِ نَسِيمِ ، وَطِيبَ ظِلِّ ظَلِيلِ ،
وَشَمَالِ تَبَشَّرِ الأَرْضِ بِالقَطْرِ كذيلِ الفِلالَةِ المَسْلُولِ .
فكأنما نَزَادُ قُرْبًا إِلى الجَنَّةِ في كُلِّ شَارِقِ وَأَصِيلِ .
وَوُجُوهُ اليَقَاعِ تَنْتَظِرُ الفَيْئَتَ أَنْتَظَارَ المِجَّبِ رَدَّ الرُّسُولِ .
تَبْتَنِي غُلَّةٌ لَتَعْمَلَ رَوْضًا * بِكثِيرٍ مِنَ الحَيَا أَوْ قَلِيلِ .

وقال آخر :

اشْرَبَ عَلَي طِيبِ الزَّمَانِ قَدَّ حَدَا * بِالصَّيفِ مِنَ أيلولِ أَسْرَعُ حَدَا .
وَأَشْتَمْنَا بِالَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ * فَارْتاحَتِ الأرواحُ في الأَجْسَادِ .
وَإِنَّا كَ بِالْأَنْدَاءِ قُدَّامَ الحَيَا * فَالأَرْضُ لِلْأَمْطَارِ في أَسْتَعْدَادِ .
كَمْ في صَمَائِرِ ثَرِيهَا مِنَ رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ مَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادِ .
تَبْدُو إِذَا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِه * فَكأنما كَانَا عَلَي مِيعَادِ .

وقال آخر :

لا تَصْنَعِ لِلْيَوْمِ إِتِّبَ اللَّوْمَ تَضْلِيلُ * وَأَشْرَبْ فِي الشَّرْبِ لِأَحْزَانِ تَحْلِيلُ .
فقد مَضَى القَيْطُ وَأَجْتَنَّتْ رَوَاحِلُهُ ، * وَطَابَتِ الرَّاحُ لِمَا آلَ أَيْلُولُ .
وليس في الأَرْضِ نَبْتُ يَشْكِي رَمْدًا * إِلا وَنَظِيرُهُ بِالطَّلِّ مَكْحُولُ .

وقال آخر يذمه :

خُدْ بِالتَّدْرِثِ فِي الخَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ ، وَنَسِيمُهُ خَطَافُ .
يَجْرِي مَعَ الأَيَّامِ جَرَى نِقَافِهَا * لِصَدِيقِهَا "وَمِنَ الصَّدِيقِ يُخَافُ" !

ربما وصف به من النثر :

قال أبو إسحاق الصابى يصفه :

الخريف أصح فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين، المتوسطين
بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زيتتها، وأطلقت
السماء حوافل أنوائها، وتأذنت بانسكاب مائها، وصارت الموارد، كمتون المبارد،
صفاء من كدرها، وتهذباً من عكرها، وأطرادا مع نفحات الهواء، وحركات الريح
الشجواء، وأكتست المشاية وبراها القشيب، والطارر ريشه العجيب .

وقال ابن شبيل :

كُلُّ مَا يَظْهَرُ فِي الرَّبِيعِ نُورَاهُ ، فِي الخَرِيفِ نُجْتَى ثِمَارُهُ ؛ فَهُوَ الحَاجِبُ أَمَامَهُ ،
والمُطْرِقُ قُدَّامَهُ .

وقال ضياء الدين ابن الأثير الجزرى عن الخريف يفتخر على فصل الربيع :
أنا الذى آتى بدهاب السموم، وإياب النجوم، واعتصار بنات الكروم، وتكاثر ألوان
المشروب والمطعم، وفي يترق صفاء الأنهار، فتشبه القوابل بالأشجار، وأيامى

هي الذهبيات وتلك نسبة كريمة التجار؛ ومن ثم راقى ما لا تزال أمماته حوامل ،
وأورافه بوضوح وغيرها ذوابل، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل .
ولقد أنصف من قال :

تَحَاسِنُ لِلْفَرِيفِ بَيْنَ فَخْرٍ * عَلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ ، وَأَيُّ فَخْرٍ !
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وَعَقِيبَ حَرِّ .

١٠ : — وأما فصل الشتاء، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس
رأس الجدى والدلو والحوت .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السن الشيخوخة ؛ ومن الرياح الدبور؛
ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة؛ ومن القوى القوة الدافعة ؛
ومن الاخلاط البلم؛ ومن الكواكب المشترى وعطارد؛ ومن المنازل بعض الشولة
والنعائم والبلدة وسعد الذابج وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وبعض
الفرغ المقدم؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما .

ويكون حلول الشمس برأس الجدى في الثالث عشر من كانون الأول، ويوافق
دجنبر من شهور الروم ؛ وفي السابع عشر من كيهك من شهور القبط . وإذا حلت
الشمس ببرج الجدى يشتد البرد، ويخشن الهواء، ويتساقط ورق الشجر، وتنجح
الحيوانات، وتضعف قوى الأبدان، وتكثر الأنواء، ويظلم الجو، وتصير الدنيا كأنها
عجوز هريمة قد دنا منها الموت .

وروى عن عليّ (رضي الله عنه) أنه قال : ”توقوا البرد في أوله، وتلقوه في آخره،
فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار : أوله يُحرق، وآخره يُورق“ .

ذكر ما قيل في وصف فصل الشتاء ونشيبه .

فمن ذلك ما قاله جرير شاعر الحماسة :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ بُحْمَادِي ذَاتِ أَنْدِيَةِ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ فِي ظَلْمَانِهَا الْعُتْبَانَ .
لَا يَنْبِجُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يُلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الدَّنْبَانَ .

وقال ابن حكيمنا البغدادي :

الْبَسَ إِذَا قَدِمَ الشِّتَاءُ بَرُودًا * وَأَفْرَشَ عَلَى رِغْمِ الْحَصِيرِ لُبُودًا .
الرِّيقُ فِي اللَّهَوَاتِ أَصْبَحَ جَامِدًا * وَالذَّمْعُ فِي الْآمَاقِ صَارَ بَرُودًا .
وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْهَوَا * عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَمِيقِ عُقُودًا .
وَتَرَى عَلَى بَرْدِ الْمِيَاهِ طُيُورَهَا * تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّفُودًا .
بِأَصْحَابِ الْعُودَيْنِ لِأَتْمَلُهُمَا * أَوْ قَدَلْنَا عُودًا، وَحَرَّكَ عُودًا!

وقال آخر :

وَيَوْمَنَا أَرْوَاهُ قَرَّةً * تُحْمَشُ الْأَبْدَانُ مِنْ قَرِصَا .
يَوْمٌ تَوَدُّ الشَّمْسُ مِنْ بَرِّهِ * لَوْ جَرَّتِ النَّارُ إِلَى قَرِصَا!

وقال عبد الله بن المعتز :

قَدْ مَنَعَ الْمَاءُ مِنَ الْبَسِ * وَأَمَكْنَ الْجَمْرُ مِنَ الْمَسِّ .
فَلَيْسَ نَلْقَى غَيْرَ ذِي رِعْدَةٍ، * وَمُسْلِمٌ يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ!

وقال آخر :

لَيْسَ عِنْدِي مِنَ آلَةِ الْبَرْدِ إِلَّا * حُسْنُ صَبْرِي، وَرِعْدَتِي، وَفُنُوعِي .
فَكَأَنِّي لِشِدَّةِ الْبَرْدِ هِرٌّ * يَرْقُبُ الشَّمْسَ فِي أَوَانِ الطَّلُوعِ .

وقال ابن سكرة الهاشمي، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

قيل : ما أعددت للبر * دٍ وقد جاء يشده ؟
قلت : دراعة برد * تحتها جبة رعدة .

وقال أبو سعيد الخزومي :

إذا كُنتَ في بلدةٍ نازلاً * وحلَّ الشتاءَ حُلُولَ المقيمِ ،
فلا تَبُرْزَنَّ إلى أن تَرَى * من الصَّحورِ يوماً صحیحَ الأديمِ .
فكم زَلَقَةٍ في حواشي الطريق * تُردُّ الثيابَ ينجزي عظيم !
وكم من لثيمٍ عداً راكباً * يُحبُّ البلاءَ لماسٍ كريم !

وقال الصاحب بن عباد :

أنى رَكِبْتُ فكفَّ الأرضَ كاتِبَةً * على نيايِ سَطوراً ليسَ تَتَكَمَّمُ .
فالأرضُ مَحْبَرَةٌ ، والحبرُ من لثقي * والطرسُ نوبى ، ويُعنى الأشهبُ القلمُ .

قال أبو علي كاتب بكر شاعر اليتيمة :

يا بلدةً أسألتني بردها * وبردٌ من يسكنها للقلق .
لا يسلمُ الشاتي بها من أذى * من لثقي ، أو دمقي ، أو زلق .

ومما وصف به ثرا قول بعضهم :

إذا حَلَّتِ الشمسُ برجَ الحدى مدَّ الشتاءُ رِواقه ، وحلَّ نِطاقه ، ودبَّتْ عَقَارِبُ
البردِ لاسِبةً ، ونَفَعَ مَذْخُورُ الكَسْبِ كاسِبَةً .

ومن رسالة لأبن أبي الخصال ، جاء منها :

الكلب قد صاغ خيشومه ذنبه ، وأنكر البيتَ وطنبه ، وألتوى ألنواءَ الحُبابِ ،

وَأَسْتَدَارَ اسْتَدَارَةَ الغرابِ ، وجَلَدَه الجليدُ ، وضرِبَه الضريبُ وصعدَ أنفاسَه الصعیدُ ؛

فجأه مباح، ولا هيرير له ولا نباح، والنار كالصديق، أو كالرحيق، كلاهما عتقاء مغرب،
أو نعيم مغرب.

وقال بعضهم :

برد يُغير الألوان، وينشف الأبدان، ويجمد الريق في الأشداق، والدَّمع في الآفاق؛
بردٌ حال بين الكلب وهيريره، والأسد وزئيره، والطير وصفيره، والماء وتحريره .
وقيل لبعضهم : أى البرد أشدُّ؟ فقال : إذا دمت العينان، وقطر المخران،
وتلجلج اللسان، وأصطكت الأسنان .

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة فقال :

عندى في وصف الفصول الأربعة * مقالة تعني اللبيب مقننه .

ذكر ما قيل في فصل الصيف

أما المصيف، فاستمع ما فيه * من فطين يفهم سامعيه .
فصل من الدهر إذا قيل حضر، * أذ كونا يحتره نار سقر .
يظل فيه القلب مقشعرا، * والأرض تشكو حره المضرا .
أوله فيه ندى منقص * كأنه على القلوب يقنص .
يلصق منه الجلد بالتياب * ويملأ التراب بالاثواب .
حتى إذا ما طردته الشمس * وفرحت بأن يزول النفس .
فتحت النار لنا أبوابها * وشب فيها مالك شهابها .
حر يميل الأوجه الغرانا * حتى ترى الروم به حبشانا .
يلو به الكرب ويستند القلق * وتنضح الأبدان فيه بالمرق .

١١

تُبْصِرُهُ فَوْقَ الْقَمِيصِ قَدِ عَلَا * حَتَّى تَرَى مُبِيضَهُ مُصْنَدَلَا .
 إِنْ كَانَ رَمًا، زَادَ فِي تَمْزِيْقِهِ ؛ * أَوْ مُسْتَجِدًّا، جَدَّ جَبَلِ زَيْقِهِ .
 ثُمَّ يُبِيدُ الْمَاءَ نَارًا حَامِيَةً * يَزِيدُ فِي كَرْبِ الْقُلُوبِ الصَّادِيَةَ .
 شَارِبُهُ يَكْرَعُ فِي حَمِيمٍ * كَأَنَّهُ مِنْ سَاكِيِ الْجَحِيمِ .
 يُنْسِيهِ مَا يَلْقَى مِنْ آتِهَابِهِ * أَنْ يَتَّخِذَ اللَّهُ عَلَى شَرَابِهِ ؛
 حَتَّى إِذَا أَعْيَا، أَنْقَضَى نَهَارَهُ * وَأُرْخِيَتْ مِنْ لَيْلِهِ أَسْتَارُهُ ،
 تَحَرَّكَتْ فِي جُنْحِهِ دَوَاهِي * سَارِيَتُهُ، وَأَنْتَ عَنْهَا لَاهِي .
 مِنْ عَقْرِبٍ يَسْعَى كَسَعَى اللَّصِّ * مِلاَحُهَا فِي إِثْرِهِ كَالنِّصِّ .
 وَحِيَّةٍ تَنْفُثُ سُمًّا قَاتِلًا * تَزُودُ الْمَلْسُوعَ حَتْفًا عَاجِلًا .
 تُبْصِرُ مَا يَجْلِدُهَا مِنَ الرَّقْشِ * كَوَجِيَّةٍ مُصْفَرَّةٍ فِيهَا تَمَشُّ .
 لَوْ تَهَشَّبَتْ بِالنَّابِ مِنْهَا الْخَضِرَا ، * لَنَثَرَتْ مِنْهُ الْحَيَاةَ نَثْرًا .
 فَلَا تُقَلِّ إِنْ جَاءَ يَوْمًا أَهْلًا * فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَضْلًا .

ذكر ما قيل في فضل الخريف

حَتَّى إِذَا زَالَ، أَتَى الْخَرِيفُ : * فَضَلُّ يَكُلُّ سَوَاءً مَعْرُوفُ .
 أَهْوَنُهُ يُسْرِعُ فِي حَلِّ الْجَسَدِ * وَهُوَ كَطَبِخِ الْمَوْتِ يَبَسُّ وَبَرْدُ .
 يَجْنِي عَلَى الْأَجْسَامِ مِنْ آفَاتِهِ ، * وَأَرْضُهُ قَرَعَاءُ مِنْ نَبَاتِهِ .
 لَا يُعْمِكُنُ النَّاسَ اتِّقَاءُ شَرِّهِ * وَلَا خِلَافُ بَرْدِهِ وَحَرِّهِ .
 تُبْصِرُهُ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْأَرْعَنِ * مِنْ كَثْرَةِ الْعُنَاقِ وَالْتَلُونِ .
 فَانَتْ مِنْهُ خَائِفٌ عَلَى حَذَرٍ * لِأَنَّهُ يَمْزُجُ بِالصَّفْوِ الْكَدَرُ .

أَحْسَنُ مَا يُهْدِي لَكَ النَّسِيأَ * يَقْبَلُهُ فِي سَاعَةٍ سُمُومًا .
وهو على المعدود من ذُنُوبِهِ * خَيْرٌ مِنَ الصَّيْفِ عَلَى عِيُوبِهِ .

ذكر ما قيل في فصل الشتاء .

حَتَّى إِذَا مَا أَقْبَلَ الشَّتَاءُ ، * جَاءَتْكَ مِنْهُ عُجْمَةٌ عَمِيَاءُ .
لو أَنَّهُ رُوحٌ ، لَكَانَ قَدَمًا * أَوْ أَنَّهُ شَخْصٌ ، لَكَانَ جَهْمًا .
يَلْقَاكَ مِنْهُ أَسَدٌ يَزِيرُ * لَهُ وَعِيدٌ وَلَهُ تَحْذِيرُ .
تَأْتِيكَ فِي أَيَّامِهِ رِيَّاحٌ * لَيْسَ عَلَى لَأَعْنَهَا جُنَّاحُ .
حَرَّأُكُهَا لَيْسَ إِلَى سُكُونٍ * تَضُرُّ بِالْأَسْمَاعِ وَالْعِيُونُ .
يَحْدُثُ مِنْ أَعْمَالِهَا الزُّكَامُ * هَذَا إِذَا مَا فَاتَكَ الصَّدَامُ .
ثُمَّ يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمٌ * كَأَنَّهُ خَصَمٌ لَنَا مَلَاوِمُ .
يَقْطَعُنَا بَعْضًا عَنِ الطَّرِيقِ * وَعَنْ قَضَاءِ الْحَقِّ لِلصَّادِقِ .
وَرَبَّمَا نَحَرَ عَلِيكَ السَّقْفُ ، * فَإِنْ عَفَا عَنْكَ أَتَاكَ الْوَكْفُ .
وَإِنْ أُرِدْتَ فِي النَّهَارِ الشُّرْبَا * فِيهِ ، فَقَدْ قَاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا .
وَاحْتَجَجْتَ أَنْ تُوقِدَ فِيهِ نَارًا * تُطِيرُ نَحْوَ الْحَدَقِ الشَّرَارَا .
يَبْرُكُ مُبِيضُ الثِّيَابِ أَرْقَطًا * يَجْحَى السَّعِيدِي لَكَ الْمُنْقَطَا .
وَبَعْدَ ذَا نُسِدُّ النِّقَابَا * مِنْ خَوْفِهِ وَتُعَلِّقُ الْأَبْوَابَا .
نَعْمَ ، وَتُرْجَى دُونَهُ السُّتُورَا * حَتَّى تَرَى صَبَاحَهُ دَيْمُورَا .
وَإِنْ أُرِدْتَ الشُّرْبَ فِي الظَّلَامِ * عَاقَكَ عَنِ تَتَاوُلِ الْمَدَامِ .
حَسْبُكَ أَنْ تَتَدَسَّ فِي اللَّفَافِ * مِنْ خَشْيَةِ الْبَرْدِ عَلَى الْأَطْرَافِ !
وَرَعْدُهُ يَشْفُلُ عَنِ كُلِّ عَمَلٍ * وَيُذِرُ النَّوْمَ وَيَسْتَحِلُّ الْكَسَلَ .

حَتَّى إِذَا جِئْتَ إِلَى الرُّقَادِ، نِمْتَ عَلَى فَرَسٍ مِنَ الْقَتَادِ.
 إِنَّ الْبَرَاعِيَةَ عَذَابٌ مُنْعَجٌ * لِكُلِّ قَلْبٍ وَجِلْدٍ يَنْضَجُ.
 لَا يَسْتَلِدُّ جِلْدَكَ الْمَضَاجِعَا * كَأَنَّمَا أَقْرَسَهُ مَبَاضِعَا.
 تَنَحَّ فَصَلًا فَوْقَ مَا ذَمَّمْتَهُ * لَوْ أَنَّهُ يَظْهَرُ لِي، قَتَلْتَهُ.
 حَتَّى إِذَا مَا هُوَ عَنَّا بَانَا * وَزَالَ عَنَّا بَعْضُهُ، لَا كَانَا!

ذكر ما قيل في فصل الربيع

جَاءَ إِلَيْنَا زَمَنُ الرَّبِيعِ * بَخَاءِ فَصَلٍ حَسَنٍ الْجَمِيعِ.
 لِبَرْدِهِ وَحَرِّهِ مِقْدَارٌ * لَمْ يَكْتَفِ حَدَّهُمَا إِكْتَارٌ.
 عُدَلٌ فِي أَوْزَانِهِ حَتَّى آعْتَدَلُ * وَحِدِ التَّفْصِيلُ مِنْهُ وَالْجُمْلُ.
 نَهَارُهُ فِي أَحْسَنِ النَّهَارِ * فِي غَايَةِ الْإِشْرَاقِ وَالْإِسْفَارِ.
 تَضَحَّكَ فِيهِ الشَّمْسُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ * كَأَنَّهَا فِي الْأَفْقِ جَآمٌ مِنْ ذَهَبِ.
 وَابْنُهُ مُسْتَلْطَفٌ الْنَسِيمِ * مَقُومٌ فِي أَحْسَنِ التَّقْوِيمِ.
 لِبَدْرِهِ فَضْلٌ عَلَى الْبُدُورِ * فِي حُسْنِ إِشْرَاقِ وَقَرِطِ نُورِ.
 بَكَاةِ الْبَلُورِ فِي صَفَائِهَا * أَذَابَتِ الْجِرَادَ فِي تَقَائِهَا.
 كَأَنَّهَا إِذَا دَنَتْ مِنْ بَدْرِهِ * جَوْرَاؤُهُ قَبْلَ طُلُوعِ بَجْرِهِ.
 رُومِيَّةٌ حَلَّتْهَا زَرْقَاءُ * فِي الْجِيدِ مِنْهَا دُرَّةٌ بِيضَاءُ.
 هَذَا وَكَمْ يَجْمَعُ مِنْ أُمُورٍ * إِطْرَاءُ مُطْرِبِهَا مِنَ التَّنْصِيرِ.
 فِيهِ تَقَطَّلُ الطَّيْرُ فِي تَرْمٍ * حَادِقَةً بِالْحَمْرِ لَمْ تُعَلِّمْ.
 غَنَّاؤُهَا دُوٌّ مُعْجَمَةٌ لَا يَفْقَهُهُ * سَامِعُهُ وَعَمُّهُ عَلَى ذَا يَفْرَمُهُ.
 مِنْ كُلِّ دُبْسِيٍّ لَهُ قَرِينٌ * وَكُلِّ مُخْجَرِيٍّ لَهُ حَيْنٌ.

فِي قُرْطَنِي أُعْجِلَ أَنْ يُورَدَا * خَاطَلَهُ الْخَيْاطُ طَوَقًا أَسْوَدَا.
 تُبَصِّرُهُ مِنْهُ عَلَى الْحَيْزُومِ * كَيْسَلِ عِقْدِ سَبِيحٍ مَنْظُومِ.
 هَذَا وَفِيهِ لِلرِّيَاضِ مَنَظَرٌ * يُفِيئِي الثَّرَى مِنْ سِرِّهِ مَا يُضْمِرُ.
 سِرُّ نَبَاتٍ حُسْنُهُ إِعْلَانُهُ * إِذَا سِوَاهُ زَانَهُ كَيْتَمَانُهُ.
 فِيهِ ضُرُوبٌ لِنَبَاتِ الْغَضِّ ^(١) * يَحْكِي لِإِسَابِ الْجُنْدِ يَوْمَ الْعَرَضِ.
 مِنْ نَرَجِسٍ أَيْضًا كَالثُّغُورِ * كَأَنَّهُ تَحَاقِقُ الْكَافُورِ.
 وَرَوْضَةٍ تُرْهِرُ مِنْ بَنَسَجٍ * كَأَنَّهَا أَرْضٌ مِنَ الْفَيْرِ وَرَجِ.
 قَدْ لَيْسَتْ غَلَالَةٌ زَرْقَاءَ * وَكَأَيَّدَتْ بِلَوْنِهَا السَّمَاءَ.
 يَضْحَكُ مِنْهَا زَهْرُ الشَّقِيقِ * كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ الْعَيْقِيقِ.
 مُضْمَنَاتٍ قِطْعًا مِنَ السَّبَجِ * قَدْ أَشْرَقَتْ مِنْ أَحْمَرٍ وَدَعَجِ.
 كَأَنَّهَا الْمُحْمَرُّ فِي الْمُسَوِّدِ * مِنْهُ إِذَا لَاحَ عُيُونُ الرُّمْدِ.
 وَأَرْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى الْبَهَارِ * فَإِنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَزْهَارِ.
 كَأَنَّهُ مَدَاهِنٌ مِنْ عَسَجِدِ * قَدْ سُمِّرَتْ فِي قُضْبِ الزُّبْرَجِدِ.
 فَأَنْهَضْ إِلَى اللَّهِوِ وَلَا تَحْتَلِفْ * فَلَسْتَ فِي ذَلِكَ بِالْمُعْنِفِ.
 وَأَشْرَبْ عُقَارًا طَالَ فِينَا كَوْنُهَا * يَصْفُرُّ مِنْ خَوْفِ الْمِرَاجِ لَوْنُهَا.
 دُونَكَ هَذِي صِفَةُ الزَّمَانِ * مَشْرُوحَةٌ فِي أَحْسَنِ التَّبْيَانِ!
 وَأَرْضٌ بِتَقْلِيدِي فِيمَا قَلْتَهُ * فَإِنِّي أَذْرِي بِمَا وَصَفْتَهُ.

(١) لعله للنبات بالعرف.

الباب الرابع

من القسم الثالث من الفن الأول

في ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب آتخاذها لها، وما قيل في ذلك

والذي أوردّه في هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتي للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لما تعذر عليّ من أتقاء من فيه. وضمته أعياد المسلمين، والقُرس والنصارى، واليهود.

١ - ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة آثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحى.

والسبب في آتخاذهما، ما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أنه قدم

- ١٠ مدينة، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن الله (عز وجل) قد بذلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى". فأول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة آثنتين من الهجرة. وفيها كان عيد الأضحى.

وعيد آبتدعته الشيعة، وسموه عيد الغدير. وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبي (صلى

- ١٥ الله عليه وسلم) عليّ بن أبي طالب (رضى الله عنه) يوم غدير خم. والغدير على ثلاثة أيام من الجحفة بئر الطريق. قالوا: وهذا الغدير تُصب فيه عين، وحوله شجر كثير ملتف بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجد لرسول الله (صلى الله عليه وسلم). واليوم الذي آبتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذى الحجة، لأن المؤاخاة كانت

(١) في صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤٠٧) ثلاثة أميال، وفي المعجم | بينه وبين الجحفة ميلان |.

فيه في سنة عشرة من الهجرة، وهي حجة الوداع. وهم يُحْيُونَ ليلتها بالصلاة، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال. وشعارهم فيه لبس الحديد، وعتق الرقاب، وبر الأجنب، والذبايح.

وأول من أحدثه معز التولة أبو الحسن علي بن بويه، على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخباره في سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة.

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد، آخذوه من سنتهم، عمل عوام السنة يوم سرور نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة. رجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الفار هو أبو بكر الصديق (رضى الله عنه). وأظهروا في هذا اليوم الزينة، ونصب القباب، وإيقاد النيران.

٢ - ذكر أعياد الفرس

وأعياد الفرس كثيرة جداً. وقد صنف علي بن حمزة الأصفهاني فيها كتاباً مستقلاً ذكر فيه أعيادهم، وسبب اتخاذهم لها، وسنن ملوكهم فيها. وقد رأيت أن اقتصر على المشهور منها، وهي ثلاثة أعياد: النيروز، والمهرجان، والسدق.

١ - فاما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلها. يقال إن أول من آخذ جمشيد أحد ملوك الفرس الأول. ويقال فيه جمشاد، ومعنى جم القمر، وشاد الشعاع والضياء، وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن طهومت لما هلك، ملك بعده جمشاد. فسمى اليوم الذي ملك فيه نوروز، أي اليوم الجديد.

ومن الفرس من يزعم أن النيروز اليوم الذي خلق الله (عز وجل) فيه النور، وأنه كان معظّم القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران.

كيف أبتهجك بالنيروز يا سكي؟ * وكل ما فيه يمكيني وأحكيه!
فناره كلهب النار في كيدي! * وماؤه كنوالي عبرتي فيه!
وقال آخر:

نورز الناس ونورز * ت، ولكن بدموعي!
وذكت نارهم، والنشأ ما بين ضلوعي!

٢ - وأما المهرجان، فوقعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهر
السرمان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهر الفرس.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء:

أحب المهرجان لأن فيه * سرورا للملوك ذوى السناء،
وبابا للصير إلى أوان * تفتح فيه أبواب السماء.

وهو ستة أيام. ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعودي:
وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمون شهرهم بأسماء ملوكهم.
وكان لهم ملك يسمى مهر، يسير فيهم بالعرف والعسف. فأت في نصف الشهر الذي
يسمونه مهرماه، فسمى ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره "نفس مهر ذهبت" وهذه لغة
الفرس الأول. وزعم آخرون أن "مهر" بالفارسية حفاظ و"جان" الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ذلك، فقال:

إذا ما تحقق بالسرجا * ن من ليس يعرف معناه، غاظا.
ومعناه أن غلب الفرس فيه * فسماه للروح حقا حفاظا.

ويقال إنه إنما تم في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم "إدراك النار".

وسبب أخذهم له ، أن بيوراسف (وهو الضحاك) ، ويقال له أزدهاق ذوالحيّتين والأفواه الثلاثة ، والأعين الستة ، الداهي الخبيث المتمرد ، لما قتل جمشاد ، وملك بعده ، غير دين المجوسية . وجاء إبليس في صورة خادم ، فقبل منكبيه ، فبنت فيهما حيطان ، فكان يُطعمهما أدمغة الناس . فأجحف ذلك بالرعية ، فخرج رجل بأصبهان ، يقال له كابي ، ويقال فيه كايان . ودعا الناس إلى قتاله ، فأجتمع له خلق كثير . فشخص الضحاك لقتاله ، فهاب كثرة جمعه وفر منهم . فاجتمع الناس على كابي ليلكوه عليهم ، فأبى ذلك وقال : ما أنا من أهل الملك ، وأخرج صبيا من ولد جمشاد ، يسمّى أفريدون وملكه ، فأطاعه الناس فيه وملكوه عليهم .

٧٧

- وخرج أفريدون في طلب الضحاك ليأخذ ناره فظفر به ، وجعل ذلك اليوم عيداً ، وسماه المهرجان . ويقال إن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك ، أول ملوك الفرس الساسانية .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز :

أَخَا الْفُرْسِ إِنَّ الْفُرْسَ تَعَلَّمُ إِنَّهُ * لِأَطْيَبُ مِنْ نَيْرُوزِهَا مَهْرَجَانُهَا :

لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يَغْمُ هَوَاؤُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسْرُرْ زَمَانُهَا .

- وكان مذهب الفرس فيه أن يدهن ملوئهم بدهن البان تبركا ، وكذلك عوامهم ، وأن يلبس القصب والوشى ، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس ومجملتها الدائرة عليها ، ويكون أول من يدخل عليه الموبدان بطبق فيه أثرجة ، وقطعة سكر ، وبنق ، وسفرجل ، وعناب ، وتفاح ، وعنقود عنب أبيض ، وسبع طاقات آس قد زمزم

عنها .

ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك .

وكان أردشير، وأوشروان يأمران بإخراج ما في خزائهم في المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفرش، فتفرق كلها في الناس على مراتبهم، ويقولان : إن الملوك تستغنى عن كسوة الصيف في الشتاء، وعن كسوة الشتاء في الصيف ، وليس من أخلاقهم أن يحبوا كسوتهم في خزائهم ويساوا العامة في فعلها .

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز تحمله الفرس قبل المهرجان بألفي سنة وخمسمائة سنة .

٣ - وأما السدق ، فإنه يعمل في ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه . ويسمى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم أسما .

١٠ ويقال في سبب اتخاذهم له : إن فراسياب لما ملك ، سار إلى بلاد بابل وأكثر فيها الفساد، وحرب العمران . فخرج عليه دق بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلى بلاد الترك . وكان ذلك في يوم أبان روز . فاتخذ الفرس هذا اليوم عيداً، وجعلوه ثالثاً ليوم النيروز، والمهرجان .

١٥ ويقال أيضاً في سبب اتخاذهم له : إن الأب الأول . وهو عندهم كيومرت ، لما كمل له مائة ولد، وزوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عرساً أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، وأستسنه الفرس بعده .

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان، ويزيدون في الولوع بها، حتى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات .

وفي ذلك يقول ابن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه :

مَوْلَايَ يَا مَنْ نَدَاهُ يَعْذُو * فَفَاتَ سَبْتًا وَلَيْسَ يُلْحَقُ .

لَيْلَتِنَا حُسْنَهَا عَجِيبٌ * بِالْقَصْفِ وَالْعَرْفِ قَدْ جَحَقُ .

لِنَارِهَا فِي السَّمَاءِ لِسَانٌ * عَنِ نُورِضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ .

وَالجَوْءُ مِنْهَا قَدْ صَارَ جَمْرًا * وَالنَّجْمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يَحْرِقُ .

وَدِجْلَةٌ أَضْرَمَتْ حَرِيقًا * بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زَوْرَقِ .

فَأَوْهَا كُلُّهَا حَمِيمٌ * قَدْ فَارَمَا عَلِيًّا وَبَقِيَ .^(٢)

وقال أبو القاسم المطرزي، في سَدَقِ عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع

والنيران في السَّمِيرِيَّاتِ بِدِجْلَةٍ، وذلك في سنة أربع وثمانين وأربعمائة :

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعِشَاقِ مُضْرَمَةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ .

نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ فَاشْتَبَهَتْ * بِسَدَقَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَقِ !

وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا اللَّيْلَ وَأَصْطَلَحَا * عَلَى الْكَوَاكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِيقِ .

مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطًا مِنْ جَوَاهِرِهَا * مَا بَيْنَ مُجْتَمِعِ وَايٍ وَمُنْفَرِقِ .

مِثْلَ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَّهَا نَزَلَتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِلا رَجْمٍ وَلَا حَرِيقِ .

أَعْجَبَ بِنَارِ وِرِضْوَانٍ يُسَمَّرُهَا * وَمَالِكُ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرَقِ !

فِي مَجْلِسِ صَحِيحَتِ رَوْضِ الْجَنَانِ لَهُ * لَمَّا جَلَا تَفَرُّهُ عَنِ وَاضِحِ يَقِيقِ .

(١) كذا في الأصل ولعله « والجو منها بصير جمرًا » والنجم منها يكاد يحرق « ليستقيم الوزن .

(٢) في الأصول ينقل .

٣ - ذكر أعياد النصارى القبط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيداً: سبعة يسمونها بكباراً، وسبعة يسمونها صغاراً،
فأما الكبار :

١ - فنها عيد البشارة . ويعنون بها بشارة غبريال ، وهو عندهم جبريل عليه السلام على ما يزعمون أنه بشر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى (عليهما السلام) . وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم .

٢ - ومنها عيد الزيتونة . وهو عيد الشعانين ، وتفسيره التسبيح . يعملونه في سابع أحد من صومهم . وسنتهم فيه أن يخرجوا يسعف النخل من الكنيسة . ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليعفور في القدس ، وهو الحمار ، ودخوله صهيون وهو راكب ، والناس يسبحون بين يديه ، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ - ومنها الفصح . وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام .

٤ - ومنها خميس الأربعين . ويسميه الشاميون السلاق^(١) . وهو الثاني والأربعون من الفطر . يزعمون أن المسيح عليه السلام تساق فيه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام ، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس .

٥ - ومنها عيد الخميس . وهو البنصرة يعمل بعد خمسين يوماً من يوم القيام يقولون إن روح القدس حلت بالتلاميذ ، وتفترقت عليهم ألسنة الناس ، فتكلموا بجميع الألسنة ، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

(١) في الأصل السلاق . وفي القاموس [وكرمان عيد للنصارى] وفي صبح الأعيان بغير ياء . عل الصواب .

٦ - ومنها الميلاد . وهو اليوم الذي ولد فيه المسيح . يقولون إنه ولد في يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد . وهم يوقدون فيه المصابيح بالكثائس ويزينونها . ويعمل في التاسع والعشرين من كيهك من شهرهم .

٧ - ومنها الفطاس . ويعمل في الحادى عشر من طوبة من شهرهم . ويقولون إن يحيى بن زكريا ، وينعتونه بالمعمدان ، غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن ، ويزعمون أن عيسى (عليه السلام) لما نخرج من الماء أتصل به روح القدس على هيئة حمامة . والنصارى يغمسون أولادهم في الماء فيه ، ووقته شديد البرد .

وأما الأعياد الصغار :

١ - فمنها الختان . ويعمل في سادس بثونة ، يقولون إن المسيح ختن في هذا اليوم . وهو الثامن من الميلاد .

٢ - ومنها الأربعون . وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسى (عليه السلام) مع أمته [الهيكل^(١)] وبارك عليه . ويعمل في ثامن أمشير من شهرهم .

٣ - ومنها خميس العهد . ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام . وستتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يفسل البطريك به أرجل سائر الناس . ويزعمون أن المسيح عيسى (عليه السلام) فعل مثل هذا بتلاميذه في مثل هذا اليوم ، يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفترقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض . وعوام النصارى يسمون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العَدَس المقشور

على ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز. ومنها خميس البيض أيضا . ويسميه أهل الأندلس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم .

٤ - ومنها سبت الثور . وهو قبل الفصح بيوم . يقولون إن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس . وليس كذلك، بل هو من تخيلات فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم . وقيل إنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح، ويحيلون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على سائرها شريطا من حديد في غاية الدقة، يدهنونه بدهن اللسان ودهن الزنبق . فإذا صلّوا، وحن وقت الزوال، فتحوا المذبح، فدخل الناس إليه، وقد أشعلت فيه الشموع . ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسرى عليه، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بنسب الدهن .

٥ - ومنها حدّ الحُدود . وهو بعد الفصح بثمانية أيام . يعمل أول أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يحدثون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون في المعاملات، والأمور الدنيوية .

٦ - ومنها التجلي . يقولون : إن المسيح (عليه السلام)، تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِعَ، وتمنّوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا، وموسى، فأحضرهما لهم في مصلى بيت المقدس، ثم صعد . ويعمل في ثالث عشر مسرى من شهورهم .

٧ - وعيد الصليب . وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلاني أنتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية، وبني كنيسة قسطنطينية العظمى، وسائر كنائس الشام .

وسبب ذلك - على ما نقله المؤرخون - أنه كان مجاوراً للبرجان، فضاقت بهم دَرعا من كثرة غاراتهم على بلاده. فهم أن يصانهم ويقرّر لهم عليه إتاوة في كل عام ليكنفوا عنه . فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صليان، فخارت البرجان فهزموهم . فلما أصبح، عمل أعلاماً وضوّر فيها صليانا، ثم قاتل بها البرجان فهزموهم .

وقيل إنه رأى في المنام صليانا من نور في السماء، وقائلاً يقول له : أعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر . فلما أصبح، أمر بعمل صليان من ذهب على رؤوس أعلامه وقاتل بها فَنَصِر . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول في دين النصرانية، وأن يقصوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم . وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبل يأمر ونهم بالتعبدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومثّلوا بهم هذه المثلة نكالا بهم . ففعلوا ذلك تأسياً بهم . ولما تنصر قسطنطين، خرجت أمه هيلاني إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح، على ما يزعمون . وكانت مدفونة في مزبلة . فأخرجت منها، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما جُمِلَتْ إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى آبئها . وأتخذت يوم رؤيتها لها عيداً .

قال المسعودي : وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط . وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذي وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة .

وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الروم في فن التاريخ، وهو في الجزء

الثالث عشر من هذا الكتاب .

٤ - ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توراتهم خمسة :

١ - منها عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا، أي عيد رأس الشهر . وهو أول يوم من تشرين . يتزل عندهم منزلة عيد الأنحية عندنا . ويقولون إن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسمحاق ابنه عليهما السلام فيه ، وفداه بذبح عظيم .

٢ - ومنها عيد صوماريا . ويسمى الكبور . وهو عندهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم . ويقتل من لم يصمه . ومدة الصوم خمس وعشرون ساعة . يبدأ فيه قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين . ويختتم بمضى ساعة بعد غروب من اليوم العاشر . ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار . وهي عندهم تكه الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم في يوم الأحد ، ولا يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة . ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل أخاه . ومحمد ربوبية الله تعالى .

٣ - ومنها عيد المظلة . وهو ثمانية أيام ، أوقلتها الخامس عشر من تشرين . وكه أعياد . واليوم الأخير منها يسمى عرابا ، وتفسيره شجر الخلاف . وهو أيضا حج لهم . وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر ، وأغصان الزيتون . والخلاف ، وسائر الشجر الذي لا ينثر ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك تذكارة منهم لإظلال الله تعالى إياهم في التيه بالغمام .

(١) في صبح الاعشى [سجة أيام]

(٢) في صبح الاعشى [عرابا]

٤ - ومنها عيد الفطير . ويسمونه الفصح . ويكون في الخامس عشر من نيسان . وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير . لأنها عندهم الأيام التي خلاص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه ، فخرجوا إلى التيه ، وجعلوا يأكلون اللحم ، وانخبز الفطير . وهم بذلك فرحون . وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون .

٥ - ومنها عيد الأسابيع ، وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض ، وتكفل فيها الدين . ويسمى عيد العنصرة ، وعيد الخطاب . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع . يقولون إنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طور سيناء . وإن من جملة ما خوطب به العشر كلمات ، وهي وصايا تتضمن أمرا ونهيا . وهو : من محوهم . ومحوهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير . والمظلة . وهم يعظمونه . ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلا عن المن الذي أنزل عليهم في هذا اليوم ، على ما يزعمون . واتخاذهم هذا العيد في اليوم السادس من سيوان .

٦ - وعيد الفوز . وهو عيد أحدثوه . ويسمونه الفوريم . وذكروا في سبب اتخاذهم له أن بختنصر لم أجلى من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم . أسكنهم مدينة بختي ، وهي إحدى مدينتي أصفهان . فلما ملك أردشير بن بابك ، سماه اليهود بالبرانية أجشادوس . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون . ولليهود يومئذ حبر يسمى بلغتهم مردوخى . فبلغ أردشير أن له ابنة عم جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها . فطلب تزويجها منه ، فأجابته إلى ذلك . فتروجها ، وحظيت عنده ، وصار سردوخى قريبا منه . فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدا له ، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير . فرتب مع تواب الملك في سائر الأعمال

أن يقتل كل واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعين لهم يوما وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره ، لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام وُلد فيه ، وتوفي فيه . وأراد بذلك المبالغة في نكائتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم ، وموت موسى (عليه السلام) .

فبلغ مردوخاى ذلك ، فأرسل إلى أبنه عمه يُعلمها بما بلغه ، ويحضرها على أعمال الحيلة في خلاصهم . فأعلمت الملك بالحال ، وذكّرت له أن الوزير إنما حمله على ذلك الحسد ، لقرب مردوخاى منه . فأمر بقتل هيمون الوزير ، وأن يكتب أمان لليهود . فاتخذوه عيداً . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام .

وهذا العيد عندهم عيد سرور ، وهو ، وخلاعة ، وهدايا يهديها بعضهم لبعض ، ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون ، ويمثلون بطن الصورة نخالة . ويلقونها في النار حتى تحترق .

٧ - وعيد الخنكة . وهو أيضا مما أحدثوه . وهو ثمانية أيام . أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا . وهم يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفي الثانية سراجين ، ويضعف ذلك في كل ليلة إلى ثمان ليال . فيكون في الثامنة ثمانية سُرج .

وسبب اتخاذهم لهذا العيد ، أن بعض الجبارة تغلب على البيت المقدس وقتل من كان فيه من بني إسرائيل ، وأقتض أبنكارهم . فوثب عليه أولاد كاهنهم ، وكانوا ثمانية ، فقتله أصغرم . فطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا ، وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى ثمان ليال . فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه الخنكة ، وهو مشتق من التنظيف ، لأنهم نظفوا فيه الهيكل من أقذار شيعة الجبار .

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران
وفيه سبعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

١ - في مبدأ خلق الأرض

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ .

والأرض سبع . كما أن السموات سبع . والدليل على ذلك قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

وأختلف فيها هل هي سبع متطابقات بعضها فوق بعض ، أو سبع متجاورات ؟

فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبع سموات متطابقات متعاليات ، وسبع أرضين

متطابقات متسافلات ؛ وبين كل أرض وأرض ، كما بين كل سماء وسماء ، خمسمائة

ع . وفسر بهذا قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا

رَبْقًا فَتَقَطَّاهُمَا ﴾ . أي كانت سماء واحدة فتقتطعا سبعا .

قل : ولكل أرض أهل وسكان مختلفو الصور والهيئات ؛ ولكل أرض اسم خاص .

(١) أي وأرضا واحدة [ولله سقط من قلم النسخ] .

وذهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرقات لامتنابات . فجعلوا الصين أرضاً ،
وخراسان أرضاً ، والسند والهند أرضاً ، وفارس والجلال والعراق وجزيرة العرب أرضاً ،
والجزيرة والشام وبلاد إرمينية أرضاً ، ومصر وإفريقية أرضاً ، وجزيرة الأندلس
وما جاورها من بلاد الجلائقة والأنكبردة وسائر طوائف الروم أرضاً .

ويقال : إنها كانت على ماء ، والماء على صحفة . والصحفة على سنّام نور ، والنور
على كسك^(١) ، والكسك على ظهر حوت ، والحوت على الماء ، والماء على الريح . والريح
على حجاب ظلمة ، والظلمة على الثرى . وإلى الثرى أقطع علم المخلوقين .

قال الله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ .
وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صحفة . وتحت الصحفة الحوت ، وتحت
الحوت الماء ، وتحت الماء الظلمة ، وتحت الظلمة الهواء ، وتحت الهواء الثرى .
وقد تقدم في الباب الأول من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزبد .
فلا فائدة في تكراره .

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الأول

١٥ - ١ - في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها ، في الاتساع ، والاستواء ، والبعد ،
والغلظ ، والصلابة ، والسهولة ، والحزونة ، والارتفاع ، والانخفاض ، وغير ذلك
قال النعماني : في كتابه المترجم " بفقہ اللغة " وأسندہ إلى أئمة اللغة :

(١) كذا بالأصل ؟

إذا أَسَعَتِ الْأَرْضُ وَلَمْ يَخْلَلْهَا شَجَرٌ أَوْ نَخْرٌ، فَهِيَ الْفَضَاءُ وَالْبَرَازُ وَالْبَرَّاحُ؛ ثُمَّ الصَّخْرَاءُ وَالْعَرَاءُ؛ ثُمَّ الرَّهَاءُ وَالْجَهْرَاءُ .

فَإِذَا كَانَتْ مُسْتَوِيَةً مَعَ الْإِتْسَاعِ، فَهِيَ الْخَبْتُ وَالْجَدْدُ؛ ثُمَّ الصَّحْصَحُ وَالصَّرْدَحُ؛ ثُمَّ التَّسَاعُ وَالْتَّرْقُرُ؛ ثُمَّ التَّرِيقُ وَالصَّفْصَفُ .

فَإِذَا كَانَتْ مَعَ الْإِسْتَوَاءِ وَالِاتْسَاعِ بَعِيدَةً الْأَكْنَافِ وَالْأَطْرَافِ، فَهِيَ السَّهْبُ وَالنَّحْرُوقُ؛ ثُمَّ السَّبْسَبُ وَالسَّمَلَقُ وَالْمَلَقُ .

فَإِذَا كَانَتْ مَعَ الْإِتْسَاعِ وَالِاسْتَوَاءِ وَالْبُعْدِ لَامَاءٍ فِيهَا، فَهِيَ الْفَلَاةُ وَالْمَهْمَةُ؛ ثُمَّ التَّنُوفَةُ وَالْفَيْفَاءُ؛ ثُمَّ النَّفْفُ وَالصَّرْمَاءُ .

فَإِذَا كَانَتْ مَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا يَهْتَدِي فِيهَا لَطَرِيقٌ، فَهِيَ الْبِهْمَاءُ وَالْعَطَشَاءُ .

فَإِذَا كَانَتْ تُضِلُّ سَالِكِيهَا، فَهِيَ الْمِضْلَةُ وَالْمُتَبِّهَةُ .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا أَعْلَامٌ وَلَا مَعَالِمٌ، فَهِيَ الْمَجْهَلُ وَالْمُهَوَّجَلُ .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا أَثَرٌ، فَهِيَ الْغُفْلُ .

فَإِذَا كَانَتْ قَفْرَاءً، فَهِيَ التِّيُّ .

فَإِذَا كَانَتْ تُبِيدُ سَالِكِيهَا، فَهِيَ الْبَيْدَاءُ وَالْمَقَازَةُ كِتَابَةٌ عَنْهَا .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ النَّبْتِ، فَهِيَ الْمَرْتُ وَالْمَلْبَعُ .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ، فَهِيَ الْمَرُورَاءُ وَالسَّبْرُوتُ وَالْبَلْقَعُ .

فَإِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ غَلِيظَةً صُلْبَةً، فَهِيَ الْجُبُوبُ، ثُمَّ الْجَلْدُ، ثُمَّ الْعَزَّازُ، ثُمَّ الصَّيْدَاءُ،

ثُمَّ الْجَدَّجِدُ .

فَإِذَا كَانَتْ صُلْبَةً يَابِسَةً مِنْ غَيْرِ حَصَى، فَهِيَ الْكَلْدُ، ثُمَّ الْجَمْعَاعُ .

- فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل ، فهي البرقة والأبرق .
 فإذا كانت ذات حصى ، فهي المحصاة والمحصبية .
 فإذا كانت كثيرة الحصى ، فهي الأمعز والمعزأ .
 فإذا أشتمت عليها كلها حجارة سود ، فهي الحرة والأابة .
 فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكين ، فهي الحزير .
 فإذا كانت الأرض مطمئنة ، فهي الحوف والغائط ، ثم الهجبل والهضم .
 فإذا كانت مرتفعة ، فهي التجد والنشر .
 فإذا جمعت الأرض الأرتفاع والصّلابة والغلظ ، فهي المتن والصمد ، ثم القف
 والققد والقرد .
 ١٠ فإذا كان ارتفاعها مع اتساع ، فهي اليفاع .
 فإذا كان طولها في السماء مثل البيت ، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع ، فهي التل ،
 وأطول وأعرض منها الربوة والرابية ، ثم الأكمة ، ثم الزبية ، وهي التي لا يعلوها الماء .
 وبها ضرب المثل في قولهم : "بلغ السيل الزبي" ، ثم النجوة ، وهي المكان الذي تظن
 أنه نجاؤك ، ثم الصمان ، وهي الأرض الغليظة دون الجبل .
 ١٥ فإذا ارتفعت عن موضع السيل وأنحدرت عن غلظ الجبل ، فهي الخيف .
 فإذا كانت الأرض لينة سهلة من غير رمل ، فهي الرقاق والبرث ، ثم الميتاء والديمثة .
 فإذا كانت طيبة التربة كريمة المنبت بعيدة عن الأحساء والتزوز ، فهي العداة .
 فإذا كانت مخيلة للنبت والحير ، فهي الأريضة .
 فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شيء ، يختلط بها ، فهي القراح والقرواح .
 ٢٠ فإذا كانت منبهة للزراعة ، فهي الحقل والمشاراة والدبرة .

- [فإذا لم تهباً للزراعة ، فهي بور] .
 فإذا لم يصبها المطر ، فهي القل والجُرُرُ .
 فإذا كانت غير ممطورة وهي بين أرضين ممطورتين ، فهي الخَطِيطَةُ .
 فإذا كانت ذات ندى ووَخَامَةٌ ، فهي الغَمِيقَةُ .
 فإذا كانت ذات سِباخ ، فهي السَّبْحَةُ .
 فإذا كانت ذات وباء ، فهي الوَيْبَةُ والوَيْبَةُ .
 فإذا كانت كثيرة الشجر ، فهي الشَّجْرَاءُ والشَّجِرَةُ .
 فإذا كانت ذات حَيَاتٍ ، فهي المَحْوَاةُ .
 فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب ، فهي المَسْبَعَةُ والمَدَابَهُ .

٢ - ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

- قال النجاشي رحمه الله تعالى :
 الصَّعِيدُ ، تراب وجه الأرض .
 والبُوعَاءُ ، والدَّقْعَاءُ ، التراب الرخو الرقيق الذي كأنه ذَرِيرَةٌ .
 والثَّرَى ، التراب النَّدَى : وهو كل تراب لا يصير طينا لأزباً إذا بُلَّ .
 المُوْرُ ، التراب الذي يَمُورُ به الريح .
 الهَبَاءُ ، التراب الذي تُطَيِّرُهُ الرِّيحُ فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم .
 [يلترق لُزُوقاً] .

(١) الزيادة من فقه النجاشي .

(٢) كذا ضبط في فقه اللغة ، وفي اللسان : (أرض تَحْيَاةٌ ومَحْوَاةٌ كثيرة الحيات) وهو الأول لا طراد هذا الوزن في مثل ذلك .

{والهائي، الذي دُقُّ وأرتفع} ^(١)

السَّافِيَاءُ. التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح .

الْبَيْشَةُ. التراب الذي يُخْرَجُ من البئر عند حفرها .

الرَّاهِطَاءُ، والدَّمَاءُ، التراب الذي يُجْرِحُه اليربوع من مُجْرِحِهِ ويجمعه .

الجُرْثُومَةُ. التراب الذي يجمعه النمل عند قريته .

العَفَاءُ، التراب الذي يُغْفَى الآثَارَ . وكذلك العَفْرُ .

الرَّغَامُ: التراب المختلط بالرمل .

السَّيَادُ. التراب الذي يُسَمَّدُ به النبات . فإذا كان مع السَّرْقِينِ، فهو الدَّمَالُ .

٣ - ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

التُّغُّ والعُكُوبُ. الغبار الذي يثور من حوافر الخيل وأخفاف الإبل .

العَصَاجُ، الغبار الذي تُثْبِرُه الريح .

الرَّهْجُ والقَسَطَلُ . غبار الحرب .

الخَيْضَةُ، غبار المعركة .

العِشْرُ، غبار الأقدام .

المَنِينُ ما تقطع منه .

٤ - ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال :

إذا كان الطين حراً يابساً، فهو الصَّلْصَالُ .

فإذا كان مطبوخاً، فهو الفَخَّارُ .

(١) الزيادة من قه تعالى .

فإذا كان عَلِيْكَ لاصِقًا ، فهو اللَّازِبُ .

فإذا غَيَّرَ الماءَ وأفسده ، فهو الحَمَامُ .

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة) .

فإذا كان رطبًا ، فهو النَّاطِطُ وَالثَّمُطَةُ وَالطَّنْثَةُ .

فإذا كان رقيقًا ، فهو الرَّدَّاعُ .

فإذا كان تَرْتَبِمَ فِيهِ الدَّوَابُّ ، فهو الوَحْلُ . وَأَشَدُّ مِنْهُ الرَّدْغَةُ وَالرَّزْغَةُ . وَأَشَدُّ مِنْهَا

الْوَرْطَةُ تَقَعُ فِيهَا الْغَنَمُ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى التَّخْلِصِ مِنْهَا ؛ ثُمَّ صَارَتْ مِثْلًا لِكُلِّ شِدَّةٍ يَقَعُ

فِيهَا الْإِنْسَانُ .

فإذا كان حُرًّا طيبًا عَلِيْكَ وَفِيهِ خَضْرَاءٌ ، فهو العَضْرَاءُ .

فإذا كان مخلوطًا بالطين ، فهو السَّيَّعُ .

فإذا جُعِلَ بَيْنَ اللَّيْنِ وَفِيهِ الْمَلَّاطُ .

٥ - ذكر تفصيل أسماء الرمال

قال :

العَدَابُ . ما أَسْتَرَقَّ مِنَ الرَّمْلِ .^(١)

الحَبْلُ . ما أَسْتَطَالَ مِنْهُ .

اللَّبَبُ . ما أَنْحَدَرَ مِنْهُ .

الحِقْفُ . ما أَعْوَجَّ مِنْهُ .

الدَّعْصُ . ما أَسْتَدَارَ مِنْهُ .

(١) في الأصل : ما أَسْتَدَّ . ولكن الذي في تدموس وفقه اللغة : ما أَسْتَرَقَّ .

- العقْدَةُ، ما تعقَّد منه .
- العَقْتَلُ، ما تراكم منه .
- السَّقَطُ، ما جعل يتقطَّع ويتصل منه .
- النُّبُورَةُ، ما أشرف منه .
- النُّبُورُ، ما أطمان منه .
- الشَّقِيقَةُ، ما أقطع وغلظ منه .
- الكَثِيبُ والنَّقَا، ما أحدودب وأنهال منه .
- العَاقِرُ، ما لا يُنبت شيئاً منه .
- الهِدْمَةُ، ما كثر شجره منه .
- الأَوْعَسُ، ما سهل ولان منه .
- الرَّغَامُ، ما لان منه . وليس هو الذي يسيل من اليد .
- الْحَيَامُ، ما لا يتمالك أن يُمسك باليد منه لينه .
- الدَّكْدَكُ، ما ألبد بالأرض منه .
- العَائِنُ، ما تمقَّد منه حتى لا يقدر البعير على المنسرف فيه .

٦ - ذكر ترتيب كمية الرمل

قال النعالبي :

- الكثير يقال له العَقْتَلُ .
- فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ .
- فإذا نقص، فهو عَوَكَلٌ .

- فإذا نقص عنه ، فهو سَقَطٌ .
 فإذا نقص عنه ، فهو عَدَابٌ .
 فإذا نقص ، فهو لَبَّ .
 وقال في كتابه "الغريب" ^(١) :
 إذا كانت الرملة مجتمعة ، فهي الموكلة .
 فإذا أنبسطت وطالت ، فهي الكئيب .
 فإذا انتقل الكئيب من موضع إلى آخر بالرياح وبق منه شيء ، رقيق - فهو اللبب .
 فإذا نقص - فهو العدَاب .

٧ - ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال تعالى :

المِرْصَادُ وَالنَّجْدُ ، الطَّرِيقُ الْوَاضِعُ ، وَكَذَلِكَ الصَّرَاطُ
 وَالْجَادَةُ وَالْمَنْهَجُ وَاللِّقْمُ وَالْمَحِجَّةُ . وَسَطُ الطَّرِيقِ وَمُعْظَمُهُ .
 وَاللَّاحِبُ ، الطَّرِيقُ الْمَوْطَأُ .

الْمَهْجُ ، الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ .

الْوَهْمُ ، الطَّرِيقُ الَّذِي يَرِدُ فِيهِ الْمَوَارِدُ .

الشَّارِعُ ، الطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ .

النَّقْبُ وَالشَّعْبُ ، الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ .

الْحَلْلُ ، الطَّرِيقُ فِي الرَّمْلِ .

(١) ليس هذا الكتاب لتعاليه ؛ وإنما هو كتاب "الغريب المصنف" لأبي عمرو الشيباني ؛ الموجود منه

نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

التَّحَرُّفُ، الطَّرِيقُ فِي الْأَشْجَارِ . وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "عَائِدُ الْمَرِيضِ فِي تَحَارِيفِ الْجَنَّةِ".
التَّيْسَبُ، الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ؛ وَقِيلَ إِنَّهُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَدَقُ الْوَاضِعُ، كَطَّرِيقِ الْبَنَلِ
وَالْحِيَةِ وَحَمْرِ الْوَحْشِ .
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الأول
في طول الأرض ومسافتها

ذهب المتكلمون في ذلك أن مسافة الأرض نحو مائة عام : ثلثُ عمران، وثلثُ
خراب . وثلثُ بحار . وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة : تسعون
منها ليأجوج ومأجوج . وأثنى عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة
لسائر الأمم .

وقيل إن الدنيا سبعة أجزاء : ستة منها ليأجوج ومأجوج . وواحد لسائر الناس .
وقيل إن الأرض نحو مائة عام : البحار منها ثلثه، ومائة خراب، ومائة عمران .
وقيل إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ : للسودان منها اثنا عشر ألفاً،
والروم ثمانية آلاف فرسخ . ولفارس ثلاثة آلاف . وللعرب ألف .

وقال وهب بن منبه : ما ألهمارة من الدنيا في الحرب إلا كقسطاط في الصحراء .
وقال أردشير بن بابك : إن الأرض أربعة أجزاء : جزء منها للترك، وجزء للعرب،
وجزء للفرس . وجزء للسودان .

وقيل : إن الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحي خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا .

وقال الخوارزمي صاحب الزيج : دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سُدس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار . والباقي خراب ييآب لا نبات فيه ولا حيوان .

ومثل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسند، والجناح الأيسر الخزر، و صدره مكة والعراق والشام ومصر، وذنبه الغرب .

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا، وأن دورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل . وذلك جميع ما أحاطت به من بروج .

وإنما علم ذلك وحرر من عبد الله المأمون، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخبرة بالحساب والنجوم - منهم علي بن عيسى - إلى بَرِيَّةِ سِنْجَار . وتفرقوا من هناك . فذهب بعضهم إلى جهة القطب الشمالي ، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبي ، وسار كل منهم

في جهته إلى أن وصل غاية ارتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغير عن الموضع الذي آجتمعوا فيه وتفرقوا منه . مقدار درجة واحدة . وكانوا قد ذرعوا الطريق في ذهابهم، فنصبوا السهام، ووتدوا الأوتاد . وشدوا الحبال . ثم رجعوا وأمتحنوا الذراع ثانية ، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت وجه بسيط الأرض ستة وخمسين ميلا وثلاثي ميل . (والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع ست قبضات؛ والقبضة أربع أصابع، والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلى بعض؛ والشعيرة

ست شعرات من شعر الخليل) . فضربت هذه الأميال في جميع درجات الفلك ،
وهي ثلثمائة وستون درجة ، ونخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل .
فحك بأن ذلك دور الأرض .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : مسافة طول الأرض من أقصى المشرق
إلى أقصى المغرب نحو من أربعمائة مَرَّحَلَة ، ومسافة عرضها من حيث العمران
الذي من جهة الشمال (وهو مساكن ياجوج وماجوج) إلى حيث العمران الذي
من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مَرَّحَلَة ، وما بين براري
ياجوج وماجوج والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة .
ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ .

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهل العبر" رحمه الله .

الباب الرابع

من القسم الرابع من القرن الأول

١ - في الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود ، طوله من
المغرب إلى المشرق ، وعرضه من الجنوب إلى الشمال .

١ - فاما الإقليم الأول . فببؤه من مشرق أرض الصين إلى مدائن أوبابها .
وهي الأنهار التي تدخل السفن فيها من البحر إلى المدائن الجليلة ، مثل خاقنو و خاقنور .^(١)

(١) كذا بالأصل والصواب ، خانجوعن كتاب "تقويم البلدان" لأبي القدا .

وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبيا من صنعاء ، مثل ظَفَارٍ وحضرموت وعدن . وفيه من بلد التوبة دُقْلَةٌ ؛ ومن بلد السودان غَاثَةٌ . ثم ينتهي إلى البحر المحيط . وعرضه من خط الأستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

- ٥ وذهب بعض الناس إلى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الأستواء اثنتي عشرة درجة ونصف وربع درجة ، وفيما بين هذا العرض وخط الأستواء مسكون بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهائم . وعد فيهِ بَطْلِيمُوس من البلاد ذوات العروش ستين مدينة . وأهل هذا الإقليم سود ، وهو قليل الساكن لإفراط حره .

- ٢ - وأما الإقليم الثاني . فيبتدئ من بلاد الصين ، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية ، مثل تَانَةٌ^(١) ، وصِيمُور ، وسَنْدَان ؛ ومن بلاد السند على المنصورة ودَيْل ، ثم يبلغ عُمان . ويكون فيه من أرض العرب : تَجْرَان ، وهَجْر ، وجَنَابَةٌ ، ومَهْرَةٌ ، وسَبَا ، وتَبَالَةٌ ، والطائف ، وجُدَّة ، ومَكَّة ، والمدينة ، ومملكة الحبشة ، وأرض البُجَّة ، وأَسْوَان ، وقوص ، والصعيد الأعلى ، وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي إلى البحر المحيط ؛ وعرضه من غاية الإقليم الأول إلى سبع وعشرين درجة وأثنتي عشرة دقيقة .

- ١٥ وزعم بَطْلِيمُوس أن فيه أربعائة وخمسين مدينة . وأهله بين السمرة والسواد ، وهو كثير الذهب .

(١) اسم لمدينة ببلاد الهند . قال البيروني : هي على الساحل . والنسبة إليها " تانسي " ومنها النياب التانسية

(أنظر تقويم البلدان) .

(٢) في معجم ياقوت : جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس ، وهي في الأقليم الثالث . وفي " تقويم البلدان "

٢٠ (جنابة بلدة قد خرب غالبا ، وهي فرسة لفارس ، وضبطها ابن خلكان بفتح الجيم والمشهور الضم) .

٢ - وأما الإقليم الثالث . فببؤه من شرق أرض الصين ، وفيه مدينة مملكتها، حدان^(١)، وفيه من بلاد الهند تانث والفنهار، ومن بلاد الهند المولتان وقزدار^(٢) . ثم يتر بلاد سيجستان، وكرمان، وفارس، وأصبهان، والأهواز، والبصرة . والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشام، وفلسطين، وبيت المقدس . والقلم . والته، وأرض مصر، والإسكندرية، وبلاد برقة، وإفريقية، وناهرت . وبلاد طنجة، والشوس، وينتهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة .

وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة . وأهله سمر .

٤ - وأما الإقليم الرابع . فببؤه من أرض الصين، ويمر على التبت والحنق^(٣) . ثم على جبال قشمبر، ووخان، وتل حسان^(٤)، وكابل، والثور، وهرة، وبلخ . وطخارستان، ويمتد إلى الري، وقم، وهمدان، وحلوان^(٥)، وبناد، والموصل، وأذربيجان . ويمتد على منبج، وطرسوس، والثور، وأنطاكية، وجزيرة قبرس . وصيدلية، ثم على الزقاق إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى ثمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة .

(١) هكذا بالأصل . ولعل المراد مدينة واقعة على النهر المشهور بأهم حدان ببلاد الصين .

(٢) في الأصول : "كرورا" وليس بالسند بل بهذا الاسم . ويرجح أن الساجين حرفوه عن "كردار" . ويقال فيه "قصدار" (أنظر معجم ياقوت) .

(٣) في ياقوت : والحنق ورجان، وبذخشان . وهو الصواب .

(٤) لم نضرب على بلدة بهذا الاسم ولعلها محرفة عن "وخش" وهي كما في معجم ياقوت : بلدة من نواحي

بلخ . وفي "تقوم البلدان" : انها بلدة بما وراء النهر في الاقليم الرابع .

(٥) أي حلوان العراق . لا حلوان مصر .

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة . وأهله بين السمرة والبياض .

٥ - وأما الإقليم الخامس . فببذؤه من أرض الترك المشرفين على 'أجوج وماجوج إلى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، وإسفيجاب^(١)، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبخارى، وخوارزم، وبحر الخزر إلى باب الأبواب، وبرذعة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم . ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الحلالقة^(٢)، وبلاد الأندلس؛ ويتنهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثمانى عشرة دقيقة .

وذكر بطليموس أن فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهله بيض .

٦ - وأما الإقليم السادس . فببذؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكبيك، والتغزغر، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، والألان، والسريه، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجية^(٣)، وشمال الأندلس؛ ويتنهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة ونمسة عشرة دقيقة . وزعم بطليموس أن فيه ثلاثا وثلاثين مدينة، وهو كثير الإمداد والتلوج . وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور .

٧ - وأما الإقليم السابع . فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو فى المشرق غياض وجبال يابى إليها طوائف من الترك كالتوحشين . ويمر على بلاد البجناك، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، ويتنهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية

(١) هى المشهورة أيضا باسم : إسفيجاب .

(٢) أهل جليقة شمال الأندلس .

(٣) أى فرنسا .

الإقليم السادس إلى ثمة خمسين درجة ونصف . وفيه الأرض المحفورة، وهي وهدة لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعدها قعرها . يسكنها أمة من الناس لا يُدري من هم . وإنما علم أنها معمورة برؤية الدخان فيها نهارا، والنار ليلا . يشقها نهر يجري ، والمهارة محيطة به .

وزعم بطليموس أن فيها ثلاثا وعشرين مدينة . وأهل هذا الإقليم بيض صهب الشعور .

وما بقي من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه . يسكنه طوائف من الناس، هم بالبهايم في الخلق والخلق أشبه منهم بنى آدم .

٢ - ذكر ما يمثّل به مما فيه ذكر الأرض

يقال :

أحمل من الأرض . أكتّم من الأرض . أصبر من الأرض . آمن من الأرض .
أوثق من الأرض . أوطأ من الأرض . أحفظ من الأرض . أكثر من الرمل .
أظلم من الرمل . أعطش من الرمل . أوجد من التراب .

ويقال :

قتل أرضا علمها، وقتلت أرض جاهلها . رماه بين سمع الأرض وبصرها . أخذت الأرض زخارفها . أفيق قبل أن يحفر تراك . ابتغوا الرزق في خبايا الأرض .

ومن أضاف الآيات :

* الأرض من تربية والناس من رجل * * وأنى تُمطرُ الأرض السماء * *

ومن الآيات :

والأَرْضُ لَا تُطْعِمُ مَنْ فَوْقَهَا * إِلَّا لِيْكَ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهُ

وقال آخر:

إِذَا الْأَرْضُ أَذَتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ * مِنَ الْبَدْرِ، فَهِيَ الْأَرْضُ. نَاهِيكَ مِنْ أَرْضِ!

وقال آخر:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضَعًا، * فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْقَعُ!

وقال آخر:

يَا أَرْضُ كَمْ وَافِدٍ أَتَاكَ فَلَمْ * يَرْجِعْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَمْ يُؤَبِّ!

٣ - ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل :

وَتِهَاءٌ مِمَّحَالٍ كَانَتْ نَعَامُهَا * بَارِجَاتُهَا الْقُصُوفُ أَبَاعِرُ هُمْلُ.

تَرَى لِأَمْعَاتِ الْأَلِّ فِيهَا كَانُهَا * رِجَالٌ تَعْتَرِي تَارَةً وَتَنْتَرِبُلُ.

وَجَوْزَ فَلَاحٍ لَا يُغْمَضُ رُكْبُهَا * وَلَا عَيْنٌ هَادِيهَا مِنَ الْخَوْفِ تَعْقُلُ.

وَكُلُّ بَيْعِدِ الْغُورِ لَا يُهْتَدَى لَهُ * بِعِرْفَانِ أَعْلَامٍ وَلَا فِيهِ مَنَهْلُ.

مَلَاعِبُ جَنَّانٍ كَانَ تُرَابُهَا * إِذَا أُطْرِدَتْ فِيهَا الرِّيَّاحُ تُقْرَبُلُ.

تَرَى الْعَلْبَ الْحَوَلِيُّ فِيهَا كَانُهُ * إِذَا مَا عَلَا نَشْرًا حِصَانٌ مَجْبُلُ.

وقال ذو الرمة :

وَدَوِيَّةٌ جَرْدَاءٌ جَدَاءٌ حَيْمَتْ * بِهَا هَبَّاتُ الصَّنْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ.

مَسَابِرَيْتُ يَخْلُو سَمْعُ مَجْتَازِهَا بِهَا * مِنَ الصَّوْتِ، إِلَّا مِنْ صِبَاغِ الثَّعَالِبِ.

وقال ذو الرمة :

وهاجرة السراب من الموائى * ترقص في عسافلها الأروم .
تموت قفا الفلاة بها أواما * ويهلك في جوانبها النسيم .
مليت بها المقام فأرقتني * هموم لا تنام ولا تنيم .

وقال ضابطى البرجمى :

وداوية تيبه يحار بها القطا * على من علاها من ضلولى ومهتدى .
مسافهة للعيس ناء نياطها ؛ * إذا سار فيها راصب . لم يفرّد .

وقال مسلم بن الوليد :

وقاطمة رجل السيل مخوفة * كأن على أرجائها حد مبرّد .
مؤزرة بالآل فيها كأنها * رجال قومود في ملاه معدد .

وقال الصاحب بن عباد :

وتيباء لم تظمت بحف وحفير * ولم يدر فيها النجم كيف ينفور .
معالمها أن لا معالم بينها ، * وآياتها أن المسير غرور .
ولو قيل للفتى ، أسقها : ما أهدى لها * ولو ظل ملء الأرض وهو جزور .
تجشمتها ، والليل وحف جناحه * كأنى سر والظلام ضمير .

وقال الشريف الرضى :

وتسوفة حضاؤها * خلقت لنا القيط جمرا .
تبدى جنادها الأبين أسى على المجتاز ظهرا .
وترى بها العصفور متخذا وجار الضب وكرا .

وقال المتنبي :

مَهَالِكُ لَمْ يَصْحَبْ بِهَا الذَّنْبُ نَفْسَهُ * وَلَا حَمَلَتْ فِيهَا الْعُرَابُ قَوَادِمَهُ.

وقال ابراهيم بن خفاجة الاندلسي :

ومفازة لا تنجم في ظلماتها * يسرى ولا فلك بها دوار.

تتلهب الشفرى بها فكأنها * في كف زنجي الدجى دينار.

ترمي بها النيطان فيها والرئي * آل كما يتموج التيار.

والقطب ملترم لمركره بها * فكأنه في ساجه سمار.

قد لفتى فيها الظلام وطاف بي * ذنب يلم مع الدجى زوار.

طرائق ساحت الديار مغاور * حيث لأبناء السرى غدار.

يسرى، وقد فضع الدجى وجه الضياء، * في قروة قد مسها أفسرار.

فعثوت في ظلماء لم يقدح بها * إلا لمقلتيه، وبأسي نار.

ورقلت في خلع على من الدجى * عثت بها من أنجم أزرار.

والليل يقصر خطوه، ولربما * طالت ليالي الركب وهي قصار.

وقال آخر :

ومجهولة الأعلام طامسة الصوى * إذا عسفتها العيس بالركب، ضلت.

إذا ما تهادى الركب في فلاتها، * أجابت نداء الركب فيها فاصدت.

وقال مسعود، أخوذى الرمة يصف بعد فلاة :

ومهمه فيها السراب يأنح * يذأب فيها القوم حتى يطلحوا.

ثم يظنون كأن لم يبرحوا * كأنما أمسوا بحيث أصبحوا.

وقال مسلم :

تَجْرِي الرِّيحُ بِهَا مَرَضِي مُوَلَّةٌ * حَسْرَى تَلُوذُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ .

وقال آخر :

وَدَوِّيَّةٌ مِثْلُ السَّمَاءِ قَطَعَتْهَا * مُطَوَّقَةٌ آفَاقُهَا بِسَمَائِهَا .

وقال بعض الاعراب في الآل ^(١) :

كَفَى حَزَنًا أَنِّي تَطَالَلْتُ كَيْ أَرَى * ذُرَى عَلَمِي دَخَّ قَمَّا يَرِيَانِ !

كَأْتَهُمَا ، وَالْأَلُّ يَنْجَابُ عَنْهُمَا ، * مِنْ الْبُعْدِ عَيْنًا بَرُوعَ خَلْقَانِ .

قال أبو هلال : وهذا من أغرب ما روى من تشبيهات القدماء .

وقال آخر :

وَالْأَلُّ تَنْزُو بِالصُّوَى أَمْوَاجُهُ * تَزْوَالِقَطَا الْكُدْرَى فِي الْأَشْرَاكِ .

وَالظَّلُّ مَقْرُونٌ بِكُلِّ مَطِيَّبَةٍ * مَشَى الْمِهَارِ الدُّهْمَ بَيْنَ رِمَاكِ .

وقال ابن المعتز :

وَمَا رَاعَنِي بِالْبَيْنِ إِلَّا ظَعَائِنٌ * دَعَوْنَ بُكَائِي ، فَاسْتَجَابَ سَوَاكِهَ .

بَدَتْ فِي بِيَاضِ الْآلِ وَالْبُعْدُ دُونَهُ * كَأَسْطُرِ رَقِّ أَمْرَضِ الْخَطِّ كَاتِبِهِ .

(١) هو طهمان بن عمرو الدارى ، كما في ياقوت . وأورد القصيدة تجامها ، وهي ١٥ بيتا . (مستمع)

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفن الأول

١ - في الجبال

قال الله تعالى: "وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ".

- قال المفسرون: خلق الله عز وجل الأرض على الماء فمادت وتكفأت، كما
تشكفا السفينة، فأنبتها بالجبال. ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقاً.

وروى أبو حاتم في كتاب العظمة، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن الله

تعالى لما خلق الأرض، جعلت تميد. فخلق الجبال فالتفاها عليها فاستقرت. فمجيبت

الملائكة من خلق الجبال، وقالت: يارب هل خلقت خلقاً أشد من الجبال؟ قال:

- ١٠ الحديد، قالت: فهل من خلق أشد من الحديد؟ قال: النار، قالت: فهل من
خلق أشد من النار؟ قال: الماء، قالت: فهل من خلق أشد من الماء؟ قال:
الريح، قالت: فهل من خلق أشد من الريح؟ قال: ابن آدم، يتصتق بيمينه
فيخفيها عن شماله".

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: "كان العرش على الماء قبل

- ١٥ أن يخلق الله السماوات والأرض. فبعث الله ريحاً فعصفت الماء فأبرز عن حشفة
في موضع البيت. فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال".

فكان أول جبل وُضِعَ، جبلُ أبي قُبَيْسٍ. وهو الجبل المطلُّ على الكعبة.

وفي كنيته أبي قبيس قولان:

أحدهما - أن آدم كناه بذلك حين آقتبس منه النار التي بين أيدي الناس

- ٢٠ (وقد تقدم بيان ذلك في الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفن في ذكر النيران).

الثاني - أنه أضيف إلى رجل من جرهم كان يتعبد فيه، اسمه أبو قبيس .
ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال . وكان من قبل يسمى بالأمين .
وقال محمد بن السائب الكلبي : " إن الله عز وجل لما خلق الأرض ، مادت
بأهلها . فضرها بجبل السراة فاطمأنت " .

وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا ، ويسمى المجاز . وهو الذي حمز بين
تهامة ونجد . فتهامة من جهته الغربية مما يلي البحر، ونجد من جهته الشرقية .
وهو أخذ من قعر عدن إلى أطراف الشام^(١) . ويسمى هناك جبل لبنان . فإذا تجاوز
اللاذقية ومرّ بالنفور، سُمّي جبل اللكام . ثم يمتد في بلاد الروم إلى بلاد أرمينية،
فيسمى هناك حارثا وحويرثا . ثم يمتد إلى بحر الخزر، وفيه " الباب والأبواب " .
وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : " ق وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ " إنه جبل محيط بالعالم
من زمردة خضراء، وإن جبال الدنيا متفرعة عنه .

وقال قوم : إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه ، وهو المحجاب الساتر لها
عن أعين الناس ، في أحد الوجوه المنسربها قوله تعالى : " حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ " .
وقال قوم : إن منه إلى السماء مقدار ميل ، وإن الذي يرى من خضرة السماء
مكتسب من لونه .

وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة في الدنيا متفرعة عن الجبل الخارج
من بلاد الصين ، مشرقا ذاهبا على خط مستقيم إلى بلاد السودان مغربا .

(١) في الاصل أطيران ، وهو تحريف . والتصحيح عن البكري : أطرار الشام وفيه في وضع آخر
" أطراف بوادي الشام " ومثل هذا في ياقوت . وأطرار الرازي نواحيه وكذلك أطرار البلاد
والطريق واحداه طر . وأطرار البلاد أطرافها . (عن تاج العروس) .

٥

١٠

١٥

٢٠

وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر في "كتاب الخراج" : وجدت خلف خط الاستواء في الجنوب وقبل الإقليم الأول جبلا تسعة : خمسة منها متقاربة المقادير، أطولها ما بين أربعائة ميل إلى خمسمائة ميل؛ وجبلا طوله سبعمائة ميل؛ وجبل القمّر، وطوله ألف ميل؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الأول؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الثاني .

قال : ومجموع ما عرفت في الأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا . منها في الإقليم الأول سبعة عشر جبلا، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون جبلا، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون جبلا، وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون جبلا، وفي الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا، وفي الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا، وفي الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا .

٢ - ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض إلى أن يبلغ الجليل

ثم ما ارتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم . وترتيب ذلك

قال النعماني في كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسنده إلى أمثتها :

أصغر ما ارتفع من الأرض النبكة؛ ثم الرابية أعلى منها؛ ثم الأكمة؛ ثم الزبية؛ ثم النجوة؛ ثم الربيع؛ ثم القف؛ ثم الهضبة (وهي الجبل المنبسط على الأرض)؛ ثم القرن (وهو الجبل الصغير)؛ ثم الدك (وهو الجبل الذليل)؛ ثم الضلع (وهو الجبل الذي ليس بالطويل)؛ ثم النيق (وهو الجبل الطويل)؛ ثم الطود؛ ثم الباذخ والشاخ؛ ثم الشاهق؛ ثم المشمخر؛ ثم الأقود والأخشب؛ ثم الأيمم؛ ثم التهب (وهو العظيم)؛ ثم الحشام .

(١) في الأصل : الجبل الديك . وقد آخذنا ما في القاموس وفقه اللغة أيضا .

٣ - ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبي :

- أول الجبل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصل الجبل .
 ثم السَّفْح، وهو ذيله .
 ثم السَّنْد، وهو المرتفع في أصله .
 ثم الكَيْحُ، وهو عَرْضُه .
 ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به .
 ثم الرِّيد، وهو ناحيته المشرفة على الهواء .
 ثم العُرْعُرَة، وهي غلظه ومعظمه .
 ثم الحَيْد، وهو جَنَاحه .
 ثم الرِّعْن، وهو أنفه .
 ثم الشَّعْفَة، وهي رأسه .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : يقال من أسماء الجبال : العظيم منها الطُور،
 والطُود، والكَفْرُ، والقَهْبُ، والعَمُود، والعَلَمُ، والأرْعَنُ^(١)، والمُشْمَخِرُ .
 والأَيْهَم الطويل، وهو الشَّايْحُ، والشَاهِقُ، والبَاذِخُ، والبَاسِقُ، والأَقُودُ .
 والأَخْشَبُ، الخَشِينُ .
 والعِقَابُ، الصَّعَابُ .
 والتَّنَائِيَا، التي ليست بصَعْبَة .

(١) كذا بالأصل : والذي في القاموس واللسان والمخصص (الرَّعْنُ أنف الجبل المتقدم أو الجبل

الطويل) فسا هنا من تحريف النسخ .

- والهَرَشْمُ، النَّخْرُ .
 وَالخُشَامُ، جِبَلٌ طَوِيلٌ ذُو أَنْفٍ .
 وَالوَزْرُ، وَالْمَلَجَاءُ، وَالْقَلْعَةُ، مَا يُحَصَّنُ فِيهِ .
 وَالقَرْنُ، جِبَلٌ صَغِيرٌ .
 وَالضَّلْعُ وَالذُّكُّ، فِيهِ دِقَّةٌ وَأَنْجَاءٌ .
 وَالنَّبِقُ، الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ يُرْتَقَى إِلَيْهِ .
 وَأَعْلَى الْجِبَلِ قُلْتُهُ وَقُتَّتُهُ وَذُوَابَتُهُ .
 وَعُرْعُرَتُهُ، غَلْظُهُ .
 وَالْفِنْدُ، الْقِطْعَةُ مِنْهُ .
 وَسَعْفُهُ وَمَصَادُهُ، أَعْلَاهُ .
 وَالكَيْحُ وَالكَاحُ، عُرْضُهُ .
 وَالرَّيْحُ، نَاحِيَتُهُ الْمُشْرِفَةُ عَلَى الْهَوَاءِ .
 وَالْحَضِيضُ، أَسْفَلُهُ .
- قال : وصغار الجبال ، اليفع ، والضرس ، والضرب والعنتبية ، والعنتوت ،
 والآكمة ، والهضبة .
- والذريجة ، ما أنبسط على وجه الأرض .
 واللؤذ ، حوض الجبل وما يطيف به .

(١) في الأصل : الروع بالواو . وهو تصحيف من الناح . وقد صححناه اعتماداً على ما في القاموس والمخصص .

(٢) كذا بالأصل ولم نثر عليها في القاموس واللسان والمخصص .

- والرَيْدُ والرُّيُودُ، نَوَاحِيهِ المَحْتَدَةُ .
 والحَيْدُ، شَاخِصٌ يَتَقَدَّمُ كَالجَنَاحِ . ومثله الشُّعُوفُ .
 والصَّدْعُ والشَّقْبُ، شَقٌّ فِيهِ .
 والنَارُ والكَهْفُ، مِثْلُ البُيُوتِ فِيهِ .
 والقُرْدُوعَةُ، الزَاوِيَةُ فِيهِ .
 واللَّهْبُ والشَّقْفُ والنَّارُ، مَهْوَاةٌ بَيْنَ جَبَلَيْنِ .
 والشُّؤْنُ، خُطُوطٌ فِيهِ .
 والمَحْرَمُ، مُنْقَطَعٌ أَنْفُهُ .
 والقِرْنَاسُ، شِبْهُ الأَنْفِ .
 والإِرْمُ، العَلَمُ فِيهِ .

٤ - ذَكَرَ تَرْتِيبَ مَقَادِيرِ المِحْجَارَةِ

قال العالبي :

إِذَا كَانَتْ صَغِيرَةً، فَهِيَ حَصَاةٌ .

فَإِذَا كَانَتْ مِثْلَ الجَوْزَةِ وَصَلَحَتْ لِلاِسْتِنْجَاءِ بِهَا، فَهِيَ نَبْلَةٌ . وَفِي الحَدِيثِ :

”إِثْمُوا المَلَاعِينَ وَأَعِدُوا النَّبْلَ“ . يَعْنِي عِنْدَ إِتْيَانِ الغَائِطِ .

فَإِذَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنَ الجَوْزَةِ، فَهِيَ قُرْزَعَةٌ .

فَإِذَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْهَا وَصَلَحَتْ لِلقَنْفِ، فَهِيَ مِقْدَافٌ وَرُبَّمَا مِرْدَادَةٌ . وَيُقَالُ :

إِنَّ المِرْدَادَةَ، حَجَرٌ الضَّبِّ الَّذِي يَنْصِبُهُ عِلَامَةٌ لِبحْرِهِ .

فَإِذَا كَانَتْ مِثْلَ الكَفِّ، فَهِيَ بَيْهَرٌ .

فإذا كانت أعظم منها، فهي: نَهْرٌ، ثم جَنْدَلٌ، ثم جَلْبَدٌ، ثم صَخْرَةٌ، ثم قَلْعَةٌ. وهي التي تتقلع من عُرْضِ الجبل. وبها سميت القَلْعَةُ التي هي الحِصْنُ.

وقال صاحب كتاب "الفاجر": من أسمائها، الحِجَارَةُ، والجَلْمُودُ، والجَلْمَدُ، الحجر الصُّلبُ.

والرِبْرِيْلُ، الصَّخْرَةُ العَظِيْمَةُ.

والصَّفْوَانُ، الأَمْلَسُ.

والرُّصْمَةُ، الحجر العَظِيمُ.

والأَثَانُ، صَخْرَةٌ فِي مَسِيْلِ مَاءٍ أَوْ حَافَةِ نَهْرٍ.

والإِرْزَاءُ، التي عند مَهْرَاقِ الدَلْوِ.

والرُّجْمَةُ، مَا تَطْوِي بِهِ البِئْرَ.

والكَذَّانُ، الرُّخْوُ.

والبِرْتَمِيعُ، الأَبْيَضُ الرُّخْوُ.

والمُدَّقُ والمُدَّاكُ والصَّلَايَةُ، حِجْرُ العِطَارِ الذي يَسْحَقُ عَلَيْهِ العِطْرَ.

والتَّهْفِيرُ، مَا يَمَلَأُ الكُفَّ وَيُسْحَقُ بِهِ العِطْرَ.

والمِرْدَاةُ، مَا يَكْسِرُ بِهِ الحجرَ.

والمِرْدَاسُ، مَا يُرْمَى بِهِ فِي البِئْرِ لِيَنْظُرَ أَفْهَامًا مَاءً أَمْ لَا. قَالَ الشَّاعِرُ:

مَنْ جَعَلَ العِدَّةَ القَدِيمَ الَّذِي • أَنْتَ لَهُ عِدَّةٌ أَحْرَاسِ،

إِلَى ظُنُونِ أَنْتَ مِنْ مَائِهِ • مَسْتَظِرٌّ رَجْعَةَ مِرْدَاسِ.

والتَّنْفُفُ، حِجْرٌ تُنْذِرُ بِهِ الرَّجُلَ فِي الحَمَامِ.

والتَّنْقَلُ، مَا كَانَ فِي طَرَقِ الجِبَالِ.

- والأُنَيْسَةَ . مَا يُنْصَبُ عَلَيْهِ الْقَدْرُ .
 وَالْقُلَاعَةَ ، مَا يُرْمَى بِهِ فِي الْمِقْلَاعِ .
 وَالظَّرَّانَ ، حِجَارَةٌ مَحْدَدَةٌ يَذْبَحُ بِهَا .
 وَالصَّفِيحَ ، مَارِقٌ مِنْهُ وَعَرَضٌ .
 وَالنَّافِ ، حِجَارَةٌ عِرَاضٌ .
 وَالنَّكَ ، قِطْعَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ وَتَرْفَعُ عَمَّا حَوْلَهَا .
 وَالْمُدْمَكَ ، الْمُدْقُورُ .
 وَالكَبَيْتَ ، حَجَرٌ مُسْتَدِيرٌ يَسُدُّ بِهِ وَجَارُ الصُّبْعِ .
 وَالْبَيْتَ^(١) ، التَّامُ .
- ١٠ . وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْقَيْلَةُ ، صَخْرَةٌ عَلَى رَأْسِ الْبَثْرِ ، وَالْعُقَابَانُ مِنْ جَنْبَيْهَا يَعْضِدَانِهَا .
 وَمِنْهَا الْمَرْوُ ، وَهِيَ الْبَيْضُ كَالْحَصَى .
 وَالْحَصْبَاءُ ، الصَّفَارُ .
 وَالرُّضْرَاضُ ، نَحْوُهَا .
 وَالْقَضِيزُ ، أَصْفَرُ مِنْهَا .
 ١٥ . وَالزَّنَائِرُ ، وَاحِدُهَا زُنَيْرٌ ، أَصْفَرُ مَا يَكُونُ .

(١) كذا بالأصل وعبارة القاموس (والببت كيبكيت لفظا ومعنى) واللسان (والببت الرجل الأزويت)

وهو الخليم الساكن القليل الكلام .

هـ - ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفضل . يقال :

أثقل من ثَلَانٍ . أثقل من نَضَادٍ . أثقل من أُحُدٍ . أصلبٌ من الحَجَرِ . أصلبٌ من الجَمَلِ . أقمى من الحجر . أصبرٌ من حجر . أبيضٌ من النُقشِ في الحجر .

ويقال :

رُي فلان بمجره . ردَّ الحجر من حيثُ جاءك . وجَّه الحجر وجهه ما ، أى دَبَّر الأمر على وجهه . أقمه الحجر ، أى جاوبه بجوابٍ مُسكت . رماه بثالثة الأثاني . أنجد من رأى حَضَنًا (وحَضَنُ جبل بنجد) أى من رآه لم يحتج أن يسأل هل بلغ تجندا أم لا . الليل يُوارى حَضَنًا ، أى يُخفي كل شيء حتى الجبل .

ومن أضاف الأبيات :

* كأنه علم في رأسه نار * إذا قطعنا علمًا بدأ علم *

* قوموا أنظروا كيف تزول الجبال *

(ضرب لموت الرؤساء) .

* جندلتان أصطكا أصطكا *

(ضرب لقرنين يتصارلان) .

ومن الأبيات :

ولو نعى جبل يوما على جبل ، لأنهد منه أعاليه وأسفله!

تنتثر الأطواد وهي شوايح * حتى تصير مداوس الأقدام .

جُدَّ قَدَّ تَنَجِجِرُ للصخر * رة بالماء الزلال .

٦ - ذكر شىء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموئل بن عاديا :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مَنْ يُجِيرُهُ * مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ!
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَاءُهُ * إِلَى النُّجْمِ قَرَعٌ لَا يُرَامُ طَوِيلُ!

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

وَأَرَعَنَ طَمَاحَ الدُّوَابَةِ بَاذِيخَ * يَطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِقَارِبِ.
يَصُدُّ مَهَبَ الرِّيحِ مِنْ كُلِّ وَجْهِةٍ * وَيَزَعُمُ لَيْلًا شَهَبَهُ بِالْمَنَابِكِ.
وَقَوَّرَ عَلَى ظَهْرِ الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ * طَوَالَ اللَّيَالِي نَاطِرٌ فِي الْعَوَاقِبِ.
يَلُوثُ عَلَيْهِ النِّعَمُ سُودَ عَمَائِمِ * لَهَا مِنْ وَمِيزِ الْبَرْقِ حُمُرٌ ذَوَائِبِ.
أَحْمَضَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَنْحَرُ صَامِتٌ * فَخَدَّتْنِي لَيْلُ السَّرَى بِالْعَجَائِبِ.
وَقَالَ : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأًا فَاتِكِ * وَمَوْطِنَ أَزَاهِ وَمَوْئِلَ تَائِبِ!
وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوِّبِ * وَقَالَ بَسْفِجِي مِنْ مَطِيٍّ وَرَاكِبِ!
وَلَا ظَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيَاحِ مَعَاطِفِي * وَزَا حَمَّ مِنْ خُضْرِ الْبِحَارِ جَوَانِبِي!
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّتَهُمْ يَدَا رَدِي * فَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَابِ.
وَمَا غِيَضَ السُّلْوَانَ دَمْعِي وَإِنَّمَا * نَزَفْتُ دُمُوعِي مِنْ فِرَاقِ الْأَصْحَابِ.
وَأَسْمَعُنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ * يُتَرَجَّمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ.
فَسَلَّى بِمَا أَبْكِي، وَسَرَّ بِمَا تَجْبِي، * وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السَّرَى خَيْرَ صَاحِبِ.
وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ مَطِيَّتِي : * سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمِ وَذَاهِبِ!

وقال أيضا عفا الله عنه :

وأشرفَ طَمَاحِ الذُّؤَابَةِ شَاخِجٌ * تَمَنُّطَقَ بِالْحَوَازِءِ لَيْلًا، لَهُ خَصْرٌ.
 وَقُوْرٍ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي كَأَنَّمَا * يُصِيحُّ إِلَى تَجْوَىٰ وَفِي أُذُنِهِ وَقْرٌ.
 تَمَهَّدَ مِنْهُ كُلُّ رَكْنٍ زَكَابَهُ * فَقَطَّبَ إِطْرَاقًا وَقَدْ صَحَّكَ الْبَدْرُ.
 وَلَاذَّ بِهِ نَسْرُ السَّمَاءِ كَأَنَّمَا * يُيَحَّرُّ إِلَى وَكْرٍ بِهِ ذَلِكَ النَّسْرُ.
 فَلَمْ أَدْرِ مِنْ صَمِيَّتِ لَهُ وَسَكِينَةٍ * أَكْبَرَهُ سَنٌّ وَقَرَّتْ مِنْهُ أُمُّ كَبْرٍ.

وقال أيضا يصفه ثرا من رسالة كتبها إلى بعض الرؤساء :

وكيف لي بقربك ودونك كل علم باذخ، سج الليل عليه رضاءه، وصاغت النجوم
 هضاءه، قد ناء بطرفه، وشمخ بأفقه، وسال الوقار على عطفه، قد لاث من عمامه
 عمامه، وأرسل من ربابه ذؤابه، تطرزها البروق الخواطف، وتهفوها الرياح
 العواصف، بحيث مده البسيط بساطا، وضربت السماء فسطاطا .

الباب السادس

من القسم الرابع من الفن الأول

١ - في ذكر البحار والجزائر

١٥ روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: "لما أراد الله عز وجل أن
 يخلق الماء خلق ياقوته خضراء وورف من طولها وعرضها وسبكها، ثم نظر إليها بعين
 الهيبة فصارت ماء يترقق لا يثبت في صمضاح . فما يرى من التفرج والأضطراب
 إنما هو آرتاده من خشية الله تعالى، ثم خلق الريح فوضع الماء على منته بهم خلق
 العرش ووضعه على متن الماء". وفسر بهذا قوله عز وجل: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

٢ - ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر ما نيطش^(١)، ثم بحر الخزر .
فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمى باليونانية أوقيانوس، ويسمى بحر الظلمات،
سمي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحمله الشمس لأنها لا تطلع عليه . فيحفظ
ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته . ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه،
وكثرة أهوائه، لم يعلم العالم من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور .
والذي علم به من الجزائر ستة من جهة المغرب، تسمى جزائر السعادات، والجزائر
الخالدات .

قال أبو عبيد البركي في كتابه المترجم "بالمسالك والممالك": "وبإزاء طنجة الجزائر
المسماة باليونانية: قُرتانُسُ أي السعيدة . وسميت بذلك لأن في شعرائها وغياضها كلها
أصناف الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحه . وأن أرضها تحمل الزرع مكان
العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك . وهي متفرقة متقاربة .

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر،
فنزله من فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفيونية
وأشجار اليواقيت كل مستحسن . فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس .
فسألهم ملكها من أين لهم هذا . فأخبروه بأمرهم، فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على
جزيرة منها . وهدمت المراكب لعظم البحر وشدة عصف الريح فلم يرجع منها شيء .

(١) كذا في الأصل . وفي كثير من كتب الجغرافية العربية : وهو المعروف في كتب الجغرافية عربية

مثل أبو الفدا بجر آرزق، وعند الأتراك بجر آرزوف .

(٢) الشعراء : الأرض ذات الشجر .

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم بالوحوش أشبه منهم بالناس . وبينها
وبين ساحل البحر عشرة أجزاء .

ويقال إن في جهة المشرق مما على بلاد الصين ستة جزائر أخرى ، تسمى جزائر
السيلي . يقال إن ساكنيها قوم من العلويين ، وقعوا إليها لما هربوا من بني أمية .

• ويقال إن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج
منها لصحة هوائها ورقة ماتها ، وإن كان منها في عيش قشيف .

وفي هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة بريطانية ، وهي تحاذي جزيرة الأندلس ،
وأهلها صُهبُ الشعور ، زُرُقُ العيون .

• وما على بلاد إفريقيا جزائر يضمُّها خلق من الفريج ، لا يتقادون لبلد ،
ولا يدينون بدين .

وفيا على الأرض الكيرة جزيرة ذات أربعة ، يحيط بها سبعمائة ميل ونمسون
ميلا ، وفيها أربع مدائن ، في كل مدينة ملك .

• وجزيرة برفاعة . يحيط بها أربعة آلاف ميل ، وفيها ثلاث مدائن عامرة .
والتاخذ إليها قليل . وهي كثيرة الأنواء والأمطار . وأهلها يحصدون زرعها قبل
• جفافه لقلّة طلوع الشمس عندهم ، ويجعلونه في بيت ويوقدون النار حده
حتى يحف .

• وجزيرة أنقلطرة . فيها مدائن عامرة ، وجبال شاهقة ، وأودية ، وأرض سهلة .
والشتاء بها دائم . وبين هذه الجزيرة والبرجاز سعته اثنا عشر ميلا .

وفيه مما على الصقالبة جزيرتان : إحداهما جزيرة أمرنانيوس النساء ، لا يسكنها غير النساء فقط . وتسمى الأخرى أمرنانيوس الرجال ، لا يسكنها غير الرجال . وهم في كل عام يجتمعون زمان الربيع ، ويتناكحون نحواً من شهر ثم يفترون .
ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام ، وظلمة البحر ، وعظم الأمواج .

٣ - ذكر ما يتفرع من البحر المحيط

يتفرع من البحر المحيط خليجان : أحدهما من جهة المغرب ، ويسمى البحر الرومي . والآخر من جهة المشرق ، ويسمى البحر الصيني ، والهندي ، والفارسي ، والهنئي ، والحبشي ، بحسب ما يميز عليه من البلاد .
وهما المرادان بقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ .
أى لا يبغي هذا على هذا .

والبرزخ أرض بين القرما التي هي على بحر الروم ، وبين مدينة القلزم التي هي على بحر الحبش^(١) ، مسافتها ثلاثة أيام . وقيل : البرزخ إرسال ماء البحر الحلو على ماء البحر المالح ، لأنه مفيض له . فلا سبيل لأحدهما على الآخر ، بل جعل الله بينهما حاجزاً وهو البرزخ .

فأما البحر الرومي وجزائره ، فإن المؤرخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط . ويقولون إن جزيرة الاتدلس وبلاد البربر كانت أرضاً واحدة يسكنها الإشبان والبربر . وكان بعضهم يُغير على بعض ، والحرب بينهم سجال . فلما

(١) في الأصل بحر فارس . وكان الأصوب أن يبر باللفظ الذي اختاره لهذا المقام ، وهو البحر الحبشي

ملك الإسكندر، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر . فرأى ان يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى . فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا، وعرضه اثنا عشر ميلا . وبني بجانيه سكرين^(١)، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حراسا يمتعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جملة نائبه في بلاد الإشبان . وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فظا وغطى السكرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادا وطفا على أخرى . حتى إن المسافرين فيه فيسرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين . فمظم طولها وعرضها ، وصار بحرا^(٢) .

١٠ قال صاحب كتاب "مباح الفكر ومناج العبر" : وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه في زمن الإسكندر . فصار ثمانية عشر ميلا .

قال : وزعم السالكون فيه أن البحر بما جزر في بعض الأوقات، فترى القنطرة . قالوا : وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط .

١٥ وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيلاية بتخميم اللام^(٣) . وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك .

(١) السكر (سكر السين) هو ما سد به النهر .

(٢) هو المسمى بحر الزقاق واسمه الآن مجاز جبل طارق .

(٣) لعل المؤلف يشير إلى خليج ليون فهو مشهور بشدة التيار وبصعوبة السلوك .

ومبدأ جريه من البحر الرومي من الإقليم الرابع . فإذا خرج من الزقاق يتر مشرقا في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يتر بالمغرب الأوسط ، إلى إفريقية ، إلى برقة ، إلى الإبرية ، إلى شمال أرض التيه وأرض فلسطين . فيتر بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التي هي فرضة أنطاكية ، وعندها حجز البحر . ومنها يعطف فيتر على العلايا وأنطالية (وهما فرضتان لبلاد الروم) ، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهي إلى المكان الذي منه خرج . وطوله خمسة آلاف ميل . وقيل ستة آلاف . وعرضه مختلف : ففي موضع ثلثمائة ميل ، وفي موضع ستمائة ميل ، وفي موضع سبعمائة .

ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة . كانت عامرة بطوائف من الفرنج ، أخرج المسلمون أكثرها بالمغازي في صدر الإسلام . وأجل ما ملك المسلمون منها . ثم أترع أكثره من أيديهم :

١ - جزيرة الأندلس .

٢ - وجزيرة يابسة . وهي حيال جزيرة الأندلس ، ومساقها يومان في يوم . وفيها مدينة صغيرة مسورة .

٣ - وجزيرة منرقة ، ومساقها يومان في نصف يوم . وفيها مدينة عامرة .

٤ - وجزيرة ميورقة . ويقال فيها مايورقة . ومساقها يومان في يومين ، وبها مدينة .

٥ - وجزيرة رودس^(١) . وهي حيال بلاد أفرنجية^(١) . ويحيط بها ثلثمائة ميل . وفيها حصنان .

٢٠ (١) هذا الوصف لا ينطبق على جزيرة رودس . بل على جزيرة قورسقة التي هي حيال بلاد أفرنجية أي فرنسا ، وهي تابعة لها .

٦ - وجزيرة سردانية . وطولها مائتان وثمانون ميلا ، وعرضها مائة وثمانون ميلا . وفيها ثلاث مدائن كبار . وسكانها قوم من الفرنج متوحشون . وبها معدن فضة .

٧ - وجزيرة صقلية . وهي حبال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس . وشكلها مثلث . يحيط بها خمسمائة ميل . كثيرة الجبال ، والحصون ، والأمصار ، والأنهار ، والأشجار .

ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر :

بلرمو . وبها يكون الملك ، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم أنتقل الناس منها إلى الخالصة . وهي محدثة . بنيت في أيام القائم ابن المهدي العبيدي في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة . ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها ؛
١٠ وقطانية . وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذي في الجزيرة . فبنى الأمبرطور مدينة عوضها ، وسماها غشطارة .

ومسني . وهي على أحد أركان الجزيرة .

وسرقوسة . وهي على الركن الآخر ، والبحر يحيط بها من ثلاث جهاتها .
١٥ وطرابنش . وهي على الركن الثالث ، والبحر يحيط بها . ولها مجاز .
ومن بلاد هذه الجزيرة البرية : والشاقة ، ومازر ، وكر كنت ، ونوطس ، وطبرمين ، وقصريانة ، والنور ، ورغوص ، وغيطة ، وغير ذلك .

وبهذه الجزيرة . (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان ، وهو أظمة يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار ، فتعلو في الهواء ليلا ثم تسقط في البحر ، فتظفو على وجه الماء . ومنها يكون حجر المرو الذي تحك به الأرجل .
٢٠

٧ - وجزيرة بلونس . ودورها ألف ميل . ولها مجاز إلى البر الطويل ،
عرضه ستة أميال . فيها ما يزيد على خمسين مدينة ، القواعد منها خمس عشرة مدينة ،
وهي مشهورة عند الفرنج .

٨ - وجزيرة مالطة . وطولها أربعة وعشرون ميلا ، وعرضها اثنا عشر .
وفي وسطها مدينة واحدة .

٩ - وجزيرة قوسرة . وفيها مواضع متوحشة .

١٠ - وجزيرة أقريطش . وهي حيال برقة . طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها
مائة وثلثون ميلا . وبها مدينتان : إحداهما تسمى الخندق ، والأخرى تسمى ربض
الجن . وفيها معدن ذهب .

١١ - وجزيرة قُبرس . وهو أسم النحاس ، لأن بها معدن نحاس . يحيط بها
ألف ميل وخمسمائة ميل . وفيها من المدن الجليلة : ليمسون ، والباف بيا مفخمة ،
والماغوصة . وكلها في البحر . وفي وسط الجزيرة مدينة الأقسية . وهي القصة .
وبها يكون متولى الجزيرة .

٤ - ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة ، والآخر يسمى خليج القسطنطينية .

١ - فأما خليج البنادقة . فإنه خليج كبير متسع ليس له فوهة . وإنما هو
جَوْءٌ له ركان ، سعة ما بينهما سبعون ميلا . يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة
من الفرنج تسمى البنادقة . وهي ذوات حصون وقلاع ممتعة .

- ومبدؤه من شرق بلاد قلورية عند مدينة تسمى أذرت^(١)، ومنها بلاد إيكلاية^(٢).
ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل . وفيه ست جزائر، ثلاثة منها
في ضفة، وثلاثة في أخرى، بها مدن عامرة . وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة
لا ساكن بها .
- ٢ - وأما خليج القسطنطينية . ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة
لجزيرة رودس، وسعتها غلوة سهم . ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها
في برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها .
ويتم هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلا إلى أن ينتهي إلى القسطنطينية
فتكون في غربيه، يحيط بجهتين منها .
- ١٠ . وهي مدينة عظيمة مشهورة . وعرض البحر عندها أربعة أميال .
ثم يمتد ستين ميلا حتى ينصب في بحر ما نيطش . وهو بحر سوداق . وعرض
فوهته هناك عشرة أميال . وفي موضع أقل، وفي موضع أكثر .
فهذا البحر الرومي وجزائره وما تفرع منه .
والله أعلم .

١٥ (١) في الأصل أكدت وهو تحريف لمدينة أذرت قال في نزهة المشتاق: خليج البادقين ومبدؤه من شرق
بلاد قلورية . . . من عند أذرت . . . وينتهي طرفه إلى بلاد إيكلاية .
(٢) في الأصل آنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية التي ذكرها الإدريسي في هذا الموضع .

٥ - وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء . ويمجرى إلى جهة الغرب ،
فيجتاز ببلاد الواق ، وبلاد سُفالة الزنج ، ثم ببلاد الزنج حتى يصل إلى بلاد بربرا ،
وهناك حجزه .

وأما الشرقي : فمبدؤه من لوقين ، وهي أول مرافئ الصين ثم يخافقو فُرُوضَة
الصين العظمى ؛ ثم إلى سَمْدُور من بلاد الهند ؛ ثم إلى حاريتين ، إلى قندينه ،
إلى تانة ، إلى سندابورا ، إلى بَرُوص (ويقال بَرُوج ، وإليها ينسب القماش البروجي) ،
إلى صَيُّور ، إلى سَنَدَان ، إلى سوتارة ، إلى كنباية . (وإليها ينسب القماش الكنبايتي) ،
إلى دَيْبِل (وهي أول مرافئ السند) ؛ ثم إلى سرون ، ثم إلى التيز من بلاد مَكْران ،
وهي أحد ركني الخليج الفارسي . والركن الآخري يسمى رأس الجُمَحَة : وهو جبل
خارج في البحر ، ومن هناك يسمى بحر اليمن ، ثم يمتد على ظَفَّار ؛ ثم على الشَّحْر ساحل
بلاد مَهْرَة ؛ ثم على شُرْمَة (ساحل بلاد حضر موت) ، ثم على آيِن ، ثم على عَدَن ،
ثم المَخْتَق ، ثم العارة ، ثم يمتد إلى باب المنذب .

(١) قال البيروني مانصه : (في كتاب تحقيق ما للهند ص ١٠٣ سطر ٧) جزيرة الوقواق من جملة قبر .
وهو اسم لا كما ظنّه العوام من أنه شجرة حملها كرم . وس الناس تصيح ولكن قبر قوم أولوانهم إلى الياض
قصار القردود على صور الأتراك ودين المنود مخمرى الآذان وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان
والناس فيهم أرغب ويحبب منهم الآبنوس الأسود وهو لب شجرة تلق حواشيا فأما الملعع والشوخط
والصندل الأصفر فن الزنج . ١٠ هـ

- (٢) لعل المقصود : قنبايل (وقد ذكرها ياقوت) .
(٣) ويقال صيون (أنظر ياقوت) .
(٤) هي قصة بلاد مكران بالسند .

- ومن هناك يخرج خليج القُزْم، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف .
 في موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفي موضع ألفان، وفي موضع دون ذلك .
 ويقال : إن بينه وبين البحر المحيط بجزر آخر يسمى البحر الزرقى ، سمي بذلك
 لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل .
 وهذا البحر - أعنى الهندى - يجلته قسمه السالكون له سِتُّ قطع ، وضعوا لها
 أسماء مختلفة .

- ١ - فالذى يتر بأرض الصين يسمى بحر صنجى ، ينسب لمدينة في جزيرة من
 جزائره . وهو بحر كثير الأمواج مهول . فإذا كان في أول هياجه ظهر فيه بالليل
 أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقل من ذلك . يصعدون إلى
 المراكب ولا يضررون أحدا . فإذا غاب عنهم السُّقار ، أيقنوا بالدمار . وإذا قدر الله
 تعالى نجاتهم من هذه الشدة ، أراهم على رأس الدَّقْل طائرا أبيض كأنما خلق من
 النور، فيتباشرون به . فإذا ذهب عنهم الروع ، فقدوه .

وفيه من الجزائر المعمورة :

- جزيرة شريرة^(١) . يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل . فيها مدائن كثيرة ، أجلها
 المدينة التى تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور .
 ١٥ وجزيرة صنجى . وإليها تنسب هذه القطعة . وطولها مائتا ميل ، وعرضها
 أقل من ذلك . وفيها جواميس وبقر بغير أذنان .

(١) لعل هذا الاسم هو "سنجيو" لسمى واحد . وهى المعروفة عند العرب باسم مدينة "زيتون"

وهى قُرَّة الصين (راجع أبا الفدا) .

(٢) سماها أبو الفدا : سريرة .

وجزيرة أفنوجة . يحيط بها أربعمائة ميل . عمارتها متصلة .
 ٢ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الصَّنْف . في جزيرة من جزائر مدينة .
 وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة . وفي جباله معادن الذهب
 والرصاص ، وفيه مفاصُّ اللؤلؤ ، وفي غياضه الخيزران . وفيه مملكة المهراج .
 ويشتمل على 'جزائر لامحصى' ، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة . وفيها أنواع
 الطيب من الكافور ، والقرنفل ، والعود ، والصنل ، والجوزبوي ، والبساسة ، والكجانة .
 ومن جزائره المشهورة :

جزيرة الزانج . وتكسرها سبعمائة فرسخ ، وبها يكون المهراج ، وهو اسم يطلق
 على كل من ملكها .

وجزيرة البركان . وهي جزيرة فيها جبل يرمى بالشر ليلًا ، وبالعود القواصف
 نهارًا ، وهي أحد أطام الدنيا المشهورة .

وجزيرة قمار . وإليها ينسب العود القماري . وبها شجر الصندل . دورها أربعة
 أشهر . وهي مأوى عبّاد الهند وعلماهم . يسمى ملكها قامرون .

وجزائر الرامي^(١) . وهي نحو ألف جزيرة معمورة . بها الملوك . وفيها معادن
 الذهب ، وشجر الكافور .

وجزائر لنجبالوس . ويقال لنجبالوس . وهي كثيرة ، وأهلها سود . مشهور
 الصور لقربها من خط الاستواء . وبها معادن الحديد .

٣ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروي ، وبحر ككه ، وبحر الجاوه ، وبحر
 فنصور . وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يتر عليه من البلاد والجزائر .

(١) في الأصل الراق وفي نزهة المشتاق "الرامي" .

وهو بحر لا يدرك قعره . وفيه نحو ألف جزيرة تسمى جزائر التارجيل ، لكثرتها بها . وكلها عاصرة بالناس . وبين الجزيرة والجزيرة الفرمخ والفرمخان . وليس يوجد في سائر جزائر البحر اللطف صنعة من أهل جزائره في سائر المهن . وبيوت أمواله الودع .

ومن جزائره المشهورة مما على أوائل بلاد الهند :

- ٥ . جزيرة الماند . وهي جزيرة يحيط بها ألف ميل . وفيها ثلاث مدن كبار .
 وجزيرة كرموه . يحيط بها ثلثمائة ميل .
 وجزيرة بلي . منسوبة لمدينة من الهند على ساحله . يأتيا التجار لاجل التفلل .
 وجزائر الذئاب . وهي كثيرة . وأكبرها جزيرة ديبى . وسكانها قبائل من العرب . يحيط بها أربعمائة ميل . وفيها الموز ، وقصب السكر .
- ١٠ . وجزيرة السيلان . وطولها ستمائة ميل ، وعرضها قريب من ذلك . وفيها مدن كثيرة . وإليها ينسب العود السيلى .
 وجزيرة كله . وإليها ينسب البحر . وهي جزيرة خطيرة ، طولها ثمانمائة ميل .
 وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا . وبها من المدن فنصور . فيها شجر الكافور (وفيها العود الفاخر) وملاير ، ولاروى ، وكله (وإليها ينسب الدهن) . ولكل مدينة من هذه المدن خور تعبره المراكب من البحر .
- ١٥ . وجزيرة صندابولات . وطولها نحو من مائى ميل ، وعرضها نحو مائة ميل . تنسب إلى مدينة هي فيها .
 وجزائر بداميان . فيها أمم سود ، قباح الوجوه . قامة الرجل منهم أقل من ذراع . ليس لهم مراكب . فإذا وقع اليهم غريق أو من يقيه من التجار . أكلوه .

٤٧٦ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هر كند ، وفيه جزائر كثيرة . ويقال إن عدتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة . ويقع فيها المنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت . وسكانها أحذق الناس في الحياكة ، ينسجون القميص بكميه ودخاريزه قطعة واحدة .

وفيه من الجزائر المشهورة :

١٠ جزيرة سرنديب ^(١١) . وهي مدورة الشكل ، يحيط بها ألف فرسخ . يشقها جبل الراهون ، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم (عليه السلام) من الجنة . وفي أوديتها الياقوت والماس والسنبادج . وطولها مائتان وستون ميلاً . ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أغنا ، يسكنها مسامون ، ونصارى ، ويهود ، ومجوس . ولكل أهل ملة من هذه الملل حاكم . لا ينبغي بعضهم على بعض . وكلهم يرجع إلى ملك ينوَسهم ويجمع كلمتهم . ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغباب ^(١٢) .

١٥ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن . وأوله بحر الجمحة ، وهو بلاد مهرة . معترض في البحر فيمتر بحاسك (وهو أول مرافق اليمن) ثم يمر بحر باط ^(١٣) (ساحل بلاد ظفار) ، ثم يمر بالشحر (ساحل بلاد مهرة) ، ثم بشرمة ولسعا (ساحل بلاد حضرموت) ، ثم بأين ، ثم بعدن ، ثم بالختق ، ثم بالعارة ، ثم الباب بالمندب .

(١) قال البيروني في كتابه على الهند : سنكلدب وهي جزيرة سرنديب (ص ١٠٢) وفي أبي الفدا سنكلدب .

(٢) الأغباب واحدها غب . وهو — على ما قال البيروني — كالجزيرة والطفة يدخل من البحر إلى البر

ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر . والخود هو شبه الثقب ولكنه ليس من جهة

دخول البحر وإنما هو من بحري الماء الجارية واتصاله بالبحر ساكنا ومخاوف السفن فيه من جهة

العدوة التي لا تستقل بالأفعال استغلال الملوحة بها (تحقيق ما للهند ص ١٠٢) .

(٣) مدينة بين حضرموت وعمان وهي القرصة لمدينة ظفار الواقعة على نحة فراع منها .

وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سقوطرة . وطولها نحو من مائة وثمانين ميلا ، وعرضها في الوسط نحو خمسة عشر ميلا . وبها الصبر . يسكنها قوم من اليونان ، تغلبوا على من كان فيها من الهند في زمن الإسكندر . وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد في العقل .
ولهذا سميت في الكتب القديمة جزيرة العقل .

ولي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج ، وبحر بربر ، ويسمى ساحله الزنجبار .
وفيه مما يلي بلاد اليمن جزائر منها :

جزيرة دعون ، وهي مدورة .^(١)

وجزيرة السود .

وجزيرة حورتان .

وجزيرة مروان . وفيها مدن يسكنها السراق ، وهي مقابلة لبلاد مهرة .

وجزائر الديجات . وهي كثيرة . وأهلها مفرطون في السواد . وجميع ما عندهم

أسود ، حتى قصب السكر والكافور .

وجزيرة القمر . وتسمى جزيرة ملاي . وطولها أربعة أشهر ، وعرض الواسع

منها يزيد على عشرين يوما . وهي تحاذي جزيرة سرديب . وفيها بلاد كثيرة أجلها

كيدانة ، وملاي (وإليها تنسب الجزيرة) ودهمي ، وبلقي ، وخافورا ، ودعلي ،

وقمريه (وإليها ينسب القمر) . ويقال : إن هذه الجزيرة خشبا ، ينح من الخشبة

(١) من المعلوم أن العرب يسمون شبه الجزيرة بالجزيرة . ولم أجد لهذا الاسم أثرا فيما بين يدي من كتب

المراجعة قطلها هي التي ذكرها ياقوت باسم "دغوث" وقال إنها بلد بنواحي للشحر من أرض عمان

أولها "دغظة" التي قال أبو الفدا أنها أترمدن سفالة وآثر الهارة في البر المتصل .

(١) منه شأن يكون طوله ستين ذراعا ، يجذف على ظهره مائة وستون رجلا .
ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل
يعرف بهم . ومنها يخرج نهر النيل (٢)

٦ - ويخرج من هذا البحر الذي يجمع هذه القطع خليجان

أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس .

١ - فأما خليج القلزم . ففروجه من باب المندب . وهو جبل طوله اثنا عشر
ميلا ، وسعة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البر الآخر . فإذا قارب
المندب يمر في جهة الشمال ، بغلافقة ، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجردة ،
ثم الشرجة ، ثم عثر (وكانت مقر ملك قديم) ثم بالسرين ، وحلى ، وعسفان ، والجازر
(وهي فرضة المدينة) والنجفة ، والصفراء ، والحوراء ، ومدين ، وأيلة ، والطور ،
وقاران ، ثم القلزم (وكانت مدينة مسكونة ، وكذلك أيلة) . ومن القلزم ينعطف من
جهة الجنوب فيمتر بالقصير (وهي فرضة لقوص) ثم إلى عيذاب (وهي فرضة لبلاد
البحجة) ، ثم يمتد إلى زيلع (وهي ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا .

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل . وعرضه في مواضع أربعمائة ميل ، ودون ذلك

إلى مائتي ميل إلى ما دون ذلك .

وهو بحر كربه المنظر والرائحة .

(١) أى من السفن المروقة بأسم الشوانى .

(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرا بين هذه الجزائر المروقة بالقمر (ضم فكون) وبين الجبل المعروف

بالقمر (فتح فكون) فيقولونها شيئا واحدا و يقولون يخرج منابع النيل من تلك الجزائر . وهذا

أمر غير معقول .

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ عَمَّان. لأنه في سفح جبل إذا وقتت الريح على دُرْدُورَتِهِ أقطعت بنصفين على شُعْبَتَيْنِ متقابلتين، ثم يخرج من كُفَي هَاتَيْنِ الشُعْبَتَيْنِ، فيثير البحر فتبَلِّد السفن باختلاف الريح فلا تكاد تسلم. وهاتان الشُعْبَتان تسميان الجحيلين، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة القُرْنَدَيْنِ^(١). ويقال: إنها التي أغرق الله فرعون وقومه فيها. فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه.

AV

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهي:

جزيرة دَهْلَک. يحيط بها نحو مائتي ميل، يسكنها قوم من الجبوش. مسلمون.

وجزيرة سواكن. وهي أقل من ميل في ميل. وبينها وبين البحر الحبشي

بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البجَّة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وجزيرة النعمان. وبها فويس تعيش من لحوم السلاحف.^(٢)

وجزيرة السامري. يسكنها قوم من اليهود، سامرة، في عيش قشيف.

٢ - وأما خليج فارس. فإنه مثلث الشكل على هيئة القلغ.

أحد أضلاعه من تيز مكران. فيمتر في بلاد كرمان على هرمز، ومن بلاد فارس

على سيراف، وتوح، وتيجيم، وجنابة، ودارين، وسينين، ومهروبان، ومنها يعضى

(١) الذي في تفرج أبي الفداء: القرنندل باللام.

(٢) تصغير ناس.

(٣) هكذا في الأصل وفي أبي الفداء. وأما ياقوت فقال إنها توح. (وضبطها أبو الفداء بضم التاء.

وصكون الراء) وأتفق أبو الفداء. ويعرف عن أنها هي التي تسمى أيضا توز (ولكن ياقوت ضبطها

بفتح تشديد). والذي في ياقوت هو انصراب كما يروى من "لب اللباب" للسيوطي، ومن

"طائف المعارف" للثعالبي.

البحر إلى عبادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمتز بالخط، وهو ساحل بلاد عُمان إلى صور، وهي ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن، ثم يمتد إلى رأس الجُمحة من بلاد مهرة .

والضلع الآخر يمتد على سطح البحر من تيز مُكران إلى رأس الجُمحة .

• وهذه الأضلاع غير متفاوتة في الطول؛ فإن الضلع الذي يمتد على سطح البحر طوله نحو مائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تيز مُكران إلى أن ينتهي إلى عبادان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجُمحة، تسعمائة ميل .

وفيه مما يلي عبادان مكان يعرف بالدرُّدور . وهو بين جبلين، أحدهما يسمى كُسَير، والآخر عُوير . ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه "وآخر ما فيه خير" لثلاثة ما يرى بها من الأهوال . وهي جبال سود ذاهبة في الهواء يتكسر الماء على شُعبها . ولا بد للراكب أن تمر بينها، وقتما تسلم .

وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربعة عامرة،

وهي :

جزيرة خارك . يحيط بها اثنا عشر ميلا . وهي عامرة أهلة كثيرة البساتين .

وبها مفاص اللؤلؤ .

وجزيرة كيش . وبها مفاص اللؤلؤ أيضا . وهي أهلة . وتسمى هذه الجزيرة

في عصرنا هذا "قيس" .

وجزيرة أوال . وهي تجاه ساحل البحرين، وبينهما يوم . وبها مدينة . وأوال

مدينة من مدائن البحرين .

وجزيرة لاغت . وتعرف بجزيرة بني كاوان ^(١) . وطولها اثنتان وخمسون ميلا ،
وعرضها تسعة أميال . وهي آهلة .

وهاتان الجزيرتان معدودتان في بلاد جُور من أعمال فارس .

ويقال أيضا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث في شمال الصقابة ، ويمتد
قرب بلد بلغار المسلمين ، ويسمى بحر أدريك ، منسوب إلى أمة على ساحله
في جهة الشمال ، ثم يعرف نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون
وجبال مجهولة خربة .

فهذا البحر المحيط وما يتفرع منه .

٧ - وأما بحر مانيطش ^(٢)

ويسمى البحر الأسود وبحر سوداق . وهي مدينة على ساحله . هي فرضة
بلاد القفجاق مما يلي القسطنطينية . وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِيم ^(٣) ،

(١) ويسميا الإدريسي : ابن كاران ، وغيره يسميا : بركاوان .

(٢) جرى المؤلف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الأسود . والحقيقة أن بحر نيطش هو
المعروف الآن بالبحر الأسود . وأما بحر مانيطش فهو المعروف ببحر آزاق وبحر آزوف . وما يجب
التنبه عليه أن كثيرا من كتاب العرب يخلطون بين هذين البحرين . ولذلك قال المسعودي :
”بحر نيطش وبحر مانيطش يجب أن يكونا بحرا واحدا ، وإن تضايق البحر في بعض المواضع بينهما
أوصار بين الماءين كالخليج . وليست تسمية ما أتسع منه وكثير ماؤه بمانطش . وما ضاق منه وقل
ماؤه بنيطش ينبغي أن تجمعهما في اسم مانيطش أو نيطش . فإذا عثرنا في بعض المواضع في مبسوط
هذا الكتاب فقلنا ”مانطش“ أو ”نيطش“ فإنما يزيد به هذا المعنى فيما أتسع من البحر وضاق“ .
(من مروج الذهب ، ص ٥٨) .

٢٠

(٣) وبها سميت شبه الجزيرة الموجودة في البحر الأسود وهي شبه جزيرة القرم .

مقصودة من كل الجهات . وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء . وهي محدثة . ^{مُصَرَّت} .
 فيما بين الثلاثين والأربعين وستائة للهجرة النبوية . ويسمى هذا البحر أيضا بحر
 الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارى . وهو بحر ضخم كثير الأخوار
 والتروش ^(١) والجبال الجرش . وطوله من الشمال إلى الجنوب ألف ميل وثلاثمائة، وعرضه
 مختلف . ففي موضع ستائة ميل، وفي موضع ثلثائة ميل . والناس مختلفون فيه . فمنهم
 من يقول إنه بحر مستقل بنفسه ، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر
 الروم أو هو مفيض لخليج القسطنطينية . وأكثرهم على أنه بحر مستقل بنفسه لطوله
 وعرضه وكثرة جزائره . وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط على ظهر
 بلاد الصقالبة، ويحيط به بلاد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأركشية، وبلاد
 الشركسية، وبلاد العلان والعنكر ^(٢) والناشقر .

وفيه ست جزائر عامرة، وهي كثيرة المدن والقرى، يسكنها الروس .

٨ - وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم . وذلك بحسب ما يميز عليه من البلاد . وهو —
 على ما حكاه ابن حوقل — مدور الشكل ، ليس له اتصال ببحر آخر .

(١) في الاصل التروس . ولكن الإدريسي يستعمل لفظة "التروش" بالشين المعجمة . ومعناها الشعب

أى نضخور التي تكون تحت سطح الماء قليلا فتكسر السفن وتسقط إذا أصطدمت بها .

(٢) العلان ترك تنصروا وهم خلق كثير وقلمتهم إحدى فلاح العالم تنعم بالسحاب (عن أبي الفدا) وبلادهم

في أرض قفجاق أو قفقاسية وهم المشهورون في كتب العرب أيضا بأسم اللان .

قال : ولو أن إنسانا طاف به ، لآتهى إلى الموضع الذى أبتدأ منه ، لا يقطعهُ عن ذلك إلا نهرٌ يصب فيه .^(١)

وفى شرقَ هذا البحر بعض بلاد الديلم ، وبلاد طبرستان ، وجرجان ، وبعض المسافة التى بين جرجان وخورزم ، وغربيه بلاد أزان ، وبلاد الخزر ، وبعض مفازة الغزية ، وشماله مفازة الطُّغُرْغُزِيَّة ، وجنوبه الجليل ، والديلم . وطوله ثمانمائة ميل ، وعرضه ستمائة ميل .

وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق" : طولهُ من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل^(٤) ، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتل ستمائة ميل^(٥) ، وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب فى أسبوع بالريح الطيبة ، وفيه أربع جزائر ، وهى :

جزيرة سيأكوه . وهى تجاه آبسكون ، فرضة جرجان . يسكنها طائفة من الترك . يصاد بها البراة البيض .

وجزيرة سهلان . وطولها نحو مائة ميل ، وعرضها نحو خمسين ميلا .

(١) هذا ملخص العبارة التى أوردها ابن حوقل (وأظر كتابه ص ١٣) .

(٢) فى الأصل : الفرة . والتصحيح عن أبي الفدا .

(٣) فى الأصل : الختل (وهو تحريف ظاهر من النسخ) .

(٤) هكذا فى مقدمة الإدريسي (فى جميع النسخ) ولكنه عند كلامه على الجزء السابع من الإقليم الخامس نص على أن طول هذا البحر ٨٠٠ ميل وأن عرضه ٦٠٠ ميل (وهذا هو الذى نقله عنه أبو الفدا) ، ثم عاد الإدريسي فقال إن طولهُ ٩٠٠ ميل .

(٥) فى الأصل مائة ميل [والتصحيح عن الإدريسي] .

(٦) فى الأصل : بساء كوه . والتصحيح عن أبي الفدا .

وجزيرة البركان . وهي أطمّة عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشمخ ما يكون من الجبال . ترى من نحو مائه فرسخ من البر .

وجزيرة تجاه باب الأبواب . كثيرة المروج والأنهار . وهذا البحر يقال إنه كثير التناين .

وقد اختلف فيها . فن الناس من يقول إنها دواب تعظم في قعر البحر فتؤذي ما به من دواب، فيبعث الله عز وجل عليهما السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعاما لهم . وهذا مما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما . ومنهم من رأى أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب، كالزوبعة التي تثور من الأرض وتستدير ثم تطول في الهواء . فيتوهم الناس أنها حيات سود .

وسائر البحار تمتد وتجزر، خلا هذا البحر .

ويقال إن علة المدّ والجزر تكون عن وضع الملك الموكل بقاموس البحر عقبه في أقصى بحر الصين، فيفور فيكون منه المدّ، ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر . (ومنهم من روى مكان العقب الإبهام) .

ومنهم من قال إن العلة فيه غير هذا كله .

والله أعلم !

(١) هي شبه الجزيرة المعروفة الآن باسم أيزرور . وفيها مدينة . كوا المشهورة وهذه المدينة سماها أبو الفدا "باكوى" وسماها المسعودى "بكه" وقال ان بها معدن النقط الأبيض (أى البترول) ثم قال وفي هذه الغنطة أطمّة، وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تنضم الصعداء . فهذا هو الذى عناه النويرى باسم "البركان" .

ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة

وما بها من العجائب

وفي المعمور بحيرات مالحة :

فالذي أشهر منها :

- § بحيرة خوارزم . وشكلها مثلث كالقُلع ، وليس في المعمور بحيرة أعظم منها . يحيط بها أربعمائة فرسخ . يصب فيها نهرا سيحون وجيحون ، اللذان في أرض الهياطلة ، وغيرهما من الأنهار العظيمة الحارية في بلاد الترك . وهي مع ذلك لا تزيد ولا تنضب .

وزعم صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق" أن في هذه البحيرة

- حيوانا يظهر على سطحها في صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا ، بلغة لا تُفهم ثم يغوص . وظهوره بمندهم يدل على موت ملك من ملوك ذلك الحين .

§ ومنها بحيرة الطريخ^(١) : لسماك صغير يصاد منها ويجعل إلى سار بلاد أرمينية

- وأذربيجان . وطولها أربع مراحل ، وعرضها مرحلة . يُجمع من أطرافها البورق . والسماك يوجد بها في زمان مخصوص ، يأتيها في نهر يصب إليها ، ويكثر حتى يصاد بالأيدى . فإذا أتقضى ذلك الزمان ، لا يوجد منه شيء أبته .

(١) وأسمها في كتب الجغرافية العربية بحيرة أرجيش ، وهذا السمك الذي سميت به ، كما في "القاموس"

سمك صفار تعالج بالملح وتؤكل . وقد عرّفنا أن حوقل أنه صغير مقدار الشبر يملح ويجعل إلى الجزيرة والموصل والزقة وحران وحلب وسائر الثغور .

§ وفي بلاد أذربيجان بحيرة كَبُودَانُ^(١) . وكَبُودَانُ قرية في جزيرة، يسكنها ملاحو المراكب التي يركب فيها من هذه البحيرة . وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك . وفيها جزائر : منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمى تلا . ولا يكون بهذه البحيرة حيوان آلبنة ، لأن ماءها متن رديء .

§ وفي بلاد البحرينِ بَحْرِيَّةٌ . وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هجر : "البحرين" .

§ وفي الشام بأرض القُور بحيرة زُغر ، وتسمى المُنْتِنَةَ والمَيْتَةَ . لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شيء مما يتكوّن في المياه الجارية والراكدة من الحيوانات . وطولها ستون ميلا ، وعرضها اثنا عشر ميلا .

ويقال إنها ديار قوم لوط التي خَسَفَهُمُ اللهُ بها . ويقال إنها كانت خمس مُدُن ، أسماءها : "ضيعه" ، و"ضعوه" ، و"عمره" ، و"دوما" ، و"سذوم" . وكانت سذوم أكبرها وأعظمها .

ويُصَبُّ في هذه البحيرة نهر الأُرْدُنُّ وغيره من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكرك وغيرها ، فلا تزيد . ويقال إن لها متفذا إلى بحر القلزم . وبساحلها الشرقي إلى حدٍّ أريحا معدن الكبريت الأبيض ، يُحْفَرُ عليه ويُحْرَجُ . ويتكوّن في هذه البحيرة شيء على شكل البقر ، ويطفو على وجهها ويتفقع ، فيجمع منه شيء أسود يسمونه "الحمر" ، وينقل إلى قلعة الكرك يدخر بها ، يدخل في النّقط .

(١) هي التي ذكرها أبو الفدا باسم "بحيرة تلا" وياقوت باسم "بحيرة أرمية" . وقد ذكر أن في وسطها جبلا يقال له "كبودان" وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملاحو سفن هذا البحر (معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨) .

وفي أعمال مصر بحيرة تَنِيْس ، مقدارها إقلاع يوم في [عرض^(١)] نصف يوم .
يكون ماؤها في أكثر السنة ملحا من دخول ماء البحر الرومي إليها ، فإذا مدَّ النيل
صبَّ فيها فتحلوا فإذا جَزَّ مَلَحَتْ .

ويقال : إنه كان في مكانها برمسوك تغلب عليه البحر في ليلة واحدة ، فما كانت
أرضه مستفلة غرق ، وما كانت أرضه عالية مثل تَنِيْس وتونة بقي .

وفي وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجَار ، يسكنها قوم صبادون .

وقال إبراهيم بن وصيف شاه في "كتاب العجائب الكبير" : إن بحيرة تَنِيْس كانت
أجنة وكروما ومنازل ومنتهات ، وكانت مقسومة بين ملكين من ولد أَرِيْب بن
مصر ، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا ، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البر حتى باع
حصته من أخيه وفتق ماله أيضا ، فأصلحها أخوه وزاد فيها غر ورسا وجر فيها أنهارا
وبنى فيها بيانا ، وأحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يمتعه ويفتخر عليه بما في يده من
المال والأجنة ، فغاطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه ، وقال : أنا أكثر منك
مالا وولدا وخيرا ، فقال له أخوه : فما أراك شاكرا لله تعالى على ما رزقك ،
ويوشك أن ينزع ذلك منك . ويقال : إنه دعا عليه ففتق ماء البحر ما كان له
في ليلة واحدة .

وقيل : إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز ، فقال : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمُ
مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ الآيات ؛ والله تعالى أعلم .

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة ، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك ، يدخل
إليها الماء من بحر الروم من مكان الأشتوم ، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها

في خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمى الجدية، والأخرى تسمى أتلو كثيرة المقات^(١) والنخل، وكلها في الرمل . ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمى "الحافر" طوله نصف يوم إقلاعا، وهو كثير الطير والسماك والعشب .

وفي بلاد إفريقية بحيرة بترت ماؤها ملح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال . وعلى عشرة أميال منها بحيرة عذب تسمى بحيرة متيجة^(١) . فإذا جاء الشتاء وكثرت السيول، غاضت بحيرة بترت، وفاضت بحيرة متيجة حتى تمتها ستة شهور فلا يحلو ماؤها؛ فإذا آقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متيجة، وفاضت بحيرة بترت فلا يملح ماؤها . ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة نوع من السمك لا يخاطله غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغير السمك فيها .

وذكر صاحب كتاب "مباح الفكر ومباح العبر" : أن بقوم بلاد أرمينية بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستة أشهر كوامل، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع . وهذا دأبها مدى الزمان .

وويجلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضفدع ولا سرطان عشرة أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين .

(١) كذا بالأصل وفي معجم ياقوت "أتكو" بلدة قرية من نواحي مصر قرب رشيد .

(١) وزنها في القاموس بيكبة .

ومثله قول الآخر:

كئيلِ البحرِ يفرِّقُ فيه حَيٌّ، * ولا ينفكُ تطفوُ فيه جيفه.

وقال ابن الرومي:

ألا فأرجه وأخشه إنه * هو البحر: فيه الغنى والفرق!

وقال أبو نؤاس:

من قاس غيركم بكم، * قاس التماساً إلى البحور!

وقال آخر:

إذا كنتُ قُربَ البحرِ مالي مخلصٌ * إليه، فإني أقرابي من البحر!

وقال آخر:

كالبحر هذيف للقريب جواهرًا * منه، ويرسلُ للبعيد سخائبًا.

ذكر شئ مما قيل في وصف البحر وشبيهه

قال ابن رشيقي عفا الله عنه:

البحرُ مرُّ المذاقِ صعبٌ * لأجعلتُ حاجتي إليه.

أليس ماءً ونحن طينٌ؟ * فما عسى صبرنا عليه؟

وقال ابن حديس:

لا أركبُ البحرَ، أخشى * على منه المماطِب!

طينٌ أنا وهو ماءٌ، * والطينُ في الماءِ نائب.

وقال آخر:

وزائر ليس له صولةٌ * إلا إذا ما هبتِ الرِّيحُ.

فهو إذا ما سكنت ساكنٌ * كأنما الرِّيحُ له رُوحُ.

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

تناهى البحرُ في عَرِيضٍ وطُولٍ، * وليس له على التحقيق كُنْهٌ.
وأعْجَبُ كَمَا شَاهَدْتُ فِيهِ * سَلَامَتَنَا عَلَى الْأَهْوَالِ مِنْهُ.
فحَسْبِي أَنْ أَرَاهُ مِنْ بَعِيدٍ * وَأَهْرَبُ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ عَنْهُ.

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم :

أَطَاعَنُ صَفْهَمَ وَلَقَدْ أَرَانِي * عَلَى زَوْرَاءَ تَسْجُدُ لِلرِّيَّاحِ.
إِذَا أَعْتَرَضَتْ بِرَاكِبِهَا خَلِيجًا، * تَدَّكَّرُ مَا عَلَيْهِ مِنْ جُنَاحِ.
وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا قَعُودٌ، * نَفُضُ الطَّرْفَ كَالِإِبِلِ الْقِحَاحِ.

وقال ابن تولو من أبيات :

تَحْتُ بِنَا فِيهِ قِلَاصٌ كَأَنَّهَا * وَطَالُ، تَبَدَّتْ مِنْ جِبَالِ شَوَاهِقِ.
لَهَا كَأَفْلَا مَاءٍ وَرِيحٍ كِلَاهُمَا * يَعْلَمُهَا فِي الْجَرِيِّ سَبَقَ السَّوَابِقِ.
إِذَا أَنْحَدَرْتُ، فَمَاءُ الطُّفِّ قَائِدٌ، * وَإِنْ صَعِدْتُ، فَالرَّيْحُ أَعْسَفُ سَائِقِ.

وقال السلامي :

وَمِيدَانٌ تَجُولُ بِهِ خِيُولٌ * تَقُودُ الدَّارِعِينَ وَلَا تُقَادُ.
رَكِبْتُ بِهِ إِلَى اللَّذَاتِ طَرَفًا * لَهُ جِسْمٌ، وَلَيْسَ لَهُ فُؤَادُ!
جَرَى فظَنَنْتُ أَنَّ الْأَرْضَ وَجْهٌ، * وَدِجَلَةَ نَاطِرٌ، وَهُوَ السَّوَادُ.

وقال محمد بن هاني :

مَمَّطَفَةُ الْأَعْنَاقِ تَحْمُو مَتُونَهَا * كَمَا نَبَّهَتْ أَيْدِي الْحَوَاةِ الْأَفَاعِيَا.

إذا أعملوا فيها الجبذيف سرعة، * ترى عقربا منها على الماء ماشيا.
إذا ما وردن الماء شوقا لبرده، * صدرن - ولم يشربن - غرثي صوابيا.
وقال الرستمي :

لم نزل مُشْفِقِينَ مُذْقِل: سارت * بك دهم قليلة الأوضاح.
أصلها البر وهي ساكنة في البحر سُكْنِي إقامية لا براج.
هي في الماء وهي صفر من الماء * سوى نضج موجها النضاج.
فإذا أوقرت، فذات وقار، * وإذا أخليت، فذات حجاج.
وتراها في اللج ذات جناحين * وإن لم تكن بذات جناح.
من مطايا لا يتنذرين ولا يسئامن سير البكور بعد الرواح.
مُنشآت من الجوارى القوارى * لسنن من صنعة الجوارى الملاج.
والدات مُولدات بلا حل نكاج ولا حرام سفاج.
لا من البيض بل من السود ألوا * نأ وذات الأنساج والأزواج.
طائرات مع الرياح، وطورا * كاسرات بالجرى حد الرياح.
سائرات لا يشتكين سرى الليل ولا يرتقبن ضوء الصباج.
سائكات بلا خضوع سُكون، * جامحات بلا غرام حجاج.
لا يخفن النار يُقدفن فيها، * ويخفن المُرور بالضحجاج.
إن صدمن الحصى عطين ولا يعطين إماء صدمن حد الرياح.
مارأى الناس من قصور على الماء * سواها يسير سير الفداج.
يتسببن كالأسود في الخفة لافي معادة الأشجاج.
فإذا ما تقابلت، قلت: فود * من كبايش تقابلت للنتاج.

شَرَعَهَا الْبَيْضُ كَالنَّمَامَاتِ فِي الْمَيْشِفِ مَحَامًا مِنْهَا وَغَيْرَ مَحَامٍ .
 كَمْ مُدِلٌّ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ فِيهَا ، * وَبِهِ حَاجَةٌ إِلَى الْمَلَّاحِ !
 قَائِدِ جُنْدِهِ لَهُمْ أَدَوَاتٌ * نَفَعُهَا ثُمَّ فَوْقَ نَفْعِ السَّلَاحِ .
 إِذَا الْبَحْرُ صَالَ ، صَالُوا عَلَيْهَا * بِمَوَاضٍ تَمْحَى بِغَيْرِ جِرَاحِ .
 يُكْتَبِرُونَ الصَّبِيحَ حَتَّى كَأَنَّ السَّفْنَ تَجْرَى مِنْ خَوْفِ ذَاكَ الصَّبَاحِ .

وما وصفت به البحار والسفن ترا

قال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبي يصف شائياً سافر فيه :^(١)

- ”فَارَقْتُ مَوْلَايَ حِينَ أَخَذْتُ لِلسَّفَرِ عُدَّةَ الْحَزْمِ ، وَشَدَدْتُ عُقْدَةَ الْعِزْمِ ، وَانْتَضَمْتُ
 ١٠ مع السَّفَرِ فِي سَلَكٍ ، وَرَكَبْنَا عَلَى أَسْمِ اللَّهِ ظَهَرَ الْفُلْكَ ؛ فِي شَانٍ عَظِيمِ الشَّانِ ، أَحْدَقْتُ
 بِهِ النَّطْقُ إِحْدَاقَ الْحَيَازِمِ ، وَأَسَكَّنْتُهُ إِسْكَانَ الْأَبَازِمِ ؛ ثُمَّ تَبِعَ خَلَلَهُ فَسُدَّ ، وَرِخْوَهُ
 فَسُدَّ ؛ حَذَرًا عَلَى الْوَاوِحِ مِنَ الْإِنْحَاغِ ، وَأَتَصَلْتُ بِعَرَائِيْسِهِ آتِصَالَ الْجُلُودِ بِالْأَضْلَاعِ ؛
 ثُمَّ جُلَيْبْتُ جِلْبَابًا مِنَ الْقَارِ ، وَصُخِّمْتُ فِي الْمَتْنَيْنِ وَالْفَقَّارِ ؛ فَاْمَتَّازَ بِأَغْرَابِ مَيْسَمٍ ، وَعَادَ
 كَالْفَرَابِ الْأَعْعَمِ ؛^(٢) قَدْ حَسُنَ مِنْهُ الْخُبْرُ ، وَكَأَنَّ الْكَافُورَ قَدْ قُرِنَ فِيهِ بِالْعَبْرِ . لَهُ مِنْ
 ١٥ التَّمَا سِيحِ أَجْنَابِهَا ، وَمِنْ الْخَطَّاطِيْفِ أَذْنَابِهَا ؛ وَأَسْتَقَلَّتْ رِجْلُهُ بِفِرَاشِهَا ، أَسْتَقَلَّلَ
 السَّهْمَ بِرِأْسِهَا ، وَقَدْ مَدَّ قَلْبِيهِ فَرَاعِيَهُ مُتَلَقِيًا مِنْ وَفْدِ الرِّيَاحِ مَصَالِحِهِ ، وَمُسْتَهْدِيًا
 مِنْهَا مَنَافِعِهِ . تَقَلَّدَ الْحَكْمَ عَلَيْهَا إِشْتِيَامًا^(٣) ذُو تَيْقِظٍ وَأَسْتَبْصَارٍ ، وَأَسْتَدْلَالَ عَلَى الْأَعْمَاقِ

(١) الشان اسم لنوع من السفن التجارية والحربية عند المسلمين وجمعه شوانى .

(٢) أى الأبيض الجناحين (عن تاج العروس) .

(٣) الإشتيام هو رئيس الملاحين ، لفظ أعجمى أخذته العرب (راجع الجواهرى) .

والأقصار؛ يستبدل باختلاف المياه إذا جرى، ويهتدى بالنجوم إذا سرى؛ قد جعل السماء مرآة ينظر فيها، ويحذر من دجن يوافيها؛ فإذا أصدأها الظلام بمخادسه، وصلها الضياء بمداوسه؛ يسبح الله في مصبحه ومساءه، ويسلم في مجراه ومرساه، ويذكر رباً يحفظه ولا ينساه. قد آخذ فيه موآتيه، من أنجد النوايته؛ مشمرين الأثواب، مدبرين بالصواب؛ يفهمون عنه بالإيماء، ويتصرفون له تصرف الأفعال للأسماء؛ ويرتمون عند الحدب والدفع، والخط والرفع؛ بهيمة تبعهم على النشاط. والجمام^(١)، وتوددهم في عملهم بالتمام. نخرجنا ونفخ الريح نسيم، ووجه البحر وسيم؛ وراحة الريح نصاب عبايه مصافحة الليل، وتطوي جناحه طي السجل؛ وتجول من لجة أبرادا، وتصوغ من حبه أزادا: كأنما ترسم في أديم رقشا، أو تفتح في فصوص نقشا. فلما توسطنا شج البحر، وصرنا منه بين السحر والتحر؛ صحت الريح من سكرها، وطار من وكرها؛ فسمعنا من دوى البحر زئيرا، ومن جبال الشاني صغيرا؛ ورأينا يزيد ويضطرب، كأنه بكأس الجنوب قد شرب؛ واستقلنا منه وجه باسر، وطار من أمواجه عقبان كواسر؛ يضطرب ويضطفق، ويختلف ولا يتفق؛ كأن الحق يأخذ بنواصيها، ويجذبها من أفاصيها؛ والشاني تلعب به أكف الموج، ويفحص منها بكلكلة فوجا بعد فوج؛ ويحب منها ما بين أنجاد وأغوار، وخنادق وأسوار؛ والبحر تحتنا كأرض تميد بأهلها، وتزلزل بوغيرها وسهلها؛ ونحن قعود، دود على عود؛ قد نبت بنا من القلق أمكنتنا، ونحرس من الفرق ألسنتنا؛ والرش يكتنفا من كل جانب، ويسيل من أثوابنا سيل المدائب. فشمتنا ريح الموت، وظننا التلف والقوت؛ وبقينا في هم ناصب، وعذاب واصب؛ حتى آتينا

(١) ذهاب الإعياء والتعب.

إلى كَفِّ الجَوْنِ، وصرنا منه في كَنِّ وَصَوْنٍ ؛ وهدأ من البحر ما أَسْتَشْرَى، وتنادينا
بالبُشْرَى؛ ووطئنا من الأرض جَدَدًا، ولبسنا أثواب الحياة جُدَدًا ! “

ومن رسالة لأبي حامر بن قتال الأندلسي عفا الله عنه

٩٢

جاء منها :

”... وكان جَوَازَه، أيده الله على بَحرِ ساكن، قد ذل بعد آسْتَصْعَابِه، وسهل بعد. أن
رأى الشاخ من هِضَابِه؛ وصار حيه مَيْتًا، وهديره صَمْتًا؛ وجباله لا ترى بها عَوْجًا ولا
أَمْتًا؛ وضعف بعد تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطئه. فعبأ أَمْنًا من لهواته، متلكا
لصهواته ؛ على جواد يقطع البحر سَبْحًا، ويكاد يسبق الريح لَحْمًا ؛ لا يحمل لحامًا
ولا سَرَجًا، ولا يعرف غير الجَمَّةِ سَرَجًا؛ فله هو من جواد، له جسمٌ وليس له فُؤاد؛
يخترق الهواء ولا يرهبه، ويركض في الماء ولا يشربه ! “

ومن رسالة للأستاذ ابن العميد في مثل ذلك

جاء منها :

”... وكان العشاريات وقد رُدِيَتْ بالقار، وحُلِيَتْ بالبحرين والنُّضَارِ؛ عرائسُ منشورة
الدواب، مخضوبة الحواجب؛ موشحة المناكب، مقلدة التراث؛ متوجة المفارق،
مكلاة العواتق، فضية الحليل والقراطق؛ أو طواويس أبرزت رقابها، ونشرت
أجنحتها وأذناها؛ وكأنها إذا جدت في الحاق، وتنافست في السباق؛ نوافر نعام،
أوحوافل أنعام؛ أو عقارب شالت بالإبر، أودهم الخيل واضحة المجول والقر؛ وكان
المجاديف طير تنفض خوافيها، أو حبابٌ تعانق حبابٌ بأيديها “

الباب السابع

من القسم الرابع من الفن الأول

في العيون والأنهار والغدران

وما وُصفت به البرك والدواليب والتوايعر والجداول

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ نِيَابِعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال المفسرون: هو المطر. ومعنى سَلَكَهُ أدخله في الأرض، وجعله عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الجسد.

قال أبو الفرج، قدامة بن جعفر: مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهراً، منها:

١٠ في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهراً؛ وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهراً؛ وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهراً؛ وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون نهراً؛ وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهراً؛ وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهراً؛ وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهراً.

ثم قال: وفي هذه الأنهار ماجريانه من المشرق إلى المغرب، كنهريهاوند ونهر سيجستان؛ وماجريانه من الشمال إلى الجنوب كدجلة؛ وماجريانه من الجنوب إلى الشمال، كنهري النيل ونهر مهران؛ وماجريانه مرگب من هذه الجهات، كنهري الفرات وجيحون ونهر الكر.

وسندكر المشهور منها.

فأما نهر النيل

§ فزعم قدامة بن جعفر أن أنبعاثه من جبل القمر وراء خطّ الاستواء، من عين
تجرى منها عشرة أنهار، كلُّ خمسة منها تنصب إلى بَطِيحَة . ثم يخرج من كل بطيحة
نهران ، وتجرى الأنهار الأربعة إلى بَطِيحَة كبيرة في الإقليم الأول . ومن هذه
البطيحة يخرج نهر النيل .

§ وقال صاحب كتاب "زهة المشتاق إلى آخترق الآفاق" : « إن هذه البحيرة
تسمى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحّشون : يأكلون
من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانّة، ونهر الحبشة؛ فإذا خرج
النَّيل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد ننه (طائفة من السودان أيضا، وهم بين كانم
والنوبة) ، فإذا بلغ دُنُقْلَة (مدينة النوبة) عَطَف من غربها إلى المغرب، وأنحدر إلى الإقليم
الثاني، فيكون على شطّيه عمارة النوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى .
ثم يشرّق إلى الجنادل، وإليها تنتهي مراكب النوبة أنحدارا، ومراكب الصعيد
إقلاعا . وهناك أحجار مخرسة لأمرور المراكب عليها إلا في إبان زيادة النيل .

ثم يأخذ على الشمال فيكون على شريقه مدينة أُسوان من بلاد الصعيد الأعلى؛ ثم يمر
بين جباين هما يكتنفان لأعمال مصر، أحدهما شرق والآخر غربى حتى يأتى مدينة
مصر فتكون في شريقه . فإذا تجاوزها بمسافة يوم، أنقسم قسمين : أحدهما يمر حتى
يصب في بحر الروم عند مدينة دمياط، ويسمى بحر الشرق؛ والآخر — وهو عمود النيل
ومعظمه — يمر إلى أن يصب في بحر الروم أيضا عند مدينة رَشِيد، ويسمى بحر الغرب .

(١) يشير إلى القساطط، أى مصر العتيقة في عرفنا الآن .

§ قالوا : وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب في رشيد سبعمائة فرسخ
وثمانية وأربعين فرسخا . وقيل إنه يجري في الخراب أربعة أشهر، وفي بلاد السودان
شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرا . «

§ وروى البخارى في "صحیحه" عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبي
(صلى الله عليه وسلم) في حديث المعراج ، قال : " ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، وإذا
تَبَقُّها مثل قِلَالِ حَجْرٍ ، وإذا وَرَقُها مثل أَذَانِ الفِيلةِ . (قال : هذه سدرة المنتهى) وإذا أربعة أنهار
نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، ققلتُ : ما هذا يا جبريلُ ؟ قال : أما الباطنان ، فنهران
في الجنة ؛ وأما الظاهران ، فالنيلُ والقُرأتُ " . وليس في الأرض نهر يزيد حين
تنقص الأنهار وتغيض ، غيره . وذلك أن زيادته تكون في الفيض الشديد في شمس
السرطان والأسد والسنبلة .

§ وقد حكى في فضائل مصر أن الأنهار تمدّه بمائها ، وذلك عن أمر الله تعالى .
وقال قوم : إن زيادته من تلوح يُذيبها الصيفُ على حسب مَدِّها ، كثيرة كانت
أو قليلة ؛ وفي مَدِّه اختلاف كثير .

§ وكان منتهى زيادته قديما ستة عشر ذراعا ، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا ،
بمقياس مصر . فان زاد عن ذلك ذراعا واحدا ، زاد في الخراج مائة ألف دينار : لما
يُروى من الأراضي العالية .

والغاية القصوى في الزيادة ثمانية عشر ذراعا في مقياس مصر . ^(١) فإذا انتهى إلى
هذا الحد ، كان في الصعيد الأعلى آثنين وعشرين ذراعا : لأرتفاع البقاع التي
يمر عليها .

فإذا آتته زيادته، فتحت خلجانا وترع تختزق المياها فيها يمينا وشمالا إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل .

§ وللنيل ثمان خلجانا . وهي : خليج الإسكندرية ؛ وخليج دمياط ؛ وخليج منف ؛ وخليج المنهى (حفره يوسف الصديق عليه السلام) ؛ وخليج أشموم طناح ؛ وخليج سردوس (حفره هامان لفرعون) ؛ وخليج سخا ؛ وخليج حفره عمرو بن العاص ، يجرى إلى أن يصب في السباح .

§ ويحصل لأهل مصر إذا وفي النيل ستة عشر ذراعا — وهي قانون الري — فرح عظيم : بحيث إن السلطان يركب في خواص دولته وأكابر الأمراء في الحراريق إلى المقياس ، ويمد فيه سماطا يأكل منه الخواص والعوام ، ويحلج على القياس ، ويصله بصلة مقررة له في كل سنة .

§ وقد ذكر بعض المفسرين ” للكتاب العزيز ” أن يوم ” وفاء النيل ” هو اليوم الذي وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع ، وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ يُحْشِرَ النَّاسَ صُحًى ﴾ . والمعادة جارية أن اجتمع الناس للتخليق في هذا الوقت .

ومتى قصر النيل عن هذا المقدار، غلت الأسعار . وهو إذا ابتدأ في زيادته يكون مخضرا، ثم حمزا، ثم كدرا .

وإذا آتته في الزيادة غشى الأرض ، وتصير القرى فوق الروابي فلا يتوصل إليها إلا في المراكب أو على الجسور الممتدة التي تنفق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء .

فإذا انتهى رى مكان وأخذ حده ، قُطِعَ جَسْرُ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ مَكَانٍ مَعْرُوفٍ
(يعرفه حَوَلَةَ الْبِلَادِ وَمَشَائِخِهَا) تَرَوِي مِنْهُ الْجِهَةَ الَّتِي تَلِيهَا مَعَ مَا تَجْمَعُ فِيهَا مِنَ الْمَاءِ
الْمَخْتَصِ بِهَا . وَلَوْلَا إِتْقَانُ هَذِهِ الْجُسُورِ وَحِفْرُ التَّرْعِ لَقَلَّ الْإِسْتِفَاعُ بِالنَّيْلِ .

§ وقد حكى أنه كان يُرصد لعمارة الجسور في كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم بها :
لما يقرب عليها من المصالح ، ويحصل بها من النفع في رى البلاد .

§ وقد وصف بعض الشعراء ، النيل في طلوعه وهبوطه ، فقال :

وَأَمَّا لِهَذَا النَّيْلِ ، أَى عَجِيبَةٍ * بِكْرِ بَمَثَلِ حَدِيثِهَا لَا يُسْمَعُ !
يَلْقَى الثَّرَى فِي الْعَامِ وَهُوَ مَسْلَمٌ * حَتَّى إِذَا مَا مَلَّ عَادَ يُوَدِّعُ .
مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الْهَلَالِ ، فَدَهْرُهُ * أَبَدًا يَزِيدُ كَمَا يَزِيدُ وَيَرْجِعُ .

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى في موضعها .

§ وهذا النهر مخالف في جريه لسائر الأنهار ، لأنه يجرى مما يلي الجنوب مستقبل
الشمال . وكذلك نهر مهراَن بالسند ، ونهر الأرُنط ، وهو نهر حص وحمأة ، ويسمى
العاصى لخالفته للأنهار في جريها . وما عداها من الأنهار جريها من الشمال إلى الجنوب :
لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه .

وهو أخف المياه وأحلاها وأعمها نفعاً وأكثرها خراجاً .

§ وقد حكى أنه جُي في أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأول) مائة ألف ألف
وثلثين ألف دينار ، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار ، وجباه عمرو بن العاص
أثنى عشر ألف ألف دينار ، ثم رُدَّ إلى أن جُي أيام القائد جوهر (مولى المعز العبيدى)
ثلاثة آلاف ألف ومائتى ألف دينار .

وسبب تفهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنقّق في حفر تُرعِه وإتقان جسوره وإزالة ماهو شاغل للأرض عن الزراعة كالتصّب والحلّفاء .

وحكى ابن لِهَيْعَة أن المرثيين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل :
سبعون ألفا للصعيد، وخمسون ألفا للوجه البحريّ .

وحكى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولي الخراج بمصر، كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها، فقال : والله لو عمّرها السلطان، لوفت له بخراج الدنيا .
§ وقيل إنها مُسحت أيام هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه الماء العامر والغامر مائة ألف فدان . والفدان أربعمائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع .

واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزراعة بمصر في وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرين ألف فدان . والباقي استبجر وتلف .

واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما . والحرث يحرث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وثمانين ألف حرّاث .

وأما الفرات

فهو أحد الزافدين، ويقال الوافدين، والآخر دجلة، سميا بذلك لأنهما يجريان في جانبي بغداد : دجلة من شرقها، والفرات من غربها : يأتي إليها من دجلة من واسط، والبصرة، والأبلة، والأهواز، وفارس، وعمّان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين، ويأتي إليها من الفرات من الموصل، وأذربيجان، وأرمينية، والجزيرة، والتهفور، والشام، ومصر، والمغرب، وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخاري أنه يجري من تحت سدرة المنتهى .

وأما مبتدأ جريه الذي يعرفه الناس، فمن مدينة قالقلا من نهر يسمى أودخش، ويجرى مقدار أربعمائة وخمسين ميلا مغربا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتى يمر بين نهرى ملطية، وشميساط، ثم إلى جسر منبج، ثم يعطف ويأخذ جهة الجنوب حتى يصل إلى بالس ويمر بنصبيين، والرقة، وقرقيسيا، والرحة، فيلتحف على عانات، ثم يمتد حتى يمر بهيت والأنبار. فإذا جاوزها أقسم قسمين: قسم يأخذ نحو الجنوب قليلا وهو المسمى بالعلقم، ينتهي إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحلة، إلى البطيحة التي بين البصرة واسط، والقسم الآخر يسمى نهر عيسى، منسوب لعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهي إلى بغداد، ويمر حتى يصب في دجلة.

قال المسعودي: وقد كان الأكثر من ماء الفرات ينتهي إلى بلاد الحيرة، ثم يتجاوزها ويصب في البحر الفارسي، وكان البحر يوم ذاك في الموضع المعروف بالتجف في هذا الوقت، وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه.

قال: والموضع الذي كان يجري فيه بين إلى زمن وضع هذا الكتاب، يعني "كتاب مروج الذهب" وهو في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية.

وطول الفرات من حيث يخرج عند ملطية إلى أن يأتي ما يأتي منه إلى بغداد ستمائة فرسخ وثلاثة وعشرون فرسخا، وفي شطه مدن في جزائر تعد من أعمال الفرات، وهي الريسة، والناووسة، والقصر، والحديثة، وعانات، والدالية.

وأما نهر دجلة

ويسمى السلامة ، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين ، والثاني السلام على الخلفاء فيها .

- وهذا النهر فارز بين العراق والجزيرة، وأنبعاثه من أعين بجبال آمد، ويصب إليه نهران يخرجان من أرزن الروم وميا قارقين وعيون أخرى من جبال السلسلة ، فيتمز ببلد ، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية بين بلاد سورا وقبرسابور ، ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ من الحديشة . ويسمى المجنون لحذته وشدة جريه ، ثم تمر دجلة فيصب فيها الزاب الأوسط ، ومخرجه من الفرات ويمجرى بين أريل ودقوقاء ، ويصب في دجلة أيضا ١٠ الزاب الأصغر ، ومخرجه أيضا من الفرات .

- وهذه الزوابي الثلاثة أنبهاها زاب بن طهماسب : أحد ملوك الفرس الأول ، ثم تمر دجلة بتكرت إلى أن تتجاوز سامرا قليلا فيقع فيها نهر عيسى ويمر حتى يشق بغداد . فإذا تجاوزها صب فيه نهر يخرج من بلاد أرمينية يسمى تامرا بعد أن يمر بناصلو ثم بياجسرا فيسمى النهوان ، ويشق مدينة تعرف به ، ثم تمر دجلة بجزيرة جرابا والثمانية ١٥ ثم بواسط ، ثم إلى البطائح ، ثم تخرج منها فتمر بالبصرة وتجرى حتى تنتهي إلى عبادان ، وعندها تصب في البحر الفارسي .

وما يمر من دجلة بالبصرة يملح إذا مد البحر فلا يشرب منه آلبة ، ويحل إذا جزر . فاهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجزر ، وهو يمد بكرة ويحزر عشاء .

وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخل في دجلة من بحر فارس إلى مدينة المدائن ، فاتفق أن أنبتق في أسافل كسكر بئق عظيم على عهد قباد بن فيروز فاهمل حتى طغى ماؤه وغرق عمارات وضياعا فصارت بطائح .

ويسمى هذا البئق دجلة العوراء لتحويل الماء عنه . وصار بين دجلة الآن ودجلة العوراء مسافة بعيدة تسمى بطن جوني ، وهو من حد فارس من أعمال واسط إلى نحو السوس من أعمال خوزستان .

ويقال إن كسرى أنفق أموالا عظيمة على أن يحول الماء إليها فأعياه ذلك . ورامه خالد بن عبد الله القسري فعجز عنه .

§ ومقدار مسافة بحرٍ نهر دجلة إلى أن يصب في البحر الفارسي ثلاثمائة فرسخ ؛ ومقدار البطائح ثلاثون فرسخا طولاً وعرضاً . وهي تفيض في كثير من الأوقات حتى يخشى على بغداد الفرق .

وأما نهر سجستان

§ ويسمى الهند مند^(١) ، فيقال إن منوچهر بن أيراج بن أفريدون أنبته .

§ وهو يجري من عيون في بلاد الهند ويتمز ببلد الغور؛ فإذا تجاوزها، مر من أعلى سجستان على بر رُحج ، ثم على بسط^(٢) ، ثم على دونج فتفتزع منه أنهار تجري في شوارعها . ثم يمر عمود النهر حتى يصب في بحيرة زرة .

(١) وسماه المسعودي "الهرمند" في كتاب "التيه والإشراف" .

(٢) في المسعودي "إيران" وقال : إن إيران تسميه الفرس أيراج .

(٣) هي المشهورة بأسم "بست" . ومنها أبو الفتح البستي الشاعر المعروف .

(٤) لم أشر على هذا الأسم فيما بيدي من كتب الجغرافية العربية ، ولعلها هي نفس المدينة التي ذكرها

ياقوت وضمه بأسم "زنج" وقال إنها نوبة سجستان .

§ وطول هذا النهر من حيث يبتدئ إلى نهايته مائة فرسخ .
وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكُك .

وأما نهر مهران

• § وهو نهر السند، وهو يشبه نيل مصر في زيادته ونقصه واصناف حيوانه وما يتفرع منه من الخُلجان .^(١)

§ وهو يستمد من أربعة أنهر : نهران يجريان من السند، ونهر من ناحية كابل، ونهر من بلاد قشمير . وتجتمع فتكون نهرا واحدا، ويجرى حتى ينتهي إلى الدور فيمتر بها، ومن ثم يسمى نهر مهران، ثم يتوالموئنان، ثم بالمنصورة، ثم يجرى إلى ديبيل . فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها .
§ وطوله ألف فرسخ .

وأما نهر جيحون^(٢)

ويسمى بالفارسية "به رود" وهو "نهر بلخ"^(٣) .

• § وأنبعاته من بحيرة في بلاد التبت، مقدارها طولاً وعرضاً أربعون ميلاً، تجتمع من أنهار الختل .

(١) لا يزال أسم "مهران" علماً يطلقه بعض الهنود إلى الآن على القسم الأسفل من نهر السند .

(٢) في الأصل "جيحان" . وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر في آسيا الصغرى ويعرف بنهر المصيصة وصب في بحر الشام . أنظر ياقوت وابن رسته في "التنبيه والإشراف" .

(٣) ويسمى أيضاً نهر كالف على مارواه المسمودى بأسم قلعة حصينة، قال ياقوت إنها قائمة على طرفه شبيهة بالمدينة بينها وبين بلخ ثمانية عشر فرسخاً .

(١) فإذا خرج منها مر بُوخَّان فيسمى نهر جرياب ، ويمجرى من المشرق إلى المغرب إلى أعلى حدود بلخ . ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى الترمذ ، ثم منها إلى زَمَ وأمل من بلاد خراسان . ثم يمجرى إلى أن يمر ببلاد خوارزم فيشق قصبته . فإذا تجاوزها تشعب منه أنهار وخلصان يمينا وشمالا ، تصب إلى مستنقعات وبطائح يصاد فيها السمك .

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا ، تجرى مقدار أربعة وعشرين فرسخا ، ثم تصب في بحيرة خوارزم .

§ ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخا . وقيل : أربعمائة . وساحله يسمى الروذبار .^(٢)

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سمت المغرب حتى يقرب من كerman ، ثم يمضي حتى يصب في بحر فارس .

§ ونهر جيحون ربما جمد في الشتاء حتى تعبر عليه القفول . قالوا : ويتبدى جموده من ناحية خوارزم .

وأما نهر سينحون

ويسمى نهر الشاش ، وهو فارز بين بلاد الهياطلة وبلاد تركستان .

§ قال ابن حوقل : مبتدؤه من أنهار تجتمع في حدود بلاد الترك [والإسلام] ، فتصير عمودا واحدا وتجرى حتى تظهر في حدود أوزكند من بلاد فرغانة فتصب فيه

(١) في الأصول "جواب" والتصحيح عن الاصطخري وابن حوقل .

(٢) قول ياقوت : كان معناه بالفارسية "موضع النهر" . ثم نقل عن السمعاني أن الروذبار لفظة نواضع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرقة . ثم ذكر الروذبار ببلغ ثم قال وبالشاش أيضا قرية يقال لها روذبار من وراء جيحون . [ولعل المراد هنا بلاد النهر أي نهر جيحون كما قالوا زنجباري بلاد الزنج] .

فيحطم ويكثر ماؤه، ثم يمتد إلى فاراب. فإذا تجاوزها يجرى في برية فيكون على جانبيه الأتراك الغزبية، ويمتد إلى أن يصب في نهر جيحون^(١).
وبين موقعه في النهر وبين بحيرة خوارزم عشرة أيام.

وأما نهر الكنك^(٢)

وهو نهر تعظمه الهند، فينبعث من بلاد قشмир ويجرى في أعلى بلاد الهند.
§ وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظمونه غاية التعظيم.

§ ومن عجائبه أنه إذا ألقى فيه شيء من القاذورات، أظلم جوه ورجفت أرجاؤه وكثرت الأمطار والرياح والصواعق.

§ وقد وصفه العنتبي في "التاريخ اليمني" فقال:

"وهذا النهر الذي يتوآصف الهنود قدره وشرفه، فيرون من عين الخلد التي في السماء ممترفة؛ إذا أحرق منهم ميت ذروه فيه بعظامه، فيظنون أن ذلك طهر لآتامه؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيفرق نفسه فيه، يرى أن هذا الفعل يُنجيه. والهنود يُفِرطون في تعظيمه حتى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفسه وألقى رماده فيه، أو يأتي إلى النهر (وهناك شجر القنأ في غاية الارتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيربط نفسه في طرف قناة، ثم يحز رأسه بيده

(١) اختصر المؤلف كلام ابن حوقل اختصاراً خفيفاً (وانظر كلام ابن حوقل في كتابه "المسالك والملك" ص ٣٩٢ - ٣٩٣).

(٢) قال أبو الفدا إن اسمه الهندى: كانكو وسماه المسعودى "جنجس" في كتاب "النتيب والإشراف".

فبقي الرأس معلقاً في طرف الفناة وتسقط الجثة، أو يلقي نفسه من شاهق على تلك السيوف والخنجر فيتقطع، ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق“ .

وأما نهر الكُر

فهو نهر بارض أرمينية .

§ وأنبعاثه من بلاد ألان، فيمر ببلاد الأبخاز حتى يأتي نغر تفليس فيشقّه ويمجرى في بلاد الساوردية . ثم يخرج بارض برذعة، ويمجرى إلى برزنج فيصب فيه نهر الرّس . § وهذا النهر هو المذكور في القرآن العزيز في قوله تعالى ﴿ وَأصحابُ الرس ﴾ على ما ذهب إليه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر، صاراً نهراً واحداً يصب في بحر الخزر .

§ ونهر الرّس يخرج من أقصى بلاد الروم، على ما زعم المسعودي .

وأما نهر إتل

§ وهو نهر عظيم، فهو نهر الخزر .

§ ويمر جانبه الشرقى على ناحية خرّيز، ويمجرى ما بين الكيماكية والغزّية . ثم يمتد غرباً على ظهر بلغار وبرطاس والخزر . ثم يتقسم قسمين : أحدهما إلى مدينة إتل

(١) في الأصل "الأبحار" . والأصوب "الابحاز" وهو اسم لجهة من بلاد أرمينية (وقد ذكر الابعاز

كل من الإسطخرى وأبن حوقل والمقدسي وأبن خرداذبة والمسعودي) .

(٢) جبل من الأرمين يسميه العرب أيضاً "السياوردية" ويصفونهم بأنهم "أهل العبث والفساد والتلصص" (عن حاشية في ص ١٩٢ من "مسالك الممالك" للإسطخرى) .

(٣) في الأصل "كذب أصحاب ارس المرسلين" وهو غير نظم القرآن، فتنبه .

(٤) مدينة كانت على بحر الإمبراطورية الروسية . ومنها خرج البلغار إلى البلاد المعروفة الآن بأسمهم .

يشقها بنصفين ويمجرى إلى أن يصب في بحر الخزر، ويمجرى الآخر فيمتزبلد الروس حتى يصب في بحرهم وهو بحر سوداق .

§ ويقال إنه يتشعب منه نيف وتسعون نهرا، وإذا وقع في البحر، يجرى فيه مسيرة يومين ثم يظلب عليه .

§ وقيل إنه يجمد في الشتاء، ويتبين لونه في لون البحر .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما في المعمور

من الأنهار والعيون التي يتعجب منها

قال صاحب "مباحج الفكر ومناجح العبر" في كتابه :

١٠ «وذكر المعتنون بتدوين العجائب في كتبهم التي وضعوها لذلك أن في المعمور أنهارا وعيونا يتعجب منها إذا أُخِر عنها . فذكروا منها نهر الكنك (وقد تقدم ذكره) وأن بارض الهند مكانا يعرف بعقبة عورك فيه عين ماء لا تقبل نجسا ولا قدرا، وإن أُلقي فيها شيء من ذلك، أكفهرت السماء وهبت الريح وكثر الرعد والبرق والمطر . فلا تزال كذلك إلى أن يُخْرَج منها ما طرِح فيها .

١٥ «وذكروا أن في ناحية الباميان عينا تسمى ديواش تفور من الأرض كغليان القدر، متى بصق فيها إنسان أورمى فيها شيئا من القاذورات، أزداد غليانها وقورانها وفاضت . فزبما أدركت من جعل ذلك فيها ففترقته .

«وبناحية الباميان أيضا عين تجرى من جبل في بعض الأحيان . فإذا خرج

ماؤها، صار حجرا أبيض .

«وبقرية من أعمال فارس كهف بين جبال شاهقة فيه حُفرة بقدر الصخرة،
يقطر فيها من أعلى الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن
شرب منه ألف صمهم وأرواهم .

«وبناحية أردشير جرد عين يجرى منها ماء حلو يُشرب لشفية الجوف . لمن شرب
منه قَدْحًا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة .

«وبدارين من أعمال فارس نهر مائه شروب . إذا غطت فيه الثياب خضرها .
«وفي بعض رساتيق همدان عيون متى خرج منها الماء تحجر .

«وبنواحيها أيضا ماء يخرج من تحت قلعة ويجرى في جداول إلى بعض الرساتيق .
لما تشبث منه في صدع أو شق صار حجرا صلدا ، وإذا صب في خرفة وأقام فيها
ثلاثة أيام ثم كسرت، وجد في جوفها أخرى قد تحجرت من الماء .

«وبناحية قفليس عين تنبع، فإذا خرج منها الماء صار حيات .

«وبأرض القدموس من حصون الدعوة برىضها حمام يجرى إليها الماء من عين
هناك . فإذا كان في أول شهر تموز ينبع في الحمام حيات في طول شبرين أو قلا، ثم
في طول شبر، وتكثر . ولا توجد في غير الحمام . فإذا انقضى شهر تموز، عُدت تلك
الحيات، فلا توجد إلى العام القابل .

«وبأرض أرمينية وأد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يذرى ما هو .
إذا وضعت القدر على صفته غلت ونضج ما فيها . وفيها واد عليه الأرحاء والبساتين .
مائه حامض؛ فإذا نزل في الإناء، عذب وحلا .

«وبالمراغة عيون اذا خرج ماؤها لم يلبث الا قليلا حتى يتحجر . فنه تفرش دورهم .

«وبنواحي أرزن الروم ماء يستقى فيستحجر ويصير ملحا .

«وأكثر مياه بلاد اليمن تستحيل شبا .

«وبنواحي واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوان مختلفة : من الحرة والصفرة والخضرة . تسيل إلى مستنقعات ، فتكون ملحا بحسب ألوانها .

«وفي هذه الناحية عيون يطبخ بها بدلًا عن الخل .

«وبنواحي أسوان من الصعيد الأعلى مستنقعات منها النقط .

«وكذلك بتكريت من أرض العراق .

١٠ «وبأرض كامة من بلد إفريقية عين تسمى عين الأوقات . تجرى في أوقات الصلوات الخمس . فإذا حضر جنب أو امرأة حائض ، لا يتبض بشيء من الماء . وإذا أتتهم رجلان ، أتت بانساء للصادق وشئت على الكاذب .

«وببلد إفريقية أيضا عين تنبع بالمداد ، يكتب به أهل تلك الناحية .

«وبطروطوشة من بلاد الأندلس واد يجرى رملا .

١٥ قال : وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طحا من كورة الأشمونين من صعيد مصر بئر فيها ماء معين يشرب منها طول أيام السنة فيكون الماء كسائر المياه ، حتى إذا كان أول يوم من برمودة من شهور القبط فن شرب من ذلك الماء

(١) في الأصل : "كامة" وهو غلط من النسخ ، لأن "كامة" قليلة من البرير منتشرة فيما بين برقة الى أرض الجزائر .

يومئذ خدمته الطبيعة مقدار ما شرب . فاذا كان وقت الزوال طاد الماء إلى حالته الأولى، ثم لا يفعل كذلك إلا في مثل ذلك اليوم من العام القابل .
 يقال : إنه كان بمدينة الأشمونين كنيسة تعرف ببوجرج إلى جانبها بئر لاندأوة فيها ولا بلل في سائر أيام السنة، فاذا كان اليوم العاشر من طوبة من شهور القبط تمتلئ تلك البئر ماءً شروباً . فلا يبقى أحد من نصارى ذلك البلد إلا يأخذ من ذلك الماء للتبرك به . حتى إذا كان عند الزوال، غاض الماء فلا يبقى في البئر منه شيء ويحف لوقته .

«وبأرض مرمينينا من عمل حصن الأكراد عين تسمى الفؤارة . تكون في غالب الأوقات بنها وبين وجه الأرض تقدير ثلاثة أذرع . وتفور في بعض الأيام ويخرج منها ماءٌ يدير أرحية الطواحين ويسقى البساتين فيستمر كذلك بمض يوم ثم يفور . ويتكرر ذلك في الأسبوع مرتين وثلاثة .

«وبقلعة بعلبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لا يرى فيها الماء إلا إذا حوصرت . فإنها عند ذلك تمتلئ حتى تفيض . فإذا زال الحصار جفت .»

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء

(ما جاء من ذلك على لفظ افعل)

الأشكال :

يقال :

أسرع من الماء إلى قراره .

أرق من الماء .

أحق من لاعي الماء .

- أحقُّ من القابض على الماء .
- أصغى من ماء المقاصِل .
- أعذبُ من ماء المقاصِل .
- أجرى من الماء .
- أعذبُ من ماء الحشرج .
- أصدبُ من ماء البارِق .
- أنطفبُ من الماء .
- أوجدُ من الماء .

ويقال :

١٠

- أن ترد الماء بماء أكسُ .
- ماءٌ ولا كصدهاء .
- قد بلغ الماء الزبى .

ويقال :

١٥

- فلان يرقم على الماء . (إذا كان حاذقا) .
- تباطةٌ مُدَّت بماء . (للأمر يزداد فسادا) .
- ليس الرى في التشاف . (في ذم الاستحمام) .
- الماء إذا طال مكثه ، ظهر خبيثه ، وإذا سكن متنه ، تحزك تنه .
- الكدر من رأس العين .
- إذا صدبت العيون ، طابت الأنهار .
- هذا غيظ من قيض ، وبرض من عد . (أى قليل من كثير) .

٢٠

ومن أنصاف الايات :

- * والمرءُ يَشْرَقُ بِالزُّلَالِ البَارِدِ! *
 * كَذَلِكَ عَمَّرَ المَاءُ يُرْوِي وَيُفْرِقُ! *
 * وَالْمَشْرَبُ العَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ! *
 * مَوَاقِعُ المَاءِ مِنْ ذِي العُلَّةِ الصَادِي! *
 * وَكَيْفَ يَمَافُ الرِّقِّ مَنْ كَانَ صَادِيًا؟ *

ومن الايات :

يَا سَرْحَةَ المَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ *
 أَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ غَيْرُ مَسْدُودٍ؟
 لِحَائِمٍ حَامٍ حَتَّى لَا حِيَامَ بِهِ *
 مُحَلِّلاً عَنِ طَرِيقِ المَاءِ مَصْدُودًا!
 وقال آخر :

أَيُّجُوزُ أَخَذَ المَاءِ مِنْ *
 مَتَلَهَّبِ الأَحْشَاءِ صَادِي؟

وقال آخر :

أَرَى مَاءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ، *
 وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الوُرُودِ!

وقال آخر :

مَنْ غُصَّ دَاوِي بِشْرَبِ المَاءِ غُصَّتَهُ، *
 فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غُصَّ بِالمَاءِ؟

وقال آخر :

وَمَا كُنْتُ إِلاَّ المَاءَ جِئْنَا لَشْرَبِهِ، *
 فَهَلَّا وَرَدْنَا إِذَا المَاءُ جَامِدًا!

وقال آخر :

وَفِي نَظْرَةِ الصَادِي إِلَى المَاءِ حَسْبَةٌ، *
 إِذَا كَانَ مِمَّنْوَ سَبِيلَ المَوَارِدِ!

وقال آخر :

وَإِنِّي لَمَّا الخَالِطُ لِلقَدِي *
 إِذَا كَثُرَتْ وَرَادَهُ، لَعَبُوفًا!

وقال آخر:

ساقنَع بالثَّمَادِ، لَمَلَّ دَهْرًا * يَسُوقُ المَاءَ من حُرِّ كَرِيم!

وقال آخر:

وَمَنْ يَأْمِنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ * عَلَى المَاءِ، خَاتَمَهُ فُرُوجُ الأَصَابِعِ.

وقال آخر:

وَأَيُّ وَإِشْرَافِي عَلَيْكَ بِهَمَّتِي * لَكَالْمِيتِنِي زُبْدًا من المَاءِ بِالنَّخْضِ.

وقال آخر:

فَقُلْ فِي مَكْرَعِ عَنَبٍ، * وَقَدْ وَاقَاهُ عَطْشَانُ!

وقال آخر:

١٠ وَكَيْفَ الصَّبْرُ عِنْدَكَ، وَأَيُّ صَبْرٍ * لظَمَانٍ عَنِ المَاءِ الزَّلَالِ؟

وقال آخر:

وَإِنَّ المَاءَ فِي العِيدَانِ يَجْرِي، * وَرُبَّمَا تَقَبَّرَ فِي المُلُوقِ!

وقال آخر:

١٥ إِذَا أَنَا عَاتَيْتُ المُلُوقَ فَإِنَّمَا * أَحْطُ بِأَقْلَامٍ عَلَى المَاءِ أَحْرَفًا!

وقال آخر:

والمَاءِ لَيْسَ عَجِيبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ * بِفَنِي، وَيَمْتَدُّ عُمُرُ الآجِنِ الأَمِينِ.

وقال آخر:

لَمَّا لَمْ يَكُنْ بِأَهْلِهِ، مَا لَمْ يَفْضُ * فِي الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، سُوءَ شَأْنِهِ.

كَلِمَاءُ تَأْمِينُ يَثْرُهُ إِلا إِذَا * خَبَطَ السُّقَاةُ جِوَامَهُ بِدِلَالِهِ.

ذكر شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه

§ فاما ما أختص به نهر النيل من الوصف .

فن ذلك قول ابن التَّيْبِ :

كَأَنَّ النَّيْلَ ذُو فَهْمٍ وَوَبٍّ * لَمَّا يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ .
فِي أَيِّ حِينٍ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ ، * وَيَمِضِي حِينَ يَسْتَفْتُونَ عَنْهُ !

وقال تميم بن المعز العبيدي :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مَخْضَرٌ * وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قَصْرٌ .
وَالسُّفْنُ تَجْرِي كَالْحُلُوبِ بِنَا * صُعْدًا ، وَجَيْشُ الْمَاءِ مُتَحَدِرٌ .
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عُنُقٌ * وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُورٌ .

§ ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم اليسانى قال :

وأما النيل فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الإصبع إلى الذراع . فكأنما غار على الأرض فغطاها ، وغار عليها فاستتعددها وما تحطأها . فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إياه .

وأما ما أختصت به دجلة من الوصف .

قال التنوخي :

وَكَأَنَّ دِجْلَةَ إِذْ تَمَضُّ مَوْجَهَا * مَلِكٌ يَعْظُمُ ، خِيفَةٌ وَيَجَلُّ .
عُدْبَتْ ، فَمَا أَدْرَى أَمَاءُ مَاؤُهَا * عِنْدَ الْمَذَاقَةِ أَمْ رَحِيقٌ سَلْسَلٌ ؟
وَكَأَنَّهَا يَاقُوْتَةٌ أَوْ أَعْيُنٌ * زُرْقٌ يُلَاقِمُ بَيْنَهَا وَيُوصَلُّ .
وَلَهَا بَمَدٍّ بَعْدَ جَزْرٍ ذَاهِبٍ * جَيْشَانِ : يُدْبِرْ ذَا ، وَهَذَا يُقْبَلُ .

وقال محمد بن عبد الله السلمي ، شاعر " البتمة " :

وميدان تجرُّل به تجرُّل * تقود الدارين ولا تقاد.^(١)
ركبت به إلى اللذات طرفاً * له جسم وليس له فؤاد.
جرى فظننت أن الأرض رجة * ودجلة ناظر وهو السواد.

وقال الصنوبري :

فلما تعالی البدر وأشدت ضوءه * بدجلة في تشرين بالطول والعرض
وقد قابل الماء المقضض نوره * وبعض نجوم الليل يظني سنا بعض،
توهم ذو العين البصيرة أنه * يرى ظاهراً الأفلاك في باطن الأرض.

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبري :

والعوجات الذي كلفت به * قد سوى الحسن فيه مذ عوج.
ما أخطأ الأيم في تعوجه * شيئاً إذا ما استقام أو عرج.
تدرج الرياح منه فترى * جوشن ماء عليه قد درج.
إن اعتقت بالجنوب اعتق في * لطف ، وإن هملجت به هملج.
من أين طافت شمس النهار به * حسبت شمسا من جوفه تخرج.

وقال أبو فراس :

والماء يفصل بين زهر الروض في الشطين فصلا.
كيساط وشي جردت * أيدي القيان عليه نصلا.

(٩٩)

(١) أنظر قبل هذا ص ٢٥٦ في وصف البحر والسفن . وكتب في بعض الأصول عند هذا الموضع

لفظة "مكرز" .

وقال الناجم :

أَنْظُرْ إِلَى الرَّوْضِ الذِّكِيِّ فَحُسْنُهُ لِلْعَيْنِ قُوَّةُ !
فَكَانَتْ خُضْرَتَهُ السَّمَاءُ * ، وَنَهْرُهُ فِيهِ الْمَجْرَةُ .

وقال عبد الله بن المعتز :

وَتَرَى الرِّيحَ إِذَا مَسَّحْنَ غَدِيرَهُ * وَصَفَيْنَهُ وَتَقَيَّنَ كُلَّ قَذَاةٍ ،
مَا إِنْ يَزَالُ عَلَيْهِ ظَمِيٌّ كَارِعٌ * كَتَطَلُّعِ الْحَسَنَاءِ فِي الْمِرَاةِ .

ومثله قول الآخر :

وَعَدِيرٍ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ حَتَّى * بَانَ فِي قَعْرِهِ الَّذِي كَانَ سَاخًا .
وَكَانَ الطُّيُورَ إِذْ وَرَدَتْهُ * مِنْ صَفَاءٍ بِهِ ، تَتَرَقَّى فِرَاحًا .

وقال آخر :

وَالنَّهْرُ مَكْسُورٌ غِلَالَةٌ فِضَّةٌ ؛ * إِذَا جَرَى سَيْلٌ ، فَتَوْبُ نُضَارٍ .
وَإِذَا اسْتَقَامَ ، رَأَيْتَ صَفْحَةً مُنْمَلٍ ؛ * وَإِذَا اسْتَدَارَ ، رَأَيْتَ عَطْفَ سِوَارٍ .

وقال أبو مروان بن أبي الحصل :

النَّهْرُ قَدِ رَقَّتْ غِلَالَةُ خَضِرِهِ * وَعَلَيْهِ مِنْ صَبْغِ الْأَصِيلِ طِرَازُ .
تَتَرَقَّى الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهَا * عَكْرُ الْخُصُوفِ تَهْرُهَا الْأَعْجَازُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

لِلنَّهْرِ نَهْرٌ سَأَلَ فِي بَطْحَاءٍ * أَشْبَهِي وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ !
وَعَدَّتْ تَحْفٌ بِهِ الْعُصُوفُ كَأَنَّهَا * هُدْبٌ تَحْفٌ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ .
وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْعُصُوفِ وَقَدِ جَرَى * ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى بَلْحَيْنِ الْمَاءِ !

(١) المنصل (بضم فسكون فضم) هو السيف .

وقال أبو القاسم بن العطار :

مَرَرْنَا بِسَاطِي النُّهْرَيْنِ حَدَائِقِ * بِهَا حَدَقُ الْأَزْهَارِ تَسْتَوْقِفُ الْحَدَقُ .
وَقَدْ نَسَجَتْ كَفَّ النَّسِيمِ مُفَاضَةً * عَلَيْهِ ، وَمَا غَيْرُ الْحُبَابِ لَهَا حَلَقُ !

وقال محمد بن سهل البلخي ، شاعر « الذخيرة » :

رَاقَنَا النَّهْرُ صَفَاءً * بَعْدَ تَكْدِيرِ صَفَائِهِ .
كَانَ مِثْلَ السِّيفِ مُدْمَى * بِخَلْوِهِ مِنْ دِمَائِهِ .
أَوْ كِثْلِ الْوَرْدِ غَضًّا * فَهُوَ الْيَوْمَ كِجَائِهِ .

وقال القاضي التنوخي ، شاعر « البيمة » :

أَحْبَبْتُ إِلَى نَهْرٍ مَعْقِلٍ الَّذِي * فِيهِ لَقَلْبِي مِنْ هُمُومِي مَعْقِلُ !
عَدَبْتُ إِذَا مَا عَبَّ فِيهِ نَاهِلٌ * فَكَأَنَّهُ مِنْ رِيْقِ حَبِّ بِنَهْلُ .
مَتَسَائِلُ فَكَأَنَّهُ لَصَفَائِهِ * دَمْعٌ يُجَدِّي كَاعِبٍ يَتَسَائِلُ .
فَإِذَا الرِّيحُ جَرَيْنَ فَوْقَ مُتُونِهِ * فَكَأَنَّهُا دِرْعٌ جَلَاهُ الصِّقْلُ !

وقال مؤيد الدين الطغرائي في الغدير :

مُجْنَا إِلَى الْحَزْعِ الَّذِي مَدَّ فِي * أَرْجَائِهِ الْعَيْمُ بِسَاطِ الرَّهْرِ .
حَوْلَ غَدِيرٍ مَأْوُهُ الْمَتَمِي * إِلَى بَنَاتِ الْمُزْنِ يَشْكُو الْخَصْرَ .
لَوْلَا ذَهَبُ الرِّيحِ سَمُومًا بِهِ * لَأَتَقَلَّبْتُ وَهِيَ تَسِيمُ السَّحَرِ .
حَضْبَاؤُهُ دُرٌّ وَرَضْرَاؤُهُ * سُحَالَةُ الْعَسْجِدِ حَوْلَ الدَّرَرِ .
وَقَدْ كَسَتْهُ الرِّيحُ مِنْ نَسْجِهَا * دِرْعًا بِهِ يَلْقَى نَيْالَ الْمَطَرِ .

(١) كذا بالأصل . وفي ديوانه : "لولا ذلت الريح الخ" وهو الصواب .

وَأَلْبَسَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ صِبْغِهَا * نُورًا بِهِ يَحْطِفُ نُورَ البَصْرِ.
كَأَنَّهَا المِرْآةَ بِجَلْوَةٍ * عَلَى إِسَاطِ أَخْضِرٍ قَدْ نُشِرَ.

وقال أيضا :

مِنَّا إِلَى النُّشْرِ الَّذِي تَرْتَقِي * إِلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا حَاطِرَةٌ.
حَوْلَ غَدِيرٍ مَأْوَاهُ دَارِعٌ * وَالْأَرْضُ مِنْ رِقَّتِهِ حَاسِرَةٌ.
وَالشَّمْسُ إِنْ حَازَتْهُ رَأْدُ الضُّحَى * حَسَنَاءُ فِي مِرْآةِهَا نَاطِرَةٌ.
وَالشُّهْبُ إِنْ حَازَتْهُ جُنْحُ الدُّجَى * تَسْبِجُ فِي لُجْنِهِ الزَّائِرَةٌ.
قَدْ رُكِبَ الخَضْرَاءُ فِيهِ، فَمِنْ * حَضْبَائِهِ أَجْمَعِهَا زَاهِرَةٌ.
يَحْضُرُ إِنْ مَرَّتْ بِأَرْجَائِهِ * لَفْحُ سَمُومٍ فِي لَطْفِهَا حَاجِرَةٌ.
أُتْمِدُجُ المَاءِ الَّذِي جَاءَنَا السُّوْعُدُ بِأَنْ تُسْقَاهُ فِي الْآخِرَةِ!

ومما وصفت به البرك

قال البحرى عفا الله عنه :

يَا مَنْ رَأَى البِرْكََةَ الحَسَنَاءَ رَوَيْتَهَا * وَالْأَنْسَاتِ الَّتِي لَاحَتْ مَعَانِيهَا!
مَا بَالُ دِجْلَةَ كَالغَيْرِي تَتَأَسَّفُهَا * فِي الحُسْنِ طَوْرًا، وَأَطْوَارًا تَبَاهِيهَا؟
كَأَنَّ جَنِّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلَوْ * إِبْدَاعَهَا فَادْتَفَوْا فِي مَعَانِيهَا.
فَلَوْ تَمَرَّتْ بِهَا بَلْقَيْسُ عَنْ عُرْضِ، * قَالَتْ: هِيَ الصَّرْحُ تَمثِيلًا وَتَسْبِيهَا.
تَتَصَبُّ فِيهَا وَفُودُ المَاءِ مُعْجَلَةٌ * كَالخَلِيلِ خَارِجَةٌ مِنْ حَبْلِ تَجْرِيهَا.
كَأَنَّ الفِضَّةَ البِيضَاءَ سَائِلَةً * مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا.

(١) في الأصل "يَحْضُرُ" وفي ديوانه (الموجود منه نسخة مخطوطة «بدارالكتب المصرية») "يَحْضُرُ"

ولا معنى لها . ولعل الصواب "يَحْضُرُ" من الحَصْر، وهو شدة البرد كما يرتضيه السياق .

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكًا * مثل الجواشِنِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا .
 إذا النجوم تراءت في جَوَانِيهَا * لَيْلًا، حَسِبْتَ سَمَاءَ رُكْبَتِ فِيهَا .
 لا يُلْبِغُ السَّمَكُ المَحْصُورَ غَايَتَهَا * لُبْدٍ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا .
 يَمُنُّ فِيهَا بِأَوْسَاطِ مَجْنَحَةٍ * كَالطَّيْرِ تَنْقُضُ فِي جَوْ حَوَافِيهَا .
 كَانَهَا حِينَ بَلَّتْ فِي تَدْفُقِهَا * يَدُ الخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا !

وقال ابن طباطبا :

كَمْ لَيْلَةٍ سَاهَرْتُ أَنجَمَهَا لَدَى * عَرَصَاتِ أَرْضِ مَاؤَهَا كَسَائِمِهَا .
 قَدَسِيرْتُ فِيهَا النُّجُومُ كَأَنَّهَا * فَلَكُ السَّمَاءِ يَدُورُ فِي أَرْجَائِهَا .
 أَحْسَنُ بِهَا بَجْرًا إِذَا التَّبَسُّ الدُّجَى، * كَانَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ مِنْ حَضْبَائِهَا !
 تَرْنُو إِلَى الجَوْزَاءِ وَهِيَ غَمْرِيْقَةٌ * تَبْغِي النِّجَاءَ، وَوَلَاتِ حِينَ نَجَائِهَا !
 تَطْفُو وَتُرْسِبُ فِي أَصْطَفَاقِ مِيَاهِهَا * لَا مُسْتَعَانَ لَهَا سِوَى أَسْمَائِهَا .
 وَالبَدْرُ يَخْفِقُ وَسَطَهَا فَكَأَنَّهُ * قَلْبُهَا قَدِ رِيْعَ فِي أَحْشَائِهَا .

وقال عبد الجبار بن حمديس، يصف بركة يجرى إليها الماء من شاذروان من أفواه
 طيور وزرافات وأسود، من أبيات :

والماءُ منه سبائكٌ من فِصَّةٍ * ذَابَتْ عَلَى دُولَابِ شَاذِرَوَانَ !
 فَكَأَنَّهَا سَيْفٌ هُنَاكَ مَشْطَبٌ * أَلْقَتْهُ يَوْمَ الرُّوعِ كَفَّ جَبَانَ !
 كَمْ شَاخِصٍ فِيهِ يُطِيلُ تَعَجُّبًا * مِنْ دَوْحَةِ نَبَتْ مِنْ العَقْبَانَ !
 عَجَبًا لَهَا نَسَقِي هُنَاكَ يَنَائِعًا * يَنْعَتُ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَغْصَانِ !
 خُصَّتْ بِطَائِرَةٍ عَلَى فَنَنِ لَهَا * حَسُنْتَ، فَأَقْرِدِ حُسْنَهَا مِنْ ثَانِي !

فُس الطيورِ الساجماتِ بلاغةً * وفصاحةً من منطلق وبيان .
 فإذا أُتبعَ لها الكلامُ تكلمت * بخسرير ماءٍ دائمِ الهملاين .
 وكانَ صانِعَها أَسْبَدَ بصنعةٍ * تخرُ الجهادُ بها على الحيوانِ !
 أوْفَت على حَوْضٍ لها فَكانَها * منها إلى العَجَبِ العُجَابِ رَوان .
 وكانَها ظنَّت جلاوةَ ماها * شهداً ، فذاقته بكلِّ لسان .
 وزرّافة في الجوّ من أنبويها * ماءٌ يُريكَ الجُرى في الطيران .
 مرشّوزة كالرُخ حيثُ ترى له * من طَعنه الخلقُ أنطافَ سنان .
 وكانَما ترمي السماءَ ببنُدقٍ * مُستبِطٍ من لؤلؤٍ وجمانِ !
 لوعادَ ذاك الماءُ نِفطاً ، أحرقت * في الجؤمِ منه قبيصَ كلِّ سنان .
 في برّكةٍ قامت على حافاتها * أَسَدٌ تَدُلُّ لِعِزّةِ السُّلطانِ !
 نَزَعَتْ إلى ظلمِ النفوسِ نُفوسُها ، * فلذلك انترعت من الأبدان .
 وكانَما الحياتُ من أفواهاها * يطرحنَ أنفسهنَّ في عُدران .
 وكانَما الحياتُ إذ لم تَحشها ، * أخذت من المنصورِ عهدَ أمانِ !

وقال آخر :

ولقد رأيتُ ، وما رأيتُ كبركةٍ * في الحُسنِ ذاتِ تدفقٍ ونحريرِ !
 عَقَدت لها أيدي المياهِ قناطرًا * من جَوْهري في جُبةٍ من نُورِ !

وقال علي بن الجهم ، يصف فؤارة :

وقوارةٍ نارها في السماءِ ، * فليست تُقصّر عن نارها !
 تراها إذا صعدت في السماءِ * تعودُ إلينا بأخبارها .
 ترُدُّ على المزنِ ما أنزلت * على الأرضِ من صوبِ مذارها !

وقال ابن حجاج فيها :

عَلِمْتُ فِي دَارِكَ فَوَارَةً ، * غَرَهَتْ الْأَفْسُقُ بِهَا الْأَنْجُمَا!
فَاضَ عَلَى نَجْمِ السَّمَاءِ مَاؤُهَا ، * فَاصْبَحَتْ أَرْضُكَ تَسْقِي السَّمَاءَ!

وقال تميم بن المعز العبيدي :

٥. وَقَادِفِيَّةٌ بِالْمَاءِ فِي وَسْطِ بَرَكِيَّةٍ * قَدْ أَلْحَفَتْ ظِلًّا مِنَ الْأَيْكِ سَجَّجَا.
إِذَا أَيْتَعْتَ بِالْمَاءِ سَلَّتَهُ مُنْضِلًا ، * وَعَادَ عَلَيْهَا ذَلِكَ النَّضْلُ هَوْدَجَا.
تُحَاوَلُ إِدْرَاكَ النَّجُومِ بِقَدْفِهَا ، * كَأَنَّ لَهَا قَلْبًا عَلَى الْجَوْ مُحْرَجَا!

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وضاح :

١٠. اللَّهُ دَوْلَابٌ يَطُوفُ بِسَلْسَلٍ * فِي رَوْضِيَّةٍ قَدْ أَيْتَعَتْ أَفْنَاا!
قَدْ طَارَحَتْ فِيهِ الْجَمَائِمُ تَبْعُوهَا * بِتَحِيْبِهَا ، وَتَرَجَّعُ الْأَلْحَانَا.
فَكَانَهُ دَنْفٌ يَطُوفُ بِمَعْهَدٍ ، * يَبْكِي وَيَسْأَلُ فِيهِ عَمَّنْ بَانَا.
ضَاقَتْ مَجَارِي طَرْفِهِ عَنِ دَمْعِهِ ، * فَفَتَحَتْ أَضْلَاعَهُ أَجْفَانَا!

وقال الموفقى ، رحمه الله :

١٥. نَاعُورَةٌ تُحَسِّبُ مِنْ صَوْتِهَا * مُتَيْمًا يَشْكُو إِلَى زَائِرِ.
كَأَنَّهَا كِيْرَانُهَا غَضْبَةٌ * رُمُوا بِصَرْفِ الزَّمَنِ الْوَاتِرِ.
قَدْ مُنِعُوا أَنْ يَلْتَقُوا فَاغْتَدَوْا * أَوْطَمَ يَبْكِي عَلَى الْآخِرِ!

وقال آخر :

٢٠. وَنَاعُورِيَّةٌ قَدْ ضَاعَفَتْ بُسُوحَهَا * نُوحَى ، وَأَجْرَتْ مُقَلَّتِي دُمُوعَهَا!
وَقَدْ ضَعُفَتْ مِمَّا بَيْنَ ، وَقَدْ غَدَّتْ * مِنَ الضَّعْفِ وَالشُّكُورِ نَعْدُ ضُلُوعَهَا!

وقال ابن مثير الطرابلسي :

لِنِوَاعِهَا عَلَى الْمَاءِ الْحَا * نُتَيِّحُ الشَّجَا لِقَلْبِ الْمَشُوقِ .
فَهِيَ مِثْلُ الْأَفْلَاكِ شَكْلًا وَفِعْلًا ، * قُسِمَتْ قَسَمَ جَاهِلِ بِالْحُقُوقِ :
بَيْنَ عَالِيٍّ ، سَامٍ ، يُنَكِّسُهُ الْحَظُّ وَيَعْلُو بِسَافِلِ مَرْزُوقِ .

وقال أبو الفرج الأوءاء :

وَكَرِيمَةٍ سَقَتِ الرِّيَاضَ بَدْرَهَا ، * فَفَدَّتْ تَتُوبُ عَنِ السَّحَابِ الْهَامِعِ .
بِلَبَاسِ مَحْزُونٍ ، وَدَمْعَةٍ عَاشِقٍ ، * وَحَيْنِ مُشْتَاقٍ ، وَأَنَّهُ جَازِعِ .
فَكَأَنَّهَا فَلَكٌ يَدُورُ ، وَعُذُوهُ * يَرَى الْقَرَارَ بِكُلِّ نَجْمٍ طَالِعِ .

وقال الصنوبري :

فَلَكٌ مِنَ الدُّوَالِبِ فِيهِ كَوَاكِبٌ * مِنْ مَائِهِ تَنْقُضُ سَاعَةَ تَطْلُعِ .
مِثْلُ الأَصْوَاتِ : يَخْفِضُ صَوْتَهُ * بِفِنَائِهِ ، طَوْرًا وَطَوْرًا يَرْفَعُ .

ومما وصفت به نثرا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستدعي منه ثلاثة
أسهم ومليئات . جاء منها :

”...والحاجة داعية إلى ثلاثة أسهم، كأنها هقمة الأنجم، ممتدة امتداد النجم،
مقومة تقويم القدر، غير مشعثة الأطراف، ولا معقدة الأعطاف، ولا مسوسة
الأجواف، نحاس الغصون بقوامها، والقُدود بتمامها، وتخالف هينها متلاء
خضورها، وتساوي [بين] هواذيبها وصدورها، معتدلة القُدود، ناعمة الخُدود؛

مع مَلِيَّاتٍ أَخَذَتِ النَّارُ مِنْهَا مَا أَخَذَهَا فَاسْوَدَّتْ ، وَتَطَاوَلَتْ عَلَيْهَا مَدَّةُ الْجَفَافِ
فَاسْتَدْتَتْ ، وَتَرَامَتْ بِهَا مَدَّةُ الْقِدَمِ ، كَأَنَّهَا فِي حَيْزِ الْعَدَمِ ؛ صِلَابِ الْمَكَاسِرِ ، غِلَظِ
الْمَازِرِ ؛ تُنْسِيهِ أَخْلَاقَهُ فِي هَيْجَاءِ السَّلْمِ ، وَتَحْكِي صَلَابَةَ آرَائِهِ فِي تَفَازِ الرَّأْيِ وَمَضَاءِ
الْعَزْمِ ؛ تَكْظِمُ عَلَى الْمَاءِ بَغِيظَهَا ، فَتَجُودُ عَلَى الْأَرْضِ بَقِيضَهَا ؛ تَمْتَدُّ يَدَ أَيْدِهَا
فِي آقْتِضَاءِ إِرَادَتِهَا ، وَتَطْلُعُ طُلُوعَ الْأَنْجَمِ فِي قَلَكِ إِدَارَتِهَا ؛ وَتُعَانِقُ أَخْوَاتِمَا مَعَانِقَةَ
التَّشْيِيعِ ، فَاتْحِرُ التَّسْلِيمِ أَوَّلَ التَّوَدِيعِ ؛ عَلَى أَنَّهَا تُؤْذِنُ بِحَقَائِقِ الْإِعْتِبَارِ ، وَتَجْرِي جَرَى
الْفَلَكَ الْمُدَّارِ فِي قَنَاةِ الْأَعْمَارِ :

❦

- تَبَّرُ كَأَنْفَاسِ النَّقْيِ فِي حَيَاتِهِ * وَتَسْمِي كَسْمِي الْمَرْءِ أَثْنَاءَ عَمْرِهِ .
يُفَارِقُ خُلَّ خِلِّهِ ، وَهُوَ سَائِرٌ * عَلَى مِثْلِ حَالِ الْخَلِّ فِي إِثْرَسِيرِهِ .
وَيُعَلِّمُهُ التَّدْوَارُ ، لَوْ يَعْقِلُ النَّقْيُ * بَانَ مُرُورَ الْعُمُرِ فِيهِ كَمَرِهِ .
فَمَنْ أَدْرَكَتْ أَفْكَارُهُ سِرَّ أَمْرِهَا ، * فَقَدْ أَدْرَكَتْ أَفْكَارُهُ سِرَّ أَمْرِهِ .
وَمَنْ فَاتَهُ ، الْإِدْرَاكُ أَدْرَاكُهُ الرَّدْيُ : * إِذَا جَرَعَتْ أَنْفَاسُهُ كَأَسْمُورِهِ .”

ومما وصفت به الجداول

قال ابن المعتز عفا الله عنه :

- ١٥ على جداولِ رِيَّانٍ ، لَا يَقْبَلُ الْقَدْيُ : * كَأَنَّ سَوَاقِيهِ مُتَوْنُ الْمَبَارِدِ .

وقال الناجم :

- أَحَاطَتْ أَزَاهِيرُ الرَّبِيعِ سَوِيَّةً * سِمَاطِينَ مُصْطَفَيْنِ ، تَسْتَنْبِتُ الْمَرْعَى .
عَلَى جَدُولِ رِيَّانٍ كَالسَّمِّهِمْ مُرْسَلًا ، * أَوْ الصَّارِمِ الْمَسْئُولِ ، أَوْ حِيَّةٍ تَسْمَى .

(١) أى أخلاق المرسل إليه .

وقال المصنِّع :

على جَدُولٍ رَيَّانٍ يَنسَابُ مَنَّهُ * صَقِيلًا، كَتَنِ السَّيْفِ وَاقِي مَجْرَدًا .
إِذَا الرِّيحُ نَاغَتَهُ، تَحَلَّقَ وَجْهُهُ * دُرُوعًا وَضَاءً، أَوْ تَحَرَّزَ مِبرَدًا .

وقال ابن الرومي :

على حِخْفَاقِي جَدُولٍ مَسْجُورٍ * أبيضٌ مِثْلُ المَهْرَقِ المَشْهُورِ .
أومثلُ مِثْنِ المُنْصَلِ المَشْهُورِ * يَنسَابُ مِثْلَ الحَيَّةِ المَدْعُورِ .

وقال ذو الرمة :

فَمَا أَنشَقَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ حَتَّى تَبَيَّنَتْ * جَدَاوِلُ: أَمثالُ السُّيُوفِ القَوَاطِعِ .

وحيث آتينا من ذكر المياه إلى هذه الغاية فلنذكر عباد الماء .

ذكر عباد الماء^(١)

وعباد الماء طائفة من الهند يُسمون الجلهكية^(٢)، يزعمون أن الماء ملك ، ومنه ملائكة ، وأنه أصل كل شيء ، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة ، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء .

§ فإذا أراد الرجل منهم عبادته ، تجرد وستر عورته . ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه ، فيقيم ساعتين وأكثر . ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغاراً ويلقي في الماء بعضها بعد بعض ، وهو يسبح ويقرأ . وإذا أراد الانصراف ، حرك الماء بيده . ثم أخذ منه فقط على رأسه ووجهه وسائر جسده . ثم يسجد وينصرف .

(١) هذه العبارة كلها مقولة عن كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني .

(٢) في الأصل : المهكينة . [وهو تصحيف وصوابه من الشهرستاني] .

القسم الخامس من الفن الأول

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة،

والمعاقل، وما وُصفت به القصورُ والمنازل

وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

(في طبائع البلاد، وأخلاق سُكَّانها)

§ روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعب الأحرار عن طبائع البلاد وأخلاق سُكَّانها، فقال: إن الله تعالى لما خلق الأشياء، جعل كل شيء لشيء. فقال العقل: أنا لاحقٌ بالشام، فقالت الفتنَةُ: وأنا معك. وقال الخُصْبُ: أنا لاحقٌ بمصر. فقال الذُّلُّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحقٌ بالبادية، فقالت الصَّحَّةُ: وأنا معك.

§ وقال محمد بن حبيب: لَمَّا خلق الله تعالى الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء. فقال الإيمان: أنا لاحقٌ باليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: أنا لاحقٌ بالشام، فقالت الفتنَةُ: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لاحقٌ بالعراق، فقال النفاق: وأنا معك. وقال الغنى: أنا لاحقٌ بمصر، فقال الذُّلُّ: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحقٌ بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

الطَّرب عشرة أجزاء : فتسعة منها في السودان ، وواحد في سائر الناس . وقسم
السَّبَق عشرة أجزاء : فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس .
§ ريفال : أربعة لا تعرف في أربعة : السَّخاء في الروم ، والوفاء في التُّرك ، والشجاعة
في القبط ، والغنم في الزنج .

نوع آخر منه

§ حكي عن الحاج أنه سأل أيوب بن القريّة عن طبائع أهل البلاد ، فقال :
أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها ، رجالها جفأة ، ونساؤها كساة عرأة .
وأهل اليمن أهل ستم وطاعة ، ولزوم الجماعة . وأهل عُمان عرب استنبطوا . وأهل
البحرين نبطٌ استعربوا . وأهل اليمامة أهل جفء ، واختلاف آراء . وأهل فارس
أهل بأس شديد ، وعزّ عتيد . وأهل العراق أبحث الناس عن صغيره ، وأضيعهم
لكبيره . وأهل الجزيرة أشجع فرسان ، وأقتل للاقتران . وأهل الشام أطوعهم
لمخلوق وأعصاهم لمخلوق . وأهل مصر عبيدٌ لمن غلب ؛ أكيس الناس صغارا ،
وأجهلهم كبارا .

وحي عن أبي عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" أنه قال : كما نُعلم في المكتب كما نُعلم
القرآن : احذروا حماقة أهل بُخارى ، وغلّ أهل مرو ، وشغب أهل نيسابور ، وحسد
أهل هرة ، وحقد أهل سجستان .

§ وقال أبو حامد القاضى : أعيانى أن أرى نخراسانياً ذكياً ، وطبرياً رزيناً . وهمذانياً
لبياً ، وبصرياً ركيكاً ، وكوفياً رئيساً ، وبغدادياً سخياً ، وموصلياً لطيفاً ، وشامياً خفيفاً ،
وحجازياً منافقاً ، وبدوياً ظريفاً .

§ وقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة : قُمِيٌّ مِنْ رُعُونَةٍ ، وَيَمَانِي مِنْ جُنُونٍ ،
ووَاسِطِيٍّ مِنْ غَفَلَةٍ ، وَبَصْرِيٍّ مِنْ جَدَلٍ ، وَكُوفِيٍّ مِنْ كَذِبٍ ، وَسَوَادِيٍّ مِنْ جَهْلٍ ،
وَبَغْدَادِيٍّ مِنْ مَخْرَقَةٍ ، وَخُوزِيٍّ مِنْ لُؤْمٍ ، وَطَبْرِيٍّ مِنْ زَرَقٍ .^(١)

§ وقيل : جاور أهل الشام الروم ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة . وجاور أهل
الكوفة أهل السواد ، فأخذوا عنهم السخاء والغيرة . وجاور أهل البصرة الخوز ،
فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء .

§ ويقال : إن القدماء اعتبروا البلاد وما أمتاز به بعضها عن بعض من الطابع ،
فوجدوا أخصب بقاع الدنيا ثمانية مواضع : أَرْمِيِيَّةٌ ، وَأَدْرِيِيْجَانٌ ، وَمَاهُ دِيْنُورٌ ،
وَمَاهُ نَهَاوَنْدٌ ، وَكِرْمَانٌ ، وَأَصْبَهَانٌ ، وَقُومَسٌ ، وَطَبْرِسْتَانٌ .

§ ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً ، ماءً ثمانية مواضع : دجلة ، والفرات ، وزندرود
أصبهان ، وماء سوران ، وماء هفيجان ، وماء جنديسابور ، وماء بلخ ، وماء سمرقند .
(وغفلوا عن نيل مصر ، ولعله أحقها بهذه الخصوصية من سائر المياه) .

§ ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع : النوبندجان ، وسابورخواست ، وخرجان ،
وحلوان ، وبردعه ، وزنجان . (وغفلوا عن شيراز) .^(٢)

§ ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة : أهل أصبهان ، والحيرة ، والمدائن ، وماه دينور ،
وإصطخر ، ونيسابور ، والرّي ، وطبرستان ، ونسوى (وهي تقجوان) .

§ ووجدوا أسرى أهل بقاع الدنيا أهل سبعة مواضع : طوسفون (وهي المدائن) ،
وبلاشون (وهي حلوان)^(٢) ، وماسبندان ، ونهاوند ، والرّي ، وأصبهان ، ونيسابور .

(١) من أهل طبرستان . وأما النسبة الى طبرية الشام فطبراني .

(٢) أي حلوان العراق ، لا حلوان مصر .

§ ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع : ماسبَدَان ، ومِهْرَجَانْتَدَقْ^(٢) ، وسورستان ، والرّي ، والرّويان ، وأذَرَبِيْجَان ، والمُوصِل ، وأرْمِيْنِيَّة ، وشَهْرزُور ، والصّامغان .

§ ووجدوا البخل في أهل ثمانِ بقاع : مَرَو ، وإصطخَر ، ودارا بَجَرْد ، وخُوزستان ، وماسبَدَان ، ودَيْل ، وماه دِينور ، وحُلوان .

§ ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة : أهل السّدْجَان^(٣) ، وبَادَرَايَا ، وماكسَايَا ، وخُوزستان .

§ ووجدوا أقل أهل الأرض نظرا في العوالم أهل سبعة مواضع : طَبْرِستان ، وأرْمِيْنِيَّة ، وقومس ، وكِرْمَان ، وكُوسَان ، ومُكْرَان ، وشَهْرزُور .



§ ويقال : إنه وفد رجل من عجم خراسان على كِسْرَى ، فقال له : أخبرني من أحسن أهل خراسان لقاءً ؟ قال : أهل بخارى . قال : فمن أوسعهم بدلا للخُبْز والمِلْح ؟ قال : أهل جُوزجان . قال : فمن أحسنهم ضيافةً ؟ قال : أهل سَمَرْقَنْد . قال : فمن أدقّهم نظرا وتقديرا ؟ قال : أهل مَرَو . قال : فمن أسوأهم طاعة ؟ قال :

(١) في بعض النسخ "أهل" بالذ .

(٢) هذا الأسم يتركب من ثلاث كلمات : مهر (أى الشمس ، المحبة ، الشفقة) ؛ جان (أى النفس ، الروح) ؛ قدق (وقد يضم أوته ولعله أسم رجل) . فيكون معناه : محبة أو شمس نفس قدق . وهى كورة حسنة من نواحى بلاد الجبل (عن ياقوت) .

(٣) كذا فى الأصل ولم يذكرها ياقوت . وإنما ذكر "السيرجان" ، مدينة بين كرمان وفارس . فلعلمها

أهل خُوَارَزْم . قال : فمن أخبهم طَوِيَّة ؟ قال : أهل مَرُو الروذ، إن رضى بذلك
 أهل آيُورِد . قال : فمن أسقطهم عقلا ؟ قال : أهل طُوس، إن رضى بذلك أهل
 نَسَا . قال : فمن أكثرهم شَغَبًا وَجَدَلًا ؟ قال : أهل سَرَخُس، إن رضى بذلك أهل
 قُوِهَسْتان . قال : فمن أضعفهم وأخبهم ؟ قال : أهل نَيْسَابور . قال : فمن أقلهم
 غيرة على النساء ؟ قال : أهل هَرَاة .

الباب الثاني

من القسم الخامس من الفن الأول

في خصائص البلاد

ولنبداً من ذلك بمكة ويثرب، وأعرّب عما أقله من فضلها ولا أعرب ؛
 وأصله بذكر البيت المقدس والمسجد الأقصى، ولا أشرط الاستيعاب لأن فضائلها
 لا تحصى .

فأما مكة (شرفها الله تعالى وعظمها)

فضائلها مشهورة بينة . قال الله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ
 مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) . وقال
 الله تعالى : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا) .

قال بعض المفسرين : "أمنًا" من النار . وقيل : كان يأمن من الطلب من أحدث
 حدّنا ولجا إليه في الجاهلية .

وحكى القاضي عياض في "كتاب الشفا" أنه حدّث أن قوما أتوا سعدون
 الخولاني بالمُنْسْتِير، وأعلموه أن كُأمة قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار طول الليل، فلم

تعمل فيه وبقي أبيض البدن، فقال : لعله حج ثلاث حجج ؟ قالوا : نعم . قال :
 حَدَّثْتُ أَنْ "مَنْ حَجَّ حُجَّةَ أَدَى فَرَضِهِ، وَمَنْ حَجَّ ثَانِيَةَ دَايِنِ رَبِّهِ، وَمَنْ حَجَّ ثَلَاثَ حَجَجٍ
 حَرَّمَ اللَّهُ شَعْرَهُ وَبَشَرَهُ عَلَى النَّارِ" .

- ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال : "مَرَّ جَبَابِكُ مِنْ بَيْتِ،
 مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ !" . وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ
 ٥ أَحَدٍ يَدْعُو اللَّهَ عِنْدَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ" . وكذلك عند الركن
 وعنه صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
 وَمَا تَأَخَّرَ وَحُسِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْآمِنِينَ" .

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء

- ١٠ قبل أن يخلق الله السماوات والأرض
 قال أبو الوليد الأزرقى بسند يرفعه إلى كعب الأجار أنه قال : كانت الكعبة
 غُثَاءً عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ عِزَّ وَجِلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً . وَمِنْهَا
 دُحِّيَتِ الْأَرْضُ .
 وقال يرفعه إلى مجاهد : خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرضين .
 ١٥ وعنه يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما كان العرش على الماء قبل
 أن يخلق الله السماوات والأرض بعث الله ريحا فصققت الماء فأبرزت عن حشفة
 في موضع البيت كأنها قبة . فدحا الله عز وجل الأرض من تحتها فادأت ثم مادت .
 فأوتدها الله تعالى بالجبال ، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس ، فلذلك سميت مكة
 أم القرى

(١) كذا في جميع النسخ ولعله "الركن البياض" .

وعنه يرفعه إلى مجاهد أنه قال : لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بالثي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى .

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام،

ومبدأ الطواف

قال أبو الوليد الأزرقى، يرفعه إلى علي بن الحسين رضى الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله، فقال له : عمّ تسأل؟ فقال : أسألك عن بدء الطواف بهذا البيت لِمَ كان؟ وأتى كان؟ وحيث كان؟ وكيف كان بالمجر؟ فقال له : نعم، من أين أنت؟ فقال : من أهل الشام . فقال : أين مسكنك؟ قال : في بيت المقدس . قال : فهل قرأت الكتابين؟ (يعنى التوراة والإنجيل) . قال له الرجل : نعم . فقال له : يا أبا أهل الشام أحفظ، ولا تروين عني إلا حقا :

أما بدء هذا الطواف بهذا البيت، فإن الله تعالى قال للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالت الملائكة : أى رب، أخليفة من غيرنا : ممن يُفسد فيها ويسفك الدماء، ويتحاسدون، ويتباغضون، ويتنازعون؟ أى رب، أجعل ذلك الخليفة منا، فنحن لا نُفسد فيها، ولا نُسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى؛ ونحن نُسبح بحمدك وتقدس لك، ونُطيعك ولا نعصيك . قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنِّي أَعْمَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . قال : فظننت الملائكة أن ما قالوه رد على ربهم عز وجل وأنه قد غضب من قولهم ، فلاذوا بالعرش، ورفعوا رؤوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقا لغضبه . فطافوا بالعرش ثلاث ساعات . فنظر الله عز وجل إليهم، فزلت الرحمة عليهم، فوضع الله سبحانه تحت العرش بيتاً على أربع

أساطين من زبرجد، وغشاه بياقوتة حمراء وسمى البيت الضراح . ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا البيت، ودعوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهون عليهم، وهو البيت المعمور الذي ذكره الله عز وجل : يدخله كل يوم ليلة سبعون ألف ملك لا يعددون فيه أبدا . ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال : ابثوا لي بيتا في الأرض بمثاله وقدره . فأمر الله سبحانه من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

فقال الرجل : صدقت يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا كان ،

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقى ، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما : إن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك ، أيها الروح الأمين ؟ قال : إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن ، وهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها .

وقال ، يرفعه إلى ليث بن معاذ رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا ، سبعة منها في السماء إلى العرش ، وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى ، وأعلاها الذى يلي العرش : البيت المعمور . لكل بيت منها حرم تحرم هذا البيت . لو سقط منها بيت ، لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى ، ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمره ، كما يعمر هذا البيت .

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وبنائه الكعبة

المشرفة وجهه وطوافه بالبيت

قال الأزرقى، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض . وهو مثل التلک من رعدته . قال: فطأ طأ الله عز وجل منه إلى الأرض ستين ذراعاً، فقال: يا رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسمهم؟ قال: خيطتک يا آدم، ولكن أذهب فابن لي بيتاً تطف به وأذكركني حوله كبحر ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى، قال: فاقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويت له الأرض وقبضت له المفاريز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من تحاض أو بحر فجعله خطوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة . فبنى البيت الحرام . وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أسس ثابت في الأرض السفلى فقذفت الملائكة فيه الصخرة، ما يطبق الصخرة منها ثلاثون رجلاً . وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور زیتا، وطور سيناء، والجدوى، وحرأ، حتى استوى على وجه الأرض .

قال ابن عباس رضى الله عنهما: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به، آدم عليه السلام . حتى بعث الله سبحانه الطوفان، فدرس موضع البيت في الطوفان . حتى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعد وأعلامه . ثم بنته قريش بعد ذلك . وهو بجذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سقط إلا عليه .

(١) في النسخ "حبرى" . والتصحيح من حاشية الجمل على الجلالين، فقد نقل أثر ابن عباس .

- وقال أبو الوليد أيضا، ورفع إلى وهب بن منبه : إن الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عليه السلام، أمره أن يسير إلى مكة . فطوى له الأرض وقبض له المقاوز، فصارت كل مفازة يمرُّ بها خطوة ، وقبض له ما كان فيها من محاض ماء أو بحر فجعله له خطوة . فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة . وكان قبل ذلك قد أشتد بكأزه وحزنه لما كان فيه من عظم المصيبة ، حتى إن كانت الملائكة لتَحزن لحزنه وتبكي لبكائه . فعزاه الله عز وجل بحجامة من خيام الجنة ، ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة . وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة : فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تير الجنة ، فيها نور يتلَّه من نور الجنة . ونزل معها الركن ، وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة . وكان كرسيا لآدم عليه السلام ، يجلس عليه . فلما صار آدم بمكة ، حرَّسه الله تعالى ، وحرَّسه الله تعالى وحرص تلك الخيمة بالملائكة . كانوا يحرسونها ويؤدون عنها ساكن الأرض ، وساكنوها يومئذ الجن والشياطين ، فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة ، لأنه من نظر إلى شيء من الجنة وجبت له . والأرض يومئذ طاهرة تقيَّة لم تتجس ولم يسفك فيها الدم ، ولم تعمل فيها الخطايا . فلذلك جعلها الله عز وجل مسكن الملائكة ، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الليل والنهار ، لا يفترُّون . وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفاً واحدا مستديرين بالحرم كله : الحِلُّ من خلفهم ، والحرم كله من أمامهم . ولا يجوزهم جنٌّ ولا شيطان . ومن أجل مقام الملائكة ، حرم الحرم حتى اليوم . ووضعت أعلام حيث كان مقام الملائكة . وحرَّم الله على حواء دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة . فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت . وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليُلمِّ بها

للولد، نخرج من الحرم كله حتى يلقاها . فلم تزل خيمة آدم مكانها حتى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها الله . وبني بنو آدم بها من بعدها مكانا : بيتا بالطين والحجارة . فلم يزل معمورا ، يَعْمُرُونَهُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى كَانَ زَمَنُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَتَنَسَفَهُ النَّارُ وَخَفِيَ مَكَانُهُ . فلما بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام طلب الأساس ، فلما وصل إليه ظلَّ الله مكان البيت بغمامة . فكانت حِفَافَ البيت الأول ، ثم لم تزل رَاكِرَةً عَلَى حِفَافِهِ تُظَلُّ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَهْدِيهِ مَكَانَ التَّقْوَاعِدِ حَتَّى رَفَعَ اللَّهُ التَّقْوَاعِدَ قَامَةً . ثم آنكشفت الغمامة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أي الغمامة التي ركزت على الحِفافِ لِتَهْدِيَهُ مَكَانَ التَّقْوَاعِدِ .

وعن وهب بن منبه أنه قال : قرأت في كتاب من الكتب الأول ، ذكر فيه أمر الكعبة ، فوجدت فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت . فيتقص من عند العرش محرما مليئا ، حتى يستلم الحجر . ثم يطوف بالبيت سبعا ويركع في جوفه ركعتين ، ثم يصعد .

وقال الأزرقى ، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما أهبط الله آدم إلى الأرض ، أهبطه إلى موضع البيت الحرام . وهو مثل الفلك من رعدته . ثم أنزل عليه الحجر الأسود يعنى الركن ، وهو يتلأل من شدة بياضه . فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمه إليه أنسا به . ثم أنزلت عليه العصي فقييل له : تَخَطَّ يَا آدَمُ ، فتخطى ، فإذا هو بأرض الهند والسند . فكث هناك ما شاء الله ، ثم أستوحش إلى الركن فقييل له : آحْجِجْ ، قال فحج فلقيته الملائكة فقالوا : بَرَّأ حَجُّكَ يَا آدَمُ ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام .

قال : وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كعب الأخبار فقال : أخبرني عن البيت الحرام . فقال كعب : أنزله الله من السماء ياقوتةً مجوفةً مع آدم ، فقال له : يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك ، يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى . ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه . فكان آدم يطوف حوله كما يطاف حول العرش ، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش . فلما أغرق الله تعالى قوم نوح ، رفعه إلى السماء وبقيت قواعده .

وقال وهب بن منبه : كان البيت الذى بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ من ياقوت الجنة . وكان من ياقوتة حمراء تلتهب ، لها بابان : أحدهما شرقى والآخر غربى . وكان فيه قناديل من نور آتيتها ذهبٌ من تير الجنة . وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض . والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء .
والله أعلم .

ذكر فضل البيت الحرام ، والحرم

قال أبو الوليد ، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال : إن آدم لما أُهبط إلى الأرض استوحش فيها ما رأى من سعتها ولم يرها أحدا غيره ، فقال : يارب ، أما لأرضك هذه من عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيرى ؟ قال : إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي ويقدس لى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفع لذكرى ويسبحننى فيها خلقى ، وسأبوتك فيها بيتا أختاره لنفسى ، وأخصه بكرامتى ، وأؤثره على بيوت الأرض كلها بأسمى ، فأسميه بيتى ، وأنطعه بعظمتى ، وأحوزه بحرمانى ، وأجعله أحق بيوت الأرض

(١) أضفه : بسط له النطق بالكسر ، بساط من أديم (تفسير بهامش الأصل) . وفي بعض النسخ "وأظفقه" بالنسبة .



كلها وأولاهها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترت لنسي، فإني اخترت مكانه يوم
 خلقت السماوات والأرض، وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتي من البيوت، ولست
 أسكنه، وليس ينبغي لي أن أسكن البيوت، ولا ينبغي لها أن تسعني، ولكن على كرسى
 الكبرياء والجبروت، وهو الذي استقل بعزتي، وعليه وضعت عظمي وجلاني .
 وهناك استفتقر قراري، ثم هو بعد ضعيف عني لولا قوتي، ثم أنا بعد ذلك ملء كل
 شيء، وفوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وأمام كل شيء، وخلف كل شيء . وليس
 ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقدر قدرتي، ولا يبلغ كنهه شاني . أجعل ذلك البيت
 لك ولن بعدك حرماً وأمناً، أحرّم بحرّماته ما فوقه وما تحته وما حوله . فمن حرّمه بحرمتي
 فقد عظم حرمتي . ومن أحله فقد أباح جرّماتي ، ومن أمن أهله فقد استوجب بذلك
 أمانى ، ومن أخافهم أخفرت في ذمتي ، ومن عظم شأنه عظم في عيني ، ومن تهاون به
 صغرت في عيني ، ولكل ملك حيازة ، أحواليه مما حوالبه ، وبطن مكة خيرتي وحيزتي ؛
 وحيزان بيتي وعمّارها وزواردها . وفدى وأضيافي في كهنّي وأفتيتي ، ضامنون على ذمتي
 وحواري ؛ فأجعله أوّل بيت وضع للناس ، وأعمره بأهل السماء وأهل الأرض : يؤنه
 أفواجا شعنا غبرا على كل ضامر يأتين من كل فج عميق . يعجّون بالتكبير عجيجا ،
 ويرجّون بالتلبية رجيجا . ويتحبّون بالبكاء نحيبا . فمن أعتمه لا يريد غيره . فقد زرتني
 وقد إلى وزل بي ؛ ومن زل بي . فحقيق على أن تُنحّنه بكرامتي ؛ وحق على الكريم
 أن يُكرم وفده وأضيافه ، وأن يُسعف كل واحد منهم بحاجته . تعمّره آدم . كنت
 حيا ، ثم تعمّره من بعدك الأئمّ والقرون والأنبياء : أمة بعد أمة ، وقرون بعد قرن . ونبي
 بعد نبي ، حتى ينتهي ذلك إلى نبي من ولدك وهو خاتم النبيين . فأجعلهُ من عمّاره
 وسكّانه وحّمّاته . ووّلّاته وسُقّاته . يكون أميني عليه ، كان حيا . فإذا أنقلب بي .

٥

١٠

١٥

٢٠

- وجدنى قد ذنّرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به القربة منى والوسيلة إلى .
وأفضل المنازل فى دار المقام . وأجعل اسم ذلك البيت ودكره وشرّفه ومجده وشاء
ومكّرمته لنبيّ من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم ، أرفع له
قواعده ، وأقضى عنى يديه عمارته ، وأنيط له سقايته ، وأريه حله وحرمة ومواقفه ،
وأعلمه مشاعره ومناسكه ، وأجعله أمة واحدة قانتا لى ، قائما بامرئى ، داعيا إلى سبيلى ؛
أجتيه وأهديه إلى صراط مستقيم ، أبتليه فيصبر ، وأعافيه فيشكر ، وينذر لى فيفى ؛
ويعدنى فينجز ، أستجيب له فى ولده وذريته من بعده وأشفعه فيهم ، وأجعلهم أهل
ذلك البيت وولّاته وحامّته وسقّاته وخدامه وخرّانه ومجّابه حتى يتدعوا ويغيروا ؛
فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل من أشياء بن أشياء . أجعل
إبراهيم إمام أهل ذلك البيت وأهل تلك الشريعة ، يأتى به من حضر تلك المواطن
من جميع الإنس والجن ؛ يطؤون فيها آثاره ، ويتبعون فيها سنّته ، ويتقدون فيها بهديّه .
فمن فعل ذلك منهم أوفى نذره ، وأستكمل نُسكّه ؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيّع نسكّه ،
وأخطأ بقيّته . فمن سأل عنى يومئذ فى تلك المواطن : أين أنا؟ فأنا مع الشعث الغبر
المؤفين بنذورهم ، المستكملين مناسكهم ، المبتهلين إلى ربهم الذى يعلم ما يسدون
وما يكتمون . وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذى قصصت عليك شأنه ؛ يا آدم ،
برائدى فى ملكى ولا عظمتى ولا سلطانى ولا شئ مما عندى إلا كما زادت قطرة من
رشاش وقعت فى سبعة أبحر تمدّها من بعدها سبعة أبحر لا تحصى ، بل القطرة أزيد
فى البحر من هذا الأمر فى شئ مما عندى . ولو لم أخلقه لم ينتقص شئ من ملكى
ولا عظمتى ولا مما عندى من الغناء والسعة ، إلا كما نقصت الأرض ذرّة وقعت من
جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها ، بل الذرّة أنقص للأرض من هذا
لأمر لو لم أخلقه . ليس مما عندى ويعتد هذا مثلا للعزير الحكيم .

ذَكَرَ مَا جَاءَ فِي طَوَافِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَيْتِ

قال أبو الوليد الأزرقي، ورفعته إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة ونمسين يوما، وإن الله جل ثناؤه وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه.

وقال عن مجاهد: كان موضع الكعبة قد خفي ودرَسَ زمنَ الفرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. فكان موضعه أكمة حمراء مدورة، لا تعلوها السيول. غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه. وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب. فقلَّ من دعا هنالك، إلا أستجيب له. وكان الناس يحجُّون إلى مكة، إلى موضع البيت، حتى بَوَّأَ اللهُ تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام. فلم يزل منذ أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظما محترما تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة، وملة بعد ملة. قال: وكانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام.

ذَكَرَ مَا جَاءَ مِنْ تَحْيِيرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْضِعَ الْبَيْتِ

قال عثمان بن ساج: بلغنا (والله أعلم) أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عرج به إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارقها ومغاربها، فاختر موضع الكعبة. فقالت له الملائكة: يا خليل الرحمن اخترت حرم الله في الأرض، قال: فبناه من حجارة سبعة أجيال (ويقولون نعمة). وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال.

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج

وحج الأنبياء بعده وطوافهم

- قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام ، جاءه جبريل عليه السلام فقال : طُفَّ به سبعا ، فطاف به سبعا ، هو وإسماعيل .
- يستلمان الأركان كلها في كل طواف ، فلما أكمل سبعا ، صلَّيا خلف المقام ركعتين .
- قال : فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها : الصفا والمروة وميِّ ومزدلفة وعرفة . فلما دخل ميِّ وهبط من العقبة ، مثلَّ له إبليس عند جَمرة العقبة ، فقال له جبريل : أرمه ، فرماه بسبع حصيات . فغاب عنه ، ثم برَّز له عند الجمرة الوسطى ، فقال له جبريل : أرمه ، فرماه إبراهيم بسبع حصيات ، فغاب عنه ، ثم برَّز له عند الجمرة السفلى ، فقال له جبريل : أرمه ، فرماه بسبع حصيات مثل حصي الخذف ، فغاب عنه إبليس ، ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفة .
- فلما انتهى إليها ، قال له جبريل : أعرَفْتَ مناسِكَكَ ؟ قال : نعم ، قال : فسميت عرفات بذلك . قال : ثم أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤدِّن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يا ربِّ وما يبلغُ صوتي ؟ قال الله جل ثناؤه : أَدِّنْ ، وعلى البلاغ ، قال : فعلا إبراهيم على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها فجمعت له الأرض يومئذ : سبأها ، وجبلها ، وبرها ، وبحرها ، وإنسها ، وجنُّها حتى أسمعهم جميعا . فأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال : ”أيها الناس كُتِبَ عليكم الحجُّ إلى البيت العتيق ، فأجيئوا ربكم“ فأجابوه من تحت الصخور السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها :

(لَيْبِكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ) . قال : وكانت الحجارة على ما هي اليوم، إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية . فكان أثر قدميه في المقام آية إلى اليوم . قال : أفلا تراهم اليوم يقولون : (ليبيك، اللهم ليبيك) . فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم . وأثر قدمي إبراهيم في المقام آية . وذلك قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

قال ابن إسحاق : وبلغني أن آدم عليه السلام كان أسلم الأركان كلها قبل إبراهيم ، وجه إسحاق وسارة من الشام . قال : وكان إبراهيم يحج كل سنة على البراق . قال : وحجبت بعد ذلك الأنبياء والأئمة .

وعن مجاهد ، قال : حج إبراهيم وإسماعيل ، ماشيين .

١٠ وعن عبد الله بن ضمرة السلولي : ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا ، جاءوا حجاجا ففُتروا هنالك .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة فتعبد بها النبي ومن معه حتى يموت . فمات بها : نوح ، وهود ، وصالح . وشعيب . وقبورهم بين زمزم والنجف .

١٥ وعن مجاهد : حج موسى النبي عليه السلام على جبل أحرار . فتر بالروحاء عليه

عباءتان قطوانيتان مترَّ بإحداهما ، مرتدٍ بالأخرى . فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة . فبينما هو يلبي بين الصفا والمروة ، إذ سمع صوتا من السماء يقول : (لَيْبِكَ عَبْدِي ، أَنَا مَعَكَ) قال : نفخر موسى ساجدا .

وعن عُرْوَةَ بن الزبير رضى الله عنهما قال : بلغنى أن البيتَ وُضِعَ لِآدَمَ يَطُوفُ بِهِ وَيَعْبُدُ اللَّهَ عِنْدَهُ ، وَأَنَّ نُوْحًا قَدِ حَجَّجَهُ وَجَاءَهُ وَعَظَّمَهُ قَبْلَ الْفُرْقِ . فَلَمَّا أَصَابَ الْبَيْتَ مَا أَصَابَ الْأَرْضَ مِنَ الْفُرْقِ فَكَانَ رِبْوَةً حَمْرَاءَ مَعْرُوفًا مَكَانَهُ ؛ فَبَعَثَ اللَّهُ هُودًا إِلَى عَادَ ، فَتَشَاغَلَ بِأَمْرِ قَوْمِهِ حَتَّى هَلَكَ ، وَلَمْ يَحْجَّجْهُ . ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى صَالِحًا إِلَى ثَمُودَ ، فَتَشَاغَلَ بِهِمْ حَتَّى هَلَكَ ، وَلَمْ يَحْجَّجْهُ . ثُمَّ بَرَأَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَجَّجَهُ وَأَعْلَمَ مَنَاسِكَهُ وَدَعَا إِلَى زِيَارَتِهِ . ثُمَّ لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ، إِلَّا حَجَّجَهُ .

وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لَقَدْ سَلَكَ فَجَّ الرُّوحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيًّا ، مُجَاجًا عَلَيْهِمْ لِبَاسِ الصُّوفِ . مَحْطُطِي إِبِلِهِمْ بِجِبَالِ اللَّيْفِ . وَلَقَدْ صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا .

١٠ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” لَقَدْ مَرَّ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ (أَرَلَقْدَ مَرَّ بِهَذَا الْفَجِّ) سَبْعُونَ نَبِيًّا عَلَى نُوقِ حُمْرٍ خُطِمَهَا اللَّيْفُ ، لَبُوسُهُمُ الْعِبَاءُ وَتَلْبِيَتُهُمْ شَتَّى . فَفَنَّهُمْ يُونُسُ بْنُ مَتَّى . فَكَانَ يُونُسُ يَقُولُ : (لَيْتَكَ فَتَزَاجَ الْكُرْبُ ، لَيْتَكَ) ؛ وَكَانَ مُوسَى يَقُولُ : (لَيْتَكَ ، أَنَا عَبْدُكَ لَدَيْكَ ، لَيْتَكَ) نَالٌ : وَتَلْبِيَةُ عِيسَى : (لَيْتَكَ ، أَنَا عَبْدُكَ ابْنُ أُمَّتِكَ بِنْتِ عَبْدِكَ ، لَيْتَكَ) “ .

١٥ . وعن عطاء بن السائب أن إبراهيم رأى رجلا يطوف بالبيت فأنكره ، فسأله : من أنت؟ فقال : من أصحاب ذى القرنين ، قال : وأين هو؟ قال : هو بالأبطح . فتلقاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه ، فقال لذي القرنين : ألا تركب؟ قال : ما كنت لأركب ، وهذا يمشى ، فحج ماشيا .

ذكر ماجاء من مسئلة إبراهيم عليه السلام الأيمن والرزق لأهل مكة.

والكتب التي وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقى، يرفعه إلى محمد بن كعب القرظى أنه قال : دعا إبراهيم عليه السلام للؤمنين، وترك الكفار لم يدع لهم بشيء، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُشْسِ الْمَصِيرُ ﴾ .

وقال عثمان بن ساج : وأخبرني محمد بن السائب الكلبي قال : قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ . فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلدا آمنا وآمن فيه الخائف ورزق أهله من الثمرات، فمحمّل إليهم من الآفاق .

وقال مجاهد : جعل الله هذا البلد آمنا، لا يخاف فيه من دخله .

وقال سعيد بن السائب بن يسار: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هناك : رزقا للحرم .

وروى عن محمد بن المنكدر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من الشام .

وعن الزهري أن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال : جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوحده غائبا، ووجد امرأته الآخرة، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجهمي . فوقف وسلم فردت عليه السلام وأستنزله وعرضت عليه الطعام والشراب،

فقال : ما طعامكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماء ، قال : هل من حب أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم في اللحم والماء .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وَوَجَدَ عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركة فيه ، فكانت تكون أرضا ذات زرع" .

وعن سعيد بن جبيرة مثله ، وزاد فيه : "ولا يخلو أحدٌ على اللحم والماء في غير مكة إلا وُجِعَ بطنه ، وإن خلا عليهما بمكة لم يمد ذلك أذى" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "وُجِدَ في المقام كتاب فيه " هذا بيت الله الحرام بمكة ، توكل الله برزق أهله من ثلاث سُبُل ، مبارك لأهله في اللحم واللبن "

10 ووجد في حجر في حجر كتاب من خلقه الحجر "أنا الله ذوبكة الحرام صفتها يوم صفت الشمس والقمر وحققها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشابها مبارك لأهلها في اللحم والماء" .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما هدموا البيت وبلغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا في حجر من الأساس كتابا ، فدعوا له رجلا من أهل اليمن ، وآخَرَ من الرهبان ، فإذا فيه : "أنا الله ذوبكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض والشمس والقمر ويوم صفت هذين الجبلين وحققها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشابها مبارك لأهلها في الماء واللبن" .

وعن مجاهد رضى الله عنه قال : وجد في بعض الزبور "أنا الله ذوبكة جعلتها بين هذين الجبلين وصفتها يوم صفت الشمس والقمر وحققها بسبعة أملاك حنفاء

وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبلٍ فليس يوتا أهل مكة إلا من ثلاثة طرق
أعلى الوادى وأسفله وكُدِّي وباركت لأهلها في اللحم والماء“ .

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ابن أبي نعيم قال : إنما سُميت ”الكعبة“ لأنها مُكَّبة على خَلقة الكعب .
قال : وكان الناس يبنون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة . فأول من بنى بيتا مربعا
حميد بن زهير، فقالت قريش : ”رَبِّع حميدُ بنُ زهيرٍ بيتا، إنا حياة وإنا موتا“ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : إنما سُميت ”بكة“ لأنه يجتمع فيها
الرجال والنساء جميعا . وقالوا : ”بَكَّةُ“ موضع البيت ، ومكَّة التمزية .

وقال ابن أبي أنيسة : ”بَكَّةُ“ موضع البيت ، ومكة هو الحرم كله .

وكان ابن جريح يقول : إنما سميت ”بكة“ لَبَاكَّ الناس بأقدامهم قدام الكعبة .

ويقال : إنما سميت ”بكة“ لأنها تَبُكُ أعناق الجبارة .

وعن الزهرى : أنه بنغه إنما سُمي ”البيت العتيق“ من أن الله تعالى أعتقه
من الجبارة .

وعن مجاهد والسدى : إنما سُمي ”البيت العتيق“ الكعبة، أعتقها الله من

الجبارة؛ فلا يتعبرون فيه إذا طافوا . وكان البيت يدعى ”قادسا“ ويدعى ”بادرا“
ويدعى ”القرية القديمة“ ويدعى ”البيت العتيق“ .

وعن مجاهد قال : من اسمائها ”مكة“ و”بَكَّةُ“ و”أم رُحْم“ و”أم القرى“
و”صَلَّاح“ و”كُوَئِي“ و”الباسة“ .

(١) في الأصل ”بيوت“ . وفي بعض النسخ كما في الصلب بدون نقط . ولعل الصواب يؤى .

وعن ابن أبي نجيح قال : بلغني أن أسماء مكة "مكة" ، و "بكة" ، و "أم رُحْم" ، و "أم القرى" : و "الباسة" ، و "البيت العتيق" ، و "الحاطمة" : (تخطم من يستخف بها) ، و "الناسة" (تسهم ، أى تخرجهم إخراجا إذا غشموا وظلموا) .

ذكر ما جاء في فضل الركن الأسود

٥ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة ؛ ولولا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

١٠ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال في الركن الأسود : لولا ما مسه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم . ما مسه ذو عاهة إلا برأ . وقال : نزل الركن ، وإنه لأبيض بياضا من الفضة .

١٥ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها ، وهى تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن : "لولا ما طبع على هذا الحجر ، يا عائشة ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها ، إذن لاستشفي به من كل عاهة ، وإذن لأنى كهنته يوم أنزله الله ، وليعيدنه الله إلى ما خلقه أول مرة ، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، ولكن الله غيره بمصيبة العاصين ، وسير زينتته عن الظلمة والأثمة لأنهم لا يبنون لهم أن ينظروا إلى شئ ، كان بدؤه من الجنة" .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله يبعث الركن الأسود ، وله عينان ينصر بهما ، وإسان ينطق به : يشهد لمن آستلمه بحق" .

وعنه رضى الله عنه : الركن يمينُ الله في الأرض : يصافحُ بها عباده كما يصافحُ أحدكم أخاه .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة . فلما دخلنا الطواف ، قام عند الحجر وقال : والله إنى لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ، ما قبلك . ثم قبله ومضى فى الطواف فقال له على رضى الله عنه : بل يا أمير المؤمنين هو يضرّ وينفع ، قال : وبم قلت ذلك ؟ قال : بكتاب الله ، قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال : قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۗ ﴾ . فلما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره وأخرج ذريته من صلبه فقرّهم أنه الربُّ وهم العبيد ، ثم كتب ميثاقهم فى رقٍّ ، وكان هذا الحجر له عينانٍ ولسانٌ ، فقال له : أفتح فاك ، فألقمه ذلك الرقَّ وجعله فى هذا الموضع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم ، يا أبا الحسن .

وعن عكرمة : أن الحجر الأسود يمينُ الله فى الأرض ، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسح الركن فقد بايع الله ورسوله .

وعن مجاهد : يأتى الركنُ والمقام يوم القيامة ، كلُّ واحد منهما مثلُ أبي قبيس : يشهدان لمن وافاهما بالموافاة .

والله أعلم .

ذكر ما جاء في فضل أستلام الركن الأسود ، واليماني

عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لأبن عمر رضي الله عنهما : إني أراك تُزاحم على هذين الركنين ، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **” إِنَّ أَسْتِلَامَهُمَا يُحُطُّ بِالْخَطَايَا حَطًّا ”**.



- وسئل رضي الله عنه ، فقيل له : إنا نراك تفعل خصالا أربعا لا يفعلها الناس :
- نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجر والركن اليماني ، ونراك لا تلبس من النعال إلا السبئية ، ونراك تصفر شعرك وقد يصنع الناس بالحناء ، ونراك لا تُحرم حتى تستوى بك راحلتك وتوجه . فقال عبد الله : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك .

- ١٠ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدعُ الركنَ الأسود والركنَ اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما . قال : كان لا يدعُهما في كل طواف طاف بهما حتى يستلمهما ، لقد زاحم على الركن مرة في شدة الزحام حتى رُِعِفَ ، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتى رُِعِفَ الثانية ، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فما تركه حتى أستلم .

- ١٥ وعن نافع قال : لقد رأيت ابن عمر رضي الله عنهما ، زاحم مرة على الركن اليماني حتى انبهر ففتنحي بفلس في ناحية الطواف حتى استراح ، ثم عاد فلم يدعه حتى أستلمه . قالوا : وليس هذا واجبا على الناس ، ولكنه كان يجب أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ حَسَنَةً وَمِثْلَ عَنَةِ سَيِّئَةٍ" .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِذَا نَحَرَ الْمَرْءُ يَرِيدُ الطَّوْفَ بِالْبَيْتِ ، أَقْبَلَ يُرِيدُ الرَّحْمَةَ . فَإِذَا دَخَلَهُ غَمْرَتَهُ . ثُمَّ لَا يَرْفَعُ قَدَمًا وَلَا يَضَعُ قَدَمًا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ نَحْسِيَانَةَ حَسَنَةٍ ، وَحَطَّ عَنْهُ نَحْسِيَانَةَ سَيِّئَةٍ (أَوْ تَزْ خَطِيئَةٍ) ، وَرُفِعَتْ لَهُ نَحْسِيَانَةُ دَرَجَةٍ . فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ دُبْرَ الْمَقَامِ ، نَحَرَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ عِشْقِ عَشْرِ رِقَابٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَأَسْتَقْبَلَهُ مَلَكٌ عَلَى الرُّكْنِ فَقَالَ لَهُ : أَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ فِيمَا بَقِيَ فَقَدْ كَفَيْتَ مَا مَضَى ، وَشَفَعْتَ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ" .

وعن حسان بن عطية : أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُتْرَكُهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَسِتُونَ مِنْهَا لِلطَّائِفِينَ ، وَأَرْبَعُونَ لِلصَّائِلِينَ ، وَعَشْرُونَ لِلنَّاضِرِينَ . قَالَ حَسَانٌ : فَنَظَرْنَا فَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلطَّائِفِينَ هُوَ يَطُوفُ وَيَصِلُ وَيَنْظُرُ .

ذكر ما جاء في فضل زمزم

عن وهب بن منبه أنه قال في زمزم : والذي نفسى بيده ، إنها لفي كتاب الله مَضُونَةٌ ، وَإِنِهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ بَرَّةٌ ، وَإِنِهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ شَرَابُ الْأَبْرَارِ ، وَإِنِهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ طَعَامٌ طُعْمٌ وَشِفَاءٌ سُقْمٌ .

وعن ابن خثيم قال : قَدِمَ عَلَيْنَا وَهَبُ بْنُ مَنبَهٍ مَكَّةَ فَاسْتَكْبَى ، فِجْنَاهُ نَعُودُهُ ، فَإِذَا عِنْدَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ . قَالَ : قَلْنَا لَهُ : لَوْ اسْتَعْدَبْتَ ، فَإِنَّ هَذَا مَاءٌ فِيهِ غَلْظٌ ؟ قَالَ : مَا أُرِيدُ

أن أشرب حتى أخرج منها غيره، والذي نفس وهب بيده، إنها لفي كتاب الله زمزم لا تُتَزَف ولا تُتَمَّ، وإنها لفي كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مَضُونَة، وإنها لفي كتاب الله طَعَامٌ من طُعْمٍ وشفاءٌ من سُقْمٍ، والذي نفس وهب بيده لا يعمدُ أحدٌ إليها فيشربُ منها حتى يتضلع إلا تزعت منه داءٌ أو أحدثت له شفاءً .

و عن كعب أنه قال لزمنم : إنا نجدها مضمونةً ضنَّ بها لكم، وإن أول من سقى ماءها إسماعيلُ عليه السلام، طعامٌ من طُعْمٍ، وشفاءٌ من سُقْمٍ .

و عن مجاهد قال : ماءُ زمزمَ لما شُرب له، إن شربته تريد به شفاءً شفاك الله . وإن شربته لظمًا أرواك الله، وإن شربته لجُوع أشبعك الله، وهى هزْمَةٌ جبريل عليه السلام بعقبه .

و عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
”التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق“ .

و عن الضحاك بن مزاحم أنه قال : بلغنى أنَّ التضلع من ماء زمزم براءةٌ من النفاق، وأن ماءها يذهب بالصداع، وأن التطلع فيها يحلو لبصر، وأنه سياتى عليها زمان تكون أعذب من النيل والفرات . قال : قال لنا الخزاعي : وقد رأينا ذلك فى سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكة أمطارٌ كثيرة وسال وادياها فى سنة تسع وسبعين، وسنة ثمانين ومائتين، فكثر ماء زمزم وارتفع حتى قارب رأسها، فلم يكن بينه وبين شفها العليا إلا سبع أذرع أو نحوها . وعذبت حتى كان ماؤها أعذب مياه مكة التى يشربها أهلها . وإنا رأيناها أعذب من مياه العيون .

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العذَابَ قبل يوم القيامة غير زمزم، وتفور المياه العذبة غير زمزم .

ذَكَرَ مَا جَاءَ مِنْ اتِّسَاعِ مَنَى أَيَّامِ الْحَجِّ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْى

§ عن أبي الطُّفَيْلِ ، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يُسأل عن منى ، ويقال له : عجبا لضيقه في غير أيام الحج ! فقال ابن عباس : إن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد .

§ وعن ابن عباس ، قال : إنما سميت منى منى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم ، قال له . تمن ، قال : أتمنى الجنة ، فسميت منى لتنى آدم .
وقيل : إنما سميت منى لِمَعْنَى الدَّمَاءِ بِهَا .

ذَكَرَ مَا جَاءَ فِي فِضَائِلِ مَقْبَرَةِ مَكَّةَ

§ عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "نِعْمَ الْمَقْبَرَةُ هَذِهِ ! " (لمقبرة أهل مكة) .

وعن محمد بن عبد الله بن صيفي أنه قال : من قَبِرَ فِي هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ ، بُعِثَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (بمعنى مقبرة مكة) .

ذَكَرَ شَيْءٌ مِنْ خِصَائِصِ مَكَّةَ

§ من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي ويعارضه ويصيده . فإذا دخل الحرم ، كَفَّ عَنْهُ .

§ ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عيلاً ؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفرق فرقتين ولا تعلوها . والله أعلم .

وأما المدينة المشرفة

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

§ ففضّلناها أوسع من أن أحصرها ، وأعظم من أن أسبرها . ناهيك بها من بلد اختاره الله تعالى لرسوله ، ونص على فضله في محكم تنزيله ، قال الله عز وجل : ﴿ الْمَسْجِدُ الْمَشْرِفِيُّ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ .

§ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سُئِلَ : أى مسجد هو ؟ فقال : مسجدي هذا ، وسر قول ابن المسيّب وزيد بن ثابت وابن عمر رضى الله تعالى عنهم ، وبه أخذ مالك رحمه الله . وقال ابن عباس : هو مسجد قباء .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجد الحرام" .

قال الفاضل عياض رحمه الله : اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المفاضلة بين مكة والمدينة . فذهب مالك أن الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فيه بدون الألف . واحتج مالك وأشهبُ وابن نافع وجماعة أصحابه بما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه "صلاة في المسجد الحرام خيرٌ من مائة صلاة فيما سواه" فتأتى

فضيلة مسجد الرسول عليه بتسميته وعلى غيره بألف. وهذا مبنى على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين.

§ وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة. وهو قول عطاء وآبن وهب وآبن حبيب، من أصحاب مالك. وحكاه الباجي عن الشافعي.

§ قال القاضي أبو الوليد الباجي: الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة.

§ قال القاضي عياض: ولا خلاف أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة". قالوا: هذا يحتمل معنيين، (أحدهما). أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل: "الجنة تحت ظلال السيوف". (والثاني) أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها. قاله الداودي.

§ وروى ابن عمر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المدينة: "لا يبصر على لأوائها وشذتها أحد، إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة".

§ وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تحمل عن المدينة: "والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون". وقال: "إنما المدينة كالكبير: تنفى خبثها وتنصع طيبها".

§ وقال: "لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه".

§ وعنه صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مات في أحد الحرمين حاجاً أو معتمراً، بعثه الله يوم القيامة لا حسابَ عليه ولا عذابَ". وفي طريق آخر: "بعث من الآمنين يوم القيامة".

§ وعن ابن عمر رضى الله عنهما: "مَنْ استطاع أن يموتَ بالمدينة، فليمتَ بها فإنِّي أشفعُ لمن يموتُ بها".

§ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم طَلَع له أحدٌ فقال: "هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبه. اللهم إنَّ إبراهيمَ حرمَ مكة، وأنا أُحرمُ ما بين لابتيها".

(١١٦)

§ وعن عائشة رضى الله عنها أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَبْتَ إلينا مكةَ أو أشدَّ، وأنقلْ حُمَاهَا إلى الجُحْفَةِ، اللهم بارِكْ لنا في صاعنا ومُدَّنَا". ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال: "اللهم بارِكْ لهم في مِكْالِهِمْ، وبارِكْ لهم في صاعِهِمْ ومُدَّهِمْ".

§ وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زارَ قَبْرِي، وَجَبَتْ له شفاعَتِي".

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زارَنِي في المدينةِ مُحْتَسِباً، كانَ في جِوَارِي وَكُنْتُ له شَفِيعاً يومَ القيامةِ".

§ وكان مالك رحمه الله لا يركب في المدينة دابةً، ويقول: أستحي من الله أن أظأُرُبةً فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافِرِ دابته.

وروى أنه وهب للشافعي كُرَاعاً كثيراً، فقال له الشافعي: أمسك منها دابةً. فأجابهُ بمثل هذا الجواب.

§ وحكى القاضي عياض في "كتاب الشفاء" قال: حُذِث أن أبا الفضل الجوهري

لَمَّا ورد المدينةَ زائراً وقُربَ منها، تَرَجَّلَ ومشيءُ باكِياً منشداً:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ لَنَا * قُوَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبًّا،
زَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ تَمَشَّى، كَرَامَةً * لَمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلَمَّ بِهِ رَجَاءً.

قال : وحكى بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشأ يقول ممتثلاً :

رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَا حَ لِنَاظِرٍ * قَرَّ تَقَطُّعُ دُونِهِ الْأَوْهَامُ.
وَإِذَا الْمَطَى بَنَّا بَلَغْنَ مَهْدًا، * فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ حَرَامُ.
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى، * فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ.

وأقضى مالك رحمه الله فيمن قال "تربة المدينة رديّة" بضرب ثلاثين ديرة ، وأمر بحبسه ؛ وكان له قدر . وقال : "ما أحوجّه إلى ضَرْبِ عُنُقِهِ، تربةٌ دُفِنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يزعم أنها غير طيبة !".

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المدينة : "مَنْ أَحَدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُجِدِّثًا، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ . لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا " .

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

ومن خصائصها، أن العطر والبخور يوجد لها فيها من الصّوع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد في سائر البلاد؛ ولها في قصبتها فئمة طيبة ورائحة عطرة، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب آتية . ولهذا سميت "طيبة" و"طابة" .

قال الشاعر :

مَاذَا عَلَيَّ مَنْ شَمَّ ثُرْبَةَ أَحْمَدٍ * أَنْ لَا يَشْمُ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا؟

وهذا البيت ينسب لفاطمة الزهراء رضى الله عنها .

§ ومن أسمائها "طيبة" ، "وظابة" ، "يُتْرِب" ، "المدينة" ، "الدار" .

- § قال القاضي عياض رحمه الله : وَجَدِيرٌ بِمَوَاطِنِ عَمَّرَتْ بِالوَحْيِ وَالتَّزْيِيلِ ، وَتَرَدَّدَ بِهَا جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ ، وَعَمَّرَجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ، وَصَجَّتْ عَمْرَاصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ ، وَأَشْمَلَتْ تَرْبَتُهَا عَلَيَّ جَسَدَ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَأَنْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مَا أَنْتَشَرَ؛ مَدَارِسُ آيَاتٍ ، وَمَسَاجِدُ جَمَاعَاتٍ وَصَلَوَاتٍ ، وَمَشَاهِدُ الْفَضْلِ وَالخَيْرَاتِ ، وَمَعَاهِدُ الْبِرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَتَبَوُّوا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ؛ حَيْثُ أَفْجَعَتْ النُّبُوَّةُ ، وَأَيْنَ فَاضَ عِبَائُهَا ، وَمَوَاطِنُ مَهْبَطِ الرِّسَالَةِ ، وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِ الْمُصْطَفَى تَرَابُهَا : أَنْ تُعْظَمَ عَمْرَاصَاتُهَا ، وَتُنْتَسَمَ نَفْحَاتُهَا ، وَتُقَبَّلَ رُبُوعُهَا وَجَدْرَاتُهَا .

وقال :

يَادَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ * هُدَى الْأَنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ .

- ١٥ عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وَصَابَةٌ * وَتَشْوَقٌ مَتَوَقِّدُ الْجَمْرَاتِ .

وَعَلَى عَهْدِي إِنْ مَلَأْتُ مَحَاجِرِي * مِنْ تِلْكَ الْجُدْرَاتِ وَالْعَرَصَاتِ ،

لَأُغْفِرَنَّ مَصُونَ شَيْئِي بَيْنَهَا * مِنْ كَثْرَةِ التَّضْيِيلِ وَالرَّشْفَاتِ .

لَوْلَا الْعَوَادِي وَالْأَعَادِي ، زُرْتُهَا * أَبَدًا وَلَوْ صَحَّبًا عَلَى الْوَجَنَاتِ .

لَكِنْ سَأَلْتَنِي مِنْ حَفِيلِ نَجِيَّتِي * لِقَطَيْنِ تِلْكَ الدَّارِ وَالْمُجْرَاتِ .

١١٢

أَذْكَى مِنَ الْمِسْكِ الْمَفْتَقُ نَفْحَةً * تَنْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرَاتِ .
وَتَحُصِّهِ بِزَوَاكِي الصَّلَوَاتِ * وَنَوَائِمِ التَّسْلِيمِ وَالْبَرَكَاتِ .

وأما البيت المقدس ، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدس أحد القبلتين ، والمسجد الأقصى ثالث الحرمين . إليه تُشَدُّ
الرِّجَالُ ، ويكثرُ النزولُ والأرتحالُ ؛ وفي الأرض المقدسة تُحْتَمَرُ الخلائقُ ليومِ العَرْضِ ،
ويَسُطُّ اللهُ تعالى الصخرةَ الشريفةَ حتى تكونَ كعروضِ السماء والأرضِ ؛ وتجتمعُ الناسُ
هناك لفصل الحسابِ ، ويُضْرَبُ بينهم بسورِلهِ بابُ ، باطنُهُ فيه الرحمةُ وظاهرُهُ
من قِبَلِهِ العَذَابُ .

ولنبداً بذكر الأرض المقدسة

§ قال الله عز وجل إخباراً عن موسى عليه السلام: (زَيَّا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ
الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) . قال الزجاج : والمقدسة المطهرة .
وقيل للسطل "القدس" لأنه يتطهر منه . وسمى بيت المقدس لأنه يتطهر فيه
من الذنوب . وقيل : سماها مقدسة لأنها طُهِرتُ من الشرك وجعلت مسكناً
للأنبياء والمؤمنين .

§ وقد اختلف في الأرض المقدسة ما هي ؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا .

وقال السدي : أريحا هي أرض بيت المقدس . وقال مجاهد : هي الطور وما حوله .
وقال الضحاك : هي إيلياء وبيت المقدس . وقال الكلبي : دِمَشْقُ وِفْلَسْطِينَ وبعض
الأردن . وقال قتادة : هي الشام كلها .

وقال عبد الله بن عمر : والحرم محرمٌ مقداره من السماوات والأرض ، وبيت المقدس مقدسٌ مقداره من السماوات والأرض .

§ وقال ابن قتيبة . وقرأت في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال : اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة ، ومن الطير الحمامة ، ومن البيوت مكة وإيلياء ، ومن إيلياء بيت المقدس .

§ وقال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ .

والمسجد الأقصى بيت المقدس : سُمِّيَ أَقْصَى لِأَنَّهُ أَبْعَدُ الْمَسَاجِدِ الَّتِي تَزَارُ .
وقيل : لبعُد المسافة بين المسجدين . وقوله عز وجل "الذي باركنا حوله" قيل :
بالمساء والأنهار والأشجار والثمار . وقال مجاهد : سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ، وفيه مهبط الملائكة والوحى ، وهو الصخرة ، ومنه يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

§ وقال تعالى : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

قال الثعلبي في تفسيره : قال كعب الأحمبار وقتادة وابن زيد وعبد الرحمن بن غنم : «التين مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس» . وقال الضحاك : «هما مسجدان بالشام» . وقال محمد بن كعب : «التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء» . ومجازه على هذا التأويل : مَنَابِتُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ .

وروى عطية عن ابن عباس : «التين مسجد نوح عليه السلام الذي بنى على الجودي ، والزيتون بيت المقدس» .

وروى نيشل عن الضحاك: "التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى"

قال: "وطور سينين، يعني جبل موسى عليه السلام".

قال عكرمة: "السينين الحسن بلغة الحبشة". وعنه: كل جبل يُنبتُ فهو

سينين.

وقال مجاهد: "الطور الجبل، وسنين المبارك".

وقال قتادة: "المبارك الحسن".

وقال مقاتل: "كل جبل فيه شجر فهو سينين، وسيناء وهو بلغة النبط".

وقال الكلبي: "يعني الجبل المشجر".

§ وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أربعة أجمال مقدسة بين يدي الله تعالى:

طور تينا، وطور زنتا، وطور سيننا، وطور تيمانا.

فاما طور تينا: فدمشق.

وأما طور زنتا: فبيت المقدس.

وأما طور سيننا: فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام.

وأما طور تيمانا: فمكة.

§ والبلد الأمين مكة بلا خلاف.

§ ومسجد بيت المقدس أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، لقول

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما ورد في الصحيح: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة

مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى".

وفي الصحيح أيضا: "أن موسى عليه السلام، لما حضرته الوفاة سأل الله تعالى

أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر".

وكانت عمارة مسجد البيت المقدس بأمر الله عز وجل لبنيه داود عليه السلام أن يعمره ثم لم يقدر له عمارته وقدر الله تعالى ذلك على يدي سليمان بن داود عليهما السلام ، فهو الذي عمره . وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبينا في الفن الخامس في التاريخ .

- § وقد وردت آثارٌ وأحاديثٌ في فضل بيت المقدس ، وفضل زيارته ، وثواب الصلاة فيه ، ومضاعفة الحسنات والسيئات فيه ، وفضل السكنى فيه ، والإقامة به ، والوفاة فيه ، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومحراب داود ، وعين سلوان ، وما ورد في أن الحشر منه ، وما ورد في فضل الصخرة والصلاة إلى جانبها ، وما ورد من أن الله عز وجل عرج بنبيه من بيت المقدس إلى السماء ، وثواب الإهلال من بيت المقدس ، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة .

١٠

وسنذكر من ذلك طرفا تقف عليه إن شاء الله تعالى ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبةً في الاختصار فنقول . وبالله التوفيق :

أما فضل بيت المقدس

- § فقد ورد عن الزهري أنه قال : لم يبعث الله عز وجل نبيا ، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس . وقد صلى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهرا ، كما روى في الصحيحين ، حتى أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَرَى تَهَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

١٥

وتحويلُ القبلة أول ما نُسخ من أمور الشرع . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أمره الله تعالى أن يصلي نحو صحرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة .

هذا قول عامة المفسرين ، على ما حكاه التعلبي عنهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَمُوجَّهُهُ اللهُ ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هؤلاءِ يهودٌ يستقبلون بيتاً من بيوتِ الله » . فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم . قالوا جميعاً : فصلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وكانت الأنصار قد صلت قبل بيت المقدس ستين يوماً ، قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم .

وكانت الكعبة أحب القبليتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

§ وأختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوى قبلة الكعبة .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليهما السلام .

وقال مجاهد : من أجل أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد في ديننا ، ويتبع قبلتنا !

وقال مقاتل بن حيان : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي نحو بيت المقدس ، قالت اليهود : يزعم محمد أنه نبي ، وما نراه أحدث في نبوته شيئاً ! أليس يصلي إلى قبلتنا ويستسن بسنتنا ؟ فإن كانت هذه نبوة . فنحن أقدم وأوفر نصيباً .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه وزاده شوقاً إلى الكعبة .

وقال ابن زيد : لما أستقبل النبي صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ، بلغه أن اليهود تقول : والله ما درى عهد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم ، فالواجميا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : وددت أن الله صرّفتني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، فإني أبيضهم وأبيض موافقتهم ، فقال جبريل : إنما أنا عبدٌ مثلك ، ليس لي من الأمر شيء ، فسئل ربك ، فمرج جبريل . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة . فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ الآية .

فلما صرّفت القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكة : قد تردّد على مجد أمره ، وأشفاق

إلى مولده ومولد آبائه ، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلاً ، وتكلم اليهود والمناقون في تحويلها . فأنزل الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

§ وروى عن كعب أنه قال : إن الله عز وجل ينظر إلى بيت المقدس كل

يوم مرتين .

وأما فضل زيارته ، وفضل الصلاة فيه

§ فقد روى عن مكحول أنه قال : من زار بيت المقدس شوقاً إليه ، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وعبّطوه بمنزلته من الله تعالى ، وأياماً رُقّة يخرجوا يريدون بيت المقدس ، شيّعهم عشرة آلاف من الملائكة : يستغفرون لهم ويصلون عليهم ،

ولهم مثل أعمالهم اذا أتوا الى بيت المقدس، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكاً؛
 ومن دخل بيت المقدس طاهراً من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة، ما منها رحمة إلا ولو
 قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم؛ ومن صلى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما
 بـ"فاتحة الكتاب" و"قل هو الله أحد" خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكان له بكل
 شعرة على جسده حسنة؛ ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات، مرة على الصراط
 كالبرق وأعطى أماناً من الفرع الأكبر يوم القيامة؛ ومن صلى في بيت المقدس
 ست ركعات، أعطى مائة دعوة مستجابة، أذناها براءة من النار، ووجبت له الجنة؛
 ومن صلى في بيت المقدس ثمان ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن؛ ومن
 صلى في بيت المقدس عشر ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومن استغفر
 للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات، كان له مثل حسناتهم، ودخل
 على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة، وغُفِرَ له ذنوبه كلها.

وروى عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من
 صلى ببيت المقدس خمس صلوات نافلة، كل صلاة أربع ركعات يقرأ في الخمس
 صلوات عشرة آلاف مرة (قل هو الله أحد)، فقد اشترى نفسه من الله عز وجل؛
 ليس للنار عليه سلطان".

وعنه أيضاً، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاة الرجل في بيته
 بصلاة واحدة، وصلاته في مسجد القبائل بست وعشرين، وصلاته في المسجد
 الذي يجمع فيه بمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بمئتين ألف صلاة،
 وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة".

وعن مكحول أن ميمونة رضی الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس قال : ”نعم المسكنُ بيتُ المقدسِ ! ومن صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه . قالت : فمن لم يطق ذلك؟ قال : يُهْدِي له رَبِّي“^(١)

§ وعن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : لا يسمع أهلُ السماء من كلام بني آدم شيئاً غير أذان مؤذّن بيت المقدس .

وأما ما ورد

في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد روى عن نافع ، قال : قال ابن عمر رضي الله عنهما ، ونحن في بيت المقدس : يانفع ، أخرج بنا من هذا البيت ، فإن السيئات تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسنات . وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو : الحسنات في بيت المقدس بألف ، والسيئات بألف .

وأما فضل السكنى فيه والإقامة والوفاء به

§ فقد روى عن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت يارسول الله إن أبتلينا بالبقاء بعدك ، فأين تأمرنا؟ قال : ”عليك بيت المقدس ، لعل الله يرزقك ذرية تفتدوا إليه وتروح“ .

(١) يظهر أن بعض الكلمات قد سقطت في هذا الموضع . ولذلك رأيت لإيراد الحديث بلفظ آخر عن

ابن الفقيه الهمداني في كتابه ”مختصر كتاب البلدان“ المطبوع في لندن سنة ١٣٠٢هـ (سنة ١٨٨٥م)

وهذا نصه : ”قالت ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أفتنا عن بيت المقدس ، قال : نعم المصلى هو أرض المحشر وأرض المنشر ، إيتوه فصولوا فيه فإن

٢٠ الصلاة فيه كألف صلاة . قلت بأبي وأمي أنت من لم يطق أن يأتيه . قال فليهد إليه زيتا يسرح فيه ،

فإنه من أهدى إليه ، كان كمن صلى فيه“ .

§ وعن أبي أمامة الباهلي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كفك . قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس» .

§ وعن عطاء، قال: لا تقوم الساعة حتى يسوق الله عز وجل خيار عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدسة، فيسكنهم إياها .

§ وعن كعب، قال: قال الله عز وجل لبيت المقدس: أنت جنتي وقُدسي وصفوتي من بلادي، من سكنك فرحمة مني، ومن نرحك منك فبسخط مني عليه .

§ وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جيران الله، وحق على الله عز وجل أن لا يعذب جيرانه؛ ومن دفن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقه .

§ وعن كعب، قال: اليوم في بيت المقدس كالف يوم، والشهر فيه كالف شهر، والسنة فيه كالف سنة؛ ومن مات فيه فكأنما مات في السماء، ومن مات حوله فكأنما مات فيه .

وعن خالد بن معدان قال: سمعت كعباً يقول: مقبور بيت المقدس لا يعذب .

وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سلوان

§ في الأرض المقدسة قبر إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف عليهم السلام .

§ وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرته الوفاة سأل الله عز وجل أن يُدنيه من الأرض المقدسة، رمية بحجر .

§ وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشر بن بكر عن أم عبد الله عن ابنها أنه قال : من أتى بيت المقدس ، فليات محراب داود ، فليصل فيه ، ويسبح في عين سلوان فإنها من الجنة .

§ وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز ، قال : كان في زمان بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين . وكانت المرأة إذا قُذفت ، أتوا بها فشربت منها .
 ٥ فإن كانت بريئة لم تضرها ، وإن كانت نطفة ماتت . فلما حملت مريم حملوها ، فشربت منها فلم تزد إلا خيرا . فدعت الله أن لا يفضح بها امرأة مؤمنة . فغارت العين .

١١٧

وأما ما ورد

في أن الحشر من البيت المقدس

١٠ § فقد روى عن أبي ذر رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله "أخبرنا عن بيت المقدس . قال : أرض الحشر والمنشر . إيتوه فصلوا فيه وليأتين على بيت المقدس (١) ! ولبسطه قوس أو مسحة قوس في بيت المقدس أو من حيث يرى بيت المقدس خيرا من كذا وكذا" .

§ وعن كعب قال : العرض والحساب من بيت المقدس .

١٥ (١) يياض في الأصل بمقدار كلمة . وقد زوى ابن فضل الله العمري في "مسالك الأبصار" المطبوع بدار الكتب المصرية (ج ١ ص ١٣٦) حديثا تقرب ألفاظه جدا من هذا الحديث ان لم يكونا حديثا واحدا . فلاجل تكلمة القصة الموجود في نسخ النورى في هذا الموضع نورد ما رواه ابن فضل الله وهو : وعن أبي ذر قال : قيل يارسول الله صلاة في البيت المقدس أفضل ، أم صلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : صلاة في مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه . ولنعم المصل هو أرض الحشر والمنشر ! وليأتين على الناس زمان ، ولبسطه قوس من حيث يرى بيت المقدس ، أفضل
 ٢٠ وخيرا من الدنيا جميعا .

§ وعن قتادة في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: من صخرة بيت المقدس .

§ وعن يزيد بن جابر "يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" قال : يقف إسرئيل على صخرة بيت المقدس فينبُخُ في الصور فيقول : أيتها العظامُ النَّخْرَةُ ، والجلود المتمزقة ، والأشعارُ المتقطعة ؛ إن الله تعالى أمرِك أن تجتمعى للحساب .

§ وقال المفسرون في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو أن إسرئيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادى : "يا أيها الناس ، هلموا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ، وهذه هي النفخة الأخيرة ."
والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

§ قال كعب ومقاتل : هي أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا . وقال ابن السائب :
بأثنى عشر ميلا .

§ وعن ابن عمر رضى الله عنهما في قوله تعالى ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بُسُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قال : هو حائط بيت المقدس الشرقى الذى من ورائه وادٍ يقال له وادى جهنم ، ومن دونه باب يقال له باب الرحمة .

وأما ما ورد

في فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها

§ فقد روى عن أنس بن مالك، قال : إن الجنة تَحْرَجُ شَوْقًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَإِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ ، وَهِيَ سِرَّةٌ الْأَرْضِ^(١) .

§ وعن أبي إدريس الخولاني : قال : يحول الله صخرة بيت المقدس مرّجانة بيضاء كعرض السماء والأرض ، ثم ينصب عليها عرشه ، ثم يقضى بين عباده : يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار .

§ وعن أبي العالية في قوله تعالى ﴿ إلى الأرض التي بارأنا فيها ﴾ قال : من يركبها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس .

§ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « الأنهار كلها والسحاب والبخار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس » .

§ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صخرة بيت المقدس من صخور الجنة .

§ قال الزجاج : يقال إنها في وسط الأرض .

- ١٠ § وعن كعب قال : من أتى بيت المقدس فصلّى عن يمين الصخرة وشمالها ، ودعا عند موضع السلسلة ، وتصدق بما قلّ أو كثر ، أستجيب دعاؤه ، وكشف الله حزنه ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؛ وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها .

وأما ما ورد

في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء

- ١٥ فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده إلى سوادة بن عطاء الحضرمي ، قال : نجد في الكتاب مكتوبا أن الله عز وجل لما أن خلق الأرض وشاء أن يعرج إلى السماء وهي دُخان ، استشرف لذلك الجبال أيها يكون ذلك عليه ؟ وخشعت صخرة بيت المقدس تواضعا لله عز وجل ، فشكر الله لها ذلك وجعل المعراج عنها . وكان عليها ما شاء الله أن

يكون . قال : فخذ الجبار يديه حتى كانتا حيث يشاء أن تكونا ، ثم قال : « هذه جنتي غرباً ، وهذه نارى شرقاً ، وهذا موضع ميزاني طرف الجبل . وأنا الله ديانك يوم الدين » وكان معراجهُ إلى السماء عن الصخرة .

وروى أيضا بسنده إلى هاني بن عبد الرحمن ، وردح بن عطية عن إبراهيم ابن أبي عبلة نحوه كما قال : وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن خديج وكانا عقيين بدرين ، فقيل لهما : أرايتما ما يقول الناس في هذه الصخرة أحقا هو فآخذ به ، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فتدعه ؟ فقال كلاهما : سبحان الله ! ومن يشك في أمرها ، إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء ، قال لصخرة بيت المقدس : « هذا مقامي وموضع عرشى يوم القيامة ، ومحشر عبادي . وهذا موضع نارى عن يسارها وفيه أنصب ميزاني أمامها ، وأنا الله ديان يوم الدين » ثم استوى إلى عليين .

﴿١٨﴾

وروى أيضا بسنده عن كعب ، قال : إن في التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس « أنت عرشى الأدنى ومنك ارتفعت إلى السماء ، ومن تحتك بسطت الأرض وكل ما يسيل من ذروة الجبال من تحتك ، من مات فيك فكأنما مات في السماء ، ومن مات حولك فكأنما مات فيك ، لا تقضى الأيام والليالي حتى أرسل عليك نارا من السماء فتأكل آثار أكرم بني آدم وأقدامهم منك . وأرسل عليك ماء من تحت العرش فأغسلك حتى أتركك كالمرأة ، وأضرب عليك سورا من غمام غلظته اثنا عشر ميلا ، وسيأجا من نار ، وأجعل عليك قبة جبلتها بيدي ، وأنزل فيك روجي وملائكتي يسبحون لي فيك ، لا يدخلك أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة ، من بر ضوء تلك القبة من بعيد ، يقول : طوبى لوجه يخز فيك لله ساجدا ، وأضرب عليك حانطا من نار ،

وساجا من الغمام، وخمسة حيطان من ياقوت ودر وزبرجد؛ أنت اليتيم، وإليك
المعشر، ومنك المنشر» .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله في ذلك
حديثين، ثم تكلم عليهما وضعف رواتهما .

- أما أحدهما، فقال : أخبرنا المبارك بن أحمد، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن
محمد، قال : أنبأنا أبو محمد عبدالعزيز بن أحمد بن عمر النصبلي، قال : أخبرنا أبو بكر
أحمد بن صالح بن عمر المقرئ، قال : حدثنا عيسى بن عبيد الله، قال : حدثنا علي
ابن جعفر الرازي، قال : حدثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال : حدثنا عبد الله
ابن عمر المقدسي، قال : حدثنا بكر بن زياد الباهلي، عن عبد الله بن المبارك، عن
سعيد بن أبي عمرو، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة رضي الله
عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما أُسرى بي إلى بيت المقدس
مررتُ بي جبرئيل عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال : أنزل، فصل هاهنا ركعتين،
هاهنا قبر أبيك إبراهيم . ثم مررتُ بي بيت لحم، فقال : أنزل، صل هاهنا ركعتين،
فإن هاهنا وُلد أخوك عيسى . ثم أتى بي إلى الصخرة فقال : من هاهنا عرج ربك
إلى السماء" .

١٥

قال الحافظ أبو حاتم بن حبان : هذا حديث لا يشك عوام أصحاب الحديث
أنه موضوع . وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات .

وأما الحديث الثاني، فرواه بسند إلى إبراهيم بن عيينة عن رديح بن عطاء بن
النعمان، عن عبد الله بن بسر الحمصي، عن كعب الأحبار . قال : يقول الله عز وجل

بيت المقدس: أنت عرشى الذى منك أرتفعت إلى السماء، ومنك بسطت الأرض،
ومن تحتك جعلت كل ماء عذب يطلع في رعوس الجبال .
قال أبو حاتم الرازى : إبراهيم بن أعين مُتَكِّر الحديث .
هذا ماورد في هذا الفصل وقد نهينا على ما فيه من المآخذ والله أعلم .

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد روى عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال: "مَنْ أَهَلَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ".
قال سالم : وأهلَّ ابن عمر رضى الله عنهما من بيت المقدس بعمرة .
وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
"مَنْ أَحْرَمَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَدِمَ مَكَّةَ مَغْفُورًا لَهُ" .

وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد روى عن كعب الأحمري قال : لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام
بيت المقدس، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلوهما .
وروى عن خالد بن معدان قال : يحشر الله الكعبة إلى الصخرة زفاً إليها زفاً ، متعلقين
بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا : بالزائرة والمزور إليها .
هذا ما أتفق إيراده في فضائل البيت المقدس، وسند ذكر إن شاء الله تعالى من
أخباره طرفاً آخر وهو في الباب الثانى، من القسم الثالث، من الفن الخامس في التاريخ
عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما السلام . فنذكر خلاف ذلك .

وأما اليمن وما يختص به

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمانُ يمانٌ، والحكمةُ يمانيةٌ".

وقال الجاحظ : من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ، والقُرودُ .

ويقال : ان السيف متى قُلع بالهند وطُبع باليمن ، فناهيكَ به !

وقال الأصمعي : أربعة ملائِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن ، وهي الوُرسُ ، والكنُدرُ، والحَضُّضُ ، والعَقيقُ .

١١٣

وأما الشام وما يختص به

فن ذلك أن الشام موطن الأنبياء عليهم السلام ، ومعدن الزهاد والعباد .

وحكى أن الابدال السبعين بأرض الشام ، يجبل لكّام وجبل بُنان .

ومن خصائص الشام :

مسجد دمشق

الذي ما عُمر على وجه الأرض مثله وكانت عمارته في سنة ست وثمانين ، عُمره الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريق فيه في سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فدَثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة .

وعن قتادة ، قال : أقسم الله تعالى بمساجد أربعة ، قال : "والثين" وهو مسجد دمشق ، "والزيتون" وهو بيت المقدس ، "وطور سينين" وهو حيث كلم الله موسى ، "وهذا البلد الأمين" وهو مكة .

وقال محمد بن شعيب : سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق ، وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تينٍ قبل أن يتيهَ الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لما أمر الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجدوا في الحائط القبلي من المسجد لوحا فيه قش فأتوا به الوليد ، فبعث إلى الروم والبرانيين وغيرهم ، فلم يستخرجوه . فدلَّ على وهب بن منبه فبعث إليه ، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكُنِّي الوليد على العمال في بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه مغارةً فعزفنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافي ، وبين يديه الشمع ، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة : ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففتُح فإذا فيه سَفَطٌ ، وفي السَفَطِ رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ، مكتوب عليه : ” هذا رأس يحيى بن زكريا “ . فأمر الوليد ، فردَّ إلى مكانه . وقال : أجعلوا العمود الذي فوقه مغارة من الأعمدة ، فجعلوا عليه عمودا مسفط الرأس . وكأت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

وقال أبو زرعة : مسجد دمشق خطه أبو عبيدة بن الجراح ، وكذلك مسجد حمص . وقيل : لما قدم المهدي يريد بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعري كاتبه ، فقال : يا أبا عبد الله سبقنا بنو أمية بثلاث ، قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (بمعنى المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبئبل الموالى فإن لهم موالى ليس لنا مثلهم . وبعمر بن عبدالعزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبدا ! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة .

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصاري قال : حسبوا ما أنفق على الكرمة التي في قبلة
مسجد دمشق - فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أنفق في عمارة مسجد دمشق أربعائة صندوق ، كل صندوق
أربعة عشر ألف دينار .

وقال بعض شعراء المُحدّثين في وصفه :

- دمشق قد شاع ذِكْرُ جامعها * وما حَوَتْهُ رُبِّي مَرايِها .
بديعةُ المَدِينِ في الكَمالِ لِمَا * يُدِرُّكُه الطَّرْفُ من بَدائِعِها .
طَيِّبَةُ أرضِها مِبارَكَةٌ * بِالْأَمْنِ وَالسَّعَدِ أَخَذُ طالِعِها .
جامعُها جامعُ المَحاسِنِ قَدْ * فاقَتْ به المَدَنَ في جَوامِعِها .
بُذِرَ في فَضْلِهِ وِرفِعَتِ * أَخْبَارُ صِدْقِ راقَتِ لِسامِعِها .
قَد كان قَبْلَ الحَرِيقِ مَدْهَشَةٌ * فَفَاسِدَتِ نَارُ بِلاقِعِها .
وَأَذْهَبَتْ بِالْحَرِيقِ بَهِجَتَهُ * فَلِيسَ يُرْجى رَبُّ راجِعِها .
إِذا تَفَكَّرْتَ في النُّصوصِ وما * فِيها . تَيَقَّنْتَ حَذَقِ واضِعِها .
أشجارُها لا تَرالُ مِثْمَرَةٌ * لا تَرَهَبُ الرِيحَ في مَدافِعِها .
كَأَنَّها من زُمُرٍ غُرُسَتْ * في أرضِ تَبْرِ يُغْشى بِفاقِعِها .
فِها ثِمَارٌ تَنالُها يَنْعَتُ * وَلِيسَ يُحْشى فِسادُ يانِعِها .
تُقَطَّفُ بِاللِهْظِ لا بِجارِحَةِ الأيْدى * ولا تُجْتَنى لِبانِعِها .
وتَحْتَمُّها من رُحامِهِ قِطْعُ * لا قِطْعُ اللهُ كَفَّ قاطِعِها .
أحْكَمَ تَرخِيمِها المَرخَمُ قَد * بانَ عَلِيا إِحْكامُ صانِعِها .

وَإِنْ تَفَكَّرْتَ فِي قَنَاطِيرِهِ * وَسَقَفِهِ ، بَانَ حَذَقَ رَافِعِهَا .
 وَإِنْ تَبَيَّنْتَ حُسْنَ قُبَيْتِهِ * تَحَيَّرَ الْمَلْبُ فِي أَضَالِعِهَا .
 تَخْتَرِقُ الرِّيحُ فِي مَحَارِمِهَا * عَصَفًا فَتَقْوَى عَلَى زَعَاذِعِهَا .
 وَأَرْضُهُ بِالرُّخَامِ قَدْ فُرِشَتْ * يَنْفَسِحُ الطَّرْفُ فِي مَوَاضِعِهَا .
 مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِيهِ مُوَقَّعَةٌ * يَنْشِرُ الصَّدْرُ فِي مَجَامِعِهَا .
 وَكُلُّ بَابٍ عَلَيْهِ مِطْهَرَةٌ * قَدْ أَمِنَ النَّاسُ دَفْعَ مَانِعِهَا .
 يَرْتَفِقُ الْخَلْقُ مِنْ مَرَاقِبِهَا * وَلَا يُصَدُّونَ عَنْ مَنَافِعِهَا .
 وَلَا تَزَالُ الْمِيَاهُ جَارِيَةً * فِيهَا لَمَّا سُقِّ مِنْ مَشَارِعِهَا .
 وَسَوْفُهَا لَا تَزَالُ أَهْلَةً * يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِي شَوَارِعِهَا .
 لِمَا يَشَاءُونَ مِنْ فَوَاقِبِهَا * وَمَا يُرِيدُونَ مِنْ بَضَائِعِهَا .
 كَأَنَّهَا جَنَّةٌ مَعْجَلَةٌ * فِي الْأَرْضِ ، لَوْلَا سُرى بِجَانِبِهَا .
 دَامَتْ بَرِّغَمُ الْعِدَا مُسَلِّمَةً * وَحَاطَهَا اللَّهُ مِنْ قَوَارِعِهَا .

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفاً قبر وسبعمائة قبر؛ وقبر موسى

بدمشق؛ ودمشق معقل الناس في آخر الزمان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي
 قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿ وَأَوْيَاتُهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ فَلْيَأْتِ النَّبْرِبَ
 الْأَعْلَى بِدِمَشْقِ بَيْنَ النَّهْرَيْنِ ، وَلْيَصْعَدِ الْغَارَ فِي جَبَلِ قَاسِيُونَ ، فَلْيُصَلِّ فِيهِ فَإِنَّهُ يَدُ
 عِيسَى وَأُمَّهُ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِرَمَ ، فَلْيَأْتِ نَهْرًا فِي دِمَشْقِ يُقَالُ لَهُ بَرْدَى .
 وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ الَّتِي فِيهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَالْحَوَارِيُّونَ . فَلْيَأْتِ مَقْبَرَةَ
 الفَرَادِيسِ .

ومن خصائصها التفاح الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب . وكان يجعل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة .

وبها القوطة ، وهي أحد منزهات الدنيا الأربعة . وهي أجلها .

وسنذكر وصفها في باب الرياض إن شاء الله تعالى .

وأما مصر وما يختص بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعا .
منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلّت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ ، فقوله تعالى : ﴿ يَا هِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن يوسف عليه السلام : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ مِعْصَرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبَلَةً ﴾ .

وأما ما دلّت عليه القرائن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال ابن عباس ،

وسعيد بن المسيب ، ووهب بن منبه وغيرهم : هي مصر .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ . يعني مصر .

وقوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . يعني قوم فرعون ، وأن بنى إسرائيل ورثوا أرض مصر .

وقوله عز وجل : ﴿ وَزِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّمَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُغْلِبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ .
يعني أرض مصر .

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن بني إسرائيل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ . يعني أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنُأْبِحَ الْأَرْضَ ﴾ . يعني أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

١٠ و ذكر ابن عباس مصر، فقال : سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن . والله تعالى أعلم .

§ وأما ما ورد فيها من الحديث النبوي صلوات الله وسلامه على قائله

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرَ، فَاسْتَوْصُوا بِقَبِيضِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا ”

١٥ وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ فَاتَّخِذُوا بِهَا جُنْدًا كَثِيفًا، فَذَلِكَ الْجَنْدُ خَيْرُ أَجْنَادِ الْأَرْضِ ” فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؟ فقال : ” لِأَنَّهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ” .

وعنه صلى الله عليه وسلم ، و ذكر مصر : ” مَا كَادَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَفَاهُمُ اللَّهُ مَوْئِنَتَهُ ” .

وتكررت الأحاديث في فضلها .

وقال عبد الله بن عمرو : وأهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدا، وأفضلهم
عُنصرًا، وأقربهم رَجْمًا بالعرب عامةً وبقريش خاصَّةً .

وقال أيضا : لما خلق الله عز وجل آدم، مثل له الدنيا : شرقها، وغربها،
وسهلها، وجبلها، وأنهارها، وبحارها، وبناءها، وخرابها، ومن يسكنها من الأمم،
ومن يملكها من الملوك . فلما رأى مصر، رآها أرضًا سهلة ذات نهر جار، مادته من
الجنة، تتحدّر فيه البركة، ورأى جيلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من نظر الرب
عز وجل إليه بالرحمة . في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة .
فدعا آدم في النبل بالبركة : ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك على
نيلها وجبلها سبع مرات . وقال : «يا أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة وتربتك
مسكّة تدفن فيها عمائر الجنة ، أرض حافظة مطبقة رحيمة . لا خلتك يا مصر
بركّة ، ولا زال بك حفظ ، ولا زال منك مُلكٍ وعِزٌّ ، يا أرض مصر فيك الجباء
والكنوز ، ولك البر والثروة ، سال نهرك عسلا . كثر الله زرعك ، ودزّ ضرعك ،
وزكا نباتك ، وعظمت برّك وخصبّت ، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تجبّري
ونتكبري أو تخوني ، فد فعلت ذلك ، عمرك شرّ ، ثم تغور خيرك » .

فكان آدم أوّل من دعا لها بالخصب والرحمة والرأفة والبركة .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : دعا نوح عليه السلام لأبن ابنه بيصر
أبن حام وهو أبو مصر . فقال : اللهم إنه قد أجاب دَعْوَتِي ، فبارك فيه وفي ذريته
وأسكنه الأرض الطيبة لمباركة التي هي أم البلاد .

قال عبد الله بن عمرو : لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده . جعل لحام
مصر وسواحلها والمغرب وشاطئ النيل . فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريش ،

قال : « اللهم إن كانت هذه الارضُ التي وعدتُنَا على لسان نبيك نوح عليه السلام وجعلتها لنا منزلاً فاصرف عنا وبأها، وطَيِّبْ لنا ترأها، وأجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد»
وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به . والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام
ابن نوح .

وسند ذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر وبنه عند ذكرنا للملك مصر، وهو في الفن
الخامس في التاريخ .

وعن كعب الأحبار : لولا رَغْبَتِي فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِمَا سَكَنْتُ إِلا مِصْرَ . فقيل
له : ولم؟ فقال : لأنها معافاةٌ من الفتن ومن أرادها بسوء كَبَّه اللهُ على وجهه، وهو
بلد مباركٌ لأهله فيه .

وقال أبو بصرة الغفاري : سلطان مصر سلطان الأرض كلها .

قال : وفي التوراة مكتوب : مصر خزائن الأرض كلها، فمن أرادها بسوء قصمه
الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولاية مصر جامعةٌ، تعدل الخلافة .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضي العراق : سألت أحمد بن المدبر
عن مصر فقال : كسفتها فوجدتُ غامرَها أضعاف عامرَها . ولو عمَّرَها السلطان ،
لوقت له بخراب الدنيا .

ذكَرَ مَنْ وُلِدَ بِمِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
وَمَنْ كَانَتْ بِهَا مِنْهُمْ

وُلِدَ بِمِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمَاعَةٌ ، مِنْهُمْ : مُوسَى ، وَهَارُونَ ،
وَيُوشَعَ بْنِ نُونٍ ، وَدَانِيَالَ ، وَأَرْيِيَا ، وَتَمَّارًا ، وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ . وَلِدَتْهُ أُمُّهُ بِأَهْنَسَ ،
وَبِهَا النَّخْلَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَرْيَمَ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ .

وَلَمَّا سَارَ عِيسَى إِلَى الشَّامِ أَخَذَ عَلَى مَفْخِ الْمَقْطَمِ مَاشِيًا ، عَلَيْهِ جَبَّةٌ صُوفٌ مَرْبُوطُ
الْوَسْطِ بِشَرِيطٍ ، وَأُمُّهُ تَمَشَّى خَلْفَهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا أُمَّاهُ ، هَذِهِ مَقْبَرَةُ أُمَّةٍ عَدُوِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ بِهَا مِنْهُمْ ، فَكَانَ : إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَيُوسُفَ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَتْنَا عَشْرَ سَبْطًا .

ذَكَرَ مَنْ كَانَتْ بِهَا مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالصَّادِقَاتِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

كَانَتْ بِهَا مِنَ الصِّدِّيقِينَ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ .
وَقِيلَ : إِنَّهُ ابْنُ فِرْعَوْنَ لَصُلْبِهِ . آمَنَ بِمُوسَى وَوَلَّحَ بِهِ وَجَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَآيَةً .

وَكَانَتْ بِهَا وَزَرَاءُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَفَضَّلَهُمْ عَلَى قَوْمِ نَمْرُودَ حِينَ قَالُوا :
”أَرْجِنَهُ وَأَخَاهُ“ وَقَالَ وَزَرَاءُ النَّمْرُودِ : ”أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ“ .

وَأُخْرِجَتْ مِصْرُ السَّحَرَةِ الَّذِينَ أَحْضَرَهُمُ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى . وَكَانَتْ عَدَّتُهُمْ مِائَتِي
أَلْفٍ وَأَثْنَيْ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا وَقِيلَ أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ ، آمَنُوا كُلُّهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .
وَلَمْ نَعْلَمْ مِمَّنْ آمَنَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ .

ومن فضائل مصر وثبُل أهلها أنهم لم يُفْتَنُوا بعبادة العجل .

وكان بها من الصديقات آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وأم إسحاق،
ومريم ابنة عمران، وماشطة بنت فرعون، التي مشطها فرعون بأمشاط الكنان
لما آمنت بموسى .

- ٥ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سَمِّتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي فِي الْجَنَّةِ رَائِحَةً
مَا سَمِّتُ أَطْيَبَ مِنْهَا ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيْلُ مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : هَذَا رَائِحَةُ مَاشِطَةِ
بِنْتِ فِرْعَوْنَ» .

ذَكَرَ مَنْ صَاهَرَ أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

منهم :

١٠ إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجر أم إسماعيل .

ويوسف الصديق ، تزوج بنت صاحب عين شمس . وتزوج زليخا بعد أن
عجزت وعميت . دعا الله لها فردها الله إلى حالتها الأولى ، ورزق منها الولد .

١٥ وتسرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية التي أهداها
له المقوقس ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في السيرة النبوية .

ذَكَرَ مَنْ أَظْهَرْتَهُ مِصْرَ مِنَ الْحُكَمَاءِ

(١) الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمتهم وتديريهم ، وأظهروا ما خفي من العلوم

قال الحسن بن إبراهيم ، صاحب تاريخ مصر :

(١) بعض الحكماء المذكورين في هذا الفصل يسه من أهل مصر بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدة فبينة
توكثيرة .

منهم : ذوالقَرْنَيْنِ ، وهو الإسكندر من قرية يقال لها لُويَّةُ ^(١) . وهو الذي قتل دَارًا بْنَ دَارًا . وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى في التاريخ في ذكر ملوك اليونان .

ومنهم : هُرمِس ، وهو المثلث بالنعمة : نبى ، وحكيم ، ومَلِك ، وهو الذى صير الرُّصَاصَ ذهباً ، وبني الهرميين الكيرين على أحد الأقوال . وقيل : هو إدريس عليه السلام .

ومنهم تلميذاه : أغاناذيمون و فيثاغورس ، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء ، والتَّجْوم ، والسَّحْر ، وعلم التارنجيات . والطلسمات ، والبرابي ، وأسرار الطيعة .

ومنهم أوسلا وسيزوارس و بندقاليس ، أصحاب الكهانة والزَّجر .

ومنهم مقراط ، صاحب الحكمة ، والكلام على البارئ جل ذكره ، وهو صاحب البلاغة .

ومنهم أفلاطون ، صاحب السياسة ، والنواميس . والكلام على المَدُن والملوك .

ومنهم بطليموس ، صاحب الرصد . والمساحة ، والحساب ، وهو صاحب كتاب المجسطى من كتب الأطلاق . وحركة الشمس ، والقمر ، والكواكب المتحركة والثابتة ، وصورة فلَك البروج . وله صفة الأمم الذين يعمرون الأرض . وكتاب الثمرة في علم النجوم وتسطيح الكرة .

(١) هو الاسكندر الأكبر ، ابن فيلوس وهوليس من مصر وإنما غزاها بجيوشه وأسس فيها مدينة لاسكندرية التي صارت بجهة مدينة نهم والحكمة .

(٢) هذا المصنف محرف عن "بيللا" وهو احدى مدن افرنجية . ومع كانت ولادة الاسكندر الاكبر .

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس،
والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعي، ورسالة نبت
الذهب، قالوا: وليعقوب بن إسحاق الكندي نحو ألف كتاب مستخرجة من
كتب أرسطاطاليس.

ومنهم أراطس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة في تشكيل
صورة الفلك، والألف كوكب، وأثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة،
والزيج.

ومنهم أنطوليوس^(١)، صاحب الفلاحة.

ومنهم إيرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق.

ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه.

ومنهم أسطنيس، ودروثيوس، والنس، أصحاب كتب أحكام النجوم،
وعنهم أنتشر ذلك.

ومنهم إيرن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جراتنقال، والحيل
الروحانية، وعمل البنائيم والآلات لقياس الساعات.

ومنهم فيلون البرنطى، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة.
ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمرآيا المحرقة وعمل المجانيق
ورمى الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر براً وبحراً.

(١) ورد هذا الاسم في الاصل هكذا: "أنطوليوس" وليس هناك رجل بهذا الاسم. وإنما المشهور
بكتابه في الفلاحة هو "انطوليوس الأفريقي". وقد ذكره ابن العوام في كتاب الفلاحة الأندلسية،

- ومنها ماريه وقلبتره، أصحاب الطلسمات، والخواص للطبائع .
- ومنها أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط .
- ومنها ثيودوسيوس، وهو صاحب كتاب الأكر .
- ومنها ذيوفنتس، وله كتاب الحساب .
- ومنها أوطوقيس، وله كتاب الكرة والأسطوانة .
- ومنها المشاءون^(١)، أصحاب الرواق .
- وبمصر من العلوم التي عمرت بها الدنيا علم الطب اليوناني، وعلم النجوم، وعلم المساحة، وعلم الهندسة، وعلم الكيمياء، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة .
- وبأدى الاسكندراني صاحب الزيج^(٢) .
- والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس . صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أخذ .
- ومنها ديسقوريد : صاحب احشائش، وديوجانس، واركاغانس، وأرباسيوس، وفريقونوس، وروفس . هؤلاء أصحاب الطب اليوناني .
- فهؤلاء حكماء الأرض وعلمائهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها ولدوا، ومنها أنتشرت علومهم في الأرض .
- قال الحسن بن إبراهيم : وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأول طلبة العلم وأصحاب العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة . والله تعالى أعلم .

(١) في الأصل : "المساتير" . ولعله يشير إلى أتباع ارسطو الذين يسميهم العرب "المشائين" .

(٢) لعل هذا الاسم محرف عن "ثاؤون" متى سبقت الإشارة إليه .

ومن فضائل مصر

أنها تَمِيرُ الحَرَمِينَ الشَّرِيفِينَ ، ولولا مِصْرُ لَمَّا أَمَكْنَ أَهْلَ الحَرَمِينَ وَأَعْمَلَهَا المَقَامُ بِهِمَا ، وَلَمَّا تَوَصَّلَ إِلَيْهِمَا مِنْ يَرِيدٍ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ .

ومنها أنها فُرْضَةُ الدُّنْيَا ، يَجْمَلُ مِنْ خَيْرِهَا إِلَى سِوَاهِهَا ، وَذَلِكَ أَنْ مِنْ سِاحِلِهَا بِالقِزَامِ يَنْقَلُ إِلَى الحَرَمِينَ ، وَإِلَى جُدَّةَ ، وَإِلَى عُمَانَ ، وَإِلَى الهِنْدِ ، وَإِلَى الصِّينِ ، وَصَنْعَاءَ ، وَعَدَنَ ، وَالشَّحْرَ ، وَالسَّنْدَ ، وَجَزَائِرِ البَحْرِ .

ومِنْ جِهَةِ تَنِيْسَ ، وَدِمْيَاطَ ، وَالقَرَمَا فُرْضَةُ بِلَدِ الرُّومِ ، وَأَقاصَى الأَفْرَنْجِ ، وَقَبْرِسَ . وَسَائِرِ سِوَا حِلِّ الشَّامِ ، وَالثَّفُورِ إِلَى حُدُودِ العِرَاقِ .

ومِنْ جِهَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ فُرْضَةُ أَقْرِيطِشَ ، وَصِقْلِيَّةَ ، وَبِلَدِ الرُّومِ ، وَالْمَغْرِبِ كُلَّهُ إِلَى طَنْجَةَ ، وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ .

ومِنْ جِهَةِ الصَّعِيدِ فُرْضَةُ بِلَدِ التُّوبَةِ ، وَالبُجَّةِ ، وَالْحَبَشَةِ ، وَالْمِجَازِ ، وَالْيَمَنِ . وَفِيهَا مِنْ نَعُورِ الرِّبَاطِ : البَرَّاسُ ، وَرَشِيدُ ، وَالإسْكَندَرِيَّةُ ، وَرِبَاطُ ذَاتِ الحِمَامِ ، وَرِبَاطُ البُحَيْرَةِ ، وَرِبَاطُ إِخْنَا ، وَرِبَاطُ دِمْيَاطَ ، وَشَطَا ، وَتِنِيْسَ ، وَالْأَشْتُومَ ، وَالقَرَمَا ، وَالوَرَاذَةَ ، وَالْعَرِيْشَ ، وَالشَّجَرَتَيْنِ ، وَرِبَاطِ الحَرَسِ . وَجِهَةُ الحَبَشَةِ ، وَالبُجَّةِ . وَرِبَاطِ أُسْوَانَ عَلَى التُّوبَةِ . وَرِبَاطِ الوَاحَاتِ عَلَى البَرْبَرِ وَالسُّودَانَ . وَرِبَاطِ قُوصَ . وَبِهَا مِنَ المَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ وَالآثَارِ الصَّالِحَةِ ، مَا لَمْ يَكُنْ فِي غَيْرِهَا . وَلَوْ اسْتَقْصَيْنَا ذَلِكَ ، لَطَالَ بِهِ الشَّرْحُ وَأَبْسَطَ القَوْلُ .

وقال سعيد بن عقبة : كنتُ بحضرة المأمون حتى قال ، وهو في قبة الهواء :

لعن الله فرعونَ حين يقول (أليس لي ملكٌ مِصْرَ) فلورأى العراقَ ! . فقلت :

يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾ . فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيته؟ .

قال : ثم قلت : لقد بلغني أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأقنيتهم : يحبسونه متى شاءوا، ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحاقي النيل من أوله إلى آخره، ما بين أسوان إلى رسيدي إلى الشام متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع المِخْل على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى حمار لكثرة الشجر .

ومن فضائلها النيل، وقد تقدم ذكره في باب الأنهار .

ومن عجائبها الهرمان وسياقته ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى .
ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا .

وفيه ما ليس في غيرها، وهو حيوان السَّقْتُور، والنَّس . ولولاه لأكلت الثعابين أهلها؛ وهو لها كقنافة سحسبان لأهلها .

وفيه سمك يسمى الرَّعَاد . وهو سمك إذا أمسكه إنسان أو أمسك ما يتصل به من خيط الصنارة أو الشبكة التي يقع فيها، آرتعدت يده .

والحَطْبُ السَّنْط الذي لو وقِد منه يوماً وجمع ما وجد من رءاده كان ملء كَف . وهو صلب العود، سريع الوُقُود، بطيء الخمود . ويقال : إنه الآبنوس، وإنما البُقعة قَصرت عن الكيان بقاء أحر شديد الحرارة .

وَدُهْنُ الْبَلْسَانِ . وَالْأَقْيُونُ ، وَهُوَ عُصَاةُ الْحَشْحَاشِ . وَكَانَ بِهَا اللَّيْخُ ، وَهُوَ نَمْرٌ فِي قَدْرِ اللُّوزِ الْأَخْضَرِ إِلَّا أَنْ الْمَا كُولَ مِنْهُ الظَّاهِرُ . وَرَأَيْتُهُ أَنَا بِهَا وَأَكَلْتُ مِنْهُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتَسْعِينَ وَسَمَّائَةَ .

وَبِهَا الْأَتْرُجُ الْأَبْلَقُ .

• وَبِهَا مِنَ الْمَعَادِنِ : مَعْدِنُ الزَّمْرَدِ ، وَمَعْدِنُ النَّفْطِ ، وَالشَّبِّ ، وَالْبِرَّامِ ، وَالرَّخَامِ .

وَقِيلَ : إِنَّ بِهَا سَائِرَ الْمَعَادِنِ كُلِّهَا .

وَأَهْلُهَا يَا كَلُونَ صَيْدَ بَحْرِ الرُّومِ وَبِحَرْ فَارَسٍ طَرِيًّا ^(١) .

وَفِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ شَهْرِ الْقَبْطِ صِنْفٌ مِنَ الْمَا كُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَشْمُومِ ، يَوْجَدُ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ . فَيَقَالُ : رُطَبُ تَوْتِ ، وَرُمَانُ بَابِهِ ، وَمَوْزُ هَاتُورِ ، وَسَمَكُ كَيْهَكِ ، وَمَاءُ طُوبَةِ ، وَخُرُوفُ أَمْشِيرِ . وَأَبْنُ بَرْمَهَاتِ . وَوَرْدُ بَرْمُودِهِ ، وَبَيْقُ بَشْنَسِ ، وَتَيْنُ بَشُونَةِ ، وَعَسَلُ أَبِيبِ ، وَهَنْبُ مَسْرِي .

وَمِنْهَا أَنْ صَيْفَهَا خَرِيْفٌ ، وَشَتَاؤها رَيْبِيْعٌ ، وَمَا يَقْطَعُهُ الْحَزُّ وَالْبَرْدُ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ مِنَ الْفَوَاكِهِ يَوْجَدُ فِيهَا فِي الْحَزِّ وَالْبَرْدِ : لِأَنَّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ . فَصَلَّتْ مِنْ حَرِّ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَبَرْدِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ ^(٢) .

• وَيَقَالُ : لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِ مِصْرَ إِلَّا أَنَّهُا تَفْنَى فِي الصَّيْفِ عَنِ الْخَلِيْشِ وَالطَّلْحِ ^{١٥} وَيَطْلُونَ الْأَرْضَ ، وَفِي أَسْتِثْنَاءٍ عَنِ الْوَقُودِ وَالْقِرَاءِ .

(١) يَشِيرُ إِلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ الْمُنْصَلِ بِالْخَلِيْجِ الْفَارْسِيِّ بِوَسْطَةِ بَحْرِ الْهِنْدِ .

(٢) فَارَنَ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي الْقَهْرِيْبِيِّ (طَبِيعُ يُولَاقِ ج ١ ص ٢٨) .

ومما وصفت به

أن صعيدها حجازي . حَجْرَه كحجر الحجاز ينبت النخل والدَّوم (وهو شجر المقل)،
والعُشْر، والقَرْظ، والإهليلج، والتُّفْل، والحيارَ شَنْبَر. وأسفل أرضها شامي: يمطر
كقطر الشام، وتقع فيه التلوح، ويُنبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز
والفستق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين .

وهي ما بين أربع صفات: فضة بيضاء، أو مسكة سوداء، أو زبرجدة خضراء،
أو ذهبية صفراء . وذلك أن النيل يعم أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصب
عنها فتصير مسكة سوداء، ثم تُزرع فتصير زبرجدة خضراء، ثم تستحصد فتصير
ذهبة صفراء^(١) .

وحكى ابن زولاق في "فضائل مصر" أن أميرها موسى بن عيسى [المهشمي]^(٢)
وقف بالميدان عند بركة الحبش . فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن كان معه : أترون
ما أرى؟ قالوا: وما يرى الأمير؟ قل : أرى عجبا ما في الدنيا مثله ! فقالوا : يقول
الأمير! فقال : أرى ميدان رهان . وحيطان نخيل، وبستان شجر، ومنازل سكنى،
وذروة جبل، وجبانة أموات . ونهرا عججا، وأرض زرع، ومراعى ماشية،
ومراتع خيل، وساحل بحر . [وصائد نهر] وقانص وحش، وصائد سمك، وملّاح
سفينة، وحادي إبل، ومفازة رمل، وسهلا، وجبلا ! فهذه ثمانية عشر منزها
في أقل من ميل في ميل .

(١) قارن ذلك بما ورد في المقرئ (ضع بولاق ج ١ ص ٢٦) .

(٢) هو والى مصر في أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية . والزيادة عن المقرئ (طبع بولاق ج ٢ ص ١٥٣) .

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنس بالبصرة حيث يقول :

زُرُّ وادِي الْقَصْرِ نِعْمَ الْقَصْرُ وَالْوَادِي ! * لَا بُدَّ مِنْ زُورَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ .
 زُرُّهُ فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَشَاكِلُهُ * مِنْ مَتَرٍ حَاضِرٍ إِنْ شِئْتَ أَوْ بَادِي .
 تَرَى بِهِ السُّنْفَ وَالظَّلْمَانَ حَاضِرَةً * وَالضَّبَّ وَالنُّونَ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادِي .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، يصف جبل الرصد مثل ما وُصِفَ به قصر أنس :

يَا زُهْرَةَ الرَّصْدِ الْمِصْرِيَّ قَدْ جَمَعْتَ * مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَا فِي جَانِبِ الْوَادِي ^(١) .
 فَذَا غَدِيرًا، وَذَا رَوْضًا، وَذَا جَبَلًا : * فَالضَّبُّ وَالنُّونُ وَالْمَلَّاحُ وَالْحَادِي .

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة في الاختصار، لكانت فضائلها تكون

كثابا مفردا .

وأما جزيرة الأندلس

فقد اقتصرْتُ في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها، فقال :

”...أرضها شامية في طيها، تهامية في اعتدالها وأستوائها، أهوازية في عظم نراجها
 وجبايتها، عدنية في منافع سواحلها، صينية في معادنها، هندية في عطرها وطيها
 وذكاها . وأهلها عرب في الأنساب والعزة والأثقة، وفصاحة الألسن، وطيب
 النفوس، وإباء الضيم . وقلة احتمال الذل والإهانة، والتراثة عن الخُصُوع، هندیون
 في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها، بغداديون في ظرفهم ونظاقهم، ورقة أخلاقهم

(١) هذه رواية المقرئ . أما الاصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق في الوزن للبقية هكذا :

يا زهرة الرصد التي قد زهت * عن كل شيء الخ

ونباهتهم ، ولطافة أذهانهم ، وحادّة أفكارهم ؛ نَبَطِيّون في آسْتِنْباطِ المِياه ، ومُعَاناتِهِم لِلغِرَاسَةِ ، وتركيب الشجر والفِلاحة ؛ صِينِيّون في إتقان الصناعات العلمية ، وإحكام المهن الصورية ؛ تُرْكِيّون في معاناة الحروب ومعالجة آلتها ، والنظر في مهمّاتها .

قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إِنَّ لِلْحِنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ * مَجْتَلَى عَيْنٍ وَرِيّاً قَسِيساً !

فَسَنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ * وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسٍ .

وقد أظهرت الأندلس جماعة من الفضلاء والأعيان والأكابر ، ذكرهم ابن بسّام في كتابه المترجم "بالذخيرة" ، في محاسن أهل الجزيرة . وذكرهم الفتح بن خاقان في كتابه "المطمح" و"قلائد العقيان" وغيرهما .

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وأبْتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها ، وهو في الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة ٩٢ من الهجرة .

وأما البصرة وما أختصت به

فمن خصائصها أن للغربان بها ضرباً من العجب . وذلك أنها تقع إليها بالخریف حتى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أُصْرَم ثمرها ، ولا تقع على ما لم تُصْرَم ، ولو بقى عليها عِثْق واحد .

ومن عجائبها أيضاً ، أن التمر يكون مصبوباً في بيادره ، فلا يقع عليه شيء من الذباب

لا في الليل ولا في النهار .

وأهل البصرة يتخذون المِظَلَّات على التمر والمعجوة خوفاً عليها من الخُفَّاش . ومن عادة الذباب الفرار من الشمس إلى الظلّ ، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه آلبته . فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طَلْم ، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب . وليس كذلك ، وإنما هو من حماية الله ووقايته .

- ووصف خالد بن صفوان البصرة ، فقال : منابتها قصب ، وأنهارها عجب ، وسمائها رطب ، وأرضها ذهب .
- وفي الكوفة عدم الوفاء .

وأما بغداد وما أختصت به

- فإنه يقال : إنها جنة الأرض ، ومجتمع الوافدين : دجلة والفرات ، وواسطة الدنيا ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، لأنها عمرة البلاد ، ودار السلام والخلافة ، وجمع الطوائف والطيبات ، ومعدن المحاسن واللطائف ، وبها أرباب النهايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع .

وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا ، وما عداها بادية .

- وكان أبو الفضل بن العميد إذا طرأ عليه أحد وأراد امتحان عقله سأل عن بغداد . فان فطن لفضائلها وخواصها ، جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله .

وقال ابن زريق الكوفي ، الكاتب :

سأقرت أبقى لبغداد وساكنها * مثلاً ، فحاولت شيئاً دونه اليأس .

هيئات ! بغداد الدنيا بأجمعها * عندي ، وسكان بغداد هم الناس .

وقال آخر :

سقى الله بغدادَ من جنة * غدت للورى زُهة الأنفس .
على أنها مئةُ المُسيرين ، * وليكنها حسرةُ المُفلس .

وأما الأهواز وما أختصت به

فقال أبو عثمان " عمرو بن بحر الجاحظ " : إن قَصَبَةَ الأهواز مخصوصة بالحمى
الدائمة اللازمة ، حتى إنها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب .
وقال إبراهيم بن العباس عن مَشِيخة من أهلها عن القوابل بها : إنهن ربما قِيلن
الطَّفل المولود بها فيجدنه محوما ؛ ولا تكاد تُوجدُ بها وجنةٌ حمراء لصبي ولا صبية ،
ولا دمٌّ ظاهر .

ومن عجائب خصائصها : أن جميع أصناف الطَّيب تستحيلُ رائحته فيها جدًا ،
حتى لا تكاد توجد له رائحةٌ . وذلك من كثرة الرُّطوبات ، وغلظ الهواء ، والأبخره
الفاسدة . (وهذا موجود بانطاكية والقُسطنطينية) . ويقال : إن الخيل لا تزوبها
ولا تصهل ، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن ؛ لما يلحقها من الربو ، لنداوة البلد
وعفونته .

وأما فارس وما أختصت به

فمن خصائصها : ماء الورد الذي لا يُوجد مثله في سائر البلاد طيبا ، والجورى
الموصوف من أحد بلادها يُجلب إلى أقاصى البلاد ، ويضرب به المثل .
ولشيراز من بلاد فارس فَعْمَة طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس .

وأما أصفهان وما أختصت به

- فهي موصوفة بصحة الهواء، وجودة التربة، وعدوبة الماء .
 وحكى أن المجاج ولي بعض خواصه أصفهان، فقال له : قد وليتك بلدة حجرها
 الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران .
 ومن خصائص الرّي : برودها موصوفة كبرود اليمن، وتسمى العدنّيات تشبيها
 لها ببرود عدن . وفيها الثياب المنيرة .
 قالوا : واللص الحاذق ينسب إلى الرّي .

وأما جرجان وما أختصت به

- فهي سهيلة جبلية، برية بحريّة . وأهلها يعدّون زيادة على مائة نوع من أنواع
 الرياحين، والبقول، والحشائش الصّحراوية، والثمار والحبوب السهلية التي هي
 مبدولة بها للفقراء والغرباء .
 ومن خصائصها : العنّاب الذي لا يكون في سائر البلاد مثله، ويقال : هي بغداد
 الصغرى، إلا أنها وبيّة، مختلفة الهواء في اليوم الواحد، فتألة للغرباء، كثيرة الأنداء.
 ويقال : جرجان مقبرة أهل خراسان .
 وفي بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُساق إليها قصار
 الأعمار من الناس .
 وكان أبو تراب النيسابوري يقول : لما قُسمت البلاد بين الملائكة، وقعت
 جرجان في قسم أبي يحيى (بمعنى ملك الموت) .

وأما نيسابور وما أختصت به

حكى عن عمرو بن الليث الصَّفَّار أنه كان يقول : كيف لا أقاتِلُ عن بلدة
حشيشها الرِّياس ، وتُرابها التُّقل ، وحجرها الفيروزج . أراد بقوله : " تُرابها التُّقل " ٥
طينَ الأكل الذي لا يوجد مثله في الأرض ، ويحمل منها إلى أقاصي البلاد وأدانها ،
ويُتخف به الملوك . قالوا : وربما بيع الرُّطل منه بدينار . قال المأمون بصفه :
جُد لي من التُّقل ، فذاك الذي * منه خُلِقنا وإليه نَصِيرُ .
ذاك الذي يُحسب في مثله * أجمارَ كافرٍ عليها غيرُ .

قالوا : والفيروزج لا يكون إلا في نيسابور ، وربما بلغت قيمة الفص منه — الذي
إذا أربى وزنه على مثقال ، وجمع الخضرة والأستدارة ، وصبر على النار ، وأمتنع ١٠
على المبرد ، ولم يتغير بالماء الحار — مائتي دينار .

وقال إن له خاصية في تقوية القلب بالنظر إليه ، كما أن للياقوت خاصية ١٥
في مسرة النفس .

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد الساماني ، ملك ماوراء النهر ونخاسان . استحسناها ١٥
وأستطابها ، وقال : يا هذا من بلدة جليلة ، لو لم يكن لها عيان ! كان ينبغي أن تكون مياهها ^(١)
التي في باطن الأرض على ظاهرها ، وأن تكون مسالحها التي على ظهرها في بطنها .
ومن خصائصها الشب التيسابورية الرقاق .

وأهلها لا يكرمون الغريب . قال المرادي :

لا تنزلن نيسابور مغترباً * إلا وحبلك بموصول سلطان .
أولاً ، فلا أدب يفتى ولا حسب * يُجدي ولا حرمة تُرعى لإنسان .

(١) في الاصل "شايخها" .

وقال أيضا فيها :

قال المرادى قولا غير متهم ، * والنصح ما كان من ذى اللب مقبول :
لا تزلن بنيسابور مغتربا ، * إن الغريب بنيسابور مخذول .

وأما طوس وما اختصت به

١٧

- فن خصائصها السبع الذى لا يكون إلا بها ، ومنها ينقل إلى الآفاق . والمجر الأبيض الذى تتخذ منه القدور .

ويقال : إن الله عز وجل الآن لأهلها الحجارة كما الآن لداود الحديد ، حتى إنهم يتخذون منها ما يتخذ غيرهم من الزجاج من سائر الأواني .

وأما بلخ وما اختصت به

- ١٠ فيقال : هى من أقدم البلاد وأخصها بالملك ، وهى شبيهة بالعراق ، وخراسان ، والهند . وإليها ينسب جيحون ، فيقال : نهر بلخ .

وكان سعيد بن الحسن يقول : العيش فى الصيف بلخ كتصحيحها .^(١)

ومن خصائصها البخاقى والتيلوفر .^(٢)

(١) أى مثل تلج .

- ١٥ (٢) فى الأصل : النجady . | وهو تحريف لاشك فيه | . "والبخاقى" هى نوع من النياق اشتهرت بها هذه المدينة . قال ابن حوقل الرحالة البغدادى الشهير فى كتابه "المسالك والممالك" (ص ٣٢٨ ، ٣٢٩) مانصه :

"ويرقع من بلخ وأعمالها فى نفسا النوق المتقدمة على ما فى جنسها وتعرف بلبخاقى ولا نظير لها من جنسها فى جميع الأرض . وبها الأترج والتيلوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الا أنه لا تخيل بها" .

٢٠

وأما بُسْت وما أختصت به

فيقال : إن هواها كهواء العراق . وماءها كماء الفرات . ومن خصائصها الإجابص الذي لا يوجد مثله في غيرها . ويقال : إن مَنْ مات بُسْت مغفوراً له فقد أنتقل من جَنَّة إلى جَنَّة .

وأما غَزَنَة وما أختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء . وجودة التربة . وعذوبة الماء . وهى جبلية شمالية . ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة . والأمراض قليلة . قالوا : وهى أرض تبتب الذهب ، ولا تولد الحيات والعقارب والحشرات المؤذية . ومنها خرج الأجلء الأتجاد من الرجال .

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان : لم أر بلدة فى الصيف أطيب ، وفى الربيع أشبه . ومن الحشرات أنظف من غزنة . ثم قال : إن قلَّة ثمارها من منافعها ، لأن كثرة الثمار مقترنة بكثرة الأمراض . وقد وصفها صاحب كتاب "لطائف المعارف" فقال :

وأما لَغَزَنَة إذ غَدَّت . لِلذِّكِّ وَالإِسْلَامِ دَارًا .
من كَمِيَّةٍ قَدْ أَصْبَحَتْ * لِجِدِّ وَالْعَلِيَّ مَدَارًا .
فِي صَدْرِهَا الْمَلِكُ الَّذِي * قُطِبُ السُّعُودِ عَلَيْهِ دَارًا .

وقال أيضا فيها :

يادار مُلْكُ نَرِي كُلِّ الْجَمَالِ بِهَا * وَأَسْعَدُ الدَّهْرِ تَبَدُّو مِنْ جَوَانِبِهَا .
كَأَنَّما جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ قَدْ نَزَلَتْ * بَارِضِ غَزَنَةَ تَعْجِيلًا لِصَاحِبِهَا .

وأما بيجستان وما آختصت به

فيقال فيها : ماؤها وشل ، وتمرها دقل ، ولصها بطل .

وما تختص به الطاسات وجلجل البراة ، والطبول الموكية ، والفروش الديباج .

وأما الهند وما آختصت به

فيقال : الهند بجرها دز ، وجبلها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عطر .

وعود الهند يذكر مع أمهات الطيب .

وفي الهند الفيل ، والكركدن ، والببر . والطاؤوس ، والبيغاء .

وفيه الياقوت الأحمر ، والصندل الأبيض ، والعاج ، وأصناف العطر ، والنياب

المخملة وغيرها ، والألائس ، والأقمشة .^(١)

وأما الصين وما آختصت به

فإن العرب تقول لكل طرفة من الأوني : صينية كائنة ما كانت : لأختصاص

الصين بالطرائف .

وأهل الصين خصوا بصناعة الطرف ، والملح ، ونحط التماثيل ، والإبداع

في عمل النقوش والتصاوير ، حتى إن مصورهم يصور الإنسان فلا يغادر شيئا

إلا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين

المتبسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور والهازي ؛ ويركب صورة في صورة .

وفيه مناديل الغمر التي إذا آتسخت وأُنقيت في النار ، نُقيت ولم تحترق .

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن القلائس .

وفيه الحديد . وربما اشترى بأضعاف وزنه فضة .

وفيه السنجاب الفارحاني الذي هو من أنس الأوبار . وفيه اللبود الجياد .
قال الجاحظ في كتاب "النظر في التجارة" : إن خير اللبود الصينية ، ثم المغربية
الجر ، ثم الطالقانية البيض .

وأما سمرقند وما أختصت به

قال قتيبة بن مسلم ، لما أشرف على سمرقند لأصحابه : شبهوها ، فلم يأتوا فيها
بشيء ، فقال : كأنها السماء في الخضر ، وكان قصورها النجوم الزاهرة ، وكان أنهارها
المجرة . فاستحسنوا هذا التشبيه .

ومن خصائصها : الكواغد التي عطلت قراطيس مصر ، والجلود التي كان الأوائل
يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرق وأرق . ولا تكون إلا بها وبالصين .
ومن خصائصها : الثياب الوندانية ، والنشادر ، والزئبق ، والبندق .

وأما بلاد الترك وما أختصت به

وه قال . إنها توازن بلاد الهند في كثرة الخصاص .
وفيها المسك والسنجاب والسّمور والقائم والقنك والتعالب السود والأرانب البيض
وغير ذلك . وفيها البزاة البيض والحليل .

وتبّت من بلاد الترك خاصية : أنه من أقام بها اعتراه سُرور لا يدري ما سببه ،
ولا يزال متبسما ضاحكا ؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخل على أهله كبير حزن كما
يلحق غيرهم عند موت محبوب .

وأما خوارزم وما اختصت به

فانها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها في الخصاص والمتاجر .
ومن خصائصها البطيخ الذي يقال له "النارنج" يقال إنه أحلى البطاطيخ وأطيبها .
وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص، معبأة في الثلج . فكانت
تقوم الواحدة منه — إذا سلمت ووصلت — بسبعائة درهم . والله أعلم .

ذكر الخصاص التي تجرى مجرى الطلسمات

منها :

- مدينة "خيص" من مدن كerman . لا يُمطر المطر فيها داخل السور أبدا حتى
إن الرجل يُخرج يده من سورها إلى خارجها، فتبتل يده ولا يتبل ساعده .
10. وبقرية من قرى كerman أيضا "حصن عادي" ليس فيه فار . وإذا دخل إليه
فار، مات .
ومدينة "حمص" لا يوجد فيها عقرب . وإذا نُثر ترابها على ظهر عقرب، ماتت .
وكذلك قلعة أعزاز من أعمال حلب . ويقال إنه لا يدخل مدينتها حية . ومتى
نُثر عليها من ترابها، ماتت لوقتها . ولا يوجد فيها بعوض آلبنة . وإن الرجل متى أخرج
15. يده من السور . وقع عليها، فإذا أدخل يده . طار عنها .
و"بمصر" أن التماسيح إذا ساقها الماء إليها وحاذتها، انقلبت على ظهرها . فإذا
بعدت عنها . لا تنصر أحدا . بخلاف ماهي في بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ما تظفر
به من الحيوان حتى الخيل . ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس .
ومدينة "سجلاسة" لا يوجد فيها ذباب آلبنة .

(١) كذا ذكرها أيضا في التوريم بالهجرة . وفي المعجم "عزاز" بدونها .

(٢) يعني مصر العتيقة أي القمطاط .

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة

- (وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والقروش، والمراكب،
والحيوانات ذوات السموم، والحلوى، والثمار، والرياحين،
والخلق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العلوية)
- ٥ أما خصائصها العلمية والعملية، فيقال: حكاء اليونان، وأطباء جنديسابور،
وصاغة حران، وحاكّة اليمن، وكتاب السواد.
- ومن خصائصها في الجواهر، يقال: فيروزج نيسابور، وياقوت سرنديب،
ولؤلؤ عُمان، وزبرجد مصر. وعقيق اليمن. وجزع ظفار، وبجادى بلخ، ومرجان
إفريقية.
- ١٠ ومن خصائصها في الملابس، يقال: برود اليمن. ووشى صنعاء، وريط الشام،
وقصب مصر. وديباج الروم، وقز السوس. وحرير الصين. وأكسية فارس، وحل
أصبهان. وسقلاطون بغداد، وعمائم الأبلّة. ومسيّر الري، وملحم مرو، وتكك
أرمينية. ومناديل الدامغان، وجوارب قزوين.
- ومن خصائصها في الأوبار، يقال: سنجاب خرخيز، وسثور بلغار، وتعالب
الخزر، وفنك كاشغر، وحواصل هرة^(١)، وقاقم تفرغز.
- ١٥

(١) ورد هذا اللفظ في كثير من كتب العرب بمعنى الجلود السنية التي يتدفا بها أهل الترف والنعيم
قد ذكر الحمداني (ص ٢٣٥) الفنك والسمور والثقاف والحواصل والوشق والدلق الخ. وذكره
ابن البيطار فقال: «أنه نادر يكون بمصر كثيرا يعرف بالكنى (بضم الكاف وإسكان الياء) المنقوطة
بأثنين من أسفل) ... وليامه يصلح للشباب وذوق الأمزاج الحارة ومن يغضب عليه الصغراء». .
وذكر السيوطي في الجزء الثاني من "حسن المحاضرة" نقده مصر وأورد من جعلها الحوصل (بغير
ألف في النسخة المطبوعة طبع حجر بمصر ص ١٧٦) حيث قال ما نصه: «وطير الحوصل يعمل
من جلده الخفاف الناعمة والنمرا الأبيض الذي يقوم مقام الفنك في لينة ورقته» .

ومن خصائصها في الفرس، يقال : بُسَطَ أَرْمِينِيَّةٌ، وَزَلَّالِي قَالِقَلَا، وَمَطَّارِحُ مَيْسَانَ، وَحُضْرُ بِنَادٍ .^(١)

ومن خصائصها في المراكب ، يقال : عَتَّقَ الْبَادِيَةَ ، وَنَجَّابَ الْحِجَازَ . وَبَرَادِينَ طَخَّارِسْتَانَ ، وَحَمِيرَ مِصْرَ ، وَيُنَالُ بَرْدَةَ .

• ومن خصائصها في الحيوانات ذوات السموم، يقال : أَفَاعِي سِحْيَتَانَ ، وَحَيَاتٍ أَصْفَهَانَ ، وَصَائِينَ مِصْرَ ، وَعَقَّارِبَ شَهْرَزُورَ ، وَجِرَارَاتِ الْأَهْوَازِ ، وَبَرَانِغِيثِ أَرْمِينِيَّةِ ، وَفَارَ آرَزْنَ ، وَعَلَّ مِيًّا فَارَقِينَ ، وَذِبَابُ تَلِّ قَاتَانَ ، وَاقْتَدَاحَ نَلْدَ .^(٢)

ومن خصائصها في الحلواء، يقال : سُكَّرَ الْأَهْوَازَ ، وَعَسَلَ أَصْفَهَانَ ، وَقَانِذَ مَاكِسَانَ وَدَيْسُ أَرْجَانَ .^(٣)

- ١٠ (١) لعله مصنف عن "حصر عبادان" لأن القريري طناً يتكلم عن الحصر العبادانية في مواضع كثيرة جداً من خطفه - وكذلك السيوطي قال في لطف مصر: «وهي من الحصر العبادانية ومن - تراصف الحصر ما يوجد في غيرها» - وقال القنسي ص ١١٨ «أن أكثر أهل عبادان صناع الحصر من الحفاه» وكانت هذه الحصر في غاية من الجمال حتى كان أهل مصر يقلدونها كما رأيت من عبارة السيوطي -
- (٢) مفردة "فح" وقال في القاموس: «والفح والفاحح أكل يقع في الشجر والاسنان... والفاححة الدودة» - وقال ابن الطيار في كلامه على "التريد" نوع من النبات ما نسه: «والتريد إذا طال به الزمان عمل فيه الفاحح كما يعمل في الخشب... تراه متحياً لأنه تعب برأس البرد» - ثم قال في بقية الكلام ما نسه: «لا يجب أن يتصل منه (أي التريد) إلا... الخليم من السوس» -
- (٣) هكذا في الأصل - وربما كان محرفاً عن "بده" المدينة المشهورة في العراق -
- (٤) هكذا في الأصل وصوابه "مأسكان" وقد أوردتها باقوت فقال «إنها بلد مشهورة بالواحي المجاورة لمكران» ورواه سحبتان، ثم قال «ولا يوجد القانيد غير مكاتب إلا هنا الموضع... واليه يقب القانيد المكاتب» -

ومن خصائصها في الثمار ، يقال : رُطَبُ العراق ، وتمر كَرْمَان ، وعُنَابُ جُرْجَان ، وإجاص بُسْت ، وسَفْرَجَل نيسابور ، وتُفَّاح الشام ، ومِشْمِش طوس ، وكُمْتَرِي نَهَاوَنْد ، وأَثْرُج طبرستان ، ونَارْمُج البصرة ، وتِين حُلْوَان ، وعَنْب بَغْدَاد ، وقِشْمِش هِرَاة ، ومَوْز اليمن ، وجَوْز الهند ، وبِطِّيخ خُوَارِزْم ، وِبَاقِلَاء الكوفة .

ومن خصائصها في الرياحين ، يقال : نَرَجِس جُرْجَان ، وورد جُور ، ونبُلُوفَر السَّيْرَوَان ، ومثُور بَغْدَاد ، وزَعْفَرَان قُم ، وشَاهِسْفَرَم سمرقند .

ومن خصائصها في الخلق والأخلاق ، يقال : سُقْرَةُ الروم ، وسَوَاد الزُّنْج ، وغَلَّظ التُّرْك ، وجَفَاء الحِيل ، ودَمَامَةُ الصِّين ، وقِصْرُ أَيْجُوج .

ومن خصائصها في الأمراض ، يقال : طَوَاعِينُ الشَّام ، وطِحَالُ البَحْرَيْن ، ودَمَامِيلُ الجَزِيرَةِ ، ومُحَى خَيْر . وجُنُونُ حَمْص ، وعَمْرَقُ اليَمْن ، ووبَاءُ مِصْر ، وِرْسَامُ العِرَاق ، والنَّارُ الفَارِسِيَّة ، وقُرُوحُ بَلْخ .

ومن خصائصها في الآثار العلوية ، يقال : شِتَاءُ أَرْمِينِيَّة ، ومَصِيفُ عَمَّان ، وصَوَاعِقُ تِهَامِه ، وزَلَازِلُ دَبِيل .

١٢٤

وقال الجاحظ في "كتاب الأمصار" : الصناعات بالبصرة ، والنصاحات بالكوفة ، والتخديث ببغداد ، والطرمذة بسمرقند ، والنقى بالرقي ، والبقاء بنيسابور ، والحسن بهرة ، والمروءة ببلخ ، والبخل بمر ، والعجائب بمصر .

وحكى عن عمرو بن عامر مُزَقِيَا ، أنه قال لقومه لما تحقق كون سبيل العريم : من كان ذا شأٍ وبغير وجهٍ غير شرود ، فليالحق بالشعب من كوفان ، فلحقت به

همدان ؛ ومن كان ذا سياسة وصبر على أزمات الدهر فليحَق بيطن مرَّ ، فلحقت به
 حُرَّامة . ومن كان يريد الراسخات في الوحل ، المطمِعات في المحل ، فليحَق بيثرب
 ذات النخل ، فلحقت بها بنو قيلة ، وهم الأوس والخزرج ؛ ومن كان يريد الخمر والخمير
 والأمر والتأثير فليحَق بيصرى وسدير (وهي من أرض الشام) ، فلحقت به غسان ؛
 ومن كان يريد الثياب الرقاق ، والحُيول العتاق ، والذهب والأوراق ، فليحَق
 بالعراق . فلحقت به لحم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأول

(في المباني القديمة)

١٠ . والمباني القديمة كثيرة ، فلنذكر منها ما عظم خطره ، وشاع في الآفاق ذكره .

ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض

قيل : أول ما بنى على وجه الأرض "الصَّرح" ويسمى "المجدل" بناه الثرود الأكبر
 ابن كوش بن حام بن نوح ، بكوثى ربِّي من أرض بابل . قيل : وبها إلى هذا العصر
 من أثره كالجبال . وكان طوله في الهواء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف
 ذراع . وكان مبنيًا بالحجارة والرصاص والكس والشَّمع واللَّبَان . بناه لينعمه وقومه
 من بأس الله عز وجل . وكان قد كفر وطفى وادعى الألوهية ، فأرسل الله تعالى

إليه جبريل ، فضربه بخافقة جناحه فهدمه ، وهام من كان حوله على وجهه ، وقد تلبت ألسنتهم من الدَّعْسِ والدَّعْر ، فكانت عنه هذه اللغات التي يتكلم بها سائر الأمم ، وهي آنتان وسبعون لغةً ، وسميت تلك الأرض التي كان بها بابل .

ذكر خبر إرم ذات العماد

وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

وكان سبب عمارتها أن شداد بن عاد بن إرم لما سمع وصف الجنة سؤلت له نفسه أن يبني مثلها . فبنى مدينة بين حضرموت وصنعاء ، طولها اثنا عشر فرسخا ، وعرضها مثل ذلك . وأحاط بها سورا ارتفاعه خمسمائة ذراع ، غشاه بصفايح الفضة الموهة بالذهب ، فلا يدركه البصر إذا أشرقت عليه الشمس . وبني داخلها مائة ألف قصر (عدد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفضة . وكذلك جدوع سُقوفها وأعمدتها . وأجرى في وسطها نهرا صَفَّحَ أرضه بالذهب ، وجعل على حافته أنواع الجواهر واليواقيت بدلا من الحصاء وألقى فيه المسك والعنبر بدلا من الحمأة . وفتح منه جداول إلى تلك القصور والمنازل . وغرس على سُطُوطها من الأشجار ما كان لزهرة عرف طيب ورائحة ذكية .

زعموا أنه أقام في بنائها ثلاثمائة سنة ، فلما تم بناؤها ، زاد في طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكنها . فلما أشرف عليها جاءت صيحة من السماء فأهلكته هو

وجنوده .

ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل له نَدَّت فوقه عليها، فحمل ما قَدَّر عليه، فبلغ معاوية خبره، فاستحضره وسأله فقَصَّ عليه قصته. فبعث معاوية إلى كعب الأبحار، فقال: هي إرم ذات العباد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك: أحمر قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له نَدَّت. ثم ألتفت فرأى ابن قلابة فقال: هذا والله ذاك الرجل.

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سميت ذات العباد. وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق.

وسند ذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العباد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شديد وشداد، أبي عاد؛ وهو في الباب الخامس من القسم الأول، من الفن الخامس في التاريخ، وذلك في السفر الحادي عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. والله تعالى أعلم.

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو في الإقليم السادس في آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء.

قال صاحب^(١) كتاب "نزعة المشتاق إلى آخترق الآفاق" إن الواثق بالله لما رأى في المنام كأن السد الذي بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سلاًماً الترجمان وقال له:

١٣٠

(١) ان ابن خرداذبة هو أول من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم استتلاه منه من الكتاب الذي كان كتبه في هذا المعنى للخليفة الواثق بالله (انظر المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ - سنة ١٨٨٩ م من صفحة ١٦٢ - ١٧٠). وعن ابن خرداذبة نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الإدريسي وأبن رسته وأبن الفقيه الهذلي والمقدسي. وقد نقل التويري عن الإدريسي. وكلهم قد يزيد وينقص بعض الكلمات أو يبدلها بغيرها.

أذهب فانظر إلى هذا السدّ وجنّى بحجره وحاله وما هو عليه ، ثم أمر له بأصحاب
يسرون معه ، عندهم خمسون رجلا ، ووصله بمخسة آلاف دينار ، وأعطاه دينته عشرة
آلاف درهم . وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم وورق
سنة ، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام التبرجمان : فشقخصنا
من سائرا بكباب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية بالنظر إلى تنفيذنا
من هناك ؛ فكتب لنا كتابا إلى ملك السّرير وأقعدنا إليه ، فلبسنا وردنا عليه ،
أشخصنا إلى ملك الألان . فلما وصلنا إليه ، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه . فلما
وردنا عليه [أرسلنا إلى ملك الخزر وهو] آختر لنا خمسة أدلاء يدلون على الطريق .
فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض
سوداء طويلة ممتدة كريمة الرائحة ، فشققناها في عشرة أيام . وكذا قد تزودنا لقطعها
أشياء نسمها خوقا من أذى روائحها الكريمة . ثم انفصلنا عنها . فسرنا مدة شهر في بلاد
خراب قد درّست ابتيتها ولم يبق منها إلا رسوم يُستدل بها عليها . فسألنا من معنا
عن تلك المدن ، فأخبرونا أنّ لمدن التي كان ياجوج وماجوج يفتنونها ويخربونها .
ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شعبة السدّ وذلك في ستة أيام .
وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهناك مدينة يدعى ملكها
خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب . فسألونا من أين أقبلنا ،
فأخبرناهم أنّا رُسل أمير المؤمنين الواثق بالله ، ففجّوا منا ومن قولنا " أمير المؤمنين "
ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شاب ؟ قلنا : شاب ، ففجّوا أيضا .
ثم قالوا : وأين يكون ؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سمر من رأى . ففجّوا أيضا

(١) في الأصل : "قبلاه شاه" . والتصويب عن ابن خرداذبة .

- من ذلك ، وقالوا : ما سمعنا هذا قط . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم
وَمَنْ علمه لهم ؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة
العنق طويلة اليدين والرجلين ، لها في موضع صلبها حذبة ، (فلما أنهم بصفون الجمل)
قالوا : فترل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علمنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا
أيضا القرآن ومعانيه فتعلمناه وحفظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هذا إلى السد
لنُبصره ، فسرنا عن المدينة نحو من فرسخين ، فوصلنا السد . فإذا جبل مقطوع بوادٍ
عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وله في وسط هذا الفناء باب من حديد طوله خمسون
ذراعا قد اكتشفه عضادتان ، عرض كل عضادة منهما خمسة وعشرون ذراعا . والظاهر
من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله منى بلين الحديد مغيب بالنحاس . وارتفاع
العضادتين خمسون ذراعا ، وعلى أعلى العضادتين دروند حديد ، طوله مائة وعشرون
ذراعا . والدروند للعبئة العليا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار
عشرة أذرع . ومن فوق الدروند بينان متصل بلين الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس
الجبل . وارتفاعه مد البصر . وفوقه شرافات حديد ، في طرف كل شرافة قرتان
تثنى أطراف كل واحدة منهما على الأخرى ، وللباب مصراعان مقلقان ، عرض كل
مصراع خمسون ذراعا في ثمن خمسة أذرع . وقائمتهما في دؤارة على قدر الدروند . وعلى
الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع في الاستدارة ، وارتفاع القفل من الأرض
خمسة وعشرون ذراعا . وفوق القفل بخمسة أذرع غلظ طوله أكثر من طول القفل ،

(١) هذه رواية ابن حرداذية . وفي الأصل « قرنان منى الأطراف بمصا الى بعض » . ورواية

المقدسى : « قرنان يثنى كل واحد رصحه » .

وعلى الفأق مفتاح طوله ذراع ونصف ، وله اثنتا عشرة دنداجة ، كل دنداجة منها
 كأغظ ما يكون من دسائح الهواوين ، مُعلق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة
 المنجنيق . وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ماتحت العضادتين ،
 الظاهر منها خمسة أذرع . وكلها مكالة بالذراع السوادى . ورئيس ذلك الحصن يركب
 في كل جمعة مع عشرة فوارس . مع كل فارس إرزبة حديد ، كل إرزبة خمسة أمتان .
 فيضرب القفل بتلك الإرزبات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب .
 فيعلم أن هناك حفظة ، ويعلم هؤلاء أن يأجوج وندجوج لم يحدثوا في الباب حدنا .
 وإذا ضرب أصحاب الإرزبات القفل ، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب ،
 فيسمعون من ورائه دويًا يدلُّ على أن خلفه بشرًا . وياتقرب من هذا الموضع حصن
 يكون عشرة [فراسخ] في عشرة [فراسخ] . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما
 مائتي ذراع في مائتي ذراع ، وبين هذين الحصنين عين ماء عذبة ، في أحد الحصنين آلة
 البناء التي تُبنى بها السد من قُدور الحديد ومعارف الحديد ، والقُدور فوق ديكانات^(٤)
 على كل ديكان أربع قُدور مثل قُدور الصابون . وهناك أيضا بقايا من لبن الحديد

١٣٦

(١) هذه رواية الإدريسي . والذي في ابن خرداذبة "دنداجة" وهي كلمة فارسية معناها "سن" والمراد أسنان المفتاح .

(٢) الدسائح كلمة فارسية معناها "يد الهون" أي المدق الذي تدق به الأشياء في الهاون .

(٣) في ابن خرداذبة ما يفيد أن المفتاح وحده هو المعلق في السلسلة وهذا نص روايته : « معلق في سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع في استدارة أربعة أسيار والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق » وهي رواية مقنولة أكثر مما ورد في المتن لأن المفتاح فقط هو الذى يصح تطبيقه دون القفل والطلق .

(٤) كلمة فارسية يقابلها عند العرب "الأثاق" .

التي بُني بها السد وقد آلتصق بعضها ببعض من الصدا، وطول اللبنة ذراع ونصف في ارتفاع شبر .

قال سلام الترمذاني : وقد سألنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رأوا أحدا من يأجوج ومأجوج قط ، فأخبرونا أنهم رأوا منهم [مرة] عددا فوق شُرُفات الردم ، فهبت عليهم ريح عاصفة ، فومت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا ^(١) . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفات كلها ، ثم أنصرفنا مع الأدلاء من تلك الحصون ، فأخذوا بنا على ناحية نهراسان . فسرنا إلى مدينة بختان ، إلى غرّبان ، إلى مدينة برساخان ، إلى انظرار ، إلى سمرقند ، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر ، ثم وصلنا إلى الري ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغيبنا في سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدث به سلام .

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي في تفسيره : إن ارتفاع السد مائتا ذراع ونحسون ذراعا . قال : وروى في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ ، وفي عرضه نحسون ذراعا . نقله عن وهب بن منبه .

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار السد وكيفية بنائه وطوله وعرضه ، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذي القرنين . فتأمله هناك ، وهو في الباب

(١) في ابن خرداذبه : « فهبت ريح سوداء فالتهم ال جانبهم » أي إلى الجهة التي ظهر منها أولئك الناس ، وهو المقول ، لانه عقب بأن طول الرجل كان شبرين ونصفا ، ومعنى ذلك في رأى العين من هذا الموضع .

الأول من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

ذكر مباني الفرس المشهورة

ومباني الفرس كثيرة : قديمة وحديثة .

٥ فمن قديمها "سَدُّ اللَّيْلِ" . بناه قَبَاذُ بن فيروز ، وقيل إن الذي بناه أبه كسرى ابن قباذ بن فيروز . كذا ورد في التاريخ .

وهذا السد من أرض شروان إلى بلاد الألان ، وبينهما مائة فرسخ ، بين شعاب جبل القَبْقُ . وهو جبل عظيم قد أشتمل على اثنتين وسبعين أمة ، لكل أمة لسان ومملك ، لا يعرف بعضهم بعضا لكثرة غياضه وأشجاره ، وفيه عيون وأنهار ، وتقدير مسافته طولا وعرضا نحو شهرين . ١٠

ومبدأ السور من جوف بحر الحزر على مقدار مسافة ميل ما زا إلى البر ، ثم يمتد إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان . وهو مبني بالصخر والحديد والرصاص . بناه على زقاق البقر المنفوخة ، فكان كلما ارتفع البناء نزلت تلك الزقاق إلى أن استقرت في قعر البحر ، فغاصت الرجال بالحناجر فشقوقها فتمكن البناء . وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التي تجعل من أجله ، وبني عليه ١٥ حصنا وأسكن فيه من يحفظ ذلك الباب ويحرسه .

وزعم المؤرخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الحزر كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ همدان والموصل ، فحجزهم بهذا السور .

ومن مباني الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودى أن سابورَ ذا الأكتاف بناه في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين ذراعا في ارتفاع مائة ذراع، وطول كل شُرْفَةٍ منه خمسة عشر ذراعا .

ولما ملك المسلمون المدائن، أحرق ستر هذا الإيوان فأنخرجوا منه مائة ألف دينار ذهباً .

ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن يتقَّضه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمك في ذلك فنهاه، وقال: "هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذى بناه لا يُزِيل ملكه إلا نجي والمؤونة على تقضه أكثر من الأرتفاق به". فقال له: "أبيت إلا ميلا إلى

العجم" فهُدِمَت منه نلْمَةٌ . فبلغت النفقَةُ عليها مالا كثيرا ، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد: "أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس بعجزك عن هدم ما بناه غيرك" فلم يفعل .

وحكى مثل هذه القصة أنها وقعت ليحيى بن خالد مع الرشيد، وهو إذ ذاك في اعتقاله . وكان الرشيد بلغه أن تحته كثر فأراد هدمه وأستشار يحيى فأشار عليه بمثل هذا .

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرْفاته هُدِمَت وجُعِلَت في أساس سور بغداد .

وقال ابن الأثير في تاريخه إن الإيوان باق إلى الآن . (وكان يوم ذلك في سنة

خمسة وعشرين وستمائة)، والله أعلم .

ومن المباني القديمة الحضرة

وكان حصنا حصينا مبنياً بالرَّخام، يسكنه ملوك الضَّيَّازن. وهو بين دجلة والفرات،
بجبال تكريت .

ويقال إن بانيه الساطرون . وذكر أن قصر ملكه قائم إلى وقتنا هذا في وسط
المدينة، وفي وسطه هيكل مربع مبنى بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني .

حكى أن سابور الجنود حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه . واتفق أن بنت ملكه
وهي النضرة بنت الضَّيَّازن حاضت، فأخرجت من القصر إلى رُبضه لأجل ذلك .

فأرأت سابور، وكان جميل الصورة، فعشقتة . فأرسلت إليه تقول : إن ملكك الحصن
فما يجعل لي؟ قال : حكتك . قالت : تترجج بي . فأجابها إلى ذلك، فقالت له : خذ

حمامة ورقاء مطوقة، فأخضب رجلها بدم حيض جارية بكر زرقاء، وأرسلها . فإنها تقع
على سور البلد فيقع لوقته . وكان ذلك حلَّ طلسم له . ففعل ذلك ، فوقع السور

ودخل سابور الحصن وقتل ملكه وأصحابه وأصطفى ابنته لنفسه . فلما كانت ليلة
دخولها عليه، لم تزل متململة قلقة طول ليلتها، فالتمس سابور ما الذي قلقت من أجله ،

فاذا ورقة آس قد لصقت بعكته من عُكته، فقال لها : ما كان أبوك يغدوك؟
فقالت : الزبد والمخ وشهد أبقار النحل والخمر، فقال لها : أنا أحق منك بشار

أبيك، ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جموحا وأن يربط غدائرها في ذنبه ويركض به .
ففعل ذلك ، فتقطعت .

(١) في باقوت : "النضرة" .

وهذا الحصن قد آخِثَفَ في موضعه . فقيل : بحيال تَكَرَّيتَ بين دَجَلَة والفرات .
وقيل : بالجزيرة . ويقال إنه كان حاجزا بين الروم والفرس ، وملكتَه الزَّباء بنت
مليح^(١) وأسمها فارعة .

وفيه يقول عدى بن زيد العبادي من قصيدة :

وأخو الحَصْرِ إذ بناه وإذ دَجَّ سِلَّةٌ تُجْبِي إليه والحَابُورُ .
شادَهُ مَرَمَرًا وَكَلَّهَ كَلَسًا فَلَطَّيرٌ فِي ذُرَاهِ وَكُورُ .
لَمْ يَبِّهْ رَيْبَ الْمُنُونِ فَبَادَ الْمُلُوكَ عَنْهُ فَبَاهُ مَهْجُورُ .

ومن المباني القديمة القليس

وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ، ملك اليمن بصنعاء . ونقل إليها الرخام
المجزَّع والملون ، والمجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس . وكان أراد أن يرفع
بناها حتى يشرف منها على بحر عدن . فلما أهلكه الله تعالى وفرق ملكه ، أقفر
ما حول هذه الكنيسة ، وكثرت حولها السباع والحشرات . وبقيت إلى زمن
السفاح فذكر له أمرها ، فبعث إليها من تحريها وأخذ ما كان فيها . حكى ذلك
السهيلي في "الروض الأنف" .

وحكى أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها باب من نحاس طولُه عشرة
أذرع وعرضه أربعة أذرع ، يدخل منه إلى بيتٍ طولُه ثمانون ذراعا وعرضه
أربعون ذراعا ، مسقف بالساج المنقوش ، مسمَّر بمسامير الذهب والفضة . ثم يدخل
من البيت إلى إيوانٍ معقود طولُه أربعون ذراعا ، عن يمينه ويساره عقود من حرفة .

(١) كذا في الأصل "بنت فرج" . وذكر في تاج العروس في مادة زيب أنها بنت عمرو بن الفارح

وأن أسمها بارعة أو ميسون أو نائلة . فتنه .

ثم يُدخَل من الإيوان إلى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، جُدرها مموّحة بالذهب والفضة. وفي صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج. المصنّح بالذهب والفضة. ولما تم بناؤها، خرج رجلٌ من بني كنانة فقعدها ليلاً (أى أحدث) . فأغضب أربةً ذلك، فخلف ليهدم الكعبة، فخرج بجيشٍ كثيفٍ من الحبشة، فكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتَوَيْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَبَلَغُوا فِيهِمْ أَجْرَهُمْ فَأَنْبَأَهُ اللَّهُ عِبَادَهُمْ فِي السَّمَاءِ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مُحْكَمٌ لَا يُغَيَّرُ فِي شَيْءٍ وَاللَّهُ يَذُرُّ حَبًّا لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .
وذكر لي أن الذي خربها العباس بن الربيع بن عبد الله العامري، عامل المنصور على اليمن .

ومن المباني المشهورة قنطرة صنجة

وهي من مباني الروم على نهر عظيم يسمى بهذا الاسم. يصبُّ في الفرات، لا يمكن خوضه : لأن قراره رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال . وهو ما بين حصن منصور وكيسوم من ديار بكر .

وهذه القنطرة طاق واحد. ما بين جذرائها مائة خطوة . وهي مبنية بحجارة مهندمة، طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع .

ومن المباني القديمة ملعبا بعلبك

وهما كبير وصغير .

فالكبير، يُحكى أنه من بناء سليمان بن داود عليهما السلام . وهو مبني على عمدة شاهقة . وحجارته منها ما هو عشرة أذرع وأكثر .

والمَلْعَب الصغير تهدم أكثره، ويبقى منه حائط طوله عشرون ذراعاً وارتفاعه كذلك .
ليس فيه إلا سبعة أحجار : واحد من أسفله ، وحجران فوقه ، وأربعة أحجار فوقهما .
ويقال إنه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى "بعلا" .

ذكر مباني العرب المشهورة

وهي عُمدان ، وحصن نِجْمَا ، والخوَزَنَق ، والسِّدِير ، والغَرِيَّانِ .
قال الجاحظ : أحببت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتنفرد بالشعر ، فبنوا :
عُمدان ، وكعبة نَجْران ، وحصن مارد ، والأبْلَق الفرد .

فأما عُمدان

فكان بصنعاء . زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح . وزعم آخرون أن
بيوراسب بناه على أسم الزهرة .
وقال ابن هشام إن الذي أسسه يعرب بن قحطان ، وأكله بعده وائل بن خنيزر
ابن سبيل بن يعرب . وخرَّبه عثمان بن عفان ، رضى الله عنه .
وقيل في صفته إنه كان مُرَبَّعاً ، أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض ، والثاني
بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع بالرخام الأحمر . وفيه سبعة سُقُوف
طباقاً ، ما بين السُّقُوف والآخِر خمسون ذراعاً . وعلى كل ركن تمثال أسدٍ من نُحاس ،
إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُرِه وخرجت من فيه ، فيسمع لها صوت كزئير الأسد .
وقال ابن الكلبي : كان على كل ركن من أركان عُمدان مكتوب "اسلم عُمدان ،
مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدوان" .

ويقال : إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطين أن ينثروا إلبقيس
أربعة قصور : عُمدان ، وصرواح ، وبيتين ، وسلحين . وكلها باليمن .
ويروى أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه ، قال : لا يستقيم أمر العرب ما دام
فيها عُمدانها . وهذا القول هو الذي حُصَّ عثمان على هدمه .
ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا ، وإنه تَلَّ عالٍ مَطْلٌ على صنمائه .

ولما حصن تيماء

فهو الأبلق الفرد . سُمِّيَ بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيًا بحجارة مختلفة الألوان وهو
بارض تيماء .

بناه السمؤل بن عادي اليهودي . ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام .
وبه تضرب العرب المثل في المنعة والحصانة . وفيه يقول الشاعر :

طَلَبَ الأَبْلَقُ العُقُوقَ فَلَمَّا ۖ لَمْ يَنْتَهُ فَرَامَ بَيْضَ الأَنْوُقِ ۖ

وقصدت الزيماء هذا الحصن وحصن ما ريد فلم تقدر عليهما . فقالت : "تمزّد مارِدُ
وعزّ الأبلقُ" .

ومارد حصن كان بدومة الجندل . مبني بحجارة سود . ويقال إنه أيضا من بناء
السمؤل بن عادياء اليهودي .

وأما الخورنق والسدير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحيرة . والسدير في بزية بالقرب منها .

بناهما النعمان بن أمية القيس . وهو النعمان الأكبر . ويقال في سبب بنائه لهما :

ن يَزِدُّ جُرْدُ بن سَابُورٍ كان لا يَبِيشُ له ولد . فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء . فذكر له

ظَهَرُ الحِيرة . فدفع أبنه بهرام جوراً إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق . فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة . بناه له رجل يسمى سِنَمَار .

فلما فرغ من بنائه ، عَجِبَ النُّعمانُ من حسن بنائه وإتقانه ، فأمر أن يلقى سِنَمَارَ من أعلاه حتى لا يبني مثله لأحد . ويقال إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه ، شكَّه على عمله ووصله . فقال : لو علمت أن الملك يحسن إلي هذا الإحسان ، لبنيتُ له بناء يدور مع الشمس كيفما دارت ، فقال له النعمان : وإنك لتقدر على أن تبنى أفضل منه ، ولم تبته ؟ فأمر به ، فطُرح من أعلاه .

وقيل : بل قال : أنا أعرف فيه حجراً متى أخذ من موضعه ، تداعى البناء . فخاف النعمان إن هو لم يتصغه في أجرته فعل ذلك . فقتله .

والعرب تضرب المثل بفعل النعمان مع سِنَمَارَ في المكافأة على الفعل الحسن بالقيح ، فيقال : جازاه مجازاة سِنَمَارَ .

وفيه يقول بعض الشعراء :

جَرَانِي جَرَاهُ اللهُ شَرَّ جَرَاهِهِ * جَرَاءَ سِنَمَارٍ ، وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبِ .

سوى رفعه البنيان عشرين حجة * يعلّ عليه بالقراميد والسكيب .

والخورنق تعريب خورنقا^(١) ، وهو الموضع الذي يؤكل فيه ويشرب . والسدير

تعريب سادل أى قبة في ثلاث قباب متداخلة .

وفي هذه الأبنية يقول الأسود بن يعفر :

مَاذَا أَوْمَلْ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ * تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ ، وَبَعْدَ إِيَادِ؟

أهل الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذي الشرفات من سنداد .

(١) ملاحظ خاقان . (من هامش الأصل) .

وقال عدى بن زيد العبّادي :

وتفكّر ربّ الخورنق إذ أشرف يوماً، وللهدي تفكير.
سره ملكه وكثرة ما يحسويه والبحر معرضاً والسدير.
فأرعوى قلبه، فقال: فإغبطه حتى إلى الممات يصير؛

وأما الغريّان

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة .

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جارتين كانتا قينتين تغنيان بين يديه .

فانتا . فأمر بدفنها وبني عليهما الغريين .

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شميم الغساني . وكان بينهما وقعة على عين

أباغ، وهي من أيام العرب المشهورة . فقتل للحارث ولدان، وقتل المنذر وأتتهزمت

جيوشه . فأخذ الحارث ولديه وحملهما عدلين على بعير، وجعل المنذر فوقهما .

وقال: "ما العلاوة بدون العدين" فذهبت متلا . ثم رحل إلى الحيرة فأتتها وحرّقها

ودفن أبنيه بها . وبني الغريين عنيهما . حكاه ابن الأثير في تاريخه "الكامل" .

وأمر المنصور بهدم أحدهما . لكثر توهم أنه تحتها . فلم يجد شيئاً .

وقيل في سبب بنائهما غير ذلك . والله أعلم .

ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

وهي الأهرام، وحائط العجوز، وملعب أنصنا، ومدينة عين شمس . والبرابي .

وحية اللازورد، ومثارة الإسكندرية . ورواق الإسكندرانيين .

فاما الأهرام

التي بأرض مصر فهي كثيرة . وأعظمها الهرمان اللذان بالحيزة غربي مصر .
وقد اختلف في بانيهما .

قال قوم : بانيهما سُورِيد بن سهلوق بن سرناق . بناهما قبل الطوفان لرؤيا
رآها، فقصَّها على الكهنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث
في العالم، فأقاموا مراكزها في وقت المسألة . فدلَّت على أنها نازلة من السماء تحيطُ
بوجه الأرض . فأمر حينئذ ببناء البرابي والأهرام، وصوِّر فيها صور الكواكب
ودرجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذي يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو

- ١٠ إدريس عليه السلام) استدلَّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان . فأمر ببناء
الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور .

وكل هَرَم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثائة ذراع
وسبعة عشر ذراعا، يحيط به أربعة سطوح متساويات الأضلاع، كل ضلع منها
أربعائة ذراع وستون ذراعا، ويرتفع إلى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع
في مثلها .

١٥

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكْبَة فرمته الرياح العواصف .

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه
لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعْرَعَة الزلازل، وطولُ
المجر منه خمسة أذرع في سَمْت ذراعين .

ويقال إن بينهما جعل لهما أبوابا على أزواج مبنية بالحجارة في الأرض ، طول كل أزواج منها عشرون ذراعا . وكل باب من حجر واحد يدور بلولب ، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب . فأزواج الشرق منها في ناحية الجنوب ، وأزواج الغرب في ناحية الغرب . يُدخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت ، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة ؛ وكلها مقلدة بأفعال . وحذاء كل بيت منها صنم من ذهب مجزوف ، إحدى يديه على فيه . وفي جبهته كتابة بالمُسند إذا قرئت أفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح تلك القفل فيفتح بها .

والقبط يزعمون أنها والهرم الصغير الملقون قبور : فالهرم الشرق في سوريد الملك ، وفي الهرم الغربي أخوه هوحيت .^(١)

والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثديمون ، والآخر قبر هرمس ، والملقون قبر صاب ابن هرمس ؛ وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم ؛ وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة والمعجول السود ، ويحجرون بدخن ؛ ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطراب ما يذبحون حالة الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية .

وقصرت هم الملوك والخلفاء عن معرفة ما في حدين الهرمين ، إلى أن ولي عبد الله المأمون الخلافة وورد مصر ، أمر بفتح واحد منها . ففتح بعد عناء طويل ، وآتق لسعادته أنه وقع الثقب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب ، وهو زلافة ضيقة من الحجر الصوان المائع الذي لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد تُقر في الزلافة حُفرة ، يتمسك السالك بتلك الحفرة ، ويستعين بها

(١) كما بالأصل وكذلك في خط القريري . وفي ياقوت "مرجيب" .

على المشى في الزلافة لثلاثين ، وأسفل الزلافة بر عظمة بعيدة القمر . ويقال
إن أسفل البر أبواب يُدخَل منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع ومعجائب .
وآتت بهم الزلافة إلى موضع مربع في وسطه حوض من حجر صلد مغطى . فلما
كُشِف عنه غطاؤه ، لم يوجد فيه إلا رمة بالية . فأمر المأمون بالكف عما سواه .

وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا .

١٣٥

وسند ذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين
كانوا قبل الطوفان وبعده ، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس ،
وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك .

وقال بعض أهل النظر ، وقد عاين الأهرام : ”كل بناء يخاف عليه من الدهر ،

إلا هذا البناء فإنني أخاف على الدهر منه“ .

ونظم عمارة اليمنى هذا القول ، فقال :

خَلِيلِي ، مَا نَحَّتَ السَّمَاءُ بِنْيَةً * ثُمَّ أَيْلُ فِي إِتْقَانِهَا هَرَمِي مِصْرِي !
بِنَاءٌ يَخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ ، وَكُلُّ مَا * عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ !
تَنْزَهُ طَرْفِي فِي بَدِيعِ بِنَائِهَا ، * وَلَمْ يَنْزَهُ فِي الْمُرَادِ بِهَا فَكْرِي .

وقال بعض الشعراء :

حَسَرْتُ عَقُولَ دَوِيِّ النَّهْيِ الْأَهْرَامُ ، * وَأَسْتَصْفِرْتُ لِعَظِيمِهَا الْأَعْلَامُ .
وَلَسْتُ مُنِيفَةً الْبِنَاءِ شَوَاهِقُ ، * قَصُرْتُ لِعَالِ دُونِهِنَّ سِهَامُ !
لَمْ أَدْرِ حِينَ بَكَ التَّفَكُّرُ دُونَهَا * وَأَسْتَبْهَمْتُ لِعَجِبِهَا الْأَوْهَامُ ،
أَقْبُورُ أَمْلَاكِ الْأَعْجَمِ هُنَّ ، أَمْ * طَلَسُمُ رَمَلِ هُنَّ ، أَمْ أَعْلَامُ ؟

وقال أبو الطيب المتنبي :

أين الذي المرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تختلف الأثار عن أصحابها حيناً . ويذكرها الفناء فتتبع .

وقال أمية بن عبد العزيز الأندلسي :

بعيشك هل أبصرت أحسن منظراً * على طول ما عاينت من هرمي مضر؟
أنافا بأعان السماء وأشرفاً * على الجوا إشراف السماء أو النسر .
وقد وافياً نشزا من الأرض عالياً * كأنهما تديان قاما على صدر .

وقال آخر :

أنظري إلى الحرمين إذ برزا * للعين في علو وفي صعد!
وكانما الأرض المريضة إذ * ظمئت لقرط الحر والومد .
حمرت عن التدين بارزة * تدعو الإله لشركة الولد .
فأجابها : ليك ! يوسمها * رياء ويشفيها من الكد .

وقال ابن الساعاتي :

ومن العجائب، والعجائب جمّة * دقت عن الإثكار والإسهاب .
هرمان قد هريم الزمان وأدبرت * أيامه . وتزيد حسن شباب .
لله ! أي بنية أزيلية * تبني السماء بأطول الأسباب؟
ولربما وقفت وقوف تبلد * أسفا على الأيام والأحقاب .
كتمت عن الأسماع فصل خطاياها * وغدت تُشير به إلى الألباب .

وقال سيف الدين بن جُبارة :

لله! أي غريبة وعجيبة * في صنعة الأهرام للأبواب؟
أخفت عن الأسماع قصة أهلها، * ونفتت عن الإبداع كل نقاب.
فكأنما هي كالخيام مقامة * من غير ما عمّد ولا أطناب.

- ومن رسالة اضياء الدين بن الأثير الجزري في ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها:
- بلد أشهد بفضلها على البلاد، ووجدته هو المصر وما عداه فهو السواد . فما رآه راء
إلا ملاً عينه وصدرة . ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدره قدره . وبه عجائب
من الآثار، لا يضبطها العيان ولا الإخبار . فمن ذلك الهرمان، اللذان هريم الدهر
وهما لا يهرمان؛ قد آختص كل منهما بعظم البناء، وسعة الفناء؛ وبلغ من الارتفاع
غاية لا يبلغها الطير على بُعد تحليقه، ولا يدركها الطرف على مدة تحديقته؛ فإذا أضرم
برأسه قَبَسٌ ظنه المتأمل تجماً، وإذا استدارت عليه قوسُ السماء كان لها سهماً .
- وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامة "أبوالهول" لعظمه .
والقبط يزعمون أنه طَلَسَم للرمل الذي هناك . لثلا يغلب على أرض الحيزة .

وأما حائط العجوز

- والعجوز هي دُلوكا ملكة مصر .
- وهذا الحائط من العريش (وهو حد مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهي حد
مصر من جهة النوبة)؛ شاملاً للديار المصرية من الجانب الشرق .
- وزعمت القبط أن سبب بنائها أن الله عز وجل لما أغرق فرعون وقومه ،
خافت دُلوكا على مصر أن يطعم الملوك فيها . فبنته . وزوجت النساء بالعبيد حتى
يكثر النسل والذرية .

وقيل في سبب بنائه : إن دُلُوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رسدا ، فرأت أن التماسح يقتله ، فبنت هذا الحائط وقايةً له من التماسح . فلما شبَّ الغلام رأى في مولده ذلك ، فأحب أن يراه . فصُوِّر له من خشب . فلما رآه ، هاله منظره وأستولى على نفسه الوهم والفرع ، فأتت .

وأما ملعب أنصنا

فإنه كان مقياسا للنيل .

ويقال : إنه من بناء دُلُوكا . وكان بناؤه كالطيلسان . وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر الماسح . بين العمود والعمود خطوة . وكان النيل يدخل إليه من قُوْهَةٍ فيه عند زيادة النيل . فإذا بلغ الحد الذي يحصل به الرى ، جلس الملك في مُشْرِفٍ له . ويصعد قوم إلى رؤوس الأعمدة فيتمادون عليها ما بين ذاهب وآت . فنزلت به قدمه منهم ، سقط إلى البركة .

وأما مدينة عين شمس

فهي من المباني التي درّست .

وكانت مصر فرعون موسى ، ومنها خرج يحنوده في طلب موسى وبنى إسرائيل ؛ وكانت عندهم ستمائة ألف . ليس فيهم ابن عشرين سنة ولا ابن ستين سنة . وأستقل فرعون هذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه : (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) . وكان بها هيكل الشمس نجرب .

(١) لم يرض آيين فضل الله بذكر هذه الحراة في كتابه . وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (أقتر مسالك

والقرس ترم أن هرسيك بناها .

ويقال : إنه كان قديماً منها عمودان من حجر صلد ، فلكت طول كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعاً ، على رأس كل عمود صورة إنسان على دابة ، وعلى رأسهما شبه الصومعنين من نحاس . فلذا كان (الليل) ، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركب عليه . والموضع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطباً .

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستائة .

وأما البرابي

وهي بيوت حكمة القبط . ويقال : إنه كان لكل كورة من كور مصر زيادة . يجلس فيها كاهن على كرسي من ذهب .

١٠

ومن أعجب البرابي وأعظمها (برياء إنحيم) . وهي مبنية بحجر المرمر ، طول كل حجر خمسة أذرع في سمك ذراعين . وهي سبعة دهاليز . ستونها حجارة . طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعاً في عرض خمسة أذرع ، مدهونة بالآزورد وسائر الأصباغ ، يخالها الناظر إليها كأنها قرع التهان منها . يقال إن كل دحلير منها على أسم كوكب من الكواكب السبعة . وجدران هذه الدهاليز متوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير ، يقال إنها رموز على علوم القبط ، وهي : الكيمياء . والسيمياء ، والطلسمات . والطب . أودعوها هذه الصور .

١٥

ويقال إن ذا النون المصري العابد فكَّ منها علم الكيمياء .

وأما حَنِيةَ اللازورد

وهي بأرض مَنف. ومَنف هذه هي التي تسمى مصر القديمة .

يقال إن عَقْد الحَنِيةَ أحسنُّ من عَقْد قنطرة صَنْجَة التي تقدّم ذكرها. والحَنِيةَ معقودة من حجارة مهندمة ، طول كل حجر منها أكثر من خمسة عشر ذراعا . وفيها نقوش وكتابة وطَلَسَمَات مموّهة بالأزورد . وهي من الشرق إلى الغرب ، وفي صدرها فضاء فيه بناء مرتفع ، عليه بلاطةٌ من الصوان الأسود مكتوب فيها بالقلم البرباوى ثلاثون سطرا . يقال إنه قبر الذي بنى الحَنِيةَ ، وأنه ديساره : ملك كان بمصر ، حكيمٌ .

وللقبط عيد يسمى ديساره : وهو عيد هذا الملك . ويسمى عيد العنب .

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مضّبة بالرصاص ، على قناطر من زجاج ، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس . وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض ، تصعدُ الدابة بمجملها إلى سائر البيوت من داخلها . والبيوت طاقات يُنظر منها إلى البحر .

وبين أهل التاريخ خلافٌ فيمن بناها .

فزعم بعضهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبس المقدوني . وزعم آخرون أنها من بناء دُلوكا ، ملكة مصر . ويقال إن على جانبها الشرقي كتابةً ، وإنها نقلت إلى اللسان العربي فوجدت "بنت هذه القنطرة فرتا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب" .

وقال : إن طولها كان ألف ذراع .

وكان في أعلاها تماثيل من نحاس .

منها تماثيل قد أشر ببيت النبي نحو الشمس : أتما كانت من الفلك ، يدور بها
حيث دلت .

• ومنها تماثيل وجهه في البحر منى مار المدونهم على نحو من لية ، سُمِعَ له صوت
طائل يتم به أهل المدينة طروق المدون .

ومنها تماثيل كلما مضى من الليل ساعة ، صوت صوتا مطربا .

وقال : إنه كان بإعلامه مرة ترى منها قُطْعَ طَيْفِيَّةً ، وبينهما عرض البحر . وكذا
جهاز الروم جيشا روى في المرة .

١٠ وحكى السعدي في "مروج الذهب" أن هذه المنارة كانت في وسط
الإسكندرية ، وأنها تعد من بناء العالم العجيب ، بناها بعض البطالسة من ملوك
اليونان يقال له الإسكندر ، لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر .
فجلسوا هذه المنارة مرقبا ، وحملوا في أعلاها مِرْآة من الأحجار المُثَقَّة ، تتلعد فيها
مراكب البحر إذا أقيمت من رومية على مسافة تجيز الأبحار عن إدراكها .

١٥ ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون ، فأحاط ملك الروم على الوليد بن عبد الملك
بان أنفذ أحد خواجهه معه جماعة إلى بعض شعور الشام على أنه راغب في الإسلام .
فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام ، وأخرج كتورا ودقاتن كانت في الشام حلت
الوليد على تصديقه فيما يتبعه . ثم قال له : إن تحت المنارة أموالا ودقاتن وأسلحة ،
دفعها الإسكندر . فصنقه وجّهه مع جماعة من قناه إلى الإسكندرية ، فهدم تلك

المئارة وأزال المِرة ، ثم فطن الناس أنها مكيدة ، فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت ممتدة له . ثم بُني ما هُدم بالجص والآجر .

ثم قال المسعودي : وطول المئارة في هذا الوقت (يعني الوقت الذي وضع فيه كتابه ، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة) مائتان وثلاثون ذراعا . وكان طولها قديما نحوًا من أربعمائة ذراع .

وهي في عصرنا هذا ثلاثة أشكال : ففيها تقدير الثلث مربع مبنى بالحجارة ، ثم بعد ذلك بناء مُشتمن الشكل بالآجر والجص نحو سبتين ذراعا ، وأطرافها مدوّرة الشكل .

ويقال إن أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من الخشب فهدمتها الرياح . فبنى في مكانها مسجدا في الدولة الظاهرية الركنية ببيرس صاحب مصر رحمه الله تعالى . ثم هُدم في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة بسبب الزلزلة الحادثة . ثم بنى في شهر سنة ثلاث وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور ، ثبت الله دولته ، وكان المنسوب لذلك الأمير ركن الدين ببيرس النوادر المنصوري ، نائب السلطنة الشريفة في النجيلة .

وقد وصف الشعراء مئارة الإسكندرية .

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروي :

وسامية الأرجاء تُهدى أحاسري * ضياءً ، إذا ما حنّس الليل أظلمًا .
ليست لها بردا من الأئس ضافيا * فكانت بتدكار الأحيّة معلما .
وقد ظلمتني من ذراها بقبّة * ألاحظ فيها من صحابي أنجما .
نُحيتُ أنّ البحر تحتي غمامة * وأني قد خيمتُ في كيد السما !

وقال أبو الفتح الأغر بن قلاقر :

وَمَسْتَرِيلٌ جَاوَزَ الْجَوْزَاءَ مَرَّتَيْنِ * كَأَنَّمَا فِيهِ لِنَفْسَيْنِ أَوْ كَارُ.
رَأْسِي الْقَرَارَةَ سَامِي الْقَرَعِ فِي يَدِهِ * لِلنُّورِ وَالنُّونِ أَخْبَارٌ وَأَخْيَارُ.^(١)
أَطْلَقْتُ فِيهِ عَيْنَ الْقَوْلِ فَأَطْرَدْتُ * خَيْلٌ لَهَا فِي يَدَيْهِ الشَّرِّ مِضَارُ.

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو ملقب كان بالإسكندرية .

كانوا حكماء يجمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئا دون الآخر، ووجه كل واحد منهم - وإن اختلف جهاتهم - لقاء وجه الآخر . وإن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم ، سمعه الآخر . ونظر القريب والبعيد فيه سواء .

- ١٠ وقد بقيت منه بقايا عمدة تكسرت ، غير عمود منها يسمى عمود السوارى في غاية الطول والنظ من الحجر الصوان الأحمر .

ذكر شيء من عجائب المباني

قال صاحب كتاب "مباح الفكر ومباح العبر" :

ذكر بعض المصنفين لكعب العجائب ، أن القوس ترمع أن أو شهنج بنى بأرض

(١٣٨)

- ١٥ بابل سبع ملتان ، جعل في كل مدينة منها أعجوبة ليست في الأخرى .

(١) هكذا في الأصل . وفي بدائع البلاء "أخبار وأمل" وفي مسالك الأبحار "بنيار وأخبار" وهذا

الوجه الأخير أول ويكون المعنى أن هذه المنارة تخبر عن المراكب المنية القادمة إلى الإسكندرية

وإن فيها أخبارا عن المسك الساج في البحر حولا .

فكان في الأولى - التي يكون فيها الملك - مثال أنهار الدنيا كلها . فإذا أتوى عليه أحد من أهل مملكته بجراجهم ، تخرج نهرا من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية ففترقوا . فإذا أذوا الخراج ، سد عليهم من عنده فأسد عنهم .

وفي الثانية حوض . فإذا أراد الملك أن يبيع الناس لشراب ، أتى من أحب منهم بشراب له خاص فيصبه في الحوض . يفعل ذلك كل إنسان منهم ، فيختلط الجميع . ثم تقوم السقاة فتأخذ الأواني ويُسقى كل واحد من شرابه الذي جاء به .

وفي الثالثة طبل . فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره ، أحس هو أو ميت ، ضربوا الطبل : فإن كان حيا صوت ، وإن كان ميتا لم يصوت .

وفي الرابعة المرأة . فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حاله ، نظروا في المرأة فرأوه في الحالة التي هو عليها .

وفي الخامسة إوزة نحاس . فإذا دخل المدينة غريب ، صفرت . فيعلمون أنه غريبا دخلها .

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء . فيجىء المحق والمبطل ليجلسا معهما . فيجلس المحق ، ويرسب المبطل .

وفي السابعة شجرة . لا تظل إلا ساقها . فإذا جلس تحتها واحد أطلته إلى ألف . فإن زاد على الألف واحد ، قعدوا كلهم في الشمس .

وكنت قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها . فرأيت ابن الجوزي وضعها في كتابه الذي سماه "سلوة الأحرار" فأوردتها .

وحكى أنه كان بجمينة قيسارية - لما كانت في أيدي الروم - كنيستُ بها امرأة .
إذا آتهم الرجلُ أمرأته بزناً ، نظر في تلك المرأة ، فيرى وجه المتهم فيها . وأن بعض
الناس آتهم فأروه فيها فقتله الملك ، بقاء أهله إلى المرأة حية فكسروها .

وحكى الواقدي في فتوح السند : أن عبد الله العبدى عامل معاوية على السند
غزى بلد القيقان ، فأصاب منهم غنائم كثيرة ، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه
الفداء وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة من امرأة ، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها
على آدم عليه السلام ، لما كثر ولده وأنشروا في الأرض ، فكان ينظر فيها فيرى
من بعد منهم على الحلالة التي هو عليها من خير أو شر ، فحملها عبد الله إلى معاوية ،
فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بنى العباس ، فبضاعت فيما
قُد من الذخائر .^(١)

١٠

وقيل : إن يثاوند حجرا يسمى الكيلان ، بالقرب منه صحفة ، من أراد أن
يتعرف حال غائب أو أبق أو سارق ، أتى إلى تلك الصحفة فنام تحتها ، فيرى
في النوم حال ما تعرف به على ما هو عليه . وعجائب المباني كثيرة ، سندكر
إن شاء الله تعالى منها جملة في أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده ،
فأتمله هناك تجده .

١٥

(١) بهامش الأمل ماضه : " قد ذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه أن هذه المرأة كانت عند أبي جعفر
المصور فاقه أعلم أين صارت بعده " .

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الأول

(فيما وصفت به المعامل والحصون)

وهذا الباب قد ترجمت عليه في الفن الثاني الذي يلي هذا الفن فيما يحتاج إليه الملك . وإنما ضمته إلى هذا الفن لمناسبته له وشبهه به ، وأستثنيته من الفن الثاني وأقتصر فيه على مجرد الترجمة . وبالله التوفيق .

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتاب والبلغاء القول في هذا المعنى وتواردوا فيه ، فاقصرنا على ما نوردته من ذلك ، وهو قليل من كثير .

فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار :

« ... وهذه القلعة التي آتينا إلى قرارها ، وأستولينا على أقطارها ، أرحب المدد أمدا للعيون ، وأخصبها بلدا إذا أمحلت السنون ؛ فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقها تحت الثرى راسخة ؛ تباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتناجى بأسرارها أذن الجوزاء ؛ وكانت في الزمن الغابر ، عنت على عظيم القياصر ؛ فنازلها باكثر من النجوم عددا ، وطاولها بأوفى من البحر مددا ؛ فابت على طاعته كل الإباء ، وأستعصت على مقارعته أشد استعصاء ، ومردت مرود مايد على الزباء ، فأمكنا الله من ذروتها . وأنزل ركبها لنا عن صهوتها . »

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني رحمه الله ، يصف أمدا من رسالة جاء منها :

«... وأمد ذكرها بين العالم متعالم ، وطالما صادم جانبها من تقادم ، فرجع عنها متدوعا أنه وإن كان خلا . وفر عنها فريدا بهمه وإن أستصحب خيلا ورجلا ،

ورأى حجرها فقدر أنه لا يُفكُّ له حجر، وسوادها فظن أنه لا ينسخه بحر، وحمية أنف
أفقيها فأعتقد أنه لا يستجيب لزجر، من ملوك كنهم قد طوى صدره على القليل
إلى مؤردها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يقز بما أمل من سؤال معدها. .
وقال من أخرى يصفها :

« ... وهي العقيلة التي صدر الصدور الأول محلاً عن وِردِها، والطريدة التي حصل
منها على راحة يأسه وتعب طردِها ، والمحجبة التي كشفت ستورها، ودار لمصمتها
كسوار مغمضها سُورها، وغلت على أنها السوداء على خطابها لأن المهج مُهورها ؛
ولربما نأى بجانها الإعراض، ونبأ جوهرها عن الأعراض . وطاشت دون أوصافها
بسهام الأعراض ؛ ودرجت الملوك على حشرتها فلم تحسرها لئاماً، وما استطاعت
لتغرها ثلماً ولا له الثاماً . »

وقال من أخرى يصف قلعة نجم ، وهي من عيون الرسائل . جاء منها :

« ... هي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب ؛ وهامة لها الغمامة عمامه ، وأنملة إذا
حَضَبها الأصيل كان الهلال لها قلامه . عاقدة حُبوة صالحها الدهر أن لا يحلها
بقرعه ، بادية عصمة صالحها الزمن على أن لا يروّعها بجلعه ؛ فاكتفت بها عقارب
متجنقات لم تُطع طبع حصّ في العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة
المعلومة في الأقارب ؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة جديراً بضرها ،
ولم يصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بتقبها ؛ فاتسع الحرق على الرافع . وسقط سعده
عن الطالع ، إلى مولد من هو إليها طالع ؛ وفتحت الأبراج فكانت أبواباً ، وسيرت
الجبال فكانت سراًباً . »

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس ، جاء منها :

« ... زاول المدينة من جانب ، فاذا هو أودية عميقة : ولجج وغير غريقة ؛
وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار ؛
وقدم المنجنيقات التي تتولى عقاب الحصون عصيها وحبالها ، وأوترلم قسيها التي
تضرب ولا تفارق سهامها ولا سهامها نصالها ؛ فصاحت السور فإذا سهامها في ثنابا شرفاتها
سواك ، وقدم النصر بشرى من المنجنيق تحلده إخلاده إلى الأرض وتعلو علوه إلى
السمك ؛ فشج مرابع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ، ورفع مئثار عجاجها ؛
وأسفر النقاب عن الخراب النقاب ، وأعاد الحجر إلى خلقته الأولى من التراب ؛
ومضغ سرد حجارته بانياب مغوله ، وأظهر من صناعته الكثيفة ما يدل على لطافة
أمله ، وأسمع الصخرة الشريفة أئبته إلى أن كادت ترق لمقتله . »

وقال أيضا من أخرى :

« ... فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماؤها نبل الوبال ، وتملأ أرضها بالنكابة
والنكال ، وتهد بساريات حجارتها راسيات الجبال ؛ وتزير نوازل الأسواء بالأسوار ،
وتوسع مجال الدوائر في الديار ، وتخطف بخطافاتها أعمار الأعمار ؛ وتطير حمامها بكئيب
الحمام ، وتديم إغراء سهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام ؛ وكشف النقابون نقاب
السور المحجوج المحجوب ، فهدم بنيانه ، وتداعت أركانه ، بتظاهر المنجنيقات عليها
والنقوب . »

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال :

« فسأمت كأنها بنان ، ونضنضت كأنها لسان ، وأطت كأنها مرنان ، وأهترت كأنها
جان ، وتقومت كأنها سنان ، وأنعطفت كأنها عنان ، وأقدمت كأنها شجاع وأحجمت

كانها جبان . ورمّت رءوسهم الموقرة من أحجارها بأمثال الرموس المحلقة ، فأعادتهم
إلى الحلقة الأولى محلقة وغير محلقة . »

ووصف النامى المنجنيق فقال :

وِحْصِنِ زِيَادِ عُدْوَةِ السَّبْتِ نَافِئًا * سِيمَامَا ، أَرَاكَ ابْنَ الْأَرَامِ أَرْقَا .

نَصَبْتُ لَهُ فِي الْأَرْضِ بَيْتَ حَدِيثَةٍ * تَمُدُّهَا فِي الْحَوْكِ كَفًّا وَمِعْصَمَا .

لَهَا أَخْوَاتٌ لِلنَّيَا كَوَامِنٌ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا أَضْمَرْتَهُ مَكْتَمَا .

عَدَّارِي ، وَلَكِنْ قَدْ وُجِدْنَ حَوَامِلًا * بَعْرَسُ تَرَاهُ لِلْجِنَادِلِ مَا تَمَّا .

تَرَى الصَّخْرَ فِيهِ الصَّخْرُ وَهُوَ نَسِيْبِهِ * عُدُّوْا بِيَوْمِ أَرْضِهِ تَمَطِّرُ السَّمَاءُ .

إِذَا أَقْعَدْتَ جُدْرًا قِيَامًا ، رَأَيْتَهَا * تُنَبِّهُ قِيَعَانًا مِنَ التُّرْبِ نُومًا !

ومما وصفت به المعادل والحصون نظما .

فن ذلك قول كعب الأشقرى ، يصف قلعة :

مُحَلَّقَةٌ دُونَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا * غَمَامَةٌ صَيْفٍ زَالَ عَنْهَا سَحَابُهَا .

وَلَا يَبْلُغُ الْأَرْوَى شِمَارِيحَهَا الْعُلَى ، * وَلَا الطَّيْرُ إِلَّا نَسْرُهَا وَعُقَابُهَا .

وَلَا خُوفَتُ بِالذَّنْبِ وَوَلَدَانُ أَهْلِهَا ، * وَلَا تَبَحَّتْ إِلَّا النُّجُومَ كِلَابُهَا .

وقال أبو تمام ، يصف عمورية :

وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَعَيْتُ رِيَاضَتُهَا * كِسْرِي وَصَدَّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرْبِ .

بِكْرٌ ، فَاسْتَقْرَعَتْهَا كَفٌّ حَادِثَةٍ * وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النَّوْبِ .

مِنْ عَهْدِ إِسْكَانْدِرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَقَدْ * شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَسِبْ !

وقال الخالديان :

وَحَلَفَاءَ قَدْ تَاهَتْ عَلَى مِنْ يَوْمِهَا * بِمَرْقَبِهَا الْعَالِي وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ .

يُزْرُ عَلَيْهَا الْجَوْجِبَ نَعْمَايِهِ * وَيُلْبِسُهَا عَقْدًا بِأَنْجَبِ الشَّهْبِ .
 إِذَا مَا سَرَى بَرَقُ ، بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ * كَمَا لَاحَتْ الْعَدْرَاءُ مِنْ خِلَالِ الْمَجْبِ .
 سَمَوْتَ لَهَا بِالرَّأْيِ : يُشْرِقُ فِي الدُّجَى ، * وَيَقْطَعُ فِي الْحُلَى ، وَيَصْدَعُ فِي الْمَهْضِبِ .
 فَأَبْرَزَتْهَا مَهْتُوكَةَ الْجَيْبِ بِالْفَنَاءِ * وَغَادَرَتْهَا مَلْصُوقَةَ الْحَدِّ بِالْتَرَبِ !
 وقال أيضا في قلعة :

وَقَلْعَةٍ عَاتِقَ الْعَبُوقِ سَافِلَهَا ، * وَجَارِ مَنْطِقَةَ الْجَوْزَا أَعَالِيهَا .
 لَا تَعْرِفُ الْقَطْرَ ، إِذْ كَانَ الْغَنَامُ لَهَا * أَرْضًا تَوَطَّأَ قُطْرِيهِ مَوَاشِيهَا .
 إِذَا الْغَنَامَةُ لَاحَتْ ، خَاضَ مَا كُنْهَا * حِيَاضَهَا قَبْلَ أَنْ تَهْتَمِيَ عِزَّيَا .
 يُعَدُّ مِنَ النِّجْمِ الْأَفْلَاكِ مَرْقَبَا ، * لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَحْسِرِي فِي مَجَارِيهَا .
 عَلَى دُرَى شَامِيخٍ وَعَيْرٍ : قَدِ امْتَلَأَتْ * كِبْرًا يَدِ ، وَهُوَ تَمْلُؤُهَا بِهَا تَيْيَا .
 لَهُ عِقَابٌ : عِقَابُ الْجَوْحَانِمَةِ * مِنْ دُونِهَا ، فَهِيَ تَخْفَى فِي خَوَافِيهَا .
 وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَيَكْرِ تَحَامَتَهَا الْبُعُولُ مَخَافَةَ ، * قَدِ تَرَكْتَ مِنْ كَثْرَةِ الْمَهْرِ أَيَّامَا .
 مَمْنَعَةٌ لَمْ يَقْلُطِ الدَّعْرُ بِأَسْمِيهَا ، * وَلَمْ يَرَهَا فِي النَّوْمِ إِلَّا تَوْهَمَا .
 تَرَلُّ عِقَابُ الْجَوْعِ عَنْ شُرَفَاتِهَا ، * وَتَبْغِي إِلَيْهَا الرِّيحُ مَرْقِي وَسَلَمَا !
 وَيُسْمَعُ فِي الْأَفْلَاكِ صَبِيحَةُ دِيكِهَا ، * فَتَحْسَبُ دِيكَ الْعَرْشِ صَاحَ تَرَنَّمَا .
 عَجَّوزٌ تُرَى فِي صِحَّةِ الْجَنْمِ كَعِجَابِ ، * وَلَوْ أُرْخَتْ ، كَانَتْ مِنَ الدَّهْرِ أَقْدَمَا !
 تُوَارِي أَسَاسًا بِالنُّجُومِ مُؤَزَّرَا ، * وَتُبْرِزُ رَأْسًا بِالنُّجُومِ مَعْمَا .
 تُسَازِعُهَا الْأَرْضَ السَّمَاءُ وَتَدْعَى * لَدَيْهَا بِهَا حَقًّا لَهَا مُتَهَضَّمَا .
 وَتَحْسَبُهَا زُهْرُ الْكَوَاكِبِ كَوَيْكَا * هَوَى خَلْفَ شَيْطَانِ رَجِيمِ ، فَخِيَا !
 ٢٠

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الأول

(فيما وصفت به القصور والمنازل)

ولنبداً بذكر ما بناه المتوكل من القصور وما أنفق عليها، ثم نذكر ما قيل في وصفها، وما وُصفت به المنازل الخالية، وما قيل في حُبِّ الوطن .
فأما قصور المتوكل، فهي: الكامل، والجعفرى، وبركوانا، والعروس، والبركة، والحوسق، والختار، والغريب، والبديع، والصبيح، والملح، والقصر، والبرج، والمتوكلية، والقلاية .

حكى المؤرخون أنه أنفق في بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينا، ومائتا ألف ألف وثمانية وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم .

قالوا: وكان "البرج" من أحسنها . كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة عظيمة غشى ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرة من الذهب فيها طيور تصوت وتصفر سماها "طوبى" بلغت النقطة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار .

وقد وصفه الشعراء، فن ذلك قول السرى :

مجلس في فناء دجلة، يرتنا * ح إليه الخليع والمنسور .
طار في الهواء، فالبرق يسرى * دون أعلاه والحمم يطير .
فإذا الغيم سر، أسيل منه * حلل دون جذره وسور .
وإذا غارت الكواكب صباحاً، * فهو الكوكب الذي لا يغور!

(١) كذا بالأصل . وفي معجم باقوت "يزكوار" .

وقال أيضا :

مَنْزِلٌ كَالرَّبِيعِ حَلَّتْ عَلَيْهِ * حَالِيَاتُ السَّحَابِ عَقْدَ النَّطَاقِ .
يُمْتِعُ الْعَيْنَ فِي طَرَائِفِ حُسْنِ * نَهَامِي بِهَا عَنِ الإِطْرَاقِ .
بَيْنَ سَاجٍ كَأَنَّهُ ذَائِبُ النَّبْرِ * عَلَى مِثْلِ ذَائِبِ الأَوْرَاقِ .

وقال أيضا :

وَالْقَصْرِ يُبَيِّنُ عَنِ وَجْهِ الضُّحَى ، قَتْرَى * وَجْهَ الضُّحَى - عِنْدَ مَا أْبَدَى لَهُ - شَعْبَا .
بَيْتُ أَعْلَاهُ بِالْحَوْزَاءِ مُنْتَطِقَا ، * وَيَقْتَدِي بِرَدَائِ الغَيْمِ مَحْتَجِبَا !

وقال أبو سعيد الرستمي ، يصف دارا بناها الصاحب بن عباد :

وَسَامِيَةَ الأَعْلَامِ تَلْحُظُ دُونَهَا * سَنَا النُّجْمِ فِي آفَاقِهَا مُتَضَايِلَا .
نَسَخَتْ بِهَا إِيوَانَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ ، * فَاصْبَحَ فِي أَرْضِ المَدَائِنِ عَاطِلَا .
فَلَوْ أَبْصَرْتَ ذَاتَ العِمَادِ عِمَادَهَا ، * لِأَمَسْتَ أَعَالِيهَا حَيَاً ، أَسَافِلَا .
وَلَوْ لَحِظْتَ جَنَاتُ تَدْمَرَ حُسْنَهَا ، * دَرَّتْ كَيْفَ تَبْنِي بَعْدَهُنَّ المَجَادِلَا .
مَتَى تَرَاهَا حَلَّتْ السَّمَاءُ سُرَادِقَا * عَلَيْهَا وَأَعْلَامَ النُّجُومِ تَمَائِلَا .

وقال علي بن يوسف الإباضي ، يذكر دارا بناها المعز الميدي بمصر وسمها

”العروسين“ :

بَنَى مَنظَرًا يُسَمَّى ”العُرُوسِينَ“ رِفْعَةً ، * كَأَنَّ الثَّرِيًّا عَرَسَتْ فِي قِبَايِهِ .
إِذَا اللَّيْلُ أَخْفَاهُ بِمُلْكَةِ لَوْنِهِ ، * بَدَأَ ضَوْؤُهُ كَالْبَدْرِ تَحْتَ سِتَابِيهِ .
تَمَكَّنَ مِنْ سَعْدِ السُّعُودِ مَحَلَّهُ ، * فَأَصْحَى وَمِفْتَاحُ النِّسْيِ فَتُحُّ بَائِدِ .
وَلَوْ شَادَهُ عَزَمَ المَعِزُّ وَرَأْيَهُ * عَلَى قَدْرِهِ فِي مُلْكِهِ وَنِصَائِيهِ .
لَكَانَ حَصَى البَاقُوتِ وَالتَّبْرِ مُفْرَعًا * عَلَى المِسْكَ مِنْ أَجْرِهِ وَتَرَائِيهِ .

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي، يصف دارا بناها المعتمد بن عباد من أبيات:

ويا حَبَّذا دارَ قَضَى اللهُ أَنها * يُحَدِّدُ فيها كُلَّ عِزٍّ ولا يَبِيلُ!

وما هِيَ إلا خِطَّةُ المَلِكِ الَّتِي * يُحِطُّ إِلَيْها كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَحَلا.

إِذا فَتِحَتْ أَبوابُها، خِلَتْ أَنها * تَقُولُ بِتَرْجِيْبٍ لِدَخالِها: أَهلاً.

وقَد نَقَلتْ صُناعُها مِن صِفاتِهِ * إِلَيْها أَفانِيناً، فَأَحَسَنَتِ النِّقَلا.

فَمَن صَدَرِهِ رُحبا، وَمَن نُورِهِ سَناءُ، * وَمَن صِيتِهِ قَرعا، وَمَن حِلْمِهِ أَصْلا!

فأَعَلتْ بِهِ في رُتَبَةِ المُلِكِ نَاديًا، * وَقَلَّ لَه فَووقَ السَّمائِكِينِ أَن يُعْلَى.

نَسِيتَ بِهِ إِيوانَ كِسرى، لِأَنِّي * أَرأُهُ لَه مَواليَ مِنَ الحُسنِ لا مِثْلا.

تَرى الشَّمسَ فِيهِ لِقَعةً تَسْمِدُها * أَكُفَّ، أَقامتْ مِن تَصابِيرِها شِكْلا.

لِها حَرَكاتٌ أُودِعَتْ في سُكونِها، * فَما تَبَعَتْ مِن نَقْلِهِنَّ يَدَّ رِجْلا.

ولِما عَشِينا مَن تَوَقَّدُ نُورِها، * نَحِذُنا سَناءُ في نَواظِرِنا كُحْلا.

وقال أيضا من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور بجاية، جاء منها:

وأَعْمُرُ بِقَصرِ المُلِكِ نَاديكَ الَّذِي * أَضْحَى بِجَدِّكَ بَيْتَهُ مَعْمُورا!

قَصرٌ لو أَنكَ قَد حَكَلتْ بُنُورَهُ * أَعْمى، لَعادَ عَلى المَقامِ بِصِيرا.

وأَسْتَقُّ مِن مَعنى الحِياةِ نَسِيمَهُ، * فيكَادُ يُحَدِّثُ لِلِعِظامِ نُسُورا.

فَلَو أَنَّ بِالِإِيوانِ قُوبِلَ حُسنُهُ، * ما كانَ شَيْئاً عِندَهُ مَذْكوراً.

نُسيَ "الصَّبِيحُ" مَعَ "المَلِيحِ" بِذِكرِهِ، * وَسَمّا فِفاقَ "خُورنَقا" و"سَدِيرا".

أَعَيْتَ مَطالِعَهُ عَلى الفُرسِ الألى * رَفَعُوا البِناءَ وَأَحْكَمُوا التَديِرا.

ومَضَتْ عَلى القَومِ الدُهورُ وما بَنَوا * لِلْمُلُوكِ كِهمَ شَبَهاً لَه وَظَديرا.

أَذْكَرَتِنا الفِرْدَوْسُ حينَ أَرَيْتَنا * غُرِّفا رَفَعَتِ بِنائِها، وَقُصُورا.

فَلَكَ مِنَ الْأَفْلاكِ ، إِلَّا أَنَّهُ * حَقَرَ الْبُدُورَ فَاطْلَعَ "الْمَنْصُورًا".
 أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظُرًا * ثُمَّ أَنْتَهَيْتُ بِبَانِطِرِي مَحْشُورًا.
 وَظَنَنْتُ أَنَّي حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ * لَمَّا رَأَيْتُ الْمَلِكَ فِيهِ كَيْبَرًا.
 وَإِذَا الْوَلَائِدُ فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا ، * جَعَلْتَ تُرْحَبُ بِالْعَفَاةِ صَرِيرًا.
 عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِيهِنَّ ضَرَاغِمٌ * فَفَرَّتْ بِهَا أَفْوَاهَهَا تَكْشِيرًا.
 فَكَانَهَا لَبَدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْدَهَا * مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهِ مَأْمُورًا.
 تَجْرِي الْخَوَاطِرُ مُطْلَقَاتٍ أَعْيَةً * فِيهِ ، فَتَكْبُو عَنْ مَدَاهُ قُصُورًا.
 بِمَرْخَمِ السَّاحَاتِ تَحْسَبُ أَنَّهُ * فَرَشَ الْبَهَا وَتَوَشَّعَ الْكَافُورًا.
 وَمُحْصَبٍ بِالذَّرِّ تَحْسَبُ تَرْبَهُ * مِسْكًَا تَصَوَّعَ نَشْرَهُ وَعَيْبَرًا.
 يَسْتَخْفِلُ الْإِصْبَاحُ مِنْهُ إِذَا أَنْقَضَى * صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الظَّلَامِ مُنِيرًا.
 صَحَّكَتْ عَمَاسِنُهُ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا * جُعِلَتْ لَهُ زُهْرُ النُّجُومِ نُفُورًا.
 وَمُصَفَّحَ الْأَبْوَابِ تَبْرًا نَظَرُوا * بِالنَّقْشِ بَيْنَ سُكُوكِهِ تَنْظِيرًا.
 تَبْدُو مَسَامِيرُ النُّضَارِ كَمَا عَلَتْ * فَلَكَ التُّهُودِ مِنَ الْحِسَانِ صُدُورًا.
 خَلَمَتْ عَلَيْهِ غَلَائِلًا وَرَسِيَّةً * شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرًا.
 فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ حُسْنِهِ ، * أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرًا.
 وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي * حَامَتْ لِتَبْنِي فِي ذُرَاهِ وَكُورًا.
 وَضَعْتَ بِهِ صُنَاعَهُ أَقْلَامَهَا ، * فَارْتَكُ كُلُّ طَرِيدَةٍ تَصُورًا.
 فَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لَيْقَةٌ * مَشَقُّوا بِهَا التَّرْوِيقَ وَالتَّشْجِيرًا.
 وَكَأَنَّمَا فَرَّشُوا عَلَيْهِ مَلَامَةً * تَرَكُّوا مَكَانَ وَشَاحِهَا مَقْصُورًا.
 يَا مَلِكَ الْمُلْكِ الَّذِي أَحْمَى لَهُ * مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى الْمُدَاةِ نَصِيرًا .

كَمْ مِنْ قُصُورٍ لَأُلُوكِ تَقَدَّمَتْ * فَاسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ النَّاخِرَا .
فَعَمَّرْتَهَا وَمَلَكَتْ كُلَّ رِيَّاسَةٍ * مِنْهَا ، وَدَمَّرْتَ الْعِدَا تَدْمِيرَا .

وقال عمارة النخعي ، يصف دارا بناها فارس الإسلام من أبيات :

فَمَلَّ دَارًا شَيْدَتْهَا هَمَّةٌ ، * يَغْدُو الْعَسِيرُ بِأَمْرِهَا مَتَيْسِرَا .
فَأَقَّتْ عَلَى الْإِطْلَاقِ كُلَّ بَيْتِيَّةٍ ، * وَسَمَتْ بِسَعْدِكَ عِزَّةً وَتَكْبَرَا .
أَنْشَأَتْ فِيهَا لِلْعَيْوَنِ بَدَائِعَا * دَقَّتْ ، فَأَذْهَلَ حُسْنُهَا مَنْ أَبْصَرَا .
فِيَنَّ الرَّحَامِ : مُسِيرَا ، وَمَسْمَمَا ، * وَمَنْمَمَا ، وَمُدْرَهَمَا ، وَمُدْرَا .
وَسَقَيْتَ مِنْ دَوْبِ النَّضَارِ سُقُوفَهَا * حَتَّى يَكَادُ نُضَارُهَا أَنْ يَقْطُرَا .
لَمْ يَبْقَ نَوْحٌ صَامِتٌ أَوْ نَاطِقٌ * إِلَّا غَدَا فِيهَا الْجَمِيعُ مُصَوَّرَا .
فِيهَا حَدَائِقُ لَمْ تَجْهَدْهَا دَيْمَةً ، * كَلَّا وَلَا نَبَتَتْ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى .
لَمْ يَبْدُ فِيهَا الرُّوْضُ إِلَّا مُزْهِرَا ، * وَالنَّجْلُ وَالرَّمَانُ إِلَّا مُثْمِرَا .
وَالطَّيْرُ مُدُّ وَقَعَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا * وَتَمَارِهَا ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْفِرَا .
وَبِهَا مِنْ الْحَيَوَانِ كُلِّ مُشْبِهٍ (١) * لَيْسَ الْحَرِيرُ الْعَبْقَرِيُّ مُصَوَّرَا .
لَا تَعْدَمُ الْأَبْصَارُ بَيْنَ مَرُوجِهَا * لَيْثًا وَلَا ظِيًّا بِوَجْهَةِ أَعْفَرَا .
أَنْسَتْ نَوَافِرُ وَحْشِهَا لِسَبَاعِهَا : * فَظَبَاؤُهَا لَا تَنْتَقِي أَسَدَ الشَّرَى .
وَكَأَنَّ صَوْلَتَكَ الْحَيْفَةَ أَمَنْتَ * أَسْرَابَهَا أَنْ لَا تَخَافَ فِتْدَعْرَا .
وَبِهَا زَرَافَاتٌ كَأَنَّ رِقَابَهَا * فِي الطُّولِ أَلْوِيَّةٌ تَوْمُ الْعَسْكَرَا .
نُوبِيَّةُ الْمَنْشَا تُرِيكَ مِنَ الْمَهَا * رَوْقًا ، وَمِنْ بُزْلِ الْمَهَارِي مِشْقَرَا .
جِيلَتْ عَلَى الْإِقْعَاءِ مِنْ أَعْجَازِهَا ، * فَتَخَالُهَا فِي التَّبِيهِ تَمَشِي الْقَهْقَرَى !

(١) في الأصول "سبين" . ولعلها تصحيف .

وقال أبو الصلت أُمَيَّة بن عبد العزيز، يصف قصرا بناه علي بن نعيم بن المعز بمصر:

لِللَّهِ، مَجْلِسُكَ الْمُنِيفُ ! فَبَابِهِ * بِمَوْطِدِ فَوْقِ السَّمَاءِ مُؤَسِّسٌ .
 مُوْفٍ عَلَى حُبِّكَ الْمَجْرَةَ تَلْتَقِي * فِيهِ الْجَوَارِي بِالْجَوَارِ الْكُنُوسِ .
 تَتَقَابَلُ الْأَنْوَارُ فِي جَنَابَتِهِ * فَالْلَيْلُ فِيهِ كَالنَّهَارِ الْمُشْمِسِ .
 عَطَفَتْ حَنَائِيهِ دُوَيْنَ سَمَائِهِ * عَطَفَ الْأَهْلَةَ وَالْحَوَاجِبَ وَالْقَيْسِي .
 وَأَسْتَشْرَفَتْ عَمَدَ الرُّخَامِ وَظُوهِرَتْ * بِأَجَلِّ مِنْ زَهْرِ الرَّبِيعِ وَأَنْفَسِي .
 فَهَوَاؤُهُ مِنْ كُلِّ قَدِّ أَهْيَفٍ، * وَقَرَّارُهُ مِنْ كُلِّ خَدِّ أَمْلَسِي .
 فَكَفُّ تَحْيِيرٍ فِيهِ كُلُّ مُنَجِّمٍ، * وَأَقَرُّ بِالْتَقْصِيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِي .
 فَبَدَأَ لِللَّغْظِ الْعَيْنِ أَحْسَنَ مَنَظَرًا، * وَغَدَا لِطَيْبِ الْعَيْشِ خَيْرَ مَعْرَسِي .
 فَاطَّلَعَ بِهِ قَرَاءً، إِذَا مَا أَطْلَعَتْ * شَمْسُ الْخُدُورِ عَلَيْكَ شَمْسُ الْأَكْبُوسِ .
 فَالنَّاسُ أَجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رُتَبَةً، * وَالْأَرْضُ أَجْمَعُ دُونَ هَذَا الْمَجْلِسِ !

وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أُمَيَّة :

يَادَارُ، آمَنَكِ الزَّمَانُ * نُبَّ حُطُوبَةٍ وَنَوَائِبِهِ .
 وَجَرَّتْ سَعُودُكَ بِالَّذِي * يَهْوَى نَزِيلِكِ دَائِبِهِ .
 فَلَنِعَمَ مَا أوى الضَّيْفِ أَنْسَتِ، إِذَا تَحَامَوْا جَانِبِهِ .
 خَطَرٌ شَاوَتْ بِهِ الدَّيَا * رَهْ، فَادْعَنْتِ لَكَ قَاطِبِهِ .

وقال أبو صخر القرطبي :

دِيَارٌ عَلَيْهَا مِنْ بَسَاشَةِ أَهْلِهَا * بَقَايَا، تَسْرَتِ النَّفْسَ أَنْسَا وَمَنْظَرًا .
 رُبُوعٌ كَسَاهَا الْمَزْنُ مِنْ خَلَعِ الْحَيَا * بَرُودًا، وَحَلَّاهَا مِنَ النُّورِ جَوْهَرًا .

وقال الشريف الرضى :



مازلتُ أطرقُ المنازلَ باللَّوى * حتى نزلتُ منازلَ الثَّمانِ .
 بالحِيرةِ البيضاءِ حيثُ تقابلتُ * شُمَّ العبادِ، عَرِيضَةَ الأَعْطانِ .
 شهدتُ بفضْلِ الرَّافِعِينَ قباها . * وبينَ البُنَيانِ فَضْلَ الباني !
 ما يَنْفَعُ الماضِينَ أنْ بَقِيَتْ لهم * خِطَطُ مُعَمَّرَةٍ بِمُغْرِباني !

وأما ما وُصفتُ به المنازلُ الخالية

فمن ذلك ما قاله البحري يسير إلى "الكِرمان" الذي بناه كسرى أنوشروان من أبيات :

فَكَانَ الكِرمانَ من عَدَمِ الأُنسِ وإخْلانِهِ بِنِيَّةِ رَمْسِ .
 لو تراه ، عَلمتَ أنَّ اللَّيالي * خَلَعَتْ فيه ما مَما بعد عُرْسِ .
 وهو يُنْبِئُكَ عن عَجائبِ قَويمِ ، * لا يُشَابُ اللَّيالي فيها بلبسِ .
 وإذا ما رأيتَ صُورَةَ أنطِساكيةَ ، آرتعتَ بينَ رُومِ وفُرسِ .
 والمَناسِيا مَوائِلَ * وأنوشروانُ يُزِحِي الصُّفوفَ تحتَ الدَّرَفْسِ !

وقال أيضا من قصيدة يرثي فيها المتوكل ، ويذكر قصره "الجعفرى" :

مَحَلٌّ على القاطولِ أخلَقَ دارُهُ ، * وعادتُ صُروفُ التَّهْرِجِ جِيشًا تَعاوِرُهُ .
 كانَ الصَّبَابُ تَوفِي تَدُورا ، إذا أنبَرَتْ * تَجَرُّهُ أذيانَها وتَباكِرُهُ .
 وربُّ زَمانِ ناعِمٍ تَمَّ عَهْدُهُ ، * تَرَقُّ حَواشِيهِ ويونقُ ناظِرُهُ .
 تَغَيَّرَ حُسنُ "الجَعْفَرِيِّ" * وأنسَهُ ، * وقوَضَ يادِي "الجَعْفَرِيِّ" وحاضِرُهُ .
 تَمَحَّلَ عنه ساكنوه بقاءَهُ ، * فعادتُ سَواءُ دُورِهِ ومقارِبُهُ .
 إذا تَمَحَّنَ زُرناهُ ، أجدُ لنا الأسي ؛ * وقد كان قَبْلَ اليَومِ يهيجُ زائِرُهُ .

ولم أنس وحش القصرِ اذِ ربيعِ سرُّبه، * وإذ دُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَاذِرُهُ.
 وإذ صَبِحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَّكَتْ * على عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَرَّارُهُ.
 وأَوْحَشَهُ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ * أَيِسُّ، وَلَمْ تَحْسُنْ لَعَيْنِ مَنَاطِرُهُ.
 كَأَنَّ لَمْ تَبْتَ فِيهِ الْخِلَافَةَ طَلْقَةً * بِشَاسْتِهَا، وَالْمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهُ.
 وَلَمْ تَجْمَعِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بَهَاءَهَا * وَبَهْجَتِهَا، وَالْعَيْشُ غَضُّ مَكَايِرُهُ.
 فَأَيْنَ الْمَجَابُّ الصَّعْبُ حَيْثُ تَمَنَعَتْ * بَهَيْتِهَا أَبْوَابُهُ وَسَتَاثِرُهُ؟
 وَأَيْنَ عَمُودُ الْمُلْكِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ * تَتُوبُ، وَنَاهِي الذَّهْرِ فِيهِ وَأَمْرُهُ؟
 وقال عمر بن أبي ربيعة :

يَادَارُ، أُمْسِي دَارِيسَا رَسْمُهَا * وَحَشَا قِفَارًا مَا بِهَا أَهْلُ.
 قَدْ جَزَتْ الرِّيحُ بِهَا ذَيْلَهَا، * وَأَسْتَنَّ فِي أَطْلَالِهَا الْوَالِيُ.
 وقال شاعر أندلسي :

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانُوا : * أَيْنَ سُكَّانِكِ الْكِرَامُ لَدَيْنَا؟
 فَجَابَتْ : هُنَا أَقَامُوا قَلِيلًا * ثُمَّ سَارُوا، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا!
 وقال عبد الله بن الخطيب الأندلسي :

يَادَارَ عَلْوَةَ، فَدَهَيْجَتِ لِي شَجْعَنَا * وَزِدْتِنِي حَزَنًا! حُبَيْتِ مِنْ دَارِ!
 كَمِيتُ فِيكَ عَلَى اللَّذَاتِ مُعْتَكِفًا، * وَاللَّيْلُ مُدْرِعٌ نَوْبًا مِنَ الْقَارِ!
 كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي الْمَسْجِ مَلْتَحِفٌ، * شَدَّ الْمَجْرُلَ وَسَطًا بُنَّارِ!
 وقال أبو حامد أحمد الأنطاكي :

إِنَّ رَبْعًا عَرَفْتَهُ مَالُوفًا * كَانَ لِلْبَيْضِ مَرَبَعًا وَمَصِيفًا.
 غَيَّرْتُ آيَهُ صُرُوفُ اللَّيَالِي، * وَغَدَاً عَنْهُ حُسْنُهُ مَضْرُوفًا.

ما مررنا عليه ، إلا وقفنا * وأطلقنا شوقاً إليه الوقُوفاً .
 آلفاً للبكاء فيه ، كأني * لم أكن فيه للغواني أليفاً .
 حاسداً للجفون لما أذالت * في معانيه دمعها المذروفاً !

وقال الشريف الرضي من أبيات :

ولقد رأيت بدير هنيئ منزلاً * المأ من الضراء والحدنان !
 بالي المعالم ، أطرقت شرفاته * إطراق مُنجذب القرينة عاني .
 أمقاص الغزلان ، غيرك البلي * حتى غدوت مراتع الغزلان !
 وملاعب الأنيس الجميع طوى الردى * منهم ، فصرت ملاعب الجنان !

وقال أبو الحسن علي القابوسي ثرا :

« قد كان منزله مألف الأضياف ، ومأنس الأشراف ؛ ومُنتجع الركب ، ومقصد
 الوفد ، فاستبدل بالأنس وحشه ، وبالنضارة غُبره ، وبالضياء ظلمه ، واعتاض
 من تراحم المواكب . بالأدم النوادي ؛ ومن ضجيج النداء والصهيل ، عجيج البكاء
 والعيول » .

ومن رسالة لضيء الدين بن الأثير الجزري ، جاء منها :

« ... دار لعبت بها أيدي الزمن ، وفترت بين الساكن والسكن . كانت
 مقاصير جنه ، فأضحت وهي ملاعب جنه . ولقد عميت أخبار قطانها ، وعفت
 آثارها آثار وطانها ، حتى شابهت إحداهما في الحفا ، الأخرى في العنا . وكنت
 أظن أنها لا تُسقى بعدمم بغام ، ولا يُرفع عنها جلباب ظلام ؛ غير أن السحاب بكاهم
 وأجرى بها سوافح دموعه ، والليل شق عليهم جيو به فظهر الصباح من خلال
 صدوعه » .

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الرومي (وهو أول من بين السبب في حب الوطن) :
 ولي منزل ، آليت أن لا أبيعهُ * وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا!
 عهدتُ به شرخ الشباب ونعمة * كنعمة قوم أصبحوا في ضلالكا.
 فقد أفتسه النفس حتى كأنهُ * لها جسد ، إن غاب غودرتُ هالكا.
 وحبب أوطان الرجال إليهم * ما رب قضاها الشباب هالكا.
 إذا ذكروا أوطانهم ، ذكرتهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلك!

ذكر شيء مما قيل في الحمام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :
 أهلاً بييت النار من منزل * سيد الأبرار وبخار!
 يدخله ملتئم لذة * فيدخل الجنة في النار!
 وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسي :
 نعم - أبا عامر بلذته * وأعجب لأمرين فيه قد جمعا!
 يرئنه من زنادكم فحدث ، * وماؤه من بسانكم تبعاً!
 وقال علي بن عطية البلنسي :
 رب حمام تلطي * كتلطي كل وامق .
 ثم أذرت عبرات * صوبها بالوجد ناطق .
 ففدا مني ومنه * عاشق في جوف عاشق!

وقال أبو طالب المأموني ، شاعر اليمامة :
 وبيت كأحشاء المحب دخلته * ومالي ثياب فيه غير إهابي .

أرى مُحَرَّمًا فِيهِ وَليْسَ بِكُفْيَةٍ . قَمَاسَاغٌ إِلَّا فِيهِ خَلَعُ نِيَابِي .
بِمَاءٍ كَدَمَعَ الصَّبِّ فِي حَزَقَلْبِهِ * إِذَا آذَنْتَ أَحْشَاؤُهُ بَدَهَابِ .
تَوَهَّمْتُ فِيهِ قِطْعَةً مِنْ جَهَنَّمَ * وَلَكِنَّهَا مِنْ غَيْرِ مَسِّ عِقَابِ .
يُشِيرُ ضَابَا بِالْبُخَارِ مُجَدَّلًا * بُدُورُ زُجَاجٍ فِي سَمَاءِ قِيَابِ !

وقال آخر:

إِنَّ حَمَامَكَ هَذَا * غَيْرُ مَذْمُومٍ الْجَوَارِ .

مَا رَأَيْتَا قَبْلَ هَذَا * جَنَّةً فِي وَسْطِ نَارِ !

وأشدني جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه :

قَالُوا: نَرَاكَ دَخَلْتَ حَمَامًا، وَمَا * حَلَفَ الْهُوَى يَلْتَذُّ بِالْأَهْوَاءِ .

فَاجِبْتُهُمْ: لَمْ تَكْفِ أَدْمَعُ مَقْلَتِي * حَتَّى بَكَيْتُ بِجَمَلَةِ الْأَعْضَاءِ .

تم السفر الأول

(نسخة ما هو مكتوب في آخر الأصل بخط المؤلف)

نجز السفر الأول من "كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب" على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي ، عرف بالنويري عفا الله عنه ، ووافق الفراغ من كتابته في يوم السبت المبارك لعشر بقين من ذي القعدة عام إحدى وعشرين وسبعمائة أحسن الله تقضيه ، وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعالى في أول السفر الثاني "الفن الثاني في الإنسان وما يتعلق به" والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه وسلم آمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فهرس الأرب

السفر الأول

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للسوري

صفحة

مقدمة الكتاب ١

الفن الأول

في السماء والآثار العلوية، والأرض، والمعالم السفلية ٢٧

القسم الأول

في السماء وما فيها، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

مبدأ خلق السماء ٢٨

ذكر ما قيل في أسماء السماء وخلقها ٢٩

« ما حكى في سبب حلولها ٢٩

الباب الثاني :

في هيئة السماء ٣٠

في الأمثال التي ورد فيها ذكر السماء ٣٢

في وصف السماء وتشبيهها ٣٣

ما قيل في الفلك ٣٤

صفحة

الباب الثالث :

٣٦ ... في ذكر الملائكة

الباب الرابع :

٣٨ ... في الكواكب السبعة المتحيرة

٤٠ ... ذكر ما قيل في الشمس

٤٢ ... ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس

٤٤ ... ما جاء في وصف الشمس وتشبيها

٤٦ ... شيء مما وصفت به على طريق الدم

٤٨ ... ما قيل في الكسوف

٤٨ ... أسماء الشمس اللغوية

٤٩ ... عباد الشمس

٤٩ ... ما قيل في القمر

٥٠ ... » » (من استهلاله الى اقضاء الشهر وأسماء ليليه)

٥١ ... أسماء القمر اللغوية

٥٢ ... ما يتمثل به مما فيه ذكر القمر

٥٣ ... ما قيل في وصف القمر وتشبيها

٥٦ ... شيء مما قيل فيه على طريق الدم

٥٧ ... عباد القمر

٥٨ ... ما قيل في الكواكب المتحيرة

٥٨ ... عباد الروحانيات

٦١ ... بيوت الهياكل وأما كنها ونسبتها الى الكواكب

الباب الخامس :

- ٦٣ في الكواكب الثابتة
٦٤ ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الكواكب
٦٥ ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

القسم الثاني

في الآثار العلوية، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

- ٧١ في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج والبرد
٧٢ ذكر ما قيل في ترتيب السحب، وأسمائه اللغوية وأصنافه
٧٤ » » في ترتيب المطر
٧٤ » » في فعل السحاب والمطر
٧٥ » أسماء أمطار الأزمنة
٧٥ » » المطر اللغوية
٧٧ » ما يمثل به مما فيه ذكر المطر
٧٨ » شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر
٨٢ » ما ورد في وصفها ثرا
٨٦ » شيء مما وصف به الثلج والبرد

الباب الثاني :

- ٨٧ في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قزح

صيفة

الباب الثالث :

- في أسطقس الهواء ٩٥
- ذكر ما قيل في حد الهواء ٩٥
- « أسماء الرياح اللغوية ٩٨
- فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع ٩٩
- ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الهواء ٩٩
- « ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه ١٠٠

الباب الرابع :

- في أسطقس النار، وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران ١٠٣
- ذكر أسماء النار ١٠٤
- « عباد النار ١٠٥
- بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس ١٠٧
- ذكر نيران العرب ١٠٩
- « النيران المجازية ١١٤
- « النيران التي يضرب بها المثل ١١٦
- « ما جاء منها على لفظ أفعال ١١٦
- « ما قيل في وصف النار وتشبيهها ١١٧
- « شيء مما قيل في الشمعة والشمعدان، والسراج، والقنديل ١٢٠
- ماورد في وصفها نثرا ١٢٣
- ما قيل في السراج ١٢٤
- رسالة القنديل والشمعدان ١٢٤

القسم الثالث من الفن الأول

في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد،

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

- في الليالي والأيام... ١٣٠
- ذكر ما قيل في الليل وأقسامه... ١٣١
- فصل وقد عبر بالليالي عن الأيام ... ١٣٢
- ذكر الليالي المشهورة... ١٣٢
- » ما يمثل به مما فيه ذكر الليل ... ١٣٣
- » ما قيل في وصف الليل وتشبيهه... ١٣٤
- » ما وصف به الليل من الطول ... ١٣٥
- » » » من القصر... ١٤٠
- » » » من الإشراق ... ١٤٢
- » » » من الظلمة... ١٤٢
- » شيء مما قيل في تبشير الصباح ... ١٤٣
- » ما قيل في النهار... ١٤٧
- » الايام التي خصت بالذكر ... ١٤٨
- » أيام أصحاب الملل الثلاث ... ١٥٠
- » ما يمثل به مما فيه ذكر النهار ... ١٥٠
- » شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه ... ١٥١
- » » » وصفت به الآلات الموضوعه لمعرفة الأوقات ... ١٥٣

صفحة

الباب الثاني :

- في الشهور والأعوام ... ١٥٦
- ذكر الشهور وما قيل فيها ... ١٥٦
- « الأشهر العربية وما يختص بها من القول ... ١٥٧
- شهور اليهود ... ١٥٩
- الشهور العجمية ... ١٥٩
- ذكر ما يختص بالسنة من القول ... ١٦٤
- « النسيء ومذهب العرب فيه ... ١٦٥
- « السنين التي يضرب بها المثل ... ١٦٧

الباب الثالث :

- في الفصول وأزممتها ... ١٦٩
- ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظماً وثراً ... ١٧١

الباب الرابع :

- في ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب آتخانهم لها، وما قيل في ذلك ١٨٤
- ذكر الأعياد الإسلامية ... ١٨٤
- « أعياد الفرس ... ١٨٥
- « » التصارى القبط ... ١٩١
- « » اليهود ... ١٩٥

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون،
والغدران، وفيه سبعة أبواب

الباب الأول :

في مبدأ خلق الأرض ١٩٨

الباب الثاني :

في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، في الاتساع، والامتداد، والبعث،
والغلظ، والصلابة، والسهولة، والخزونة، والارتفاع، والانخفاض،

وغير ذلك ١٩٩

ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته ٢٠٢

» » » الغبار وأوصافه ٢٠٣

» » » الطين ٢٠٣

» » » الترمال ٢٠٤

» ترتيب كمية الرمل ٢٠٥

» تفصيل أسماء الطرق وأوصافها ٢٠٦

الباب الثالث :

في طول الأرض ومسافتها ٢٠٧

الباب الرابع :

في الأقاليم السبعة ٢٠٩

ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الأرض ٢١٣

» شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها ٢١٤

صفحة

الباب الخامس :

- ٢١٨ في الجبال
- ٢٢٠ ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض الى أن يبلغ الجبل
- ٢٢١ « ترتيب أبعاض الجبل »
- ٢٢٣ « مقادير الحجارة »
- ٢٢٦ « ما يمثل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة »
- ٢٢٧ « شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها »

الباب السادس :

- ٢٢٨ في ذكر البحار والجزائر
- ٢٢٩ ذكر بحار المعمور من الأرض
- ٢٣١ « ما يتفرع من البحر المحيط »
- ٢٣٥ « الخليجان التي تخرج من البحر الرومي »
- ٢٣٧ بحر الهند وجزائره
- ٢٤٣ ذكر خليجان البحر الهندي
- ٢٤٦ بحر مانيطش
- ٢٤٧ بحر الخزر وجزائره
- ٢٥٠ ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب
- ٢٥٤ « ما يمثل به مما فيه ذكر البحر »
- ٢٥٥ « شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه »
- ٢٥٦ « وصف به البحر والسفن »
- ٢٥٨ « ما وصفت به البحار والسفن ثرا »

الباب السابع :

في العيون والأنهار والندران وما وصفت به البرك ، والدوايب ،

- والنواعير، والحداول ٢٦١
- نهر النيل ٢٦٢
- » الفرات ٢٦٦
- » دجلة ٢٦٨
- » محبتان ٢٦٩
- » مهران ٢٧٠
- » جيحون ٢٧٠
- » سيحون ٢٧١
- » الكك ٢٧٢
- » الكر ٢٧٣
- » ائل ٢٧٣
- ذكر ما في المعمور من الأنهار والعيون التي يتعجب منها ٢٧٤
- » ما يمثل به مما فيه ذكر الماء ٢٧٧
- » شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه ٢٨١
- » » » وصف به الأنهار ٢٨٢
- » » » البرك ٢٨٥
- » » » الدوايب والنواعير ٢٨٨
- » » » » » ثرا ٢٨٩

- صفحة
 ٢٩٠ ذكر شيء مما وصفت به الجداول
 ٢٩١ « عبادة الماء »

القسم الخامس من الفن الأول

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة،
 والمعقل، وما وصفت به القصور والمنازل، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

- في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها ٢٩٢

الباب الثاني :

- في خصائص البلاد ٢٩٧

- مكة المشرفة ٢٩٧

- ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض ٢٩٨

- « بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام ومبدأ الطواف ... ٢٩٩

- « زيارة الملائكة البيت الحرام ٣٠٠

ذكر هبوط آدم عليه السلام الى الأرض، وبنائه الكعبة المشرفة وجهه

- وطوافه بالبيت ٣٠١

- ذكر فضل البيت الحرام، والحرم ٣٠٤

- « ما جاء في طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت ٣٠٧

- « من تحمير إبراهيم عليه السلام موضع البيت ٣٠٧

- « حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج وحج الأنبياء بعده وطوافهم ... ٣٠٨

ذكر ما جاء من مسألة إبراهيم عليه السلام الأمن والرزق لأهل مكة

- والكتب التي وجد فيها تعظيم الحرم ٣١١

- صحيفة
- ٣١٣ ذكر أسماء الكعبة ومكة
- ٣١٤ « ما جاء في فضل الركن الأسود
- ٣١٦ « « « أستلام الركن الأسود، واليماني
- ٣١٧ « « « الطواف بالكعبة
- ٣١٧ « « « زمزم
- ٣١٩ « « « من آتساع منى أيام الحج، ولم سميت منى
- ٣١٩ « « « في فضائل مقبرة مكة
- ٣١٩ « « « شىء من خصائص مكة
- ٣٢٠ المدينة المشرفة (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)
- ٣٢٣ ذكر شىء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها
- ٣٢٥ البيت المقدس، والمسجد الأقصى
- ٣٢٥ البدء بذكر الأرض المقدسة
- ٣٢٨ فضل بيت المقدس
- ٣٣٠ « زيارة بيت المقدس، وفضل الصلاة فيه
- ٣٣٢ ما ورد في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه
- ٣٣٢ فضل السكنى فيه والإقامة والوفاء به
- ٣٣٣ ما بييت المقدس من قبور الأنبياء، ومحراب داود وعين سلوان
- ٣٣٤ ماورد في أن الحشر من بيت المقدس
- ٣٣٥ « في فضل الصخرة والصلاة الى جانبها
- ٣٣٦ « في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس الى السماء

صحيفة	
٣٣٩	نواب الإهلال من بيت المقدس
٣٣٩	ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة
٣٤٠	اليمن وما يختص به
٣٤٠	الشام وما يختص به
٣٤٠	مسجد دمشق وما قيل فيه
٣٤٤	مصر وما يختص بها من الفضائل
٣٤٩	ذكر من ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كان بها منهم
٣٤٩	« كان بها من الصديقين والصديقات، رضى الله عنهم »
٣٥٠	« صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »
٣٥٠	« أظهرته مصر من الحكماء »
٣٥٤	ومن فضائل مصر
٣٥٧	ما وصفت به مصر
٣٥٨	جزيرة الأندلس
٣٥٩	البصرة وما أختصت به
٣٦٠	بغداد وما أختصت به
٣٦١	الأهواز وما أختصت به
٣٦١	فارس وما أختصت به
٣٦٢	أصفهان وما أختصت به
٣٦٢	جرجان وما أختصت به
٣٦٣	نيسابور وما أختصت به

صفحة

طوس وما أختصت به ٣٦٤

بلغ وما أختصت به ٣٦٤

بست وما أختصت به ٣٦٥

غزنة وما أختصت به ٣٦٥

بميجستان وما أختصت به ٣٦٦

الهند وما أختصت به ٣٦٦

الصين وما أختصت به ٣٦٦

سمرقند وما أختصت به ٣٦٧

بلاد الترك وما أختصت به ٣٦٧

خوارزم وما أختصت به ٣٦٨

ذكر الخصائص التي تجرى مجرى الطلسمات ٣٦٨

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة (وهي العلم، والعمل، والجواهر،

والملايس، والأوبار، والفرش، والمراكب، والحيوانات ذوات

السموم، والحلوى، والثمار، والرياحين، والخلق، والأخلاق،

والأمراض والآثار العلوية) ٣٦٩

الباب الثالث :

في المباني القديمة ٣٧٢

ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض ٣٧٢

» خبر إرم ذات العماد ٣٧٣

» خبر سدّ ياجوج وماجوج ٣٧٤

٣٧٩	ذكر مباني الفرس المشهورة
٣٨٠	من مباني الفرس إيوان كسرى
٣٨١	« المباني القديمة الحضر
٣٨٢	» » » القليس
٣٨٣	» » المشهورة قنطرة صنجة
٣٨٣	» » القديمة ملعبا بعلبك
٣٨٤	ذكر مباني العرب المشهورة
٣٨٤	غمدان
٣٨٥	حصن تيماء
٣٨٥	الخورق والسدير
٣٨٧	الغريان
٣٨٧	ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية
٣٨٨	الأهرام
٣٩٢	حائط العجوز
٣٩٣	ملعب أنصنا
٣٩٣	مدينة عين شمس
٣٩٤	البرابي
٣٩٥	حنية اللازورد
٣٩٥	منارة الاسكندرية

(ف)

من نهاية الأرب

صفحة

٣٩٨ رواق الإسكندرانيين

٣٩٨ ذكر شيء من مجائب المباني

الباب الرابع :

٤٠١ فيما وصفت به المعقل والحصون

الباب الخامس :

٤٠٦ فيما وصفت به القصور والمنازل

٤١٢ ما وصفت به المنازل الخالية

٤١٥ ذكر شيء مما قيل في حب الأوطان

٤١٥ » » » في الحمام

٤١٦ نسخة ما هو مكتوب في آخر الأصل بخط المؤلف

تم فهرس السفر الأول

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنورى